

ما يقوله القرآن
في سورة الحمد (الفاتحة)

ما يقوله القرآن في سورة
الحمد (الفاتحة)
من مفردات ولطائف وتعاليم
الجزء الثاني

الشيخ فاضل الصفار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

المبحث الرابع: في تعاليم الآية المباركة



وهي عديدة:

التعليم الأول: اشكروا الناس على فضلهم

إنّ الآية المباركة دالة على وجوب الحمد والشكر لله تعالى على نعمه، وتعلّم العباد كيف يحمدونه^(١)، كما تُعلّم الإنسان لدى تعامله مع الناس أموراً:

الأول: أن لا ينكر فضل أحد، فإذا وجد صفة حسنة في أخيه أو ابنه أو زوجه أو أي شخص آخر عليه أن يشيد بها، فلو سكت عنها في موقع استحقاقه للمدح كان من الجفاء، وفي بعض الموارد يكون من الخذلان، ولو انتقص منه بدلاً من المدح يكون قد ظلمه وبخسه حقه.

والثاني: أن لا ينكر فواضل أحد إذا قدّم خدمة أو أنجز شيئاً سواء كان له أو لغيره.

والثالث: أن لا يمدح أحداً إلا بما فيه، فالمدح بما ليس فيه كذب، كما أنّ عدم المدح لما فيه بخس، وعليه أن يراعي المدح بمقدار ما يستحق ولا يبالغ ولا يستقل؛ لأنّ المبالغة كذب، والاستقلال حرمان، فمن أسمى قيم

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٥٨.

الإنسانية أن يحبّ الإنسان المحاسن ويشيد بأهلها، كما أنّه من طرق نشر الصلاح وتعميمه حتى يتبدل من صفات شخصية إلى ظاهرة اجتماعية هو الإشادة بمحاسن الناس والإقرار بفضلهم، ولا قبح في حبّ الإنسان أن يشاد بمحاسنه، فإنّ هذا من النوازع الفطرية فيه، والقبح في حبه المدح بما لا يستحق، ونسبة المحاسن إليه وهو لا يتصف بها، وإليه يشير الباري عزّ وجلّ في الذين ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

ومقتضى المفهوم المخالف أنّ الذين يحبّون أن يحمّدوا بما فعلوا ليسوا في عذاب، و الآية نفت عنهم عذابين، والعذاب الأليم هو عذاب الآخرة، وهم موعودون به بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، والعذاب على الكذب والنفاق الذي يتضمنه المدح.

أمّا قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي بنجاة ومخلص من العذاب، والمفرد المحلّ باللام يفيد العموم، فيشمل كل أنواع العذاب، بما فيه الروحي والاجتماعي في الدنيا.

فإنّ الإنسان على نفسه بصيرة، وضميره يذمه ويلومه على تحصيل أمر لا يستحقه حتى في مثل المدح، ويشعره بالنفاق وغيره من الرذائل؛ لأنّه نال شرفاً لا يستحقه، فلا يحسبنّ الإنسان أنّ الذين يحبّون التظاهر والمدح وتلميع الصورة بواسطة وسائل الإعلام ونحوها وهم لا يستحقون في

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

راحة، بل هم في عذاب روحي شديد، كما أنَّهم في عزلة اجتماعية ومبغوضية؛ لأنَّ الناس يعرفون الحقائق عاجلاً أو آجلاً، ويدركون من يستحق المدح ومن لا يستحقه، والذين يحبُّون المدح الكاذب يريدون أن ينالوا مكانة في قلوب الناس لكنهم يفقدونها، فالأجدر بالإنسان العاقل أن يسعى لتهديب نفسه، وأن يطابق قوله وفعله وصفاته الأخلاقية ليكون لائقاً بالمدح، وناجحاً في حياته.

فإنَّ المدح يجب أن يكون عن سبب مناسب ولائق، فلذا ذكرت الآية علّة الحمد وهي الربوبية، فالحمد لله تعالى؛ لأنّه ربّ للعالمين أعطاهم نعمة الوجود والحياة والرزق والبقاء وغيرها من مواهب ومنن وعلى الإنسان أن يعلم بأنَّ مدح الآخرين وشكرهم على ما يقدمون هو من شكر الله تعالى، ولذا ورد من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق^(١)، وكلما عظمت النعمة التي يقدمها الآخرون كان استحقاقهم للشكر أوجب، ووجب أن يكون الشكر مناسباً للنعمة، فإنَّ الشكر بأقل من النعمة بخس، وبأكثر منها مبالغة ربما تدم وتكون قبيحة في بعض الموارد، أو يتهم الشاكر بالنفاق والتزلف، فالتوازن بين النعمة وبين شكرها واجب عقلاً وشرعاً.

مراتب الشكر والمشكورين

وبذلك يتضح أنَّ كلَّ صنف من أصناف المجتمع بما يقدمه من خدمة يستحق الثناء والشكر، وأولى مراتب الشكر وأعلاها يجب أن تكون للنبي

(١) التهذيب: ج ١٠، ص ٩٢؛ ج ٣، ص ٥١١.

والأئمة عليهم السلام؛ لأنهم أصل الوجود ومنشأ هدايته وعلمه ونوره ثم بعدهم العلماء الربانيون، ثم الآباء والأمهات، وهكذا المعلمون والمربون والأطباء والباعة وأصحاب المهن التي تقدّم خدمة لبني البشر كلّها تستحق الشكر، وأنّ شكرها من شكر الله تعالى.

وفي رواية عمّار الدهني عن الإمام زين العابدين عليه السلام «أنّ الله يحبّ... كلّ عبد شكور. يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذا لم تشكره، ثم قال أشكركم الله أشكركم للناس»^(١).

ولعلّ العبد أخذ القضية من البعد المنطقي فشكر الخالق بما أنّه السبب ولم يشكر المخلوق لأنّه مجرد واسطة، إلّا أنّ هذا على خلاف سنّة الباري عزّ وجلّ؛ إذ يقول: «إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا»^(٢) و: «لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى»^(٣) وقال: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»^(٤) فإنّه سبحانه يريد أنّ تشكر الواسطة وإن كان عزّ وجلّ هو السبب؛ لأنّ ذلك من الأدب والعرفان بالجميل؛ لذا ورد في رواية محمود بن أبي البلاد قال سمعت الرضا عليه السلام يقول: «من لم يشكر المنعم من

(١) الكافي: ج ٢، ص ٩٩، ح ٣٠؛ الوسائل: ج ١٦، الباب ٨ من أبواب فعل المعروف، ص ٣١٠، ح ٢١٦٢٦؛ الوافي: ج ٤، ص ٣٥٤، ح ٢١١١.

(٢) سورة الكهف: الآية ٣٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٦٠.

المخلوقين لم يشكر الله عزَّ وجلَّ^(١) لأنَّ جحود نعمة المباشِر والواسطة ملازم لجحود نعمة السبب، ولو تعلَّم الناس نهج الجحود وكفران النعمة بينهم انجَرَّ ذلك إلى كفران نِعَمِ المنعم عزَّ وجلَّ.

وعن الصادق عليه السلام قال: ﴿أحسنوا جوار النعم﴾ قيل: وما حسن جوار النعم؟ قال: ﴿الشكر لمن أنعم بها وأداء حقوقها﴾^(٢)، ويتفرع عن هذا التعليم تعليلان آخران:

أفضل الشكر بما يليق

أحدهما: أنَّ أفضل الشكر والإشادة هو ما قلَّ ودلَّ وكان مما يليق، فالله سبحانه الذي لا تعد نعمه ولا تحصى علَّمنا أن نشكره بكلمتين داليتين على تمام المعنى هما (الحمد لله) ولو لم يعلِّمنا الباري هذا الأسلوب لقصرت كلمات البشر عن أداء حقه وشكر نعمه مهما أوتوا من قدرة في البلاغة والتعبير؛ لأنَّ الحمد والشكر بما يليق يتوقف على إحصاء النعم والإحاطة بها واختيار العبارة اللائقة بذلك وكلِّها

متعذرة، وقد كشف رسول الله ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله: ﴿لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك﴾^(٣).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٧، ح ٢؛ الوسائل: ج ١٦، الباب ٨ من أبواب فعل المعروف، ص ٣١٣، ح ٢١٦٣٨.

(٢) الكافي: ج ٤، ص ٣٨، ح ٢؛ مشكاة الأنوار: ص ٦٧، ح ١١٠؛ البحار: ج ٦٨، ص ٥٤، ح ٨٦.

(٣) عوالي اللآلي: ج ٤، ص ١١٤، ح ١٧٦؛ المحجة البيضاء: ج ٢، ص ٢٦٠؛ مجمع ←

وعن الإمام الصادق عليه السلام؛ إذ سئل إنّا لا نقدر أن نحمد الله بما يليق بشأنه، فعلمهم الحمد بما يمكن للعبد أن يقوم به قال: قل: ﴿الحمد لله على كل نعمة كانت أو هي كائنة﴾ سبع مرات، فمن قالها يكون قد أدّى ما عليه من الحمد ^(١) المقدور وفي رتبة أعلى من ذلك أن يسجد، وفي سجوده يعدد النعم التي أولاها الباري عزّ وجلّ لعبده، ويشكره عليها واحدة واحدة، فإنّ لها الأثر البالغ على نورانية قلبه ودرجات القرب، وهذا ما يستفاد من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفه.

وعن المفضل قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك علّمني دعاء جامعاً، فقال لي: ﴿احمد الله فإنّه لا يبقى أحد يصلي إلّا دعا لك، يقول: سمع الله لمن حمده﴾ ^(٢).

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿من قال أربع مرات إذا أصبح ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ فقد أدّى شكر يومه، ومن قالها إذا أمسى فقد أدّى شكر ليلته﴾ ^(٣) إلى غيرها من الروايات الدالة على قصور العباد عن أداء حق

→

البحرين: ج ١، ص ١٨٦، (رضا).

(١) ثواب الأعمال: ص ٩؛ البحار: ج ٨٤، ص ٢، ح ٣؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٤٨ من أبواب الذكر، ص ٢٢٣، ح ٩١٧٢.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٥٠٣؛ الوسائل: ج ٦، الباب ١٧ من أبواب الركوع، ص ٣٢٢، ح ٨٠٨٥.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٥٠٣، ح ٥؛ الوسائل: ج ٧، الباب ١٩ من أبواب الذكر، ص ١٧٢، ح ٩٠٣٦.

الحمد والشكر إلا بمقدارهم.

وحدة الحامدين

وثانيهما: أن بهاتين الكلمتين (الحمد لله) ساوى جميع البشر في العبودية وفي النعم النازلة عليهم ووجوب أداء الشكر، وبيان ذلك بحسب بلاغة الحامدين وقدرتهم على البيان.

فلو ترك الأمر للبشر لاختلف الحمد من شخص لآخر، وكان حمد العالم غير حمد الجاهل، وحمد الغني غير الفقير، والصغير غير الكبير لكنه تعالى بين لهم بأن البشر مهما تفاوتوا في المراتب والمقامات فإنهم عباد مربوبون، وكلهم أمام ربهم سواء، ولا تميزهم إلا أعمالهم وصفاتهم المعنوية، فالإنسان إنسان بإنسانيته لا بجسدانيته، والعبد عبد بحمده وشكره لا بمطعمه ومشربه.

التعليم الثاني: شكر القلب واللسان

إن الحمد على النعمة يساوق الشكر عليها، ولا يتحققان بمجرد قول القائل الحمد لله والشكر لله بلسانه، فإن القول باللسان وحده ليس حمداً ولا شكراً؛ لأنّ للحمد والشكر حقيقة واقعية ولفظاً يعبر عنها، والحمد الحقيقي هو منشأ الآثار والفوائد في حياة الإنسان، أمّا الحمد اللفظي فليس له في الآثار من نصيب ألا ما يتفضل الله سبحانه به.

علماء البلاغة والأصول يقولون: إنّ الالفاظ موضوعة للمعاني الحقيقية الواقعية لا المعاني المتصورة أو المتخيلة، فقولك شربت الماء يراد بالماء الواقعي الذي يروي العطش لا ما كان في ذهنه، والأذكار والأوراد من هذا

القبيل؛ إذ لا يكون الحمد حمداً حقيقياً تظهر فيه الآثار والبركات إلا إذا مرّ في ثلاث مراحل منضمة إلى بعضها وصارت حمداً حقيقياً.

مراحل الحمد

الأولى: مرحلة العقل، بأن يعلم العبد بأنّ النعمة من الله سبحانه وقد ابتدأها إحساناً وفضلاً لا يريد مقابلها نفعاً؛ لأنّ إسداء النعمة مقابل النفع يكون من الأجر لا الشكر.

والثانية: مرحلة القلب، بأن يقرّ ويدعن بأنّ هذه النعمة من الله سبحانه إحساناً وفضلاً ليس باستحقاق من العبد.

الثالثة: إظهار ذلك على اللسان أو الجوارح بقصد التعظيم والتبجيل والامتنان له.

فلو التفت العبد إلى هذه المراحل الثلاث حين الحمد والشكر يكون قد حمد وشكر بالمعنى الحقيقي، وأمّا إذا غفل عن ذلك ونطق بلسانه كلمة الحمد والشكر من دون التفات إلى المنعم ولا إذعان وإقرار بالقلب فإنّه يكون لفظاً خالياً من المعنى، والألفاظ غير مجعولة إلا للحقائق، وهذه قضية عامّة في عموم الأذكار والأوراد، فإنّ الكثير من أهل الإيمان يذكرون الله ويسبحونه ويهللونه ولكنهم لا يجدون الآثار، والسبب هو غفلتهم عن هذه المراحل الثلاث، فإنّ الأثر الحقيقي للذكر ينشأ من القلب ويظهر عليه. أمّا الألفاظ من دون ارتباط بالقلب هي عبارة عن حروف وكلمات خالية من الروح، وهذه قضية عامة يمكن التمثيل لها بمثالين:

الشعارات الفارغة

أحدهما: الشعارات والكلمات التي يطلقها البعض وهي خاوية من المعاني، فإنّها لا أثر لها ولا اعتبار لدى العقلاء؛ لأنّ الشعار للإشعار والإظهار، ولا يكون له أثر إلّا إذا طابق الاعتقاد الصحيح في القلب، ولذا اشتهر وصف الشعارات بأنّها فارغة؛ لخلوها من المحتوى، كما اشتهر أنّ الكلام إذا خرج من القلب اخترق القلب.

لاحظوا تأريخ الملوك والسلاطين كم وظّفوا شعراء يمدحونهم، وينسبون لهم مزايا وخصائص كاذبة تملّقاً منهم وطمعاً في الجائزة زالت بزوالهم، ولم يبق لها أثر ولا افتخار، وهكذا الإعلام الكاذب اليوم الذي يمجّد السلاطين.

خواء الزبد

ثانيهما: زبد البحر فإنّه فقاعات تطفو على الماء بلا جذر ولا أساس؛ لذا قال الباري عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) الزبد هو الفقاعات الهوائية التي تعلو أمواج البحر، والجفاء كل زائد لا نفع فيه يرميه البحر على الساحل، وكذلك غشاء القدر حينها يغلي. هذه ليست هي الطعام في القدر بل فقاعات هوائية لا جذر لها ولا أثر. البحر مليء بالأشياء المفيدة من المأكول وغير المأكول. أمّا زبده فلا أثر له.

والآية تعلّمنا أنّ ما في عمق البحر له فائدة، وأمّا الذي يرميه البحر فلا

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

فائدة فيه ويذهب جفاء، وليس له خصائص ونفع، ولكن إذا دخل إلى عمق البحر ظهرت فوائده، وكذلك القدر فإن الطعام الحقيقي في عمقه.

والإنسان شبيه بذلك، فإنه في أذكاره وكلماته وعباداته له عمق باطن وله ظاهر، والظاهر هو أقواله وما يتكلم به بلسان، والكلام مجرد أن يتجاوز الشفتين ينتهي ويضمحل؛ لأنه متصرم الوجود بقول أهل الحكمة؛ إذ لا تتحقق الكلمة الثانية إلا بانعدام الكلمة الأولى، فكل كلمة تصدر من الفم تضمحل حتى توجد الثانية، فحكمها حكم زبد البحر ينطفي ويذول بمجرد أن يرميه البحر على الساحل.

وأذاكار الإنسان وأوراده؛ حينما يقولها بلسانه فقط وعقله غير مقتنع ومتوجه وقلبه في غفلة يكون الذكر كلمات بلا روح، وألفاظ بلا معان، فليس حمداً ولا ذكراً، فالحمد الحقيقي هو المرتبط بجوهر الإنسان، وجوهره قلبه لا لسانه، فكل ما ينبع من قلب الإنسان له تأثير كبير.

خواء المجاملات الكاذبة

وهذا محسوس حتى في العلاقات الاجتماعية، فإذا قال لك شخص: إني أحبك وأعزك وأنت تعلم لك أنه ليس من قلبه وإنما يقولها مجاملة لا تتأثر بقوله، بخلاف من يقولها من عمق قلبه، فالحب الحقيقي ما كان من القلب، فإذا وقف العبد أمام ربه وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذا مجرد لقلقة لسان لا تصل أبعد من شفثته تحدث وتنطفئ في وقتها، فلا تبقى ولا يكون لها أثر.

والله عز وجل من لطفه وكرمه وإحسانه يعطي الحامد بلسانه الثواب؛ لأنه وعد أن يجزي العمل الحسن بالثواب وهذا فضل منه لا استحقاق من

العبد، ولكن لا يسمى هذا العبد حامداً ولا يكون شاكراً، ولا ينال الزيادة في النعم التي وعد الله بزيادة نعم الشاكرين^(١)؛ لأنه متوقف على أن يكون شاكراً بقلبه لا مجرد كلمات تحدث وتموت في وقتها، فذكر الحمد باللسان من دون قلب ليس بحمد حقيقي وإنما صورة الحمد، والألفاظ موضوعة للمعاني الحقيقية لا الصورية و لا المتصورة، فالحقائق التي لها تأثير ما كان له جذر صحيح وواقعية في التكوين، وكل ما كان منقطعاً عن جذره أو كان بلا جذر فلا أثر له.

وهكذا أقوال الإنسان وأفعاله إذا نبتت من قلبه كان لها أثر؛ لأن القلب جذر اللسان والجوارح، بل هو إمامها كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام^(٢)، فإذا لم يطابق القول والعمل ما في القلب صار فارغاً، ولذا يذم العقلاء الكذب والنفاق والمجاملات الفارغة وأمثالها؛ لأنها لا تنبع من القلوب ولا تطابقها.

وهكذا أذكار الإنسان وأوراده فحينما يقول الشكر لله وكان مجرد لقلقة لسان فليس له من ذلك أثر؛ لأنه في لبه وجوهره لم يستشعر النعمة، ولم يقر بفضل المنعم، وأما إذا التفت إلى فضل النعمة وإحسان المنعم وأقر بقلبه لذلك وأظهره على لسانه أو جوارحه يكون قد حمد وشكر، وبهذا يحصل الأثر، ويقابله الباري عز وجل بالزيادة؛ إذ قال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٣) أما شكر القول وحده فلا. ليس لأن الله سبحانه أخلف

(١) إشارة إلى سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١٧٠، ح ٣.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٧.

وعده - والعياذ بالله - بل لأنَّ العبد لم يشكر حتى يستحق الزيادة.

المراقبة شرط التأثير

ومن هنا يؤكد علماء الأخلاق ومهذبو البشر أنَّ الشرط الأهم والأساس في تحصيل الآثار هو المراقبة، وقد ورد هذا المصطلح في بعض الأخبار عن الصادق عليه السلام^(١)، وهو أهم عمل يقوم به العبد لاستحضار الحقائق والارتباط بالله وبأوليائه والتشبه بهم، والذي يتابع النصوص الشرعية وسيرة الأنبياء والأولياء يجد أنَّ تحرّزهم من المخالفة كان شغلهم الشاغل، وما دام لا يلتفت إليها أهل الرياضة والمجاهدات والطالبون للقرب فإنَّهم في الغالب لا يصلون.

وقد يتصوّر البعض أن الوصول إلى الغاية يتم عبر كثرة العبادة فيبقى الليل كله مستيقظاً إلى الصباح مشغولاً بالأذكار والأدعية والصلوات، لكنّه في النهار لا يراقب نفسه، ففي الشارع لا يراقبها، وكذا في البيع والشراء، ولدى التعامل مع أهله وأسرته، فإنّه لا يكون له من أعماله الليلية سوى الثواب التفضلي الذي وعد الباري عزّ وجلّ به المصلّين

والذاكرين، أمّا الآثار الوضعية والغيبية فلا؛ لأنّ عبادة الليل إنّما تؤثر وتوصل إلى الغاية إذا لازمتها المراقبة في النهار، فالذي يقول في الليل يا الله أو الحمد لله أو أستغفر الله وفي النهار يقول يا مالي ويا سلطاني ويا وجاهتي،

(١) مصباح الشريعة: ص ٨٠؛ البحار: ج ٦٩، ص ١٢٥، ح ٢؛ مستدرك الوسائل:

ج ١، ص ١٧٩، ح ٢١٥.

والحمد يقول بلسانه، وإذا عرضت عليه قضية تضره فيها رضا الله وقضية تنفعه - بحسب تصوّره - وفيها رضا نفسه قدم ما لنفسه على ما لله، فأين تكون عبادته وصلاته؟، وهذا يعني أنّ أعماله وأذكاره كانت كزبد البحر، أو الشعارات التي يطلقها أهل الكلام خالية مقطوعة الجذور ليست من القلب، ولو كانت من القلب لتنوّر القلب بها، وعصم صاحبه من الغيبة والذنب.

سلامة القلوب

ومن هنا تضافر في الآيات والروايات أنّ العبودية لله، ودرجات القرب والبعد منه تدور على سلامة القلوب^(١)، وليس على الأقوال والألسنة ولا سائر الجوارح.

وقد روى الكليني رحمه الله عن الصادق عليه السلام في بيان أهمية أعمال القلوب وعلوها على الجوارح. قال: ﴿لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث وأداء الأمانة﴾^(٢) والصدق وأداء الأمانة دليل انبعث القول والعمل من القلب، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ

(١) إشارة إلى الآية ٨٩ من سورة الشعراء: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَّنَّ بِاللهِ يَقْلِبْ سَلِيمٌ﴾، وأمّا الروايات فقد ورد في الكافي بسنده عن سفيان بن عيينة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "كل قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط، وإنّا أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة" الكافي: ج ٢، ص ١٢٩، ح ٥؛ البحار: ج ٧٠، ص ٥٢، ح ٢٣.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ١٠٤، ح ٢؛ البحار: ج ٦٨، ص ٢، ح ١؛ الوافي: ج ٤، ص ٤٢٩، ح ٢٢٥٨.

هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا»^(١) وقد نسبت الآية الغفلة إلى القلب، ونهت عن إطاعة أصحاب القلوب الغافلة وإن كانت ألسنتهم ذاكرة، وقد ورد في شأن نزولها أنّ مجموعة من أشرف قريش ومن المؤلفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: يا رسول الله ! إن جلست في صدر المجلس ونحييت عنا هؤلاء روائح صنائهم، وكانت عليهم جباب الصوف جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، لأنه لا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء، فلما نزلت الآية قام النبي ﷺ يلتمسهم - ومنهم سلمان وأبو ذر وعمار وصهيب وخباب وغيرهم - فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله عز وجل، فقال: ﴿الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات﴾^(٢).

فإن هؤلاء الأثرياء وإن كانوا من المسلمين ويصلّون ويذكرون لكن ذكرهم وصلاتهم لن تعدوا ألسنتهم، ولم تستقر في قلوبهم، لذلك وصف قلوبهم بالغفلة.

والملفت أنّ الآية ذكرت الإغفال وهو فعل الله لا الغفلة التي هي فعل الغافل نفسه؛ لأنّ الإغفال نتيجة مترتبة على غفلتهم وغرورهم وكبريائهم وتعاليلهم.

(١) سورة الكهف: الآية ٢٨.

(٢) انظر الأمثل: ج ٩، ص ٢٥٦؛ مجمع البيان: ج ٤، ص ٦٢؛ نفحات الرحمن: ج ٤، ص ١٢٤ - ١٢٥؛ وانظر حلية الأولياء: ج ١، ص ١٤٦.

القصد وهوية العمل

وفي الأخبار الشريفة ما يدل على أنَّ القصد هو الذي يعطي العمل هويته، وأنَّ القصد بالقلوب هو الذي يلازم الأثر، فعن الصادق عليه السلام: ﴿قال القصد إلى الله بالقلوب أبلغ من القصد إليه بالبدن، وحركات القلوب أبلغ من حركات الأعمال﴾^(١).

وفي مواضع الإمام الجواد عليه السلام: ﴿القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من اتباع الجوارح بالأعمال﴾^(٢).

ومن هنا نستنتج قاعدة في العبادات وهي أن أهمية العمل تدور على الكيف وليس الكم، والعمل القليل النابع من القلب أفضل من الأعمال الظاهرة على الجوارح المنقطعة عن القلوب، فلا بد للمؤمن أن يعمل على قلبه فيخليه من الرذائل ويحليه بالفضائل، ويجعله منقطعاً إلى ربه يطلب وجهه في كل حمد أو شكر لينال المطلوب، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه وتعالى، فمن طهر قلبه نظر الله إليه﴾^(٣).

ويتحصل مما تقدم نتيجتان هامتان:

(١) مشكاة الأنوار: ص ٤٤٨، ح ١٥٠٥.

(٢) كشف الغمة: ج ٣، ص ١٦١؛ البحار: ج ٧٥، ص ٣٦٤، ح ٤.

(٣) غرر الحكم: ص ٥٣٨، الرقم ٦٥؛ تصنيف غرر الحكم: ص ٦٧، الرقم ٩٠٦.

الحمد بالعقيدة والعمل

الأولى: أنّ الحمد ليس قول العبد (الحمد لله) وأمثالها بلسانه، بل هو اعتقاد عقلي وإقرار قلبي وسلوك وأسلوب في العمل، فمن تحلّى به بلغ درجة الحامدين، وبها يرتقي ويكون من عباد الله المخلصين، وهو ما يستفاد من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «فأنت عندي محمود، وصنيعك لديّ مبرور، وتحمدك نفسي ولساني وعقلي حمداً يبلغ الوفاء وحقيقة الشكر، حمداً يكون مبلغ رضاك عني، فنجنّي من سخطك»^(١).

وقرينة الحال والسياق ومناسبة الحكم والموضوع تفيد أنّ قوله: «فنجني من سخطك» إذا قصر بالحمد أو لم يبلغ الوفاء به فإن آثار الأعمال تتبع مقامات العاملين كما قرر عند أهل المعرفة، فالعالم لا يحاسب كما يحاسب الجاهل.

حمد المعرفة والإقرار

الثانية: أنّ الذي يرى أنّ ما لديه من نعم وخيرات وأموال وأعمال وأفكار وإنجازات من غير الله ويدعي أنّه حصل على ذلك بكده وسعيه الشخصي فهو وإن كان حامداً بلسانه لكنه لم يبلغ حقيقة الحمد، فإن حقيقة الحمد بالمعرفة والإقرار القلبي بأنّ كل ما لديه هو من الله وليس منه.

فمن الذي وهبه العقل والفكر والقدرة على العمل، وبعث إليه الرزق، وحفظه من الآفات والبلايا، وحفظ أمواله من التلف أو السرقة؟ ومن الذي أعطاه العافية ليتنعم بما لديه من أموال وطاقات؟ وعليه أن يعرف أنّ

(١) الصحيفة السجادية: ص ٣٧٧.

تفكيره قاروني وفرعوني، وأنّ في جوهره فرعون يترقّب الفرصة ليظهر، فإنّ قارون ادعى أنّ ما لديه من أموال تنوء بمفتاحه العصبة أولو القوة. قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(١) هو جمعها لكونه أعلم بني إسرائيل بالكسب والتجارة والزراعة، وقيل إنّ كان يعلم الكيمياء،

فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة، ويأخذ النحاس فيجعله ذهباً^(٢)، لكنه وبطبيعته الجاحدة غفل أنّ علم الكيمياء تعلّمه من موسى ووصيّيه يوشع عليه السلام، كما غفل أنّ ما لديه من المال أعطاه الله إياه؛ إذ قال ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾^(٣)، والمفتاح يراد بها الخزائن أو مفاتيحها، والعصبة الجماعة التي يعصب بعضهم بعضاً، وقيل: كانوا أربعين رجلاً^(٤)، ولو كان صادقاً في مدعاه فإنّه إذا نام نسي كل ما لديه من علوم، وإذا استيقظ عادت إليه علومه، فأين ذهبت حينما نام؟ ومن أذهبها؟ وكيف عادت إليه ومن أعادها؟ يقول تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(٥).

التعليم الثالث: أول عهد بين الله وخلقه

لعل محيي آية الحمد بعد البسملة وتعليل الحمد بالربوبية يشعر بأنّ أفضل الأذكار بعد الحمد والصلاة على محمد وآل محمد هو: (يا ربّي) أو: (يا ربّ) أو:

(١) سورة القصص: الآية ٧٨.

(٢) مجمع البيان: ج ٧، ص ٤٦٠؛ نفحات الرحمن: ج ٥، ص ٤٩.

(٣) سورة القصص: الآية ٧٦.

(٤) مجمع البيان: ج ٧، ص ٤٥٩.

(٥) سورة النحل: الآية ٥٣.

(يا ربّ العالمين) هذا في توجه العبد وانقطاعه إلى ربّه أفضل الأذكار، والحمد هو شكر للنعم، والصلاة على محمد وآله هو إذعان بالعقيدة الحقّة والولاية لأولياء الله التي هي أسّ الفرائض وأولها على المكلف.

فالولاية لأولياء الله والبراءة من أعدائه وسائر الأحكام والفروع تنفّرع من هذه الحقيقة.

فالذي يوالي محمداً وآل محمد تكون صلاته وصيامه وزكاته وخمسه وحجه منهم، والذي لا يواليهم عباداته من غيرهم، فرأس التكليف على سائر الناس هي الصلاة على محمد وآله بمضمونها الاعتقادي والفقهّي الشرعي، أمّا إذا أراد العبد أن يناجي ربّه ويدعوه ويستمد منه فيقول: (يا ربي)، فهو أفضل الأذكار التي يتوجه بها العبد إلى الله عزّ وجلّ.

ربوبية الاسم الأعظم

ومن هنا ذهب البعض إلى أنّ (الربّ) أو (ربّ العالمين) هو المالك، والرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلاّ بالإضافة^(١)؛ لأنّ به يتم التأثير في الإيجاد و الإبقاء والإنماء والتبديل والتحويل، وهو الجامع لصفات الفعل، وقد ذكروا أنّ مناداة الباري باسم الربّ أعظم أثراً من غيره؛ لما فيه من إقرار بالفقر والحاجة من جهة العبد، ومن غنى وكرم وجود ورحمة من جهة الربّ تبارك وتعالى.

ويعزّزه شاهدان:

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ج ١، ص ١٣٦.

ما هو أول اسم إلهي؟

الشاهد الأول: أن أول اسم شَنَّفَ أَسْمَاعُ بني آدم عَرَّفَ به الباري عزَّ وجلَّ نفسه لهم في عالم التكوين هو (الرَّبُّ)، وأول إقرار وإذعان صدر منهم له عزَّ وجلَّ هو الإقرار بالربوبية. حكى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ وَلَمْ تَقُلْ: (أَخَذَ اللَّهُ)، وبعده جاء عهد العبودية له لتوقف العبودية على الربوبية؛ إذ قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَإِنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(١) فلو لا الربوبية لا استحقاق للعبودية، ولذا لا يستحق العبادة إلا الله؛ لأنه الربُّ الوحيد للخلق، والملفت أن الخطاب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ للمفرد الخاص، وهو رسول الله ﷺ، ولازم ذلك أن لا يكون معنياً بأخذ عهد الربوبية، وإنما المعني كل من سواه، ولعل السر في ذلك يعود لسببين:

عهد الربوبية وعهد العبودية

أحدهما: لأنَّ عهده مع الله سبحانه ليس على الربوبية بل العبودية؛ لأنَّه عبده ورسوله، وهو مقام فوق مقام الإقرار بالربوبية كما ورد عنه ﷺ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي نَبِيًّا﴾^(٣) فالعهد بين الله وبين بني آدم

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٢) سورة يس: الآيتان ٦٠ و ٦١.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٢١٧، ح ١؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣٥٧، ح ٢٠٩؛ البحار: ج ٢٥، ص ١٣٥، ح ٦.

هو عهد الربوبية، أمّا عهد الله مع محمد وآل محمد فليس عهد الربوبية بل عهد العبودية، وهو أول عهد، ثم بعد العبودية عهد الربوبية، فسائر بني آدم أول عهد لهم مع الله الربوبية ثم العبودية، وهذه حقيقة جوهرية وأساسية ورد مضمونها كثيراً في الروايات، وفي هذه الآية إشارة إليها، والفرق بينهما أنّ محمداً وآل محمد أذعنوا لله بالعبودية قبل الربوبية، وبعد هذا الإذعان والإقرار قرّبهم وجعلهم خلفاءه في أرضه، وحجته على عباده. فاعبد أولاً توجهه إلى ربّه وأذعن ثم أفاض الربّ عليه من خيره وبركاته، أمّا سائر الناس لا يبلغون المدى من المعرفة، فأولاً يجب أن ينالوا من الله الخير حتى يعبدوه ويطيعوه، فالربوبية في سائر بني آدم أولاً ثم العبودية: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١) فأولاً أعطاهم رزقهم وآمنهم ثم أمرهم بالعبادة، إلّا محمداً وآل محمد عبدوا الله وأقروا بالعبودية، ثم نشأت علاقة الربوبية؛ لذا هم أول من سبّح الله وهلله وعبدوه، ومنهم تعلّمت الملائكة^(٢).

سر الاصطفاء لمحمد وآل محمد ﷺ

وبذلك يتضح مدى الفرق بينهم وبين سائر الخلق، وسرّ الاصطفاء الإلهي لهم، وعلوّهم على سائر الناس، وهنا بصيرة لأهل المعرفة، فإذا الإنسان لا يتجرد من خصوصياته الأنانية الفردية لا يكون عبداً لله؛ لأنّ

(١) سورة قريش: الآيتان ٣ و ٤.

(٢) انظر مدينة المعاجز: ج ١، ص ٥٥٦

العبودية تحتاج إلى تجرد كامل ويكون العبد لله؛ لذا تكون العبودية قبل النبوة. ثانيهما: لأنه واسطة الباري عز وجل في تربية الخلق وربوبيتهم وأخذ العهد منهم تكويناً وتشريعاً على ما بيناه غير مرة.

الشاهد الثاني: ما حكاه الباري بشأن مخالفة آدم عليه السلام للأمر الإلهي فإنه وصف مخالفته للرب وليس لله عز وجل؛ إذ قال عز وجل: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(١) ولم يقل: (عصى الله) ومخالفة الربوبية خروج عن نهج التربية والتعليم وليس تمرداً على حقوق الباري عز وجل من جهة مولويته والوهيته؛ لذا هو نبي وفي درجة عالية عند الله، وفي علمه أعطاه الباري خمسة وعشرين حرفاً بينما أنبياء كثر ليست لهم هذه الدرجة. أما عصيانه فهو عصيان نظام الربوبية، ومخالفة الربوبية عصيان لنظام التربية، وهو ما فيه مصلحة لآدم عليه السلام في مقام التربية، فمخالفته لنظام التربية كالمطالب الذي لا يأخذ بنصيحة استاذة، وليس عصيانياً لذات الخالق عز وجل، ولذا لا يتنافى مع عصمة آدم عليه السلام، بل هو ترك للأولى، أو ترك للأمر الإرشادي التربوي كما اتفق عليه أصحابنا، فالفرق كبير بين الأمر التربوي والأمر المولوي، والأول في مقام التربية ومخالفته ليست ذنباً بخلاف مخالفة الأمر المولوي، ومنه يتضح أن العصيان في الآية لا يراد به عصيان الأمر المولوي بل عصيان الأمر الإرشادي وهو لا ينافي العصمة، كما يتضح أن أول عهد بين الخالق والمخلوق هو عهد الربوبية، وأول مخالفة وقعت من بني آدم هي

(١) سورة طه: الآية ١٢١.

مخالفة الأوامر الربوبية لا العبودية، ولذا ظل الإنسان أرقى من خلق وأعظم، ومنه اصطفى الباري أنبياءه ورسله وأوليائه.

ولعل هذا الاسم المبارك من أكثر أسمائه عزَّ وجلَّ وروداً في الأدعية والمناجاة، وفي مناجاة الإمام زين العابدين في شهر رمضان المبارك مثل: (دعاء أبي حمزة الثمالي) ورد تكرار (يا رب) كثيراً، وكذلك في دعاء كميل الوارد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ويستحب بعد صلاة الفجر أن يكرر المصلي (يا رباه) عشر مرات رافعاً يده إلى السماء لما له من أثر نفسي كبير في خير ذلك اليوم، بل قيل إنَّ هذا الاسم المبارك يشتمل على جملة من الصفات والأسماء والأفعال الجمالية، كالسيادة والغنى والكرم والرحمة والإحسان والملك والصاحب والتربية والإصلاح لما يدل عليه لفظ الرب من معان جليلة، ولذا تمسك أهل المعقول به لإثبات حاجة الخلق إليه في أصل الحدوث والبقاء؛ لأنَّه مقتضى الربوبية^(١)، وبه تختلف ربوبيته تعالى عن ربوبية غيره، فإنَّ كل ربوبية محدودة وتزول إلا ربوبيته عزَّ وجلَّ فإنها دائمة الفيض في كل لحظة وأن، ولذا كثر وروده في أدعية القرآن والسنة، بل قيل بعدم ورود دعاء فيها خال منه؛ لأنَّه مفتاح الاجابة والعطاء^(٢)، وثبت به العقيدة الحقّة والمعرفة بالله عزَّ وجلَّ.

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٧٨.

(٢) مجد البيان: ص ٢٩٠.

ربوبية دائمة

فالربوبية الإلهية تحيط بأبناء آدم منذ خلقهم الأول إلى ما لا نهاية؛ لأنّ الخلق لا ينتهي والبشر لا يصل إلى مرحلة الموت النهائي، وفي الحديث ﴿خلقتُم للبقاء لا للفناء﴾^(١). نعم تمرّ على الإنسان تحولات في الدنيا يموت فيها الإنسان، ولكن موته لا يعني الانتفاء، وإنّما انفصال الروح عن الجسد، فالروح تبقى وهو ليس موتاً حقيقياً؛ لأنّ الموت الحقيقي يعني انعدام الحياة، والذي ينتهي هو الجسد في الدنيا، ونفس هذا الجسد سيعيده البارئ مرة أخرى في الآخرة ويعيش به.

فالإنسان في كل نشأته لا يموت ومنذ أن خلقه الله هو حي لذلك أخذ الله منه العهود والمواثيق قبل الدنيا، وهي لا تؤخذ من الأموات وإنّما من الأحياء، وفي الدنيا كذلك، وفي البرزخ والآخرة هكذا، ففي أيّ فترة من الفترات يخرج الإنسان من ربوبية ربّه، وفي أيّ زمان أو مكان أو جهة من الجهات يحرم من الربوبية الإلهية؟ كلا، لا تنفك الربوبية عن المربوبين؛ لذلك تقول الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنّ الربوبية الواسعة الشاملة تقتضي حمداً شاملاً وواسعاً، فالإنسان يعيش في ربوبية ربّه في كل نشأته.

مراتب الربوبية

ومن هنا يمكن أن نقسم الربوبية الإلهية على مراتب:

الأولى: الربوبية الشخصية، أي أنّ ربوبيته سبحانه تنحلّ إلى ربوبية لكل

(١) غرر الحكم: ص ٢٧٢، ح ٤؛ تصنيف غرر الحكم: ص ١٣٣، الرقم ٢٢٩١.

فرد من أفراد العالم وبحسب القاعدة في انحلال العموم الاستغراقي، فلا يوجد شيء في العالم خارج عن ربوبيته تعالى، ولا ربّ لهذا العالم بكل أصنافه وأنواعه إلّا هو سبحانه، وتوحيد الربوبية ملازم لتوحيد الذات والصفات والأفعال، وربوبيته خاصة لكل شخص وفرد في أعضائه وأجزاء بدنه وأحواله الروحية والاجتماعية، وهي ربوبية إلهية خاصة.

الثانية: الربوبية الحكومية، وهي نوعية، لأنّ نفوذ سلطته حاکمة في الأشياء، فإنّ كل ما يحدث في الوجود خاضع لإرادته ومحاط بحكمه وحكومته، فالحياة والشفاء والرزق والموت وكل تحوّل وتبدل راجع لربوبيته للأشياء، كما أنّ رحمته الرحيمية في الدنيا والرحمانية في الآخرة مندرجة فيه، وإلى أين ما يتجه الإنسان قوانين الله حاکمة عليه، ومهما تطور في علمه وتقنياته وصناعاته، ومهما افتخر بعلو كعبه في العلوم والمعارف ووصوله إلى اختراق الفضاء فأين يذهب فهو متقلب في الربوبية الإلهية، وغاية ما له أنّه يتوصل إلى أسرار ومنافع أودعها الباري في العالم، فسيادته وحكومته نافذة في كل الأشياء، ولا يوجد جزء بسيط ولو بمقدار حبة خردل خارج عن الربوبية الإلهية، فما هو الشيء الخارج عن ربوبية الله؟ ليقبل المنكرون لوجود الخالق أو ربوبيته، وليعرفوا للناس شيئاً خارجاً عن حكومة الله وربوبيته.

الثالثة والرابعة: ربوبية المحبة والرجاء، فإنّ الربوبية تنعش المحبة والارتباط الروحي؛ لأنّ الإنسان مفطور على حب الإحسان والمحسن إليه، فإذا أدرك أنّه مبتدئ بالنعم قبل استحقاقها وأنّه لا يطلب من إحسانه إلّا نفع

الإنسان نفسه فهو خلقه لا لأجل أن يربح عليه، بل لأجل أن يربح العبد عليه كما ورد في الحديث ^(١) أحبه وتعلق به، وإذا أدرك أنه يدفع عنه كل ما يضر به ويوجب هلاكه وفساده علم بأن لا رب له سواه، فلا يحب غيره، ولا يرجو غيره، فالرب كما يدل على توحيد المحبة يدل على توحيد الرجاء.

فالإنسان المؤمن بالله وربوبيته لو كمل إيمانه لا يخاف من حاضره ولا من غده. كيف وأن حبيبه وأنيسه ومربيّه رب العالمين؟ فإذا وجد نفسه فقيراً أو مريضاً أو محتاجاً فليرفع يده بالدعاء ويقول: (يا رب) فإنه يجيبه ويعطيه؛ لأنه أقر لعباده بالربوبية، ووعدهم بالإجابة إذا دعوه، ولكن بشرط أن يدعوه حقيقة ويقرؤا ويدعئوا له، وكل فتنة وأزمة ومصيبة شخصية أو نوعية هو يرفعها، ويحمي عباده منها إذا لجؤوا إليه ورجوه، والذي لا يدرك ذلك ينبغي أن يعيد النظر في مداركه، وأمّا الذي يدرك ذلك ويعصيه فليعرف أنه خرج عن مقتضيات الفطرة، واندرج في مصاف البهائم كما وصفه القرآن ^(٢).

ربوبية المحبة

لاحظوا المحبة ففي سر عجيب يدرك ولا يوصف، ولا أحد يقدر على توصيف حب الأم لولدها، وشفقة الأب على أبنائه، فما هو سر هذا الحب وما هو مفهومه؟ الناس تدرك الحب بمشاعرهما ولكنها تعجز عن تعريفه،

(١) إرشاد القلوب: (للديلمى): ص ١٤٨، وفيه: "أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام

قل لعبادي: لن أخلقكم لأربح عليكم ولكن لتربحوا علي".

(٢) إشارة إلى سورة الفرقان: الآية ٤٤؛ سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

وهنا تتجلى الربوبية العظيمة، ويظهر قصور الإنسان الكبير. مثلاً الإنسان حينما يعطش يشرب الماء فيشعر بالانتعاش، فما هو توصيف الانتعاشة ومفهومها؟ وما علاقة الماء بهذه الانتعاشة؟ وإذا انقطع نفسه بسبب غازات ورائحة نتنة يختنق فيفرّ إلى فضاء حرّ حتى يتنفس، وهذا النفس يعطيه شعور بالحياة عجيب، فما توصيف هذا الشعور؟ هذه أسرار الربوبية الإلهية في الماديات، والمحبة في المعنويات، فما هي المحبة؟ لو اجتمع المتخصصون في العالم لتعريف المحبة بالتعريف الحقيقي يعجزون. نعم قد يعرفونها بآثارها كالانجذاب بين الطرفين، أي بين الأم والولد بحيث تضحي الأم بأعزّ ما لديها لأجله، وأحياناً تعلم أنّه إذا كبر لا ينفعها فلا توجد مصلحة في خدمتها له؛ لكنها تحبه، فمن أين جاءت هذه المحبة الصافية؟ جاءت بربوبية الله سبحانه، الله يربّي الأم والولد بهذه العلاقة، هذه هي الربوبية الإلهية التي تربط بين الأشياء، فكل محبة إلهية هي ربوبية إلهية.

ربوبية الرجاء

وكذلك الرجاء والأمل. نلاحظ أنّ بعض الناس يصاب باليأس فيقوده يأسه الى الأمراض وربما الانتحار، والشواهد قائمة على هذا، ولكن الذين يصابون بهذه الأمراض نواذر، فأكثر البشر عندهم أمل في الحياة، فمن أين يأتي هذا الأمل؟ الإنسان في صغره عنده نوع آمال، وإذا شبّ وصار شاباً تتولد له آمال أخرى، وإذا تزوج وكوّن أسرة تكون له آمال أخرى، وإذا كبر سنه تتولد له آمال مغايرة، وكلّما كبر كبرت آماله، فمن أين هذا الأمل؟ هل درسه في جامعة أم اشتراه من عطار أم هو الذي أوجده في نفسه؟ لا

هذا ولا ذاك، وإنما الله عزَّ وجلَّ، وبمقتضى ربوبيته لبني آدم يجعل في قلبه أملاً، وهذا الأمل يجعله سعيداً مرتاحاً في عيشه مطمئناً، وله رغبة واندفاع للعمل والانجاز حتى يحقق آماله، فلولا الأمل كيف كان يعيش؟ وكيف يعمل ويحقق ما يريد؟

الخامسة: توحيد التفويض والتسليم؛ إذ لا وجود لربِّ غيره عزَّ وجلَّ، ولا يعقل وجود تربية أفضل وأكمل وأرقى من تربيته؛ إذ لا غني إلا هو، ولا كرم فوق كرمه، ولا رحمة فوق رحمته ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾^(١)، وهو خطاب موجَّه للمستهزئين الناكرين لربوبيته تعالى ولنسوة رسوله ﷺ تحاكي وجدانهم، فإنَّ البشر في الليل والنهار مُعرَّض للآفات والبليات، وفي كل لحظة وآن لا يأمن على نفسه من موت أو مرض أو مصيبة لكنه يعيش أكثر عمره في سلامة وأمن، وليس هو الذي دفع عن نفسه المخاطر لجهله بها وعجزه عنها، فليس إلا الله عزَّ وجلَّ يدفع عن المؤمن والكافر، ويؤمن المؤمن والكافر، وهو مقتضى رحمته بخلقه، فلا يملك الإنسان مهما كان معتقده إلا تفويض أموره إليه والتسليم لقضائه وقدره.

السادسة: توحيد التربية وتهذيب الملكات، فإنَّ الربوبية تحفِّز في المربوب نوازع الكمال ومشاعر الجمال، وتصير العبد متخلقاً بأخلاق ربِّه يحبُّ الخير وأهله، ويبغض الشر وأهله، ودود كريم رحيم حنان عفو صفوح لا يهتك

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٢.

الستر، وينصر المظلومين، ويدافع عن المستضعفين، فإن غاية الأديان والشرائع والكتب السماوية هو أن يكون الإنسان ربّانياً تخلق بأخلاق الله، وزكّي نفسه بالتخلية عن الرذائل، والتخلية بالفضائل فيليق بالحياة الدائمة والسعادة الكاملة.

كل إنسان بوجدانه يحبّ الكمال والجمال، ويجب أن يتصف بهما، ويتنفّر من القبائح والنواقص الطفل والشاب وكبير السن بنفس الشعور عندهم، فهل درسوها في مدرسة أم قرؤوها في كتاب؟ لماذا الطفل يحب أن يكون جميلاً وأن يذكره أهله بالصفات الحسنة ويتذمر من الصفات القبيحة؟ ومن أين أدرك هذا هل أبوه علمه؟ بل الطفل وبهذا الميزان يحاكم أباه إذا خالف هذه الضابطة، فلو وعده الأب وأخلف يعترض عليه ويطالبه بالوفاء فأين درس هذا؟

وإذا طرق الباب طارق يطلب الأب فارسل الأب ولده ليفتح الباب ويقول للطارق أبي غير موجود - وهذا تعليم خاطئ منه - لكن الطفل قد يتردد ويدرك أنّ أباه فعل قبيحاً؛ لأنّه كذب، فمن أين أدرك الطفل أن الكذب قبيح؟ وإذا ضرب الأب ولده بلا سبب يشعر بالظلم وأنّ الظلم قبيح.

هذه كلها من الله، فلو أنّ الإنسان خرج من الغفلة يدرك بأنّه محاط بالربوبية الإلهية في محبته وأمله وتربيته وطعامه وشرابه وكل شؤونه؛ لذا أفضل ما يذكر به العبد ربّه (يا ربّي)؛ لأنّ الربّ بهذا النداء هو الذي يفتح أبواب الخير على العبد.

فإن كل رب معنيّ بمربوبه، كما أنّ الأب معنيّ بأولاده، والسيد معنيّ

بمن يعمل معه كخادمه وعبد، فكيف برَّب العالمين؟ فإذا العبد طرق باب الربوبية وأظهر من نفسه العجز والحاجة لربِّ العالمين فالربُّ معنيّ بعبد، يعطيه ويلبّيه، فأول اسم شَنَّفَ أَسْمَاعُ بني آدم هو (الرب) ويلازم هذا الاسم المبارك الإنسان في كل أطواره وأحواله حتى في الجنة ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾^(١) فالربوبية الإلهية تحيط للإنسان، فإذا أراد العبد أن يصحو من غفلته عليه أن يعرف أولاً حدوده، فإنّه محتاج فقير عاجز قاصر لا يخرج من ربوبية ربّه وحكومته.

هذا مقام عموم الناس إلّا محمداً وآل محمد ﷺ، فأول علاقة بينهم وبين الله هي علاقة العبودية. هم عباد الله المخلصون والمخلصون، ثم بعده مقام الربوبية.

ثلاث نظريات باطلة

وبذلك تبطل جملة نظريات للحكماء والطبيعيين والأخلاقين:

منها: نظرية القديم الزماني التي قالها الحكماء في إثبات حدوث العالم، فإنها مبنية على قاعدة السنخية بين العلة والمعلول، والربوبية تبطل ذلك؛ لأنّ العلاقة بين الخالق والمخلوق ليست علّية ومعلوليّة، بل ربوبية ومربوبية لكل شخص وجزء من أجزاء المخلوق، كما تبطل نظرية الفيض في الوجود التي يتبناها بعض أهل المعرفة، فإنّ لازمها الجبر، وأنّه سبحانه مجبر على أن يفيض بالعطاء.

(١) سورة يس: الآية ٥٨.

ومنها: نظرية الصدفة.

ومنها: الطفرة في الوجود حدوثاً ونهائاً وبقاءً، فإنّ المخلوق في عناية خالقه كل لحظة وأن.

ومنها: الأسباب والمسببات الطبيعية، فإنّ فعلها وتأثيرها ليس في نفسها كما يقول الطبيعيون، بل بربوبية إلهية لهما.

ومنها: أنّ التعلم والتعليم والتهديب والإنجازات التي يحققها البشر في الحياة من مظاهر ربوبيته تعالى لهم وليست من عند أنفسهم؛ لأنّه الذي يهيئ الأسباب ويزيل الموانع ويوجد الدوافع، ولو كانت من عند أنفسهم لما تفاوتوا في العلم والذكاء والمصير، وإنما هي بعنايته تبارك وتعالى على قدر استعدادات البشر.

التعليم الرابع: الربوبيات الكاذبة

تدعونا الآية المباركة إلى النظر في أفكارنا ومعتقداتنا للتمييز بين الربوبية الحقيقية والأخرى المزيفة.

إنّ وحدة الرب تقتضي وحدة النظام الحاكم في العوالم، ووحدة الغاية من الخلق والإيجاد، ووحدة التربية والتهديب تكويناً وتشريعاً. كل على حسب مستواه من الإدراك ووظيفته الإلهية في الوجود؛ لذلك نسب الحمد إلى الربّ بصيغة المفرد والعالمين بصيغة الجمع، فإنّ تنوّع العوالم في جواهرها ومظاهرها وآثارها يشهد لعظمة الخالق وسعة علمه وحكمته، ويشهد لوحدة الربّ وحدة النظام والغاية والترابط في التأثير، ووحدة الربوبية تقتضي وحدة الألوهية ووحدة الحاكمية للملازمة بينهما، فإنّه إذا لم

يكن للعالم ربّ سوى الله عزّ وجلّ لم يكن سواه إلهاً ومعبوداً، فلم يكن سواه حاكماً ومشرعاً، وبذلك تبطل نظريات عديدة، ولها مدارس حاكمة في العالم اليوم قائمة على ربوبيات كاذبة:

الربوبية الاقتصادية والسياسية

الأولى: نظرية تعدد الربوبية في الاقتصاد والسياسة والتعليم التي يقوم عليها العالم المعاصر بتقسيم العالم إلى دول يعبرون عنها بالعظمى هي التي تملك تشيئة العالم وإدارته اقتصادياً وسياسياً وأمنياً، وأخرى مربوبة تابعة لا تملك من أمرها شيئاً، وأخرى غنية وفقيرة ومتحضرة ومتخلفة وهو تصور باطل؛ لأنّ الربّ هو الذي يوجد ويكوّن وينمي، وهؤلاء يتصرفون بعباء الله وخيره، فالأولى أن يعبروا عن أنفسهم بالمدراء هم يديرون ويكونون وسائط في الإدارة وليسوا بمرين.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

والذين يقودون العالم من أهل الكتاب بأصنافهم هم الذين ساقوا البشرية إلى الظلم والفساد والقتل والدمار بسبب سياستهم القائمة على الربوبية المتنوعة، فربوبية المال والسياسة والاقتصاد والتقنية والعلوم المختلفة التي قدمت للبشر الخدمات لكنها في النهج المخالف للسنن

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

الواقعية والنهج الإلهي؛ لذلك كلما تتطور العلوم والتقنيات تتراجع المعنويات والقيم؛ لأنّ ربوبية المادة والسياسة هذا مآلها، فلذا دعتهم الآية إلى الحق الذي عليه تدور السعادة في الحياة البشرية، وهو توحيد الربوبية والتخلي عن كل ربوبية من دون الله.

عبودية الشيطان

الثانية: نظرية تعدد العبودية، أي الطاعة التي تقوم عليها الأحزاب والجماعات والأجهزة المختلفة، فإنّ كل طاعة هي نوع عبودية، وكل طاعة لا تستمد شرعيتها من الله عزّ وجلّ ولا تنتهي إليها فهي خروج عن سنن التكوين والتشريع وعبودية للشيطان؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(١).

ربوبية القانون

الثالثة: نظرية تعدد الحكم والقانون التي تقوم عليها عموم دول العالم؛ إذ جعلت لنفسها حق التشريع والتقنين بما تراه مناسباً، وأقامت مجالس، وشرّعت قوانين وأنظمة مخالفة لتشريع الله سبحانه، فإنّ كل تشريع لا يستمد من تشريع الباري عزّ وجلّ يكون خارجاً عن السنن، ولذا وصف الباري عزّ وجلّ كل من حكم بغير ما أنزل الله بالفسق^(٢) والظلم^(٣) والكفر^(٤).

(١) سورة يس: الآية ٦١.

(٢) إشارة إلى سورة المائدة: الآية ٤٧.

(٣) إشارة إلى سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٤) إشارة إلى سورة المائدة: الآية ٤٤.

عبودية الطرق والمذاهب

الرابعة: نظرية تعدد الاعتقادات، وأنها جميعاً توصل إلى الله سبحانه، وكذلك تعدد الشرائع وتعدد الطرق إلى الله سبحانه، فإنه ليس للخلق إلا عقيدة حقّة واحدة والباقي باطلة، وليس له إلا شريعة واحدة وباقي الشرائع باطلة، والطريق إلى الله واحد وباقي الطرق باطلة؛ لأنّ الحق واحد بسيط لا يتعدد ولا يتجزأ، والعقيدة الحقّة والشريعة الكاملة والطريق إلى الله منحصر بمحمد وآل محمد ﷺ، فكل عقيدة مخالفة لهم وكل شريعة وأحكام مخالفة لشريعتهم وكل طريقة غير طريقتهم تكون باطلة، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١)، والحبل معروف، ويستعمل في كل سبب منيع يوصل به إلى البغية والحاجة^(٢).

وهذا الاعتبار يقال للعهد وللقرآن والنور والدين والإمام حبل؛ لأنّها من مصاديقه، وحبل الله من باب الإضافة الحقيقية لبيان أن لا يوجد طريق يربط الخلق ويشدّهم ويوصلهم إلى الله سوى حبل واحد وهو طريق علي بن أبي طالب ﷺ، فالاعتصام بغيره ضلالة في الفكر، ومعصية في الأعمال، وفشل في الغايات، وهو ما يعززه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣)

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٢) انظر مفردات الراغب: ص ٢١٧، (حبل)؛ مجمع البحرين: ج ٥، ص ٣٤٧، (حبل)؛ المعجم الوسيط: ج ١، ص ١٥٣، (حبل).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

واتفق المسلمون على أنّ رسول الله ﷺ لم يعين للمسلمين صراطاً مستقيماً غير علي بن أبي طالب عليه السلام، وبه تواترت الأخبار، فصراط الله واحد هو صراط علي وهو حبل الله، وكل السبل الأخرى موجبة للتفرّق.

فرق الصراط عن السبيل

والملفت أنّه وصف طريقه سبحانه بالصراط مع النسبة الحقيقية التي تتضمن التشريف، بينما وصف الطرق الأخرى بالسبل، مما يدل على أنّ الصراط غير السبيل إذا اجتمعا، وإن أُطلق أحدهما على الآخر إذا افترقا، والفرق بينهما عند الاجتماع أنّ الصراط الطريق السهل ^(١)، ولا يكون الطريق سهلاً إلا إذا كان مستقيماً خالياً من التعرجات والالتواءات، وموصلاً إلى الغاية، والسبيل أعمّ منه، وهو كل طريق مسلوكة ^(٢) سواء كان مستقيماً وموصلاً إلى الغاية أم لا، وإذا أُريد به الصراط أُضيف إلى الاستقامة أو إلى لفظ الجلالة، كقوله (سبيل الله) وفي الآية بيان أن تعدد السبل تفرّق عن سبيل الله.

آل محمد ﷺ صراط الله

والخلاصة: أنّ صراط الله وسبيله واحد وهو صراط علي والأئمة عليهم السلام، وكل طريق آخر غيره يفترق عن سبيل الله، ولا يوصل إلى المطلوب، وقد تضافر هذا المعنى بطرق الفريقين، ففي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿آل محمد هم حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا

(١) معجم الفروق اللغوية: ص ٣١٣، (١٢٦٠)؛ مفردات الراغب: ث ٤٠٧، (سرط).

(٢) المعجم الوسيط: ج ١، ص ٤١٥، (أسبلت).

يُحِبُّ اللَّهُ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا^(١) ﴿٢﴾ .

وفي الدر المنثور عن زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَارِدُونَ عَلَيَّ الْحَوْضِ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلَفُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ﴾ قيل: وما الثقلان يا رسول الله ﷺ؟ قال ﷺ: ﴿الأكبر كتاب الله عز وجل سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به... والأصغر عترتي، وأَنْتَها لَنْ يَفْتَرَقَا حَتَّى يَرَادَ عَلَيَّ الْحَوْضِ، وَسَأَلْتُ لَهما ذاك رَبِّي فَلَا تَقْدَمُوهُما فَتَهْلِكُوا، وَلَا تَعْلَمُوهُما فَإِنَّهُما أَعْلَمُ مِنْكُمْ﴾^(٣) وهو محكم الدلالة.

ومعلوم أنَّ القرآن وحده لا يكفي لبيان معانيه وتفصيل أحكامه ورفع متشابهاته، وليس من شأن كل أحد بيان ذلك إلا الإمام، فثبت أنَّ القرآن يرجع إلى الإمام، ولذا ورد عن السجادة عليه السلام: ﴿حبل الله هو القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام﴾^(٤) .

عبودية المدارس

الخامسة: نظرية تعدد المدارس في الهداية وتزكية النفوس وتربية الأجيال، وأنها جميعاً توصل الإنسان إلى كماله وسعادته، فإنَّها لا تخلو من محذورين:

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣ .

(٢) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٩٤، ح ١٢٣؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٣٧٧، ح ٣٠٤ .

(٣) المعجم الكبير (للطبراني) : ج ٣، ص ٦٦؛ الدر المنثور: ج ٢، ص ٢٨٥؛ كنز العمال: ج ١، ص ١٨٦، ح ٩٤٦ .

(٤) التفسير الصافي: ج ١، ص ١٦٥؛ مواهب الرحمن: ج ٦، ص ٢٣٤ .

أحدهما: أن تكون باطلة في نفسها فلا توصل الى الغاية، نظير المدارس المادية بأنواعها وأصنافها، والواقع الذي يعيشه البشر اليوم من فساد وانحلال وشيوع الأمراض وقساوة القلوب شاهد على بطلان هذه النظريات الحاكمة في المجتمعات.

ثانيهما: أن تكون ناقصة، كالمدارس السلوكية والأخلاقية والصوفية ونحوها التي تحفز في الإنسان حبّ الخير وتدعوه إلى سلامة السلوك، وهذه الدعوات ليست من ابتكاراتها بل مأخوذة من الأنبياء والأديان السماوية؛ لأنّ ما يدعو إليه الأنبياء مما يطابق الفطرة والعقل السليم الخالي من نوازع الشر، فلا كمال في الهداية والتزكية والتربية إلّا عند الأنبياء، وأكمل ما لديهم من تعاليم وإرشادات تلخصت في بعثة النبي المصطفى ﷺ، كما تضافر في الكثير من الآيات والروايات بأنّه يُعلّم الناس الكتاب والحكمة ويزكيّهم، ولولاه لما كانوا يعلمون وفي ضلال مبين^(١).

ومنه يتضح أن كل ربوبية وقيادة وإدارة وكل طاعة واتباع وكل نظام وقانون يجب أن يكون من الله تعالى وإليه، وكل ما يزعمه البشر من مزاعم تخالف هذه الحقيقة الواقعية فإنّه هبوط في المستوى الإنساني، وجحود وإنكار للنعم الحقيقية، ولا بد وأن ينصدم بالواقع ويبتلى بالفشل، واليوم تتأكد هذه الحقيقة بظهور الفشل والفساد والظلم في كل ربوع المعمورة.

(١) إشارة إلى الآيات ١٥١ من سورة البقرة؛ والآية ١٦٤ من سورة آل عمران؛ والآية ٢ من سورة الجمعة.

التعليم الخامس: مقومات الربوبية

إِنَّ الْآيَةَ تَعَلَّمْنَا أَنَّ الْحَمْدَ يَتَقَوَّمُ بِالرَّبُوبِيَّةِ، وَهِيَ رَبُوبِيَّةٌ إِحْسَانِيَّةٌ تَفْضُّلِيَّةٌ لَا عَنْ اسْتِحْقَاقٍ لِلْمَرْبُوبِ، وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَعِيشُهَا الْعَبْدُ هِيَ اسْتِحْضَارُ نِعَمِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَالْإِذْعَانُ لَهَا وَإِظْهَارُ ذَلِكَ بِالذِّكْرِ، فَيَبْدَأُ يَوْمَهُ بِالْحَمْدِ، وَيَتَوَسَّطُهُ بِالْحَمْدِ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَالْعَمَلِ، وَيَخْتِمُهُ بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ يَعَلِّمُنَا أَنَّ الْحَمْدَ هُوَ مَبْدَأُ الْوُجُودِ التَّكْوِينِيِّ، وَمَبْدَأُ الْقُرْآنِ وَالْوُجُودِ التَّدْوِينِيِّ وَهُوَ مَبْدَأُ الْوُجُودِ التَّشْرِيعِيِّ فِي الصَّلَاةِ، وَفِي الْخَاتِمَةِ يَخْتِمُ الْمُؤْمِنُونَ دَعَاءَهُمْ بِالْحَمْدِ؛ إِذْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) فَعَالَمُ الْإِمْكَانِ تَكْوِينًا وَتَشْرِيعًا يَقُومُ عَلَى مَنْهَجِ إِلَهِي وَاحِدٍ مَبْدُوءٍ وَخَتَامِهِ الْحَمْدُ، فَإِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ إِلَهِيًّا رَبَّانِيًّا لَا بَدَّ وَأَنْ يَطَابِقَ هَذَا الْمَنْهَجَ، وَيَقُومَ عَلَى جُمْلَةِ مَقُومَاتِ:

الأول: الابتداء بالعطاء قبل الاستحقاق ودون النظر إلى الاستحقاق.

الثاني: العطاء الدائم بلا مقابل وبلا انقطاع، وَلَا مَنَّ وَلَا ذَلَّ.

الثالث: اقتران العطاء بالحكمة ليكون نافعاً يلازم التربية والتعليم والتهذيب.

الرابع: سعة العطاء وتنوعه.

هذه خصائص العطاء الإلهي؛ لذلك استحق الحمد المطلق، وَلَا يَوْجَدُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ غَيْرَهُ.

(١) سورة يونس: الآية ١٠.

وأقرب هذه الحقيقة بمثال في تكوين الإنسان، فإن أصله يتقلب في عوالم الأرواح والأشباح والذر، ثم قدر البارئ له الوجود في الدنيا فأودعه أصلاب الآباء والأجداد، فهو يتقلب فيها حتى يحين موعد مجيئه، فيكون نطفة نازلة من صلب الأب إلى رحم الأم، فمن أودعها؟ ومن أحيها؟ ومن جمع فيها كل خصائص الآباء والأمهات؟ ثم يتحول إلى علقة ثم مضغة ثم عظام ثم لحم، وكلها مركبة تركيباً دقيقاً متقناً متناسقاً، ثم يفيض عليه الروح وفيها العقل والقلب والمشاعر والأحاسيس، وكلها نعم عظيمة لا تقابل بثمان، والسؤال لماذا خلق الله الإنسان؟ هل البارئ محتاج إلى خلقه؟ وما هي تلك الحاجة؟ ولو يجتمع كل العالم بما له من قوى وقدرات وابداعات وانجازات لا يمكن أن يقول قدمْتُ شيئاً لغيري بلا مقابل أبداً.

كل شيء بثمان

كل البشر بأصنافهم وأنواعهم بما فيهم الملوك والوزراء والعلماء والتقنيون وغيرهم لا يعملون شيئاً إلا لأجل انتفاعهم به إما منفعة مادية أو منفعة معنوية.

فالرئيس والوزير والمدير يقدم الخدمات ويسعى للظهور بالمظهر الحسن لماذا؟ الجواب: لأجل أن ينتفع هو بحسن السمعة، أو لأجل انتخابه في دورة ثانية، أو الارتقاء إلى درجة وظيفية أعلى وهكذا، فليقل أحد من الناس أنه قدم خدمة وإحساناً إلى الناس بلا مقابل، حتى أهل الإيمان الكثير منهم يقدمون الخدمات لأجل تحصيل الثواب أو القرب من الله تعالى، إلا الأنبياء والأولياء ومن يتعلم منهم لا يعملون لأجل أنفسهم بل لأجل

الناس؛ لأنهم يمثلون الله سبحانه في عبادته، وأخلاقهم هي أخلاقه، فلا يطلبون مقابل ما يعملون من جزاء أو مقابل، وما يقدمونه للبشر يريدون به تعليمهم وإكمال عقولهم ونفوسهم ليعيشوا سعداء، كما يقدمونه بلا تمييز بين شخص يستحق وآخر لا يستحق، حتى الذين يقتلونهم ويأكلون حقوقهم لا يمنعونهم من عطائهم.

وإذا أراد الإنسان أن يكون إلهياً في المنهج لا بُدَّ وأن يكون معطاء في كل شؤونه، وأن يكون عطاؤه بهذه المواصفات أو مقارباً لها، وهي صفة أنبياء الله وأوليائه، وهي إحدى علل اصطفتهم بالنبوة والولاية، فإنهم خير محض لا يصدر منهم قبيح أو شر، ولا يطلبون نفعاً أو أجراً مقابل خدماتهم العظيمة للبشر، وهذا ما يعززه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١).

فجعل أجر تبليغ الرسالة وتعليم الناس وهدايتهم إلى ربهم مودة قرباه، وهذا الأجر لا يتنفع به النبي ﷺ ولا القريبى، بل النفع يعود إلى الناس أنفسهم؛ لذا قال في آية أخرى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾^(٢).

وعن الإمام الباقر عليه السلام يعني أجر المودة الذي لم أسالكم غيره فهو لكم تهتدون به، وتنجون من عذاب يوم القيامة^(٣).

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٢) سورة سبأ: الآية ٤٧.

(٣) الكافي: ج ٨، ص ٣٧٩، ح ٥٧٤؛ نفحات الرحمن: ج ٥، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

وفي سورة الدهر كشف الباري عز وجل عن حقيقة إخلاصهم ﷺ في قضية إطعام المسكين واليتيم والأسير، فقال عز وجل عن لسانهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿١﴾ أي لا نريد ممن أحسنا إليه جزاء وهو النفع المادي ولا شكوراً وهو النفع المعنوي كالملاح والدعاء، وتدل على ما ذكرناه من جهات:

الأولى: أنهم ﷺ أطعموا الجياع مع حاجتهم الشديدة إلى الطعام، وقد روى الخاصة والعامة أن النبي ﷺ في اليوم الرابع الذي أصبحوا فيه بعد صيام ثلاثة أيام لم يأكلوا طعاماً فيها رأى علياً والحسين ﷺ وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، فقام وانطلق معهم إلى بيت فاطمة ﷺ فرآها في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها، وغارت عيناها، فساء ذلك فتزل جبرئيل وقال: خذ يا محمد! هنالك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة (٢).

ومضامين السورة تدل على أنها هدية إلهية إلى رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ تحدثت عما ادخره الباري لهم من العطاء الكبير.

وعن الإمام الباقر ﷺ أنهم ﷺ ما قالوا بألستهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾ (٣) وإنما أضمره في أنفسهم

(١) سورة الإنسان: الآيات ٩ - ١٠ - ١١.

(٢) انظر كشف الغمة: ص ٣٠٩ - ٣١٠؛ زبدة التفاسير: ج ٧، ص ٢٧٩؛ جامع

أحاديث الشيعة: ج ٩، ص ٣٦٦، ح ١٠٩١.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٩.

فأخبر الباري بإضمارهم. يقولون: لا نريد منكم جزاء تكافؤنا به ولا شكوراً تشون علينا به، ولكننا إنما أطعناكم لوجه الله وطلب ثوابه^(١).

العمل بمنطق الوظيفة لا الربح

الثانية: أن الذين أطعموهم كان بعضهم مسلماً وبعضهم مشركاً وهو الأسير، لكنهم ﷺ لم يميزوا في ذلك بينهم؛ لأن شأنهم العطاء للجميع.

الثالثة: أنهم عللوا إطعامهم وعدم طلبهم للأجر والشكور بأمر واحد وهو الخوف والحذر من التقصير في أداء حق الباري عز وجل، وشكر نعمه الذي سيظهر أثره في يوم القيامة بيوم صعب عبوس وقمطير، أي شديد يقبض القلوب والنفوس.

فأخلاق أولياء الله عز وجل تتميز بالعطاء الدائم دون مقابل ودون من، وهذا من وجوه الفرق بين أولياء الله وغيرهم، فإن أولياء الله يعملون بمنطق الوظيفة وأداء حقوق الله عليهم، وهو نوع من الحمد لله عز وجل، وأما غيرهم فيعملون بمنطق النتيجة والاسترباح في كل ما يعملون ويقدمون، فعلى المؤمن الذي يقتدي بهم ﷺ أن يتعلم منهم العطاء والحمد في كل تفاصيل حياته ليكون متشبهاً قريباً منهم.

يقدمون لوجه الله تعالى

ولا يقال: الآية الشريفة دلت على أنهم يريدون وجه الله والخلاص من اليوم العبوس وهذا نفع، وتضافر عنهم ﷺ طلب الثواب وعلو الدرجات.

(١) الأمالي (للصدوق) : ص ٣٣٣، ح ٣٩٠؛ البحار: ج ٦٧، ص ٢٢٦.

والجواب: نعم لا خلاف في أن جميع العباد حتى الأنبياء والأوصياء يعملون لله لأجل رضاه وأداء وظائف العبودية، وهي عبادة الأحرار التي وصفها الأئمة عليهم السلام في أحاديث عديدة، وهي التي قال عنها أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك﴾^(١) ففرقهم عن الناس من وجوه:

أحدها: أنهم يعملون لحب الله ووجهه الكريم ليس لطلب الثواب ودفع العقاب، فلو لم يكن هناك ثواب وعقاب لعبدوه خالص عبادته.

ثانيها: أنهم يعملون لنيل الثواب ودفع العقاب من باب وظيفة العبودية لا النفع، أي لأن الله سبحانه أراد من عباده أن ينالوا الجنة ويخلصوا من النار فهم يطلبون ذلك، وهذا من التفاني والانقطاع لحب الله سبحانه وامتنال إرادته.

ثالثها: أنهم يطلبون الثواب والخلاص من العقاب لتعليم الناس طلب الغايات العظيمة في أعمالهم، فهم وإن طلبوا فإنه ليس لنفع أنفسهم، بل لنفع الناس بتعليمهم الأسلوب الصحيح للنية والعمل، وذلك كله لا يتنافى مع الإخلاص، بل هو تمام الإخلاص، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿إن العمل الخالص الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله﴾^(٢).

وبذلك يتضح بطلان ما نسب إلى بعض الفقهاء والمتكلمين من الخاصة

(١) الأنوار النعمانية: ج ٢، ص ٢٤٠.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ١٦، ح ٤؛ البحار: ج ٦٧، ص ٢٥٠، ح ٢٦.

والعامة من القول ببطلان العبادة إذا قصد بفعلها تحصيل الثواب أو الخلاص من العقاب، بدعوى أنّ هذا القصد يتنافى مع الإخلاص في العبادة^(١)؛ لأنّه سبحانه قال: ﴿قَادُغُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٢) فلا إخلاص إلّا بقصد وجهه الكريم والآية الشريفة المتقدمة شاهدة عليه؛ اذ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾^(٣) لعدم التنافي بين قصد الثواب والإخلاص من العقاب مع طلب وجه الله سبحانه؛ لأنّه سبحانه وعد المؤمنين بالثواب على الطاعة والوعيد على المعصية، فقصد هما هو قصد لوجه الله تعالى، وكل ما أُريد به وجه الله تعالى فهو عبادة.

ما هو جزاء المخترعين من غير المؤمنين؟

كما يتضح الجواب عن سؤال كثيراً ما يثار حول الجزاء الوفاق الذي يستحقه المخترعون والمهندسون والصنّاع الذين قدموا خدمات عظيمة للبشرية مثل مخترع السيارة والطائرة وأجهزة الاتصالات والإنترنت ونحوها، أو الذي اكتشف الكهرباء أو اخترعها أو استثمارها على حسب اختلاف الآراء فيها، لكن بعضهم ماتوا على غير النهج الإلهي فكيف سيحاسبهم الباري عزّ وجلّ؟
والجواب من وجوه:

(١) انظر عدة الداعي: ص ١٦٨؛ البحار: ج ٦٧، ص ٢٣٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٥.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٩.

أولاً: أنهم وإن قدّموا خدمات كبيرة لكنّهم كانوا يريدون بها النفع المقابل إما النفع المادي أو المعنوي، وقد نالوا هذا النفع من الشهرة وعلو السمعة والأموال ونحوها في الدنيا، ومن سنّة الله تعالى أن يعطي لمن أراد الدنيا وسعى لها سعيها في الدنيا، ويعطي لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها في الآخرة؛ لذلك ورد أن الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن^(١) وما قدموه هؤلاء فغالبتهم لا يريدون به وجه الله سبحانه، بل وجه الناس، فأجرهم وجزاؤهم على الناس وقد نالوه في الدنيا، فإن قصّر الناس معهم لم يستحقوا تعويضاً من الله، لأنهم لم يعملوا لأجله.

ثانياً: أنّ بعض هذه الخدمات التي قدموها فيها بعدان إيجابي وسلبي، فكما أنّ الإيجابي فيه الأجر فإنّ السلبي له أثر، فلو لاحظنا أجهزة التواصل فإنّ مع ما فيها من نفع فإن فيها أضراراً كثيرة وخطيرة أيضاً على الأفكار والأخلاق، وسُخّرت لخدمة المصالح الاستعمارية المعادية للشعوب، والنتائج والآثار تحسب على أسبابها، فكما أنّ من يكون سبباً للخير ينال خيراً فإنّ من يكون سبباً للشر ينال شراً، فإذا لوحظت المحاسن والمساوئ ربما تعادلت وسقط هذا بهذا.

(١) انظر فقه الرضا عليه السلام: ص ٣٣٩، وفيه: "الدنيا سجن المؤمن، والقبر بيته، والجنة مأواه، والدنيا جنة الكافر"؛ الوسائل: ج ١٦، الباب ٦٣ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص ١٧، ح ٢٠٨٤٦؛ تأريخ بغداد: ج ١١، ص ٣٤٨.

مقياس الجزاء الإلهي

وثالثاً: أن الجزاء الإلهي يقاس بمنظورين:

الأول: المنظور اللطفي

فيعاملهم الله عز وجل بلطفه ورحمته؛ لأن رحمته وسعت كل شيء^(١)، ولذلك يكون أمر هؤلاء موكولاً إلى رحمة الله ولطفه.

وقد وعد الباري أن يجزي كل محسن بالإحسان، فإن صدق على أعمالهم عنوان الإحسان ينالون الأجر والثواب، لكن الباري عز وجل قيد جزاءه الأخروي بالإيمان؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(٢)، والنقير النقرة الصغيرة في ظهر النواة. يضرب به المثل في الشيء الطفيف^(٣)، فغير المؤمن ينحصر جزاؤه على ما يقدمه من خدمات بالدنيا. أمّا الآخرة فهي خاصة لأهل الإيمان.

والثاني: المنظور العدلي

بأن يلحظ ما قدّمه بمنظار العدل، وبهذا المنظور لا يوجد من يستحق الأجر على الله عز وجل؛ لأن كل ما لدى الصانع والمخترع هو من الله تعالى، فالوجود والحياة والعقل والعلم والإرادة والعزم والإلهامات التي

(١) إشارة إلى سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٤.

(٣) مفردات الراغب: ص ٨٢١، (نقر).

تنير له الطريق والصحة والسلامة وإزالة الموانع وكل ما يقع في مقدمات الإنجاز والاختراع هو من الله عزَّ وجلَّ، فليس للمخترع والمكتشف ما يستحق عليه الأجر، بل يجب عليه الحمد والشكر أداءً لحقوق الربوبية التي لا تعدُّ ولا تحصى، ويجب على الناس أن يشكروا الله تعالى على تسخيرهم لبعض عبادته في تقديم هذه الخدمات.

إلى أهل الفن والأدب

وهنا نلفت الانظار إلى أمور:

الأول: أنَّ أهل الأدب والفن والشعر حينما ينظرون إلى الجمال في الوجود ويتمتعون بصفات الخير فيه ويضيفون عليها جمالاً فيتغزلون بها ويمدحونها يجب أن يذكروا الصانع الذي صيَّرها جميلة أولاً، ويمدونه على هذه النعمة، فلو امتدحوا جمال القمر وروعة الزهور وخضرة الحقول وعذوبة الهواء والسماء وسحر البلبال والطيور، وعجائب البحار، ولو تفننوا في وصف الجمال والجلال في وجود بني آدم وأفعالهم ونسوا من أبدع وصنع فإنَّ هذا ضد الفن والأدب وجفاء عظيم بالنعمة، بل هو أدب واهم؛ لأنَّ كل ما في الوجود من سحر وجمال ليس من نفسه، بل مكتسب من الله سبحانه، فهو الجميل المطلق، وهو المبدع المطلق، وكل جمال وإبداع يعود إليه، وكل ما في الأشياء من صفاء وحسن فهو انعكاس لصفائه وحسنه عزَّ وجلَّ، وهنا يتميز الأديب الحقيقي الذي يعطي لكل جمال حقه، فيصف الحقيقة الجميلة وتجلياتها، وأمَّا غيره الذي يقتصر في نظره على الجمال المكتسب ويغفل عن الحقيقة فقد خالف قواعد الأدب مرتين: مرّة لما انبهر

بجمال المخلوق ولم ينبهر بجمال الخالق، ومرة بوصف الجمال المكتسب دون الجمال الذاتي، فمثله مثل من تبهره الزهرة المصنوعة ويغض الطرف عن زهرة الراية الفاتنة، أو تسحره الشمس المرسومة ولا تسحره سيدة السماء الساطعة، ولعل من هنا ذمت بعض الآيات الشعراء ووصفت اتباعهم بالغاوين وأتّهم في كل واد يهيمون وأما هم ففوق ذلك^(١)، ثم استثنت منهم المؤمنين؛ لأنّ المؤمن لا يغفل عن الجمال الحقيقي في الوجود والانبهار به مهما نظر وتفنن في وصف جمال الأشياء وتغزل بحسنها.

إلى الطبيعيين

الثاني: أنّ الطبيعيين من فيزيائيين وكيميائيين وفلكيين وجيولوجيين وغيرهم من أهل كل علم وفن يتعلق بالوجود التكويني حينما ينظرون إلى النظام الدقيق في الوجود والقوانين المقننة الحاكمة فيه والترابط والتنسيق والتكامل بين حقائق الأشياء فإنّهم يجب أن لا يغفلوا عمن كوّن وأبدع ونظّم ذلك، فلو اقتصروا في نظرهم على المخلوق وأدهشتهم أسرارته وحكمته وغضوا النظر عن الخالق المكوّن جحوداً منهم أو إهمالاً، فإنّهم خرجوا عن موازين العلم والمنطق مرتين: مرة لأنّهم أولوا المعلول العناية ولم يولوا العلة العناية، مع أنّ جمال المعلول وحكمته مظهر جمال العلة وحكمتها، وقواعد العلم والمنطق تملي عليهم معرفة السبب قبل معرفة المسبب، ومرة لأنّهم حيث يذكرون آثار الأشياء ومنافعها وخصائصها

(١) إشارة إلى الآيات: ٢٢٤ - ٢٢٧ من سورة الشعراء.

ويشيدون بها يجب عليهم أولاً أن يذكروا الخالق المكوّن؛ لأنّ كل الأشياء وخصائصها ليست من نفسها، فالعقل يفرض على أهل العلوم والمعارف أن يشيدوا بجمال الخالق وجلاله، ويجتهدوا لمعرفة والإذعان له وحده وشكره وطاعته قبل كل شيء.

إلى الملاحظة

الثالث: أنّ الذين ينكرون وجود الخالق قد أغلقوا منافذ عقولهم وقلوبهم، وابتعدوا كثيراً عن الحقيقة؛ لأنّ العقل والمنطق والعلم كلها تتفق على أنّ ما في الوجود من نظم وإبداع وخصائص وآثار عظيمة ليست من نفسه، وإنّما مكتسبة من غيره، فيجب السعي لمعرفة الغير، وهذا السعي يجب ان يتم بطريقتين لا ثالث لهما.

الطريق العقلي للمعرفة

أولهما: العقل الذي يفرض على كل عاقل الإذعان لحقيقة أنّ كل مخلوق له خالق، وكل حادث له محدث، كما يفرض أنّ الخالق يجب أن يتميز عن المخلوق في كل شيء، فلو كان مثله بطل أن يكون خالقاً لغيره، ويفرض أيضاً أنّ الخالق يتصف بصفات لا محدودة في الجمال والجلال؛ لذا يصعب على العقل الإحاطة بها أو دركها؛ لذلك ينحصر طريق معرفة

تفاصيله منه، فهو الذي يعرف عن نفسه، ويذكر خصائصه وأوصافه ﴿بك عرفتك، وأنت دلتني عليك، ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت﴾^(١).

(١) إقبال الأعمال: ج ١، ص ١٥٧؛ البحار: ج ٩٥، ص ٨٢، ح ٢.

﴿يا من دل على ذاته بذاته، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته﴾^(١).

الطريق النقلي للمعرفة

ثانيهما: النقل عبر القرآن والسنة الشريفة، فإذا سعى أهل الإلحاد لمعرفة ما يعجزون عن معرفته بدعوى أنَّهم لا يؤمنون إلا بما يعقلون أو يحسّون يكونون قد ابتعدوا عن موازين العقل والحس مرتين: مرة لأنَّهم طلبوا معرفة ما يستحيل معرفته بالعقل والحس، فمثلهم مثل من يطلب من الطفل الصغير معرفة أعقد النظريات الرياضية؛ لأنَّ المحدود يستحيل أن يعرف ما يفوق حده، ومرة لأنَّهم يفقدون وسيلة المعرفة، فإنَّ معرفة الخالق من عالم الغيب وهم من عالم الحس والشهادة، وعالم الغيب لا يُدرك بالحواس، بل بالأدوات المسانخة له وهو الوحي، فالنظر إلى عالم الغيب بواسطة الحس والعقل يكون من قبيل طلب الوصول إلى القمر بواسطة السيارة أو القطار، ولذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث قدسي: ﴿يا ابن آدم! لو أكل قلبك طائر لم يشبعه، وبصرك لو وضع عليه خرق إبرة لغطّاه، تريد أن تعرف بهما ملكوت السماوات والأرض؟ إن كنت صادقاً فهذه الشمس خلق من خلق الله، فإنَّ قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول﴾^(٢) وهو من التعليق على المحال، وإبطال التالي للمقدم، أي أنَّه حيث يعجز عن ملئ عينيه بالنظر إلى الشمس مع أنَّها محسوسة فهو أعجز من أن يملأ عينيه من غير المحسوس.

(١) البحار: ج ٨٤، ص ٣٣٩، ح ١٩.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٩٣، ح ٨؛ التوحيد (للصدوق) ص ٤٥٥، ح ٥.

لا تفكر في ذات الله تعالى

وهنا ألفت نظر مَنْ يريد معرفة الخالق بعقله المحدود فأقول له: لا تفكر في ذات الله وكيفيته؛ لأنّك لا تصل بل تضل، وربما ألقاك بوادٍ سحيق، كما لو تحمل عقل الإنسان معلومات أكبر من طاقته فربما جنّ أو انهار؛ لأنّ للعقل محدودية فلا يطبق ما لا محدودية له، وإنّما تفكر وتدبر في آيات وجوده وجمال صنعه في خلقه، فإنّ هذا الطريق سليم ويوصلك إلى الحقيقة بأسرع وأخصر مسافة.

فكّر في الشمس حينما تشرق في الصباح فإنّها تذكّرنا بخالقها وموجدّها، وكل ما للشمس من نعم وفوائد وآثار فإنّها ليست من نفسها، بل من خالقها، فاشكر الخالق ولا تشكر الشمس؛ لأنّها هي في نفسها شاكرة عابدة مطيعة لما سخرّها الله له، وتعاقب الليل والنهار ونزول المطر ونبات الأرض وكل شيء في الوجود يذكرك بوجود خالق منعم لا يستحق الحمد والطاعة إلّا هو.

ماء المطر واحد في حقيقته وخصائصه ينزل على تراب الأرض فينبت به أنواع الأشجار والأعشاب والثمار والأزهار. كلّ له لون وطعم وخصائص، ويتكرر ذلك على مدار العام، بل وجودك أنت فإنّ القانون الحاكم فيه كقانون الأشجار ليس للإنسان سلطة على تكوين جسده، ولا على النظام والتفاعلات الجارية فيه، ليس له سلطة إلّا على لقمة الطعام، فإذا مضغها وابتلعها فقدّ السيطرة عليها فتدخل في جوفه وتتحلل إلى عناصرها الأولية، وكل جزء منه يمتص منها ما يفيدّه وينفعه ويترك ما لا ينفعه، ثم الزائد عن حاجة الجسم يدفع للخارج، كيف يقع ذلك؟ ومن

صيرَه هكذا؟ ومن علّم خلية المخ أنّ في الدم سكرًا تحتاجه فتمتصه؟ ومن علّم خلية العضلة بما تحتاجه وتمتصه؟ وهكذا سائر الأعضاء.

ولو واجه الإنسان موقفًا مثيرًا مخيفًا فإنّ نفسه تضطرب، وقلبه يخفق، وتنفسه يشتد، ويصفر لونه، وأعصابه تتوتر، وكل خلاياه وأعضائه تستعد للدفاع. هل حصل ذلك بإرادة الإنسان؟ كلا. هل جاءت من الخارج؟ كلا. هل حصلت من نفسها؟ غير معقول، فلا بد من وجود خالق ومنظّم ونظام وترباط وتنسيق بين حوادث الوجود والوجود البشري بدنيًا وروحيًا يتم به التفاعل، وكل هذه نعم لا تعد ولا تحصى.

فكل شيء في الوجود يستحق الحمد والشكر ويدعو إلى الإيمان بالله وطاعته والإقرار لرؤيته.

هذا النهج الذي يوصلك إلى المعرفة الحقة والإيمان الصحيح الصادق، أمّا الطريق الذي يسلكه الجاحدون والملاحدة فهو طريق مسدود لا يزيدهم إلا جحودًا.

إلى المقتنين وأصحاب القرار

الرابع: المشرّعون والمقننون وأصحاب القرار والإرادة السياسية والإدارية فإنّ العقل والمنطق وقواعد التشريع تفرض عليهم.

أولاً: أن يواكبوا تشريعات الله سبحانه للوجود؛ لأنّه الأعراف بما يصلح الخلق ويسعدهم ويوصلهم إلى غاياتهم.

ثانياً: أن لا يشرّعوا ما يخالف حكم الله؛ لأنّهم يفقدون سلطة التشريع،

ودعوى حكم الشعب بالشعب لا تملك السلطة على مغايرة حكم الله؛ لأنّ الشعب نفسه لا يملك السلطة الحقيقية على نفسه، وإنّما سلطته مكتسبة من الله، فالمالك الحقيقي وصاحب السلطة الحقيقية في الوجود هو الله، فإذا شرّع المشرّعون القوانين ووضعوا الأنظمة على خلاف تشريع الله فإنّهم يخالفون قواعد التشريع مرتين: مرة لأنّهم أعطوا لأنفسهم صلاحية التشريع وهم فاقدون لها، ومرة لأنّهم استندوا إلى سلطة الشعب في التشريع وهو الآخر لا يملك السلطة على التشريع، فالعقل والمنطق يفرضان أن يكون الحكم والقرار والقانون كلّ من الله سبحانه.

وأما المجالس النيابية وأمثالها فيجب أن تؤطر التشريع الإلهي وتطبقه على موارده، كما يفعل الفقيه والمجتهد في استنباط الأحكام الشرعية، فإنه يرجع إلى الأصول والضوابط الشرعية ويطبقها على مواردها.

مجالس المجتهدين وأهل الخبرة

وبذلك يتضح أيضاً أنّ المجالس المقننة ومجالس القضاء ومجالس الاستشارات في الوزارات والمديريات يجب أن تقتصر على الفقهاء والمجتهدين وأصحاب الخبرة في العلوم والمعارف؛ لأنّهم القادرون على تطبيق القواعد على مصاديقها، وأن يكون الانتخاب للمجالس النيابية من بينهم.

بهذا تكون الديمقراطية كما يعبرون في إطارها المنطقي الصحيح، وتكون القوانين والأنظمة مواكبة لأصول وقواعد التشريع؛ لضمان العدالة الأكبر، وما يقال في التشريع يقال في السلطات التنفيذية والإدارية.

ألا يكفي البشرية هذا الظلم والفساد المنتشر في ربوع الأرض جرّاء

الابتعاد عن نهج الله سبحانه؟

والخلاصة: أنَّ النهج الإلهي في الوجود قائم على الحمد والربوبية الإلهية في مبدأ كل عمل ونشاط وفي توسطه وفي ختامه، وإذا أراد البشر أن يكون مواكباً لهذا النهج لا بُدَّ وأن لا يغفل عن ربوبية الخالق وحمده في كل مجال ومعترك، ومتى ما غفل عن ذلك وقع في المفسد والمخاطر العظيمة، وحال العالم اليوم في شتى المجالات شاهد على هذه الحقيقة.

التعليم السادس: آثار الحمد في المنهاج اليومي

أنَّ للالتزام بالحمد في المنهاج اليومي للإنسان آثاراً مادية ومعنوية كثيرة تعود عليه. ذكرنا بعضاً منها، ودلت الأخبار الشريفة على بعض آخر.

أولاً: أنَّ الحمد شكر للنعم^(١)، وهو من موجبات زيادتها ونموها، وكل كلام وعمل لا يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع^(٢)، وأدنى الحمد الذي به يتحقق الشكر ذكره الإمام الصادق عليه السلام. قال: ﴿من قال أربع مرات إذا أصبح ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فقد أدَّى شكر يومه، ومن قالها إذا أمسى فقد أدَّى شكر ليلته﴾^(٣).

ولو قصد العبد ذلك في أثناء صلاته تكون صلاته أداءاً للواجب وشكراً للنعم، وهي من موجبات زيادة الرزق والبركة.

(١) انظر تفسير القمي: ج ١، ص ٢٨.

(٢) عدة الداعي: ص ٢٤٥؛ البحار: ج ٩٠، ص ٢١٦، ح ٢١.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٥٠٣، ح ٥؛ ثواب الأعمال: ص ١٣؛ عدة الداعي: ص ٢٦٠.

وثانياً: أنّ من موارد استحقاق الحمد حالة العطاس؛ لأنّه أمان من الموت لمدة ثلاثة أيام وهي نعمة تستحق الحمد وتثبت له حقاً في ذمة مجاوريه أن يسمّوه، ويدعوا له بالرحمة بأن يقولوا له: (رحمك الله) لأنّه أنجاه من الموت، وترداد بركة الحمد إذا ذكر الله عزّ وجلّ وصلىّ على النبي وآله.

ففي رواية ابن أبي عمير قال: عطس رجل عند أبي جعفر عليه السلام فقال: (الحمد لله) فلم يسمّته أبو جعفر عليه السلام وقال: «نقصنا حقنا» ثم قال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله ربّ العالمين وصلىّ الله على محمد وأهل بيته» قال: فقال الرجل: فسمّته أبو جعفر عليه السلام ^(١).

وهناك أثر آخر لذكر الحمد بعد العطس يظهر في البرزخ، ويخفف سؤال منكر ونكير، ويفتح للعبد باباً إلى السعادة، فقد ورد أنّ العبد لدى حضور الملكين يسألانه حينما تعود إليه الروح فيعطس، ولهذا العطس أسباب تكوينية، فإذا كان معتاداً في حياته الدنيا أن يذكر الحمد ويصليّ على النبي وآله عليه السلام وصارت من ملكاته فإنّ الملكات لا تزول بالموت، فإذا عادت إليه الروح وعطس حمد الله وصلىّ على النبي وآله، وبه يكون قد أجاب عن أكثر أسئلة منكر ونكير فيخففان عنه المسألة، وكشف عن ولائه لآل محمد عليه السلام فيشفعون له ويوسعون عليه حياة البرزخ.

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٥٥، ح ٩؛ الوسائل: ج ١٢، الباب ٦٣ من أبواب أحكام العشرة: ص ٩٤، ح ١٥٧٣١.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٦٣

وثالثاً: في الآخرة أول من يُدعى إلى الجنة الحَمَّادون، وهم الذين يحمدون الله في السَّراء والضَّراء كما ورد عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله^(١).

ورابعاً: أنّه أمان من بعض الآلام، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿من قال إذا عطس الحمد لله رب العالمين على كل حال لم يجد وجع الأذنين والأضراس^(٢) بل ويدفع البلايا والآفات.

ففي الحديث: ﴿إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدي عبدي، وعلم أنّ النِّعم التي له من عندي، وأنّ البلايا التي اندفعت عنه بتطولي، أشهدكم أنّي أُضيف له إلى نِعم الدنيا نِعم الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا^(٣) .

التعليم السابع: قضايا فلسفية تبطلها الآية

أنّ الآية المباركة تبطل أكثر من قضية استند إليها الحكماء في خلق العالم وإيجاده:

منها: أنّ علاقة الخالق بالخلق هي علاقة العلّية والمعلولية.

ومنها: أنّ السّنخية بين العلّة والمعلول هي العلاقة التي تربط بينهما، وإلّا لصدر كل شيء من كل شيء؛ إذ يستحيل صدور المباين من كل جهة من

(١) البحار: ج ٩٠، ص ٢١٥، ح ١٨؛ مستدرك الوسائل: ج ٥، ص ٣١٦، ح ٥٩٧١.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٦٥٦، ح ١٥؛ البحار: ج ٧٣، ص ٥٣، ح ٢.

(٣) انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٣٠٠، ح ٥٩؛ مستدرك الوسائل: ج ٤،

ص ٢٢٨، ح ٤٥٦٢؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٨٤؛ البحار: ج ٨٩، ص ٢١٦، ح ٣.

المباين، كما يستحيل للمباين من كل جهة أن يكون علّة للمباين من كل جهة. ومنها: أنّ الخلق حادث ذاتاً لا زماناً؛ لأنّ الخالق دائم الفيض والمخلوق دائم الحاجة، ولا توجد فاصلة زمنية لم يصدر فيها الفيض والإيجاد، وعندما يرد على هذا القول شبهة تعدد القدماء قالوا بالفرق بين القديم الذاتي وهو الخالق والقديم الزماني الذي هو الحادث الذاتي وهو المخلوق، وكل ذلك أبطلته الآية الشريفة بقوله عزّ وجلّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنّها دلت على أنّ الخالق هو الله - بجمعيّة صفاته الإلهية الذاتية والفعلية - موجد العوالم ومربيها، والمربّي يختلف تمام الاختلاف عن المربّي، فهو خالق وليس علّة، والخلق يتوقف على العلم والقدرة والإرادة لا السنخية، ودوام الفيض مقنن في ضمن الصفات الثلاث المذكورة، وإذا انتفت صفة العلّية انتفى القدم، فالعوالم كلها مخلوقة وحادثة ذاتاً وزماناً.

بطلان السنخية

إن قلت: لكن لا بد من وجود علاقة مشتركة بين الخالق والمخلوق وليست إلّا السنخية.

فالجواب:

أولاً: على فرض التسليم فإنّ العلاقة المشتركة ليست بالضرورة السنخية، بل الموجودة، فإنّها الجامع المشترك الأوفق.

وثانياً: على فرض التسليم فإنّ السنخية وكذلك الموجودة من المفاهيم وعلاقة العلّية والمعلولة لا تربط المفاهيم بل الحقائق.

والخلاصة: أنَّ جهة الاشتراك من المفاهيم ولا تربطها علاقة العليّة والمعلولية، وما يربط علاقة الخالق بال مخلوق هو الإرادة، وهي لا تستدعي وجود السنخية، والحق الذي يقتضيه التحقيق والجمع بين القولين هو أنَّ علاقة العليّة والمعلولية تجري في الأسباب الطبيعية، كتوليد النار للحرارة، فإنّها أسباب غير مختارة، ويجب وجود سنخية بينها، وإلاّ

صدر كل شيء من كل شيء، ولا تجري في العلاقة بين الخالق والمخلوق؛ لأنّ الفاعل قادر مختار، والقدرة المطلقة والاختيار لا يتوقفان على سنخية، بل على القدرة وتعلق الإرادة؛ لذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

ويتحصل: أنَّ ما ذهب إليه الحكماء في علاقة الخالق بالمخلوق لا يستند إلى وجه وجهيه، والآية الشريفة أثبتت علاقة أخرى هي علاقة الربوبية، وهي تنفي مصطلح العليّة كما تنفي الحاجة إلى السنخية.

التعليم الثامن: فصل الانسان الحمد أم الناطقية؟

إنّ المعروف بين أهل المنطق أن الفصل الذاتي للإنسان هو الناطقية، فعرفوا حقيقة الإنسان منطقياً بالحيوان الناطق، وأشكل عليهم بعض الحكماء والمفسرين بأنّ الفصل المقوم للإنسان هو الحمد، واستدل لذلك بوجهين:

الأول: أنَّ النطق سواء أُريد به الكلام أو إدراك الكليات على الخلاف

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

بينهم لا يبيّن حدّ الإنسانية الحقيقية؛ لأنّ القرآن والعتره لم يعرفوه بذلك، بل عرفوه بالحيوان الناطق الحامد.

الثاني: أنّ الإنسان إذا لم يكن حامداً، أو كان حامداً بلسانه لا بقلبه واعتقاده فإنّه يخرج عن حدود الإنسانية، ويلحق بحد البهيمية؛ لأنّ البهائم تستفيد من النعم ولا تحمدها، وضابطة الفصل أنّه إذا انتفى انتفت الحقيقة، وهو ما ينطبق على الحمد لا الناطقية^(١)، ويرد عليه:

أولاً: أنّ مراد المناطق من الناطقية ليس الكلام؛ لوضوح أنّ بعض الحيوانات ناطقة، وشهد القرآن لها بذلك كما في مثل قوله: ﴿عَلَّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ﴾^(٢)، وإنّما مرادهم قدرته على التفكير وإدراك الكليات وتطبيقها على مواردّها، وهذه قضية لا يتصف بها غير الإنسان.

وثانياً: أنّ الحمد لا يمكن أن يكون فصلاً بالمعنى المنطقي؛ لتأخره وجوداً عن الإنسان، وهو فعل من أفعاله، والذاتي لا يفارق الذات ولا يكون من أفعالها.

وثالثاً: أنّ تشبيه الآيات والروايات البشر غير الحامد بالبهيمية يراد به التشبيه من حيث الأثر لا الذات، لذلك ورد فيها كاف التشبيه والترقي إلى الأسوأ كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٣) وقول أمير

(١) انظر تفسير تسنيم: ج ١، ص ٤٣٣.

(٢) سورة النمل: الآية ١٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

المؤمنين عليه السلام: ﴿كالبهيمة المربوطة همّها علفها﴾^(١) وإلا لوجب أن يكون للإنسان أكثر من فصل بحسب ما ورد من تشبيه في الآيات والروايات، كما ورد في وصف بعضهم بأنّه كالكلب^(٢)، وبعضهم كالحمار^(٣).

ورابعاً: أنّ القول المذكور مخالف للنصوص والروايات التي نصت على أنّ الحيوانات تحمد وتسبح وتذكر الله، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٤).

فصل الذات وفصل الرتبة

وربما نجمع بين القولين فنقول: إنّ الفصل على قسمين: الفصل الذاتي التكويني، والفصل الذاتي المعنوي.

والأول: هو الذي يدخل في تكوين شخصية الإنسان الحقيقية، وهي الناطقية التي قررها أهل المنطق.

والثاني: هو الذي يدخل في شخصية الإنسان المعنوية، وهي الحمد والشكر، فإنّ مقام الإنسان في علو إنسانيته ليست الناطقية فقط، وإنّما الحالة المعنوية اللائقة به، وهي أن يكون مقرّاً مدعناً للمنعّم، حامداً شاكراً لأنعمه، وبهذا تميّز المؤمن عن الكافر، كما تميّز أهل الإيمان بمراتبهم

(١) نهج البلاغة: ج ٣، ص ٧٢، الكتاب ٤٥.

(٢) انظر سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

(٣) إشارة إلى سورة الجمعة: الآية ٥.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

ودرجاتهم، وسَمِّيناه بالفصل؛ لحمله خصائص الفصل من حيث الرتبة والمقام؛ فإذا زال زالت رتبته.

فالإنسان الكامل يدور كماله على حمده وشكره، وإلا لم يكن كاملاً، كما أنّ الناطقية إذا زالت عن الإنسان العادي زالت حقيقته، فالحمد فصل لهوية الإنسان في سمو إنسانيته، والناطقية فصل للإنسان في تكوين إنسانيته، والفرق كبير بين فصل الذات وفصل الرتبة، فإن أراد القائل بما ذكره هذا فهو وجيه، لكنه ليس بمخالف لقول المنطقة لأنه من موضوع ثانٍ، وإن أراد الفصل الحقيقي فهو منقوض ومحلول كما عرفت، وبهذا يتضح أنّ الإنسان بطبيعته الخلقية ناطق وبطبيعته الكمالية حامد.

التعليم التاسع: فروع فقهية

ويتضمن ثلاثة فروع:

الفرع الأول: يجوز للمصلي إذا قرأ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بقصد القرآنية وامتنال الواجب في القراءة وقصد الإخبار عن ثبوت الحمد لله عز وجل؛ لأنه لا يستحق الحمد إلا هو، وكذا قصد الإنشاء والذكر والدعاء؛ لإطلاق الآية المباركة، ولا دليل على المنع، فإن قيل المانع موجود، لأنه من استعمال اللفظ في أكثر من معنى وهو محال عقلاً أو منافع لخلوص الصلاة شرعاً ففيه جوابان:

الأول: قد حققنا في الأصول أنّ استعمال اللفظ في أكثر من معنى معقول وجائز، بل ضروري، وهو من مقتضيات جمال اللغة وبلاغتها.

والثاني: على فرض تسليم الاستحالة فهي مختصة بصورة استعمال

اللفظ وإرادة معنيين متغايرين في عرض بعضهما البعض على نحو الاستقلال، ولا يوجد جامع بينهما، كما إذا قال: قرأت الكتاب وأراد القرآن الكريم وكتاب العلم بناء على أن الكتاب اسم علم للقرآن، وأما في غير ذلك فلا مانع من استعمال اللفظ في أكثر من معنى عند المانعين والمجوزين^(١)، وموارد ذلك عديدة:

منها: ما إذا استعمل اللفظ بمعناه الحقيقي والمجازي - على المشهور -، كما إذا قال رأيت القمر وأراد الكوكب وأراد صاحب الوجه الجميل.

ومنها: ما إذا استعمل اللفظ في المعنى الجامع الذي ينطبق على المصاديق العديدة، كما إذا قال: (أكرم العالم) وهو لفظ مفرد ينطبق على كل من تلبس بالعلم من باب انطباق الكلي على مصاديقه.

ومنها: ما إذا كان اللفظ يدل على المعاني بالتضمن، كما لو قال عقد الزواج، فإنه يتضمن وجود عاقد ومعقود معه ومعقود عليه.

ومنها: ما إذا دل على المعنى الآخر بالملازمة العقلية، كما إذا قال: (صدر الأمر) فإنه يدل على وجوب طاعته بالملازمة مع أن الأمر معناه الطلب.

وقراءة الحمد بالدواعي الثلاثة المذكورة مما لا مانع منه؛ لأن المعنى الأصلي فيه هو القرآنية، وأما الإخبار والدعاء فهو من المعاني المتفرعة عنه بالتضمن أو الملازمة.

(١) لاتفاق الكلمة على جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى إن دل اللفظ على المعاني بالتضمن أو التلازم، وانحصار المنع بما دل عليها بالدلالة المطابقة.

الحمد قيمة عظمى

الفرع الثاني: أن للحمد قيمة عظمى عند الله وأوليائه، فعن النبي ﷺ: ﴿لو أن الدنيا كلها لقمة واحدة فأكلها العبد المسلم ثم قال: (الحمد لله) لكان قوله ذلك خيراً من الدنيا وما فيها﴾^(١) ومعنى ذلك أنها كلمة تفوق كل ما في الدنيا من خيرات وبركات.

وروي أن رجلاً يسمى عبد الرحمن كان معلماً للأولاد في المدينة، فعلم ولداً للحسين عليه السلام يقال له جعفر، فعلمه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلما قرأها على أبيه الحسين عليه السلام استدعى المعلم وأعطاه ألف دينار وألف حلة، وحشا فاه درأ، ف قيل له في ذلك؟ فقال عليه السلام: ﴿وأتى تساوي عطيتي هذه بتعليمه ولدي﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

ولعل السر في ذلك يعود إلى وجوه:

منها: أن الحمد ذكر مضمون القبول عند الله عز وجل؛ لأنه لا يليق إلا به، ومثلها تكون عنده خالصة منزهة من الشوائب فيقبلها من العبد، وكل ما يستقر عند الله فإن آثاره تبقى ولا تزول، لقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٣) وما عند الناس هو الدنيا وما فيها من خيرات ونعم، وهي كلها زائلة فانية، بخلاف كلمة الحمد فإنها باقية، وعطاؤها لا محدود.

(١) الأمالي (للطوسي): ص ٦١٠، ح ١٢٦٠؛ البحار: ج ٩٠، ص ٢١٦، ح ٢٠.

(٢) المناقب (لابن شهر آشوب): ج ٤، ص ٦٦؛ البرهان: ج ١، ص ١٠٠، ح ٢٥٤.

(٣) سورة النحل: الآية ٩٦.

ومنها: لأنها خلاصة كل العبادات، والأذكار بها تبتدئ وبها تنتهي، ومن هنا يثبت لها أدب شرعي ينبغي مراعاته يناسب عظمتها وقديسيتها ومكانتها عند الله عز وجل، ومما يجب مراعاته عند التفوه بها أمور:

الأول: استحضار معناها ومضمونها ثم التلطف بها بقصد ما لها من معنى عظيم، وقد مرَّ أنَّ الحمد الحقيقي ليس قولاً باللسان بل استحضاراً عقلياً للنعم، وإقراراً قلبياً بها، وظهوراً على اللسان والجوارح.

الثاني: أن يقصد بها الشكر والثناء على الله عز وجل، وأن لا يستحق الحمد إلا هو.

الثالث: أن يستعملها في موردها لينال الحامد آثارها وخصائصها وفضائلها، فالحمد يصح في موردين:

أولهما: مورد الثناء على فضائل الباري وفواضله.

وثانيهما: مورد الشكر لنعمه تبارك وتعالى المادية والمعنوية، فلا يصح الإتيان بها في مورد التوبة والاستغفار، ولا في موارد العصيان.

وبعضهم خصص ذكرها في مقابل الشكر على نعم الدين لا الدنيا؛ لأنها تافهة فلا تليق بحمدها^(١)، وضعفه ظاهر؛ لأنَّ نعم الدنيا كنعم الدين ضرورة وإن كانت نعم الدين أشرف وأعظم رتبة، لكنهما من حيث النسبة إلى المنعم واحدة.

الرابع: أن يستعملها بمعناها المطلق في مدح النفس أو مدح العباد؛ لأنه

(١) تفسير الرازي: ج ١، ص ٢٢٥.

من استصغار شأنها. نعم يصح استعمالها بقصد الشكر والثناء على بعض ما يقدمه الناس من الفضل والإحسان.

أول ما يجب تعليمه

الفرع الثالث: يستفاد من فعل الإمام الحسين عليه السلام أن أول وأثمن كلمة ينبغي على الآباء والأمهات وسائر المعلمين والمربين أن يعلموها هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنَّ بها يتعلمون التواضع والشكر واللجوء الى الله والتوكل عليه، كما يتعلمون الإحسان إلى الغير واحترام النعم والمكافأة عليها، وبعبارة مختصرة هي كلمة واحدة تصنع إنساناً إلهياً نير العقل، زكي القلب، صالح العمل، وهذه هي خلاصة غايات الشرائع والأديان والعلوم الإنسانية.

التعليم العاشر: المدارس الكلامية في الربوبية

وقع الكلام بين المدارس الكلامية في الربوبية الإلهية للخلق، واختلفوا على ثلاثة اتجاهات:

الأول: للقدرية، وقيل هم المعتزلة، الذين قالوا بأن الإنسان هو سبب فعله بما فوض الله عز وجل له ذلك ^(١)، بل هو خالق لفعله، والأوجه تسميتهم بالقدرية؛ لأنهم قالوا بقدرة الإنسان على خلق فعله، والمشهور بالفتح لأنهم بالغوا في نفي القدر الإلهي في الخير والشر ^(٢).

(١) الملل والنحل: ج ١، ص ٤٣؛ مجمع البحرين: ج ٣، ص ٤٥١، (قدر)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٧١٨، (قدر).

(٢) البحار: ج ٥، ص ٦؛ سفينة البحار: ج ٧، ص ٢٣٧، (قدر).

وقالوا في الربوبية: إنما يكون تعالى رباً للعالمين ومربياً لهم لو كان محسناً إليهم دافعاً للمضار عنهم، والحال أنهم سبب أفعالهم في جلب الخير ودفع الضر^(١).

والثاني: للجبرية وهم الاشاعرة الذين قالوا بأن العباد مجبورون على أفعالهم لا اختيار لهم فيها، وأن كل ما يحدث للإنسان قد قُدر عليه أولاً، فهو مسير لا مخير^(٢)، وكلا القولين يبطلان الربوبية.

أمّا الأول فلا أن كل ما يفعله الإنسان من نفسه لا من ربه، وأمّا الثاني فلا أن كل ما يفعله الإنسان هو فعل الله، فالقول بالربوبية يستلزم ربوبية الخالق نفسه، فليس لله ربوبية للعبد إلا في تكوينه؛ إذ أنشأه وخلقه وتبناه، وليس له ربوبية في أفعاله.

والثالث: للإمامية وقد لخصوا قولهم في ذلك بنفي الجبر والتفويض، وقالوا بالأمر بين الأمرين، فإنهم يثبتون الربوبية الإلهية؛ لأن الله سبحانه يربي الإنسان بالتوفيقات والعطايا الإلهية؛ لأنه تكويناً مجبر على ما لديه، لكنه تشريعاً مختار، فاختياره الإيمان والعقيدة الحقّة والطاعة واجتناب المعصية وكل ما يفعله من خير أو شر هو من فعله وباختياره، والله عزّ وجلّ ربوبية تكوينية في الإيجاد وربوبية تشريعية؛ إذ أرسل إليه الأنبياء والأولياء، وهداه إلى أفضل مصالحه، وواتر عليه ألطافه والتوفيقات في مختلف شؤونه

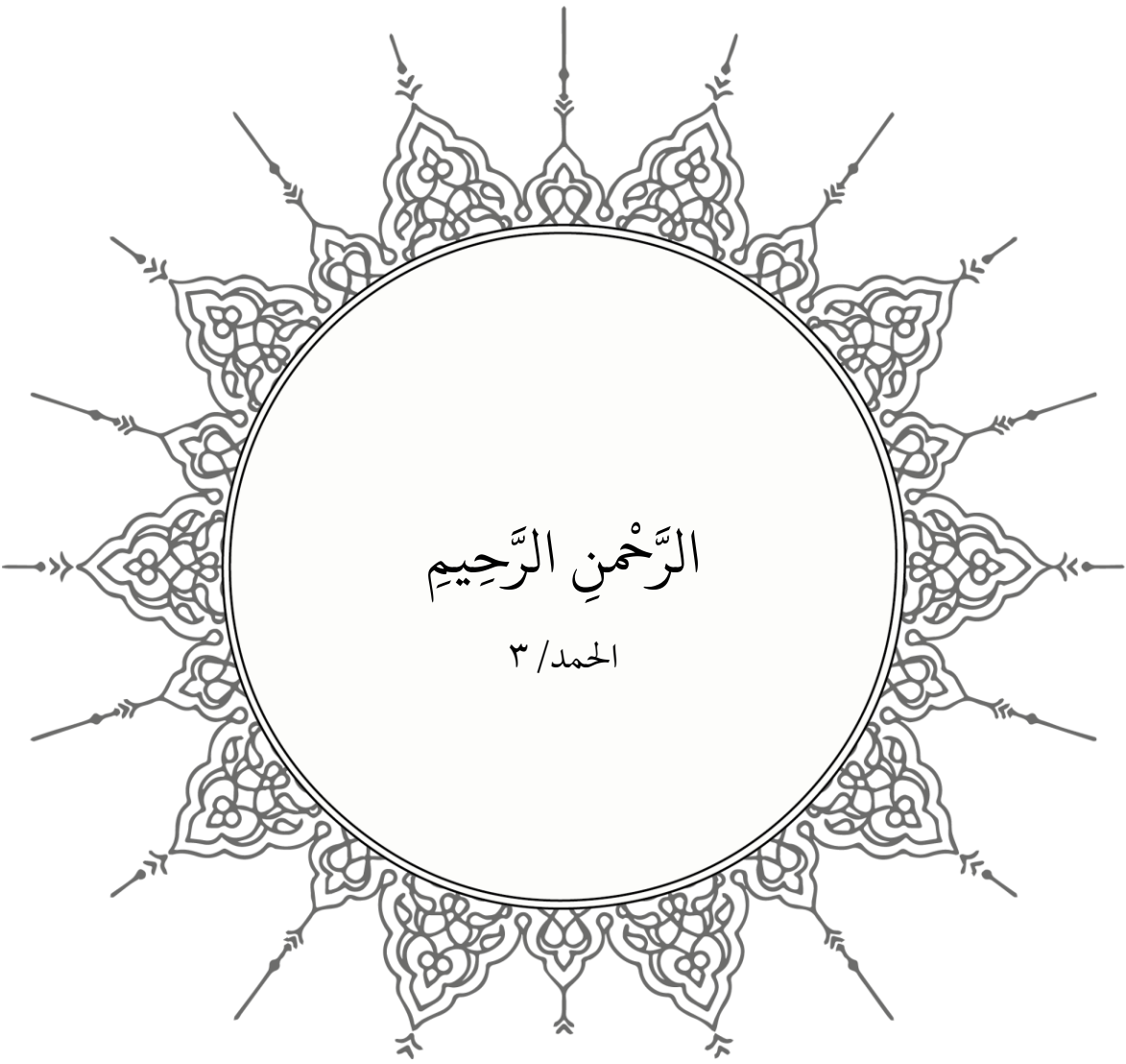
(١) تفسير الرازي: ج ١، ص ٢٣٢، الفائدة السابعة.

(٢) مجمع البحرين: ج ٣، ص ٢٤١، (جبر)؛ المعجم الوسيط: ج ١، ص ١٠٥، (جبر).

كما نصت عليه الأخبار^(١).

فالربوبية بمعناها التام لا تثبت إلا على قول الإمامية. أمّا المعتزلة والأشاعرة وهم أكثر العامة فاللازم من مبناهم أن تكون الربوبية في أصل التكوين. أمّا الأفعال فلا ربوبية فيها. أمّا عند المعتزلة فلائهم قالوا بأن الله عزّ وجلّ لا يتدخل في أفعال العباد، فكل ما لهم من خير وشر منهم، وأمّا عند الأشاعرة فلا أن كل ما يصدر منهم هو فعل الله سبحانه فلا ربوبية فيه. وبذلك يتضح أن قول المؤمن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بمفهومه المطلق لا يصح إلا على قول شيعة آل محمد ﷺ، وأمّا غيرهم فيجب أن يراجعوا ما التزموا به، ويسلكوا سبيل الحق ليتطابق قولهم وعملهم مع القرآن الكريم.

(١) انظر البحار: ج ٥، ص ٨٢ - ٨٣.



الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

الحمد/ ٣

الرحمة الرحمانية والرحيمية

وقد قرئت الآية بالجر والنصب وكلاهما باطلان^(١)، وقد وردت لبيان صفتين أخريين لله عزَّ وجلَّ بعد صفة الربوبية، غايتها بيان التسلسل العليّ لاستحقاقه الحمد في أعلى درجاته، ولانفراده به، وهي ثلاث مراتب: الربوبية، والرحمة الرحمانية وهي صفة ذاته، والرحمة الرحيمية وهي صفة فعله، ولا يراد بالرحمة مقولة الانفعال الحاصلة بركة القلب والاشفاق المنبعث في النفوس؛ لعدم تناسبها مع كمال الخالق، وإنَّما مقولة الفعل أي إظهار أثرها بالعطاء والإفاضة على الخلق لكل ما يستحقه أو تقتضيه الحكمة، فالحمد لله ربِّ المتصف بالرحمتين الذاتية والفعلية، فهو ربٌّ لأنَّه رحمان ورحيم كتب على نفسه الرحمة^(٢)، فالربوبية وحدها لا تكفي لبيان استحقاق الحمد لسببين:

الأول: لأنَّ الربَّ قد يتخلَّى عن مربوبه ويتركه وشأنه إذا رأى منه ما يقبح أو يستوجب العقوبة، كما نلاحظ في الآباء إذا عَقَّ أولادهم.

الثاني: أنَّ الربَّ قد يكون منتقماً ويتجلى فيه الغضب والتأديب لعبده، وربما قطع عليه رزقه أو أمرضه أو دفعه في المهالك، وبوصف الربِّ الرحمن الرحيم ينفي هذين الاحتمالين، ويشعر العبد بأنَّ كل ما يفعله هو الرحمة به، فلا يهمل عبده، ولا يجرمه من حقه، ولا يتعامل معه بالانتقام والغضب، بل كل ما يصدر منه هو رحمة وخير ونفع للعبد.

وبذلك يتضح أنَّ القضية ليست من قبيل توارد علتين على معلول

(١) انظر روح المعاني: ج ١، ص ٨٢.

(٢) انظر سورة الأنعام: الآية ١٢.

واحد، وإنما من باب تسلسل العلل الطولي، فالربوبية علة استحقاق الحمد، والرحمة علة الربوبية.

الرحمة هي السنة العامة

وقد ذكر الرحيم بعد الرحمن لإشعار العبد بأن سنة الباري في التعامل مع خلقه هي الرحمة في الأمور الكلية والنظام العام؛ إذ جعل النظام العام في الخلق قائم على الرحمة، وكذا في الأمور الجزئية مع كل عبد من العباد، فلو اكتفى بقوله (الرحمن) ولم يذكر الرحيم فربما يتوهم بأنه رحمان في ذاته، ويكفي فيه أن يجعل النظام العام قائماً على الرحمة، وليس بالضرورة أن ينعم كل مخلوق من مخلوقاته بالرحمة لا سيما العصاة والكفار؛ لذا وجب تعقيبه بالرحيم، فهو رحمان في ذاته ورحيم في أفعاله يتعامل مع الجميع بالرحمة، وبهذا يزرع الأمل والمحبة في قلوب خلقه، ويحث العبد على أن يسأله في كل احتياجاته الشخصية حتى ملح طعامه وشراك نعله.

الابتلاءات والعقوبات رحمة

فإن قلت: كيف تفسرون الابتلاءات التي يمر بها الناس في حياتهم الدنيوية والعقوبات التي تنال العاصين في الآخرة وهي خلاف الرحمة؟ والجواب: أن هذه أيضاً روحها وغايتها الرحمة لا الانتقام والغضب؛ لأن الابتلاءات لا تخلو إما تأديب للعباد، أو علو في درجاتهم، أو محو لسيئاتهم وغفران ذنوبهم وكلها رحمات، وفي الحديث النبوي: ﴿الابتلاء

للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، للأولياء كرامة^(١).
وعقوبات الآخرة تطهير لهم من أدناس الذنوب والقبائح حتى يليقوا
بدخول الجنة موضع الطهر والقداسة، فهي الأخرى رحمة، فلا يوجد شيء
خارج عن حيلة رحمة الله سبحانه.
ويمكن توضيح ذلك: بما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه سبحانه:
﴿لا يشغله غضب عن رحمة، ولا تلهيه رحمة عن عقاب^(٢)﴾.
ويمكن أن يفسر هذا الحديث بمعان عديدة، والأوفق بما نحن فيه
ثلاثة معان:

الأول: بيان التداخل في فعله تبارك وتعالى والاعتدال والتوازن فيه، فلا
يزداد الغضب على الرحمة ولا تمنعه الرحمة من العقوبة، فهو في مورد
الغضب يعاقب وفي موضع الرحمة يرحم، وهذا ما يشير إليه قوله
تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ^(٣)﴾، وفي دعاء
الافتتاح: ﴿وَأَيُّقَنْتَ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ﴾ في موضع العفو والرحمة،
وأشد المعاقين في موضع النكال والنقمة، وأعظم المتجبرين في موضع
الكبرياء والعظمة^(٤).

(١) جامع الأخبار: ص ٣١٠، ح ٨٥٢؛ البحار: ج ٦٤، ص ٢٣٥، ح ٥٤.
(٢) نهج البلاغة: ج ١، ص ٤٨٩، الخطبة ١٩٥؛ البحار: ج ٧٤، ص ٣١٥، ح ١٥؛
تفسير الكاشف: ج ١، ص ٣٣.
(٣) سورة غافر: الآية ٣.
(٤) البلد الأمين: ص ١٩٣؛ جمال الأسبوع: ص ٢٩٤؛ البحار: ج ٢٤، ص ١٦٦، ح ١٤.

الثاني: أنَّ غضبه على العصاة وتعلق إرادته بمعاقتهم في الآخرة لا يمنع من شمول رحمته لهم في الدنيا؛ لأنَّه كتب على نفسه الرحمة، فيعطيهم الحياة والرزق والسلامة من الأمراض، ويعطي كل ما يحتاجه العبد في دنياه؛ لأنَّ هذا مقتضى ربوبيته، وهذا لا يمنع من مؤاخذته ومعاقبته على عصيانه وكفره في الآخرة، كما أنَّ محبته للمؤمنين وإكرامه ورحمته لهم في الدنيا والآخرة لا يمنع من ابتلائهم ومؤاخذتهم على بعض أفعالهم.

الرحمة الباطنة

والثالث: أنَّ الرحمة هي الغاية الأصلية في أفعاله حتى في غضبه وعقابه، فحينما يعاقب العبد فإنَّ عقابه يستبطن الرحمة ويلازمها؛ لأنَّ العقاب تطهير للعبد من قبائح الذنوب وظلماتها وأدرانها القبيحة، فيكون بحكم التعقيم من الملوثات والتكميل من النواقص، وما كان كذلك فإنَّ ظاهره يكون غضباً وعقوبة لكن باطنه وغايته رحمة.

ولا يقال إنَّ هذا غير متصوّر لامتناع اجتماع الرحمة والغضب؛ لأنَّه من جمع الضدين؛ لأنَّ هذا ليس من الاجتماع في المورد الواحد ومن جهة واحدة، بل من الاجتماع من جهتين وحيتين، ويمكن تقريب ذلك بأمثلة أحدها من المحسوس والثاني والثالث من المنقول.

المثال الأول: الوالد إذا مرض ولده واستوجب أن يجري له عملية جراحية وفيها احتمال الموت أو قطع يده أو رجله، فإنَّ ظاهر ذلك أذى وإضرار بالولد لكن في واقعه رحمة؛ لأنَّ الغاية هي سلامته، فالعمل في ظاهره أذى وضرر ولكنه في واقعه رحمة وسلامة.

والمثال الثاني: ما يقال في صرامة القضاء بالعدل، فإنَّه وإن عاقب المخالفين كل بحسب استحقاقه إلاَّ أنَّ العقاب يستبطن الرحمة لما فيه من منافع للجميع.

والمثال الثالث: ما حكاه الباري عزَّ وجلَّ في كتابه من قصة موسى والخضر عليهما السلام، فإنَّ موسى كان تكليفه التعامل بأحكام الظاهر في الامور، وأما الخضر فكان تكليفه العمل بالباطن والكشف لموسى عليه السلام بعض الأحكام التي ظاهرها عذاب ونقمة لكن واقعها فوائد ورحمة، فلما خرق السفينة اعترض عليه موسى، لأن في الغرق عذاباً؛ ولما قتل الغلام اعترض لذات العلة، وكذلك لما وجد جداراً فأقامه وهو تصرف في شؤون الغير، لكن الخضر عليه السلام كشف عن واقع الرحمة في هذه التصرفات، وأظهر لموسى ما كان خافياً، فخرق السفينة لأجل انقاذها من الغصب وهو رحمة، وقتل الغلام لأجل الحفاظ على حياته وحياته والديه الروحية وهو رحمة أعظم من الحياة الجسدية، وأقام الجدار ليحفظ الكنز لليتيمين وهو رحمة، فربما يكون الفعل الواحد باعتبار أذى وغضباً لكنه من حيث الغاية والأثر رحمة، وكل الأشياء هكذا حتى نار جهنم، فإنَّ ظاهرها عذاب وعقوبة لكن واقعها رحمة تطهر أهلها من القبائح، ثم يدخلونهم الجنة، إلاَّ أصول النار يخلدون فيها.

الرحمة هي الروح السارية في الأشياء

فرحمة الله سبحانه كالروح السارية في الأشياء كل الافعال والآثار تعود إليها يلتمسها المتبع الفطن في كل جوانب الحياة.

منها: ما ذكر في أحوال الغراب. يقال إنَّه لا يربِّي ولده حينما يخرج من

البيضة؛ لأنّه يكون قطعة لحم حمراء لا ريش عليها، ولما يراه الغراب يفر منه ولا يقوم بتربيته، ولكن البعوض يجتمع عليه؛ لأنّه يشبه قطعة لحم ميت، فإذا وصلت البعوضة إليه التقمها واغتذى بها، ولا يزال على هذا الحال حتى يقوى وينبت ريشه، ويغطي لحمه، فعندئذ تعود أمه إليه وتغذيه، ولذا جاء في بعض أدعية العرب يا رازق النعّاب في عشه^(١)، هكذا هي رحمة الله وعظيم تدبيره.

ومنها: ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿من اهتم لرزقه كتب عليه خطيئة - أي إذا بلغ الاهتمام درجة سوء الظن بالله - إنّ دانيال كان في زمن ملك جبار عاتٍ أخذه فطرحه في جب، وطرح معه السباع فلم تدنو منه ولم تجرحه، فأوحى الله إلى نبي من أنبيائه أنّ دانيال بطعام. قال: يا ربّ! وأين دانيال؟ قال: تخرج من القرية فيستقبلك ضبع فاتبعه فإنّه يدلك عليه، فأتى به الضبع إلى ذلك الجب فإذا فيه دانيال فأدلى إليه الطعام، فقال دانيال: (الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من دعه. الحمد لله الذي من توكل عليه كفاه. الحمد لله الذي من وثق به لم يكله إلى غيره. الحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاة)، ثم قال الصادق عليه السلام: إنّ الله أبى إلا أن يجعل أرزاق المتقين من حيث لا يحتسبون، وأن لا تقبل لأوليائه شهادة في دولة الظالمين^(٢).

أي يعني حضوراً وظهوراً بولاية أو منصب للظالمين ونحوه، فإنّ أولياء

(١) انظر تفسير الرازي: ج ١، ص ٢٣٣؛ تفسير روح البيان: ج ١، ص ١٤.

(٢) الأملالي (للطوسي): ص ٣٠٠، ح ٥٩٣.

الله يعملون بتواضع وخفاء، فرحمة الله الرحيمية تتكفل كل عباد الله في كل أحوالهم وحالاتهم بالرزق والحياة والسلامة، ولو اقتضى ذلك تسخير المخلوقات لبعضها البعض، فمن الذي دَل الضبع على دانيال؟ ثم إنَّ الضبع من الحيوانات المفترسة كيف يكون وديعاً مسخراً لخدمة عباد الله؟ فعلى المؤمن أن يتعلم أنه إذا نادى ربّه ودعاه فإنّه ينجيه في أصعب أحواله؛ لأنّ رحمته وسعت كل شيء وهي قريب من المحسنين ^(١).

وبذلك يتضح: أنّ الحمد يستحق بالربوبية، والربوبية الإلهية للخلق تتقوّم بالرحمة الرحمانية والرحيمية، ومنه يظهر الترابط الموضوعي بين الآيات الثلاث، البسملة والحمد والرحمة، وأما تفاصيل البحث فيها فيقع في مباحث:

(١) إشارة إلى سورة الأعراف: الآية ٥٦.

المبحث الأول: في مفردات الآية المباركة



وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾

وهي صيغة فعلاَن تفيد المبالغة والكثرة، مثل غضبان فإنَّها تدل على من امتلئ غضباً في مقابل غاضب الذي يفيد اتصافه بالغضب، والرحمن الممتلئ رحمة، وذلك لا يكون إلَّا من كان في ذاته وفعله رحيماً، الرحمن أبلغ من الرحيم؛ لقاعدة زيادة المباني المؤذنة بزيادة المعاني كما قرر عند أهل البلاغة، ومن هنا قالوا بأنَّ الرحمن يدل على الرحمة الكثيرة المفاضة على المؤمن والكافر، وهي الرحمة العامة ^(١).

فرق الرحمن عن الرحيم

والتحقيق: أنَّها صفة الذات الإلهية كما بيناه، ويشهد له ورودها في بعض الآيات منسوبة إلى الذات كما في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ^(٢) ولم يعبر بالرحيم؛ لأنَّ الغرض بيان خصوصية الذات الإلهية، وأنَّه من جهة رحمته استوى على العرش، لإفاضة الخيرات والمبّرات على

(١) تفسير الميزان: ج ١، ص ٢١؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٦٩.

(٢) سورة طه: الآية ٥.

خلقه، وكذا في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾^(١) ولم يعبر عنه بلفظ الجلالة (الله)؛ لأنّه مقام تعليم وخلق منشؤهما الرحمة الإلهية، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾^(٢)، فإنّها ظاهرة في إطلاقها كبديل عن لفظ الجلالة الذي يفيد العَلَمِيّة، ومنه تتفرع صفة الرحمة الرحيمية؛ لأنّها صفة الفعل، و بها يوصل الباري خيره لخلقه، ولذا قدّم وصف الرحمن على الرحيم لتقدم صفة الذات على الفعل في المرتبة والشرف والعلية والسبب. والألف واللام للتعريف، وتدل على أنّ هذا الاسم من مختصات الباري عزّ وجلّ فلا يطلق على غيره نظير لفظ الجلالة، وتعضد ذلك جملة من الشواهد:

الشاهد الأول: اتفاق جمع من المفسرين على أنّ (الرحمن) من الأسماء الخاصة به تعالى لا يشاركه فيه أحد، بدليل عدم إطلاقه في القرآن على غيره تبارك وتعالى، بخلاف الرحيم فإنّه ورد وصفاً لرسول الله ﷺ في قوله عزّ وجلّ: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

ويعززه قول الإمام الصادق عليه السلام بأن ﴿الرحمن اسماً خاصاً لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة﴾^(٤) فإنّ كونه اسماً خاصاً أي

(١) سورة الرحمن: الآيات ١ - ٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٤) التفسير الصافي: ج ١، ص ٨١؛ مواهب الرحمن: ج ١، ص ٢٣؛ مجمع البحرين: ج ٦، ص ٦٩، (الهامش).

مختصا بالله عزَّ وجلَّ لا يطلق على غيره، وباعتبار أنَّه صفة ذات تكون عامة تشمل عموم الخلق.

أمَّا الرحيم فهو اسم عام لإطلاقه على غيره إلاَّ أنَّه من حيث الأثر خاص بمن استحق الرحمة؛ لذا ورد أنَّها تختص بالمؤمنين.

وعن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ كان من دعائه في مكة (يا الله يا رحمان) فاعترضه المشركون ونددوا وقالوا: انظروا إلى هذا الصابي ينهانا أن ندعو إلهين، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(١) لبيان أنَّها أسماء لحقيقة واحدة.

الشاهد الثاني: إطلاق الرحمن في آيات عديدة على الذات الإلهية بعنوان اسم عَلم، وذلك لا يستقيم إلاَّ على الاختصاص، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾^(٤) إلى غير ذلك من موارد الظاهرة في اسم العَلم البديل عن اسم الجلالة، وفي الموارد التي يرد فيها ذكر الرحمن صفة للفظ الجلالة يرد معه صفة الرحيم أيضاً كما في البسملة وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٥)

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

(٢) سورة يس: الآية ١٥.

(٣) سورة يس: الآية ٥٢.

(٤) سورة الملك: الآية ٣.

(٥) سورة فصلت: الآية ٢.

فيدل على أن الرحمن يطلق على الذات ويطلق صفة للذات، ومقتضى ذلك أن يكون وصفاً للذات الإلهية في مقابل الرحيم الذي يأتي صفة لأسماء الله في جميع موارد كقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) و: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

الشاهد الثالث: ما تقدم في تفصيل معنى البسملة وآثارها من أن أسماء الله سبحانه توقيفية، وهي أعلام له وضعها تبارك وتعالى لنفسه سواء كانت مشتقة أو جامدة، ولا تنطبق في معناها الكامل ولا تطلق بنحو مطلق إلاّ عليه سبحانه مثل عالم قادر حكيم كريم رحمان رحيم.

هل الرحمن اسم عبراني؟

نعم ذكر بعض المفسرين لاسم الرحمن خصوصيتين غير تامتين.
الأولى: أنه اسم عبراني نقل إلى العربية وأصله بالخاء لكن أبدلت بالحاء لضرورة التعريب أو سهولة التعبير، فإن الرحمن أيسر على اللسان من الرحمن، وربما يعززه أن عرب المشركين لم يكونوا يعرفون اسم الرحمن من قبل؛ لذا سألوا عنه: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾^(٣) ، ، وضعفه ظاهر، ومخالف للأصل ولجملة الروايات والوقائع التاريخية التي تؤكد أن هذا الاسم

(١) سورة النور: الآية ٦٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٠.

(٤) انظر تفسير كنز الدقائق: ج ٨، ص ٤٠٤؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٦٦ -

١٦٧؛ أنوار التنزيل: ج ٢، ص ١٤٩.

استعمله الأنبياء، ونزل في البسملة معهم، وسؤال المشركين ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ عن الماهية وليس عن اللفظ بشهادة السياق، فإنه ﷺ لما حثهم على السجود للرحمن ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾^(١).

وهي صريحة في أن نفورهم عن المعنى لا اللفظ، وربما كان سؤالهم من جهة جهلهم بأن الرحمن من أسمائه تبارك وتعالى لا من جهة عدم معرفتهم^(٢) أو سماعهم به .

الثانية: أن وصف الرحمن لم يطلق في كلام العرب قبل الإسلام، وأن القرآن هو الذي جاء به وأطلقه كصفة لله تبارك وتعالى، وعلى هذا يكون اسم علم له تبارك وتعالى لا صفة، ولذا سألوا عنه في الآية السابقة و: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ ويعززه ذهاب جمع من أهل اللغة كالزنجشري والرضي وابن مالك على ما حكى إلى أن هذا الاسم لا ينصرف، وعدم الانصراف من علائم العلمية^(٣)، وأيضاً ذكر الرحيم بعده، فإنه لو كان وصفاً للزم التكرار، فلا مناص من حمل الرحمن على اسم العلم والرحيم صفته، بل كانوا يطلقونه على مدعي النبوة الكاذبين من مثل مسيلمة في أيام ردة أهل اليمامة، فقد لقبوا مسيلمة برحمان اليمامة نكاية منهم بالقرآن وجحوداً بما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ من السجود للرحمن^(٤)، وكلها مبنية على ظنون

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٠.

(٢) نفحات الرحمن: ج ٤، ص ٤٩٩.

(٣) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٧١.

(٤) تفسير الراغب: ج ١، ص ٣١؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٧٠.

لا أساس لها، ومخالفة للأصل والاستعمال القرآني، فلو لم يكن الرحمن معروفاً لديهم من حيث لفظه ومعناه لم يرد في البسملة التي نزلت مع كل سور القرآن إلا سورة براءة، ولم يرد عن النبي ﷺ أنه شرح لهم معنى الرحمن، وبيّن حدوده، بل قد عرفت أنّ البسملة نزلت مع بعض الانبياء السابقين، على أنّ اللغة العربية اشتقاقية، وصيغ الاشتقاق سابقة على نزول القرآن ومنها صيغة (مثلات) وقول بعض أهل اللغة بعدم انصرافها لا ينفي معرفتهم بها من ذي قبل.

الرحيم صفة فعل

المفردة الثانية: ﴿الرَّحِيمِ﴾

صيغة فاعل صفة مشبهة وتفيد المبالغة، وتدل على الثبات والبقاء والكثرة والإيصال، وهي من صفات فعله تبارك وتعالى تقوم به قيام صدور لا قيام حلول، وهي المعنية بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(١) لتقوم الربوبية بها، وكذا بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٢) وقوله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾^(٣) فإنها ظاهرة في الفعل المباشر والتوسيطي.

فكل رحمة في الخلق والمخلوق هي مظهر لرحمته تبارك وتعالى مستمدة

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٤٧.

منها، وإليه يشير الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه: ﴿فلعلَّ بعضهم برحمتك يرحمني﴾^(١)، وعن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مائة رحمة أنزل منها واحدة إلى الأرض فقسّمها بين خلقه، فبها يتعاطفون ويتراحمون، وأخر تسعاً وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة﴾^(٢)، وقريب منه ورد بطرق العامة^(٣).

فالرحمة الرحيمية هي الحاكمة النافذة في الأشياء، وبها تقوم الربوبية الإلهية لخلقها في الدنيا والآخرة، ومن هنا ورد قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولا يكفي وصف الرحمن؛ لأنّه وصف للذات. ولا يدل على فعلية الصدور، نظير القدرة فإنّ القادر قد يفعل وقد لا يفعل؛ لذا لا بد من ذكر وصف الرحيم مع الرحمن لبيان أن رحمته دائمة لا تنقطع مستمرة ومتجددة واصله لجميع المخلوقات.

معنى الرحمن والرحيم

المفردة الثالثة: (الصفاتان معاً) أي ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

فإنّ لهذا التعقب دلائل وأسراراً، وقد اختلفوا فيه على أقوال: فقول ذهب إلى ما ذكرناه، وهو أنّ الرحمن صفة ذات والرحيم صفة فعل، والذاتي أولى بالتقديم، وقول ذهب إلى أنّ كلا الوصفين مبنيان لكيفية الربوبية الإلهية للخلق، فالرحمن إشارة إلى التربية بالوسائط، وربما تلازم الألم كشرب الدواء

(١) الصحيفة السجادية: ص ١٦٤.

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ٢١؛ التفسير الصافي: ج ١، ص ٥١.

(٣) انظر الدر المنثور: ج ٣، ص ٥٧١؛ تفسير القرآن العظيم: ج ٥، ص ١٥٧٨، ح ٩٠٤٥.

المر، فإنه رحمة بالمريض وإن لازم الألم، ينشأ من الوسائط لا من الرب، نظير الولد الذي هو رحمة للأُم والأب، لكن حملة وولادته ملازمان للأُم لدى الأُم، والتربية تلازم الألم للأُم والأب، والرحيم إشارة إلى التربية بلا وسائط؛ لذا لا يشوبه ألم فهو محض نعمة، كترية أهل التهذيب، فإن كل ما يلاقونه في طريق تهذيبهم يجدونه رحمة ولذة، وهذا تفسير مأخوذ من مسالك الصوفية^(١)؛ وهو ضعيف؛ لأن الربوبية الرحيمية ملازمة للآلام، بل لا يعقل حصول الترقى والتهذيب دون مجاهدات، واستلذاذ أهل التهذيب بالمجاهدات لا ينفي وجود الآلام، بل لأن لذتهم المعنوية تغلب آلامهم، كما يشهد به الوجدان والبرهان، ولذا قال تعالى: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(٢) مع أنه ﷺ سيد أهل الكمال والمجاهدات، وقال: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾^(٣) وعليه لا يبقى فرق بين الوصفين إلا بما ذكرناه.

وقول ذهب إلى أن الرحمن أعظم من الرحيم، وقد تعاقبتا ترغيباً للعبد في أن يسأل ربه الأشياء العظيمة والحقيرة، فلو ذكرت الآية (الرحمن) لاحتشم العبد من أن يسأل الأمور الحقيرة لكنه أردفه (بالرحيم) ليحثه على طلب كل شيء منه حتى الأمور الحقيرة.

فالباري بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ينادي عبده أن اطلب مني كل ما

(١) روح المعاني: ج ١، ص ١١٠ - ١١١.

(٢) سورة طه: الآيتان ١ و ٢.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠٤.

تحتاجه من العظام والصغائر حتى شراك نعلك وملح قدرك، كما قال لموسى عليه السلام: ﴿يا موسى! سلني عن ملح قدرك وعلف شاتك﴾^(١) وفيه أن ما ذكر يستدعي أن يكون كلا الوصفين من صفات الفعل. وقد عرفت بطلانه. وذهب البعض إلى أنهما بمعنى واحد، وقد جمعا في الآية للتأكيد على خصوصية الرحمة^(٢)، وضعفه ظاهر، لما عرفت من الفرق بينهما، ولأن التأكيد خلاف الأصل، ولو دار الأمر بين الحمل على التوكيد والتأسيس فإن الثاني أولى.

وذهب جمع ولعلمهم الأكثر إلى أن الرحمن صفة رحمته في الدنيا، وتشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر، والرحيم صفة رحمته في الآخرة، وهي خاصة بالمؤمنين. وهو منقوض بالنصوص الكثيرة التي نصت على أن الرحمتين في الدنيا والآخرة، فعن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿يا رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما﴾^(٣) وأيضا ﴿يا مجيب دعوة المضطرين يا رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما أرحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾^(٤).

وبطرق العامة عن أنس بن مالك. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لمعاذ: ﴿ألا

(١) تفسير الرازي: ج ١، ص ٢١٠، الفائدة الثانية.

(٢) انظر التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٦٩.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ١٩، ح ٣٧؛ إقبال الأعمال: ج ١، ص ٢٥٦؛

البحار: ج ٩٥، ص ٢١.

(٤) فلاح السائل: ص ١٧٩.

أَعَلِّمَكَ دَعَاءَ تَدْعُو بِهِ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلٍ أَحَدٍ دِينًا لَأَدَّاهُ اللَّهُ عَنْكَ. قل يا معاذ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنَّك على كل شيء قدير رحمان الدنيا ورحيمهما تعطيهما من تشاء، وتمنع منهما من تشاء. ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك^(١) ومضمونها صحيح مطابق للمتون المعتمدة.

فالحق الذي يقتضيه التحقيق أنَّ الرحمن وصف لرحمته باعتبار ذاته، والرحيم وصف لها باعتبار المرحوم، ويمكن التفريق بينهما بأنَّ الرحمن الرحيم في البسملة يراد بها تمجيد الذات وبيان كمالها، وأما في هذه الآية فيراد بهما بيان علة استحقاق الحمد، فهو مقام التحميد، والمعنى أنَّه سبحانه يحمد على ربوبيته ورحمانيته ورحيميته ومالكيته^(٢)، وبذلك يبطل قول بعض العامة بأنَّ البسملة ليست من الفاتحة، فلو كانت منها لما أعاد ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لخلو الإعادة عن الفائدة^(٣).

وفيه أنَّه منقوض بإمكان القول بأنَّ تكرارها يشعر بأنَّ البسملة آية في السورة، وإلا لم يكن وجه لتكرارها، كما قاله بعض أصحابنا^(٤).

(١) انظر مجمع الزوائد: ج ١٠، ص ١٨٦؛ صحيح الترغيب والترهيب: ج ٢، ص ١٧١، ح ١٨٢١؛ الاتقان في علوم القرآن: ج ٢، ص ٤٣٦.

(٢) انظر مناهج البيان: ج ١، ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) انظر روح المعاني: ج ١، ص ١١٠؛ تفسير روح البيان: ج ١، ص ١٦.

(٤) مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١٦؛ مواهب الرحمن: ج ١، ص ٣٨.

البسملة شعار القرآن

ويعززه ما بيناه من أن البسملة جعلت شعاراً للقرآن والإسلام، وسلوك المسلم يظهر بها جوهر العقيدة ومنهج السياسة العامة والخاصة في التعامل، وهو الرحمة، فيبدأ كل قول وفعل بها، فالرحمن الرحيم في البسملة شعار، وأمّا في هذه الآية فهي تعليم يلفت الأنظار الى سر استحقاقه سبحانه للحمد، وواسطته في ربوبية الخلق، وعلى فرض التكرار فهو من التكرار المفيد لا اللغوي.

فوائد تكرار الرحمن الرحيم

وفوائده عديدة:

منها: تذكير العباد بالرحمة الإلهية بهم الموجبة لمحبتهم ومزيد طاعته واجتناب معصيته، فإنّ الحب أساس الطاعة والاتباع.

ومنها: الأنس النفسي، فإنّ من أحبّ شيئاً أكثر ذكره، والرحمة من أعظم الصفات التي أحبها الله وجعلها وصفاً لخيرة خلقه؛ اذ وصفه ﷺ بالرحمة للعالمين، وجعل دينه وشريعته وسيرته قائمة على الرحمة، وحث الناس على الرحمة والتراحم؛ إذ قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١) وتضافرت الأخبار في الحث على التعامل بالرحمة، وأنّ الرحمة موجبة لنزول الرحمة^(٢)، ومثل هذه القيمة العظمى التي يقوم

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٢) غرر الحكم: ص ٣٠٥، الرقم ١٦٦؛ تصنيف غرر الحكم: ص ٢٤٦، الرقم ←

عليها نظام التكوين والتشريع والعلاقات الإنسانية والحيوانية تستدعي تكرار ذكرها وترسيخها في الازهان.

ومنها: التذكير بالرحمة وتكرارها في سورة الحمد التي تتكرر على مسامع الناس في صلواتهم يبعث فيهم طاقة إيجابية كبيرة للأمل والتفاؤل بالخير، ويزيل عنهم الطاقة السلبية الناشئة من الحقد والتحاسد والتدافع في التعامل. ومنها: بيان أن الاستعانة تكون من باب الرحمة وبذات الباب تكون الربوبية، وما كان مبدؤه ومنتصفه رحمة كانت خاتمته رحمة أيضاً، فلما تطرّق الآية التي تليها سمع العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يزداد أمناً وطمأنينة برحمة الله وعفوه وغفرانه في الآخرة، فالدنيا والآخرة قائمتان على الرحمة، ومثل هذه المعاني العالية تستدعي ترسيخ هذا المبدأ وتكراره.

وهذا ما يستفاد من بعض الأخبار، فعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) قال عليه السلام: ﴿المختص بالرحمة نبي الله ووصيه صلوات الله عليهما وآلهما وعترتهما إن الله خلق مائة رحمة، فتسع وتسعون رحمة عنده مذكورة لمحمد وعلي وعترتهما عليهم السلام، ورحمة واحدة مبسوطة على الموجودين﴾^(٢) فليأمن أهل الايمان والولاية بعناية محمد وآل

→

٥٠٥٤؛ عيون الحكم والمواعظ: ص ١٩٠.

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

(٢) تأويل الآيات: ج ١، ص ٧٧، ح ٥٥؛ البحار: ج ٢٤، ص ٦٢، ح ٤٤ وفيه: (تسعة وتسعون).

محمد في دنياهم وفي آخرهم؛ لأنَّ رحمة الله الواسعة الشاملة لكل الخلق تتجلى عليهم ﷺ، فيبداهم العطاء والمنع، وجدير بالمؤمن الموالي أن يقتدي بهم، ويدخل نفسه في رحمتهم.

وهناك علامات إذا اتصف بها المؤمن علم بأنَّه من المرحومين لا المحرومين جوهرها الرحمة. ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ لِأَهْلِ الدِّينِ عِلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا: صَدَقَ الْحَدِيثُ وَأَدَّاءُ الْأَمَانَةِ وَوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ وَرَحْمَةُ الضَّعْفَاءِ﴾^(١).

وعنوان الضعفاء يشمل كل فقير محتاج في أي مجال من مجالات الحياة، فيشمل المرأة والطفل والأب والأم والجاهل والمريض والمستغيث، فكل ضعيف يستحق الرحمة، فرحمة الزوج بزوجته وأولاده من علائم إيمانه، ورحمة الولد بوالديه، وتعليم العالم للجاهل رحمة منه وهي من علائم إيمانه، ومعالجة الطبيب للمريض واهتمامه به كذلك، وبحسب قانون التسانخ الذي هو علة الانضمام فإنَّ الرحمة من موجبات الرحمة، فكن رحيماً تنل الرحمة من أولياء الرحمة في دنياك وأُخراك.

(١) الكافي: ج ٢، ص ٢٣٩، ح ٣٠؛ الخصال: ص ٤٨٣، ح ٥٦؛ البحار: ج ٦٦، ص ٣٦٤، ح ١.

المبحث الثاني: في لطائف الآية المباركة



وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: ربوبية الرحمة والمحبة

أنّ سياق الآية ورد بعد نسبة الحمد والربوبية إليه تبارك وتعالى، فيدل على أنّ ربوبيته عزّ وجلّ وحده يقومان على المحبة للملازمة الرحمة للمحبة، فلولا أنّ الرب يحب مربوبه ومخلوقه لا يتعامل معه بالرحمة، وإذا قامت الربوبية على المحبة والرحمة قام الحمد على ذلك أيضاً؛ لأنّ الحمد فعل العبد والربوبية فعل الرب عزّ وجلّ، ويحاكي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(١) والرحمن يفيد المحبة العامة الشاملة لكل مخلوقاته بلا فرق بين مؤمن وغير مؤمن، ومطيع وغير مطيع، والرحيم يفيد المحبة الخاصة بالمحبين له خاصة.

حقائق الربوبية

وفي ذلك دلالة على حقائق:

الأولى: أنّ الربوبية الإلهية عامة تعود إلى أصل الخلق والإيجاد بغض النظر عن العقيدة والعمل وهذا استحقاق الإيجاد والتكوين.

(١) سورة الرحمن: الآية ٦٠.

الثانية: أن محبته لمخلوقاته عامة وشاملة أيضاً لذات الملاك، فلا يرضى الخالق عزَّ وجلَّ لمخلوقاته الضرر والأذى والظلم وكل ما يخالف المحبة، وهذا ما تعززه الأدلة النافية في تشريع الأحكام، مثل دليل لا ضرر^(١)، ودليل لا حرج^(٢)، فإنَّها لا تفرق بين مؤمن وغير مؤمن، كما أنَّه لا يكلف العباد إلا بمقدار وسعهم، ويحاسبهم بالعفو والمغفرة لا بالعذاب والانتقام؛ لأنَّ رحمته سبقت غضبه، كما يعززه الواقع الخارجي، فإنَّه عزَّ وجلَّ جعل لنا الأرض ذلولاً^(٣)، ويسر استثمارها لنا، كما جعل الهواء والماء والحيوان والنبات والحياة كلها مسخرة لنا، ولولا رحمته ومحبته لاستحال علينا زراعة الأرض واستثمار الحيوان والنبات.

تكليف الكافر بالأصول والفروع

الثالثة: أن الحمد واجب على جميع المخلوقات بمقتضى الخلق والإيجاد، وهو واجب عقلي وفطري لا شرعي، ومن هنا قال أصحابنا بأنَّ الكافر مكلف بالأصول والفروع^(٤)؛ لحكومة العقل به؛ لكونه من مقتضيات الحمد.

(١) الكافي: ج ٥، ص ٢٩٣، ح ٢؛ الفقيه: ج ٣، ص ١٠٣، الهامش؛ التهذيب: ج ٧، ص ١٤٧، ح ٦٥١.

(٢) الكافي: ج ٤، ص ٥٠٤، ح ٢؛ التهذيب: ج ٥، ص ٢٣٦، ح ٧٩٦.

(٣) انظر سورة الملك: الآية ١٥.

(٤) انظر أنوار الأصول: ج ٣، ص ١٢٦.

الرحمة واللفظ المقرب

الرابعة: أنَّ الربوبية والمحبة الخاصة من اللفظ المقرب، ويختص بالمؤمنين والمطيعين في الدنيا والاخرة.

وإلى ذلك أشارت الروايات في التفريق بين الرحمن والرحيم، بأن الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة خاصة، وفي رواية الرضاء عليه السلام في بيان معنى رب العالمين قال: ﴿الرحمن الرحيم استعطف وذكر لألائه ونعمائه على جميع خلقه﴾^(١) فبالرحمن يشمل الجميع، وبالرحيم يشمل المؤمنين خاصة.

والخلق كله منعم برحمته ومحبه تكوينا وتشريعا.

اللطيفة الثانية: ربوبية العدل وربوبية الظلم

أن ذكر الرحمن الرحيم بعد الإقرار بالربوبية للعالمين يشير الى تمييز الربوبية العادلة الحكيمة من غيرها، وهذه حقيقة مهمة تتعلق بحياة الناس الدينية والدنيوية.

وبيان ذلك: أنَّ الربوبية على الخلق قسمان:

أحدهما: ربوبية العدل والإحسان.

وثانيهما: ربوبية الظلم والطغيان.

(١) الفقيه: ج ١، ص ٣١٠، ح ٩٢٦؛ عيون أخبار الرضاء عليه السلام: ج ١، ص ١١٤، ح ٣٤؛ نور الثقلين: ج ١، ص ١٩، ح ٧٤.

والأولى تقوم على الرحمة الواسعة الشاملة وهي سبب نشوء الخيرات والبركات في كل مكان وزمان وجيل. إذا عَمَّتْ أهل الأرض انتشر فيهم العدل، وأخرجت الأرض كنوزها، وأنزلت السماء خيراتها، وسعد فيها بالأمن والسلامة والرفاه الاقتصادي والعدل القضائي.

والثانية تقوم على الظلم والعدوان، وهي سبب ظهور الفساد والجور وزوال الخيرات والبركات، كربوية فرعون التي ادعاها على أهل مصر. قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١) وربوية الأحرار والرهبان لأهل الكتاب بالزيف والخداع^(٢)، وغالب الأرباب البشرية تقوم على الطغيان^(٣)، فالرحمة والظلم هما المائزان بين الربوبيتين، وبما أن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا يكفي للإشارة إلى عظمة هذه الربوبية وعدلها وإحسانها اقتضى ذلك بيان صفتها العامة والخاصة بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ للإشارة إلى أنها ربوبية تقوم على الرحمة، ولأن الرحمة قسمان ذاتية ملازمة لذاته ومتجلية في صفاته، وفعلية متجلية على فعله لوجود مصلحة في إظهارها، فالإكتفاء بذكر الرحمة أو الرحيم – أي أحدهما – لا يفي بالغرض، كما أن ذكر الرحمن وحده لا يفي بالغرض؛ لإمكان أن يكون الرب في ذاته رحيماً ولا يتعامل مع عباده بالرحمة، فلأجل بيان حقيقة الربوبية وأسلوبها وأنها تقوم على الرحمة الحقيقية الشاملة اقتضى ذلك ذكر الوصفين معاً ﴿الرَّحْمَنُ

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٢) انظر سورة التوبة: الآية ٣١.

(٣) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١، ص ١٠٠.

﴿الرَّحِيمُ﴾ كوصف ثانٍ للربوبية.

الربوبيات الزائفة

أمّا الربوبية غير الإلهية فهي كثيرة المصاديق والمظاهر تتعايش مع الناس، وأحياناً لا يلتفت إليها للغفلة ففرعون مثلاً كانت له ربوبية وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١) فادعى الربوبية على مصر وأهلها، وهي ربوبية تقوم على التسلط والطغيان السلطوي.

والأحبار والرهبان فيصنفهم القرآن بأنّ أهل الكتاب اتخذوهم أرباباً من دون الله^(٢)، وهي ربوبية قائمة على الزيف والخداع باسم الدين، وكل ربوبية غير إلهية تنتهي إلى الظلم والجور.

فالربوبية الإلهية تقوم على رحمتين رحمانية ورحيمة، ويجب التطابق بين الرحمتين حتى تتم الربوبية الكاملة وتكون إلهية، وإلا كانت ربوبية غير إلهية.

اختلاف ربوبية البشر

وهذا ما يتجلى في ربوبية البشر، فإن الحاكم قد يكون في قلبه رحيم ولكن في أساليبه قسوة، وأحياناً يكون قلبه قاسياً ولكن في أسلوبه يُظهر الرحمة، والتي يعبر عنها بالمرونة؛ لأجل مصالح تقتضيها الظروف، فلا تكون الربوبية كاملة تقوم على العدل والإحسان إلا إذا صدرت من قلب رحيم وأسلوب رحيم.

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٢) إشارة إلى سورة التوبة: الآية ٣١.

فإذا تطابقت صفتا الرحمن والرحيم كانت ربوبية إلهية، وإما إذا كان قلب الحاكم رحيماً وأسلوبه قاسياً فإنه ظلم، وإذا كان في قلبه قسوة وفي أسلوبه رحمة لوجود مصالح فهو نوع من الزيف، ومتى ما وجد الفرصة السانحة لممارسة القسوة والعنف مارسها بلا رادع أو وازع.

فالربوبية الإلهية يتطابق فيها قلب الحاكم مع أسلوبه، أي قلبه وأسلوبه كلاهما رحيم، وفي غير الإلهية تنفك فإمّا أن يكون الحاكم بلا رحمة لافي قلبه ولا في أسلوبه، وأكثر طغاة الأرض هكذا كانوا ولازالوا، وإمّا يتناقض قلبه مع أسلوبه فتتميز الربوبية الإلهية عن غيرها بتطابق القلب والمنهج والأسلوب، ولذا قدم الباري عزّ وجلّ في القرآن نماذج لهذه الربوبية لكي يسقط الأعاذير، ولا يقول قائل إنّ الآية تتحدث عن مفهوم مجرد فما هو مصداقها الخارجي؟ فإن الناس يتعلمون من المصاديق والأعمال.

ربوبية يوسف وسليمان عليهما السلام

والجواب: مصداقها ربوبية يوسف عليه السلام على أرض مصر في مقابل فرعون الذي كان يدعي الربوبية على مصر وأهلها، فقد مثل يوسف عليه السلام الربوبية الإلهية في مصر وأهلها، أما فرعون فكان يقتل الناس فيذبح الرجال ويستحيي النساء لأجل أن يستخدمهنّ، ويظلم البرية وينهب خيراتها، ولما تولى يوسف هذه الولاية لم يتول خزائن مصر فقط، بل خزائن الأرض، أي كل ما في الأرض من خيرات وثروات صارت تحت إدارته، ولم يطغ أو يتكبر، بل أنقذ البلد وأهله من المجاعة التي كادت أن تهلكهم، وانتشر العدل في سلطته.

وفي سلطة سليمان عليه السلام مصداق آخر، وقد أوتي من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده ^(١)، وكان ملكه مبهرًا وعظيمًا، فلم يحدث في تأريخ البشر مثل مملكته، فالنبي هو الملك وجنوده أنواع مختلفة حتى الشياطين والجن والحيوانات. ومثل هذا الملك حتى في هذه الأزمنة وبرغم التطور الهائل لا يوجد، ولا توجد سلطة في العالم تمتلك هذا المستوى من القدرة.

ويقولون إنّ القوة والقدرة كلّما عظمت كانت من أسباب الطغيان، وتبطل هذه المقولة في أنبياء الله وأوليائه، فمع وجود القدرة العظيمة هناك عدل وإحسان وأمان وأمانة؛ لتطابق الرحمة الرحمانية والرحيمية في الربوبية الإلهية، بخلاف الربوبية غير الإلهية، فإنّ فساد الأرض وظلم أهلها ناشئان من ربوبية البشر البعيدة عن الرحمة، واليوم يضج العالم بالظلم والجور بسبب سيادة الربوبية غير الإلهية على أهل الأرض.

وقد يحصل أحياناً أنّ بعض الأرباب لهم مظهر ديني ويعبدون الله، ولكن ربوبيتهم ليست ربوبية إلهية؛ لذا يسود في بلادهم الظلم والفساد والجوع والتأخر والمشاكل التي لانهاية لها؛ لأنّ الإنسان ابتعد عن الله سبحانه، والروايات الشريفة تؤكد أنّ الظلم والجور إذا ساد يزل القدم، ويسلب النعم، ويهلك الامم ^(٢).

ففي أي بلد ساد الظلم والفساد خربت الديار، وتأخر الإنسان،

(١) انظر البحار: ج ٧٠، ص ١١٠، ح ١٠٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١١، ص ٢٣٩.

(٢) انظر غرر الحكم: ص ٩٢، ح ١٧٦٢.

وانتشرت الامراض وكان علامة على أنه محكوم بالربوبية الشيطانية.

المعونة العامة على الظلم

وما ينبغي أن يلتفت إليه كل إنسان أنّ البعض يعاني من الظلم والفقر والحرمان ولكنه يساهم في الظلم الحاكم عليه، ويكون من أسباب سيادته في الحياة، ولذا تصفه الروايات بأنّه من أعوان الظلمة، وهم الذين يعملون مع الظالمين ويعينونهم على ظلمهم في الأعمال الكبيرة والصغيرة بلا فرق، ولذا مصيره يكون مصير الظالمين أنفسهم.

ففي الرواية عن الإمام الصادق عن آبائه عن رسول الله ﷺ - وتسلسلها بين المعصومين كاشف عن عظمة مدلولها - . يقول (عليه السلام): ﴿في يوم القيامة ينادي مناد أين أعوان الظلمة؟﴾ ولأن هذا عنوان عام يمكن أن يشمل الكثير من أهل المحشر؛ لذا قد يقعون في شك في أنهم كانوا في دنياهم من أعوان الظلمة أم لا؟ لذا يبادر المنادي إلى ذكر بعض المصاديق الصغيرة ولا يذكر الكبائر، لأنها واضحة للجميع، والصغائر هي التي قد تخفى فيعرف أعوان الظلمة بقوله: ﴿من لاق لهم دواة، أو ربط لهم كيساً، أو مدّ لهم مدة قلم، فاحشروهم معهم﴾^(١) . فيجتمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في جهنم.

(١) ثواب الأعمال: ص ٢٦٠، وفيه اختلاف يسير؛ البحار: ج ٧٢، ص ٣٨٠، ح ٤١؛ الوسائل: ج ١٧، الباب ٤٢ من أبواب ما يكتسب، ص ١٨٠ - ١٨١، ح ٢٢٢٩٩.

ولاق لهم دواة أي أصلح مدادها، وربط كيساً أي كان لهم خازناً أو أميناً على أموالهم، أو جابياً لهم، أو مد لهم مدة قلم أي كان كاتباً لهم.. فإن هذه الأعمال قد تبدو للعيان بسيطة لكنها في الواقع لها تأثير السبب في تسلط الظالمين وطغيانهم وسيادة ربوبيتهم.

ويحبسون في تابوت في جهنم بالرغم من أن جهنم سجن لكنهم يسجنون في جهنم بسجن أصغر، كما كانوا يسجنون الناس في زنانات انفرادية داخل سجونهم الكبيرة، وصيروا بلادهم سجنًا واسعاً للناس، وضيقوا عليهم الأرض بما رحبت، وهذا هو مصيرهم المساخ لأعمالهم وربوبيتهم الباطلة، ولذا كان الأئمة عليهم السلام يمنعون شيعتهم من التقرب منهم، والكون معهم حتى في أبسط الأمور، والشواهد على ذلك كثيرة أذكر واحداً منها.

التبري من الظلمة بأبسط الأعمال

ففي رواية صفوان بن مهران الجمال قال: دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام فقال لي: «يا صفوان! كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً» قلت: جعلت فداك أي شيء؟ قال: «إكراؤك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون وهي قرينة على شدة الإرهاب - قال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد ولا للهو، ولكنني أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة ولا أتولاه بنفسي - وفيه إشارة إلى أني لا أصاحبهم - ولكن أبعث معه غلماني - لأن السلاطين إذا خرجوا يخرج معهم الناس - فقال لي: «يا صفوان! أيقع كراؤك عليهم؟» قلت: نعم جعلت فداك. قال:

فقال لي: ﴿أحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟﴾ قلت: نعم. قال: ﴿من أحبَّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النار﴾ قال صفوان: فذهبت فبعت جمالي - هذا المؤمن صادق الإيمان، فإنه لا يبرر لنفسه ويخدعها، وبكلمة من الامام تخلى عن عمله وباع جماله عن آخرها - فبلغ ذلك هارون فدعاني، فقال لي: يا صفوان! بلغني أنك بعت جمالك؟ قلت: نعم. قال: ولم؟ قلت: أنا شيخ كبير وإنَّ الغلمان لا يفون بالأعمال، فقال: هيهات هيهات إنِّي لأعلم من أشار عليك بهذا. أشار عليك بهذا موسى بن جعفر. قلت: مالي ولموسى بن جعفر؟ فقال: دع هذا عنك، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك^(١).

هذه ربوبية الظالمين تقوم على القتل والغصب وسفك الدماء لأجل أن الرجل لا يريد أن يعمل، وربوبية أولياء الله تقوم على العدل والإحسان واللطف بعباد الله، وإمام أهل العدل أمير المؤمنين عليه السلام وهو حاكم على دولة مترامية الأطراف متنوعة الاتجاهات والأفكار والمذاهب الدينية والسياسية كان يقول: ﴿والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهّداً وأُجرَّ في الأغلال مصفّداً أحبُّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يُسرّع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها.. والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت﴾^(٢)

(١) الوسائل: ج ١٧، الباب ٤٢ من أبواب ما يكتسب به، ص ١٨٢-١٨٣، ح ٢٢٣٠٥.

(٢) نهج البلاغة: ج ٢، ص ٢١٦-٢١٨، الخطبة ٢٢٤.

وحسك السعدان نوع من الشوك ترعاه الإبل شوكته مدورة مدببة. هذا الفرق بين عباد الله وغيرهم. عباد الله يستشعرون حضور الله ورسوله معه ويستحون منها أن يفعلوا قبيحاً أو يظلموا أحداً خاصة لو كان باسم الدين فضلاً عن ظلم العباد، وفكره بالموت ويوم الحساب ومخافة العقوبة يضبط سياسته ونهجه، فلا يستعد لأن يظلم حتى بشيء بسيط، فما قيمة النملة وجلب الشعير في فمها في مقابل السموات السبع وأفلاكها؟ لكن أولياء الله لا تهمهم الدنيا ومغرياتها، بل تهمهم وظائفهم ونفوسهم وكراماتهم.

ومن هنا يجب أن نتعلم بأن صلاح الحاكم لا يكفي فيه مجرد الانتخاب؛ لأن صوت الناس لا يعطيه عصمة ولا عدالة ولا أمانة، وإنّما إيمانه بالحساب والآخرة، فمن يخاف الله لا يظلم، وإذا لوحظ من يصلي ويظلم فليعرف أنّه لا يخاف الله سبحانه وإن جاء بالانتخاب.

اللطيفة الثالثة: الرحمة التكوينية والتشريعية

يستفاد من الآية أن الرحمة الإلهية قسمان، رحمة عامة تنعم بها جميع المخلوقات، وهي رحمة تكوينية بها يوجدون ويرزقون ويبقون، فهو الذي استدعى جميع الخلق الى الوجود، وأفاض عليهم نعمه بلا استحقاق، فالشمس تشرق على الجميع ولا تفرق في عطائها بين مؤمن وكافر ومستحق وغير مستحق، والمطر يغيث الجميع، ويسقي أراضي البلاد الكافرة والأخرى المؤمنة، والهواء يتنفسه من يعبد الله ومن يعبد الشيطان ومن يحسد بالله، وهذه رحمة الربوبية، ورحمة خاصة هي رحمة تتعلق بالنفوس وهداية الخلق الى العبودية، وهي بمقتضى ذاتها متاحة للجميع إلا

أنّ لطفها وأثرها يظهر في المؤمنين.

الرحمة اللطفية

وبهذا الاعتبار يمكن القول بأنّ الرحمة الرحمانية تتعلق بالتكوين والرحيمية بالتشريع. تتعلق الأولى بإعطاء الشيء ما يقتضيه في تكوينه، والثانية بإعطاء ما يقتضيه في هدايته وإيصاله إلى سعادته الروحية، ولذا وصف رسوله الخاتم والحجة على جميع الأنبياء والأئمّ بأنّه رحمة للعالمين؛ لكونه الهادي لهم، ومن رحمته أنّه يمهل العاصي ويفتح له أبواب التوبة، وجعل حمده وشكره في كلمتين هما (الحمد لله) لكي يسهل للعباد طريق ذكره وشكره.

ويستفاد من بعض الأخبار وجود رحمة ثلاثة فوق الرحيمية، وهي الرحمة اللطفية، وتشمل العبد بشهادة قلبه بالرحمة الإلهية، وأثرها مزيد العطاء التكويني والجزائي في الدنيا والآخرة. ففي الحديث: ﴿إذا قال العبد: (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: شهد لي بأني (الرحمن الرحيم) أشهدكم لأوفرّن من رحمتي حظه، ولأجزلنّ من عطائي نصيبه﴾^(١).

وإشهاد الباري ظاهر في إشهاد ملائكته، وهو وعد مؤكد لا يختلف ولا يتخلّف، وأثره مزيد الرحمة التي يفوق بها سائر العباد وجزيل العطاء، فإنّ الرحمة الإلهية مقسّمة بين العباد، ولكل منهم نصيب، ونصيب العبد الذي

(١) عيون أخبار الرضاء عليه السلام: ج ٢، ص ٢٦٩، ح ٥٨؛ الأملاني (للصدوق): ص ٢٤٠، ح ٢٥٣؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٥، ح ٩.

يشهد للباري بالرحمة أكثر وأعظم، ولا يراد بالشهادة الإظهار باللسان، بل الإدراك بالعقل والإقرار بالقلب، مأخوذ من الشهود والشهادة، وهي الحضور مع المشاهدة بالبصر أو البصيرة، وفي المفردات: الشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر^(١)، ويتناول الموجود وهو أخص من العلم؛ لأنه يتناول الموجود والمعدوم^(٢).

أقسام الرحمة

ومن مجموع الآية والرواية يستفاد أن الرحمة على أقسام ثلاثة: هي الرحمة الرحمانية وهي عامة وتتعلق بالتكوينات، والرحمة الرحيمية وهي خاصة بالمؤمنين وتتعلق بالنفوس وهدايتها، وإليها يشير قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(٣) والرحمة اللطفية وهي خاصة بأهل اليقين تتعلق بالعطاء الاصطفائي الخاص، وإليها يشير قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٤) ومدار الأولى الربوبية، والثانية الإيثار، والثالثة الإقرار والإذعان لرحمته تبارك وتعالى.

فمن الأولى اشتقت الثانية، ومن الثانية اشتقت الثالثة، ولذا قال عز وجل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فهي لا تكون إلا بالاصطفاء للقلة من أهل اليقين، والمقصود الإقرار بأن لا يصدر منه إلا الرحمة، كما أن كل فعله

(١) مفردات الراغب: ص ٤٦٥، (شهد).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص ٣٠٥، (١٢٢٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

ربوبية، ولذا لا يستحق الحمد إلا هو، وبذلك يتطابق الحمد والربوبية والرحمة في الشمول وانفراد الباري عز وجل بها.

اللطيفة الرابعة: سر تكرار الرحمة

أن تكرار (صفتي الرحمن الرحيم) في مبتدئ السورة - أي البسملة - ومتوسطها - أي هذه الآية - يتضمن ثلاث إشارات:

الأولى: أن رحمته هي سنته في التعامل مع الأشياء، وهي الغالبة على فعله زماناً وسعة؛ لذا ورد في الأخبار أن رحمته سبقت غضبه^(١)، وأنها تسعى أمام غضبه^(٢)، وظاهر سبق والسعي أنها مقتضى ذاته، وهي أصيلة في كماله وجماله، بخلاف الغضب فإنه من صفات الفعل، وهي حادثة وليست أصيلة، وهذا يفتح باباً واسعاً أمام العباد أن يتوجهوا إليه إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم أن يستغفروه؛ لأن رحمته سابقة على غضبه، وما من عبد لجأ إليه إلا غفر له، فالرحمن الرحيم وصفان لاسم الجلالة (الله) الجامع لكل صفات الجمال والجلال الإلهي.

الثانية: أن المغضوب عليهم الذين أشارت إليهم الآية الأخيرة من السورة في قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ كم كانوا مجرمين فحرموا من الرحمة الإلهية وشملهم الغضب، ويحاكي هذا المعنى وجود جماعة وصفهم

(١) الكافي: ج ٣، ص ٤٤٥، ح ١٢؛ البحار: ج ٩٥، ص ٢٣٢، ح ٤.

(٢) إقبال الأعمال: ص ٣٩٩؛ المزار (الشهيد الأول): ص ٢٢٨؛ الصحيفة السجادية: ص ٨٣.

الباري بأنهم شجرة الجحيم^(١)، وحصب جهنم^(٢)، وخطب جهنم^(٣)، فلا تشملهم رحمة ومغفرة في البرزخ ولا في الآخرة. وسنأتي في تفسير آخر آية من السورة الى تفصيل ذلك.

الجزء الربوبي

الثالثة: أن الرحمن الرحيم يبينان منهج الربوبية؛ لأن ربوبية الله تقوم على محورين هما العدل والرحمة، ومقتضى العدل أن يؤخذ العباد بما ظلموا؛ لأنه لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأن كل ما يفعله الإنسان يجده حاضرًا أمامه.

وهذه حقيقة تكوينية. قال تعالى عنها: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٤) فاعمال المجرمين على قسمين: قسم يحصيها الكتاب وهي ترك الطاعات، وقسم تتجسد أمامهم ويجدونها حاضرة وشاهدة عليهم وهي أفعال المعاصي على ما حققناه من أن مقتضى الجمع بين الأدلة القاضية بتجسم الأعمال والأخرى التي تنص على تدوين الأعمال في الكتب وعرضها في القيامة، وكلاهما مقتضى العدل الإلهي، فلو تعامل الباري مع عباده بمقتضى عدله لم يبق منهم

(١) انظر سورة الصافات: الآيتان ٦٣ و ٦٤.

(٢) انظر سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

(٣) انظر سورة الجن: الآية ١٥.

(٤) سورة الكهف: الآية ٤٩.

أحد، ولما مشى على ظهر الأرض منهم أحد. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾^(١).

والملفت أنه أشار الى أن العدل يقتضي أن لا يبقى على الأرض من دابة؛ لأن الحيوان فيه ظالم ومظلوم لكنه لا يؤاخذ على ظلمه، لأن ظلمه ناشئ من غريزته التي أودعها الله فيه، بخلاف الإنسان فإنه يؤاخذ على ظلمه؛ لأنه على خلاف غريزته.

فالعدل الإلهي يقتضي مؤاخذة الظالمين ومعاقبتهم في لحظة ظلمهم؛ لأن لكل جناية عقوبة، ولازم ذلك أن يبىد أهل الأرض لكنه سبحانه لا يتعامل مع عباده بمقتضى عدله، بل بمقتضى رحمته ولطفه وإحسانه، ومن رحمته بهم قبول توبتهم وقبول الشفاعة لهم، ومن رحمته تأخير المؤاخذة على ظلمهم عليهم يتوبون ويستغفرون، فإنه سبحانه وعد عباده بأنه يغفر الذنوب جميعاً، وعن النبي المصطفى ﷺ: ﴿كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿إذا همَّ العبد بحسنة كتبت له حسنة، فإذا عملها كتبت له عشر حسنات، وإذا همَّ بسيئة لم تكتب عليه، فإذا عملها أُجِّلَ تسع ساعات، فإن ندم عليها واستغفر وتاب لم يكتب عليه، وإن لم

(١) سورة النحل: الآية ٦١.

(٢) الفقه (السلم والسلام): ص ٤٤٧؛ الدر المنثور: ج ١، ص ٢٦١؛ كنز العمال: ج ٤، ص ٢١٥، ح ١٠٢٢٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

يندم ولم يتب منها كتبت عليه سيئة واحدة^(١).

وهذه الواحدة ربما يعمل بعض الصالحات فتمحيها؛ لأنَّ الحسنات يذهبن السيئات^(٢)، وإذا لم يعمل ولم يتب ولو في آخر عمره قد تناله الشفاعة وينجو هكذا هي رحمة الله، وهذه سنته في عبادته، والروايات تتحدث عن أكثر من ذلك في تأخير كتابة السيئات لا تخفى على من تتبعها^(٣).

والخلاصة: أنَّ ربوبية الباري عزَّ وجلَّ يمكن أن تتعامل مع العباد بمقتضى العدل وبمقتضى الفضل، لكنه سبحانه برحمته الرحمانية والرحيمية يتعامل معهم بالفضل، وهذه حقيقة معرفية عالية ونعمة عظيمة تكلَّ الألسنة عن حمدها وشكرها؛ لذا كررها في هذه الآية وفي البسملة.

الحمد الملوكوتي

وهذا ما يعززه حديث صلاة ليلة المعراج عن النبي ﷺ في عالم الملوكوت؛ إذ قال سبحانه لرسوله: ﴿احمدي﴾. قال: الحمد لله رب العالمين، فقال النبي ﷺ في نفسه: شكراً فقال الله تعالى: يا محمد! قطعت حمدي فسمِّ باسمي، فمن أجل ذلك جعل في الحمد ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ مرتين^(٤).

(١) التوحيد: ص ٤٠٩، ح ٧؛ الخصال: ص ٤١٨؛ البحار: ج ٦٨، ص ٢٤٦، ح ٣.

(٢) انظر سورة هود: الآية ١١٤.

(٣) الوسائل: ج ١، الباب ٦ من أبواب مقدمة العبادات، ص ٥١، ح ٩٩ و ح ١٠٠؛ ص ٥٢، ح ١٠٢.

(٤) الكافي: ج ٣، ص ٤٨، ح ١؛ علل الشرائع: ج ٢، ص ٣١٥، ح ١؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٨، ح ٢٦.

وفيه دالتان مهمتان:

الأولى: قوله (قطعت حمدي) فإنه قد يراد به أنّ الحمد الكامل هو قول العبد (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم)؛ إذ لولا الإقرار بالرحمة في الربوبية لم يكن الحمد كاملاً؛ لأن الربوبية قد تكون بالعدل وقد تكون بالفضل، والثانية هي مقتضى الرحمة الإلهية.

والثانية: أنّه سبحانه اعتبر الشكر قاطعاً للحمد باعتبار أنّ الشكر يقابل النعم والفواضل، وهو ملازم للتوجه الى منفعة النفس، بخلاف الحمد فإنه على الفضائل أيضاً، وفيه توجه وإقرار بكمال الألوهية ووظيفة العبودية، والتوجه إلى النفس يقطع التوجه إلى الرب.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة



وهي عديدة:

التعليم الأول: ربوبية الرحمة في المناهج والأعمال

أنَّ الربوبية الناجحة بأصنافها وأنواعها - كربوبية الرئيس للشعب، والوزير للوزارة، والمدير لمن يدير، والأب والأم لأبنائهما، وصاحب العمل لعمله، والمعلم لتلاميذه - لا تقوم ولا يظهر أثرها الفاعل ولا تعطي ثمارها إلا بالرحمة في المبادئ وفي المناهج والأعمال، فإنَّه إذا لا تقوم بالرحمة قامت بمضاداتها وهي العنف والغضب والقسوة، وهي من موجبات النفرة والعداوة والفشل، حتى الدابة تدار بالرفق والرحمة، فإنَّها إذا شعرت أنَّ مالِكها يحبها ويرأف بها اطمأنت واستجابت له واستفاد منها، فإذا أغلظ عليها وعَنَّفها وشعرت بالظلم نفرت منه وتمردت عليه.

بالرحمة تثمر الأشياء لا بالعنف

والأرض بالرحمة تعطي وتثمر، وكل شيء في الوجود ينمو بالرحمة ويثمر لا بالغلظة والعنف، فكيف بإدارة البشر وسياسته، والواقع الخارجي شاهد على هذه الحقيقة، فإنَّ البلاد التي يحكمها استبداد وقوة وإرهاب متوترة مضطربة وهي يوماً بعد يوم إلى تراجع وتأخر، والحكومات العسكرية أكثر فشلاً من غيرها - عادة -، لأنَّها تمارس القسوة والعنف العسكري في المجتمع، والبيت الذي يتفرق جمعه ويتباعد أعضاؤه ويتقاطعون محكوم

بالغلظة والعنف، وأي علاقة تقوم على ضد الرحمة لا تدوم؛ لأنّ العنف يولد العنف، والغلظة تقابل بمثلها بخلاف

الرحمة. هذه هي سُنّة الله سبحانه في ربوبيته مع خلقه، فإذا تشبّه بها الناس وتعلموا منها فتراحموا وتكاملوا بلغ كل منهم غايته.

وكثيراً ما نسمع عن بعض الآباء أنّهم يعانون من عقوق أولادهم، كما نسمع من أبناء يعانون من قهر آبائهم، ونسمع عن وصول بعض الأزواج إلى الطلاق، ونسمع عن فشل بعض المدراء في الإدارة وقصور بعض المعلمين والمدرسين عن تعليم تلامذتهم، وفقدان عنصر الرغبة والتأثير بهم، فيسأل عن السبب، وحينما نبحث عن السبب نجده، ببساطة في الغلظة والتفرد والقهر الذي يحكم العلاقات. يشير الباري الى هذه الحقيقة بقوله عزّ وجلّ: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾^(١) فلماذا نسب تعليم القرآن إليه من جهة رحمانيته، فلم يقل (الله علّم القرآن) أو (العالم علّم القرآن) وغيرها من الأسماء الحسنی؟ والجواب للإشارة الى حقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: لإرشاد المعلمين في أي مجال أنّ نهج الرحمة هو الطريق الأمثل الموصل الى الغايات.

رحمة القرآن

الحقيقة الثانية: أنّ تعليم القرآن للبشر رحمة إلهية للناس أجمعين؛ لأنه نور يوصلهم إلى مصالحهم التكوينية، وقانون ينظّم علاقاتهم ويهديهم إلى النظام

(١) سورة الرحمن: الآيتان ١ و ٢.

الأكمل في الحدود و الأحكام والحقوق الخاصة والعامة، ورحمة ترفع عنهم دواعي الشقاء وأسبابه. ومن هنا وصفه الباري عزَّ وجلَّ بثلاثة أوصاف في آيات عديدة منها: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١) و: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْقِنُونَ﴾^(٢) ومقتضى الجمع الدلالي بينهما أن تكون البصيرة والهدى والرحمة للموقنين في الرتبة الخاصة، وفي الرتبة العامة لعموم المؤمنين.

معنى البصيرة

والبصائر جمع بصيرة، وهي نورانية القلب التي تكشف بها الحقائق المعنوية في مقابل البصر الذي يكشف الحقائق المادية، فالقلب محل البصيرة، وهي قسمان:

أحدهما: يعود الى قوة الإيمان واليقين.

وثانيهما: نور إلهي يقذفه الباري في القلب فيبصر الأمور كما هي، ويتنبأ بها قبل أوانها. وقد وردت بصيغة الجمع؛ للإشارة إلى أنها ملكة عامة تعم كل جوانب الحياة الدينية والدنيوية للبشر.

وإنما وصف بالبصائر للإشارة إلى أن في القرآن حقائق لا يدركها العقل ولا الحس والتجربة، ولا يبلغها الطالبون إلا بنور القلوب، وهنا سرّ عظيم يفتح لأهل المعرفة، وتنبه لأهل العقول والطبيعيين وغيرهم، بأن ما تدركه العقول والحواس هو بعض العلم لا جميعه، وأنَّ حقائق الوجود أوسع من

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠٣.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٠.

المحسوسات والمعقولات والهدى الرشاد يقال له ذلك؛ لأنه يدل بلطف الى ما يوصل الى المطلوب^(١).

ولذا وصف بأنه هدى للمتقين، وهو رحمة للإشارة الى لطفه ونوره، ونفعه لا يختص بالعلماء وذوي العقول، بل هو عام لجميع الخلق، فكل من التجأ إليه أعطاه مطلوبه، وإليه يشير ما ورد عن النبي ﷺ: ﴿القرآن يدل على دائكم ودوائكم﴾^(٢) وقيل إن الداء هو الشرك، وأعظم دوائه التفكير في أدلة التوحيد، ثم بعده الذنوب ودواؤها الاستغفار، ثم حب الدنيا ودواؤه التفكير في فنائها^(٣).

والحق أن رحمته أوسع من ذلك؛ لأنه نور للعقول والبصائر في مختلف العلوم والمعارف، وشفاء لأمراض النفوس والأبدان، وهو أمن وسلامة وسعادة في الدنيا والآخرة، وارتقاء بالإنسان إلى أشرف المقامات وأسمائها وعن النبي الأعظم ﷺ: ﴿إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحسرة، والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن، وحرز من الشيطان، ورجحان في الميزان﴾^(٤) وفي رواية أخرى: ﴿فيه كمال دينكم، ما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار﴾^(٥).

(١) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٩٧٨، (هدى).

(٢) تفسير روح البيان: ج ٨، ص ٤٤٤؛ نفحات الرحمن: ج ٥، ص ٥٥٢.

(٣) نفحات الرحمن: ج ٥، ص ٥٥٢، (بتصرف).

(٤) البحار: ج ٨٩، ص ١٩، ح ١٨؛ مستدرك الوسائل: ج ٤، ص ٢٣٢، ح ٤٥٧٠.

(٥) الكافي: ج ٢، ص ٦٠١، ح ٨؛ تفسير العياشي: ج ١، ص ٥، ح ٨.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينايع العلم، وما للقلب جلاء غيره^(١) .

التعليم الثاني: القيادة الرحيمة

للقيادة والمربين وأهل الوجاهة وكل من له رعية واتباع يديرهم ويربهم، هو أن الله سبحانه رحمان ورحيم، ورحمته وسعت كل شيء، ورحمانيته نابعة من ذاته القدسية وليست أجنبية عنها، ورحميته ظاهرة على أفعاله ومناهجه في شريعته وأحكامه، ومتجسدة في خلفائه عليهم السلام، فلولا الرحمة ما خلق الخلق، وجعل الرحمة رابطاً شديداً بين قلوب الخلق، ولولا الرحمة ما رفع عن عباده العسر والحرج والضرر في الأحكام، وأباح المحظورات عند الضرورات، وشرع للمؤمنين التقية لإنقاذهم من شدائد الأعداء، ولما تساهل في الطهارة والنجاسة وأمر بالعمل بأصل الصحة في أفعال الناس وأقوالهم ومعتقداتهم، وبقانون الإلزام مع غير المؤمنين لتكون المحبة والاحترام والأمن الفكري والاجتماعي هو الحاكم بين الناس، وفوق ذلك كله أرسل أشرف خلقه وأعظم بريته معلماً وهادياً وقائداً وبشيراً ونذيراً للناس كافة، ووصفه بأنه رحمة للعالمين^(٢) وجعل مناهجه وأسلوبه في تدبير شؤون الخلق الرحمة، فقلبه رحيم، وفعله رحمة، وأسلوبه رحمة؛ إذ قال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ

(١) نهج البلاغة: ج ٢، ص ٩٥، الخطبة ١٧٦؛ البحار: ج ٢١، ص ٣١٧، ح ٧٦.

(٢) انظر سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ^(١).

وقد أشارت إلى أنّ النهج الذي يوجب اجتماع الناس والتفافهم حول القائد والزعيم هو الرحمة واللين والتسامح وسعة الصدر، والذي يوجب تنفّرهم وتفرّقهم هو الغلظة والفضاضة، ونتيجة الرحمة الفوز والانتصار، ونتيجة الغلظة الفشل والخسارة.

وأشارت إلى أنّ نهج الرحمة يقوم على اللين وهو السهولة والسماحة، وضده الخشونة والصلابة أي الفضاضة، وغلظة القلب قساوته، وهو سبب للخشونة.

فن المعاشرة الرحيمية

والقائد مهما امتلك من مهارات عالية في العلم والمعرفة إلّا أنّ أسلوب المعاملة يثمره أو يفشله، فالناس يحبون المعاشرة الطيبة قبل غيرها، وربما يتسامحون عن نواقص القائد المعرفية إذا كان ليناً سمحاً في تعامله، ولا يتسامحون معه إذا وجدوه فظاً غليظ القلب وإن تمتع بمزايا أخرى كبيرة، فالأسلوب الحكيم هو الذي يحقق الغايات ويوصل إلى المقاصد.

وفي النبوة يحقق غرض البعثة؛ لذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

ركائز لين القيادة

ولين الأسلوب يقوم على ثلاث ركائز:

الأولى: العفو عن الزلات فيما يتعلق بحقه الشخصي، ولا يأخذ بالظنة والتهمة وينتقم إذا بدرت من بعضهم مخالفة أو هفوة، وبهذا يظهر أنه متنكر لذاته غير متكبر ولا مغرور، وهذا تعليم يجري في الكبار والصغار، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿اضرب خادمك إذا عصى الله، واعف عنه إذا عصاك﴾^(١) وبذلك يرسخ قاعدة المبدئية في الحق الإلهي، والعفو عن الحق الشخصي.

الاستغفار للاتباع

الثانية: الاستغفار لهم، وهو في شؤون غير الله يتم بطريقتين الدفع والرفع، والأول بتريبتهم التربية الصالحة حتى لا تبدر منهم مساوئ وإساءات، والثاني برفعها إذا وقعت بوضع حد إداري وجزائي لها، وهذا هو معنى الاستغفار لغة أي طلب الستر، مأخوذ من الغفر وهو الستر^(٢)، وغفران الذنب ستره لكيلا لا يؤاخذ العبد عليه^(٣)، وطلبه لا يتحقق بالسكوت عن أخطاء الاتباع ولا إخفاء معاييبهم، بل مكافحتها بالوقاية والعلاج؛ لأن السكوت والإخفاء ناقضان للغرض، موجبان للظلم

(١) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٢، ح ٧٨١٧؛ مستدرک الوسائل: ج ١٨، ص ٢٩، ح ٢١٩٢٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص ٧٧٢، (غفر).

(٣) مفردات الراغب: ص ٦٠٩، (غفر).

والفساد، وقد ورد في الأخبار أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يؤدب أصحابه، وذكر أهل المعرفة أن أحسن التأديب ما يكون بغير ضرب وعنف، بل بلطف وتأن^(١)، وبهذا النهج صنع الله عز وجل شخصية رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله، وقال له: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾^(٢) لأنه رباه هكذا.

ففي الرواية عن الصادق عليه السلام يصف بها نهج الله مع نبيه صلى الله عليه وآله، وبه يعلمنا كيف يجب أن نتعامل، وبماذا نتأدب. قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ أَدَبَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله فَقَالَ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣) فلما علم أنه صلى الله عليه وآله قد تأدب قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤) فلما استحکم له من رسوله ما أحب قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٥) ﴿٦﴾.

وعن اسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَدَبَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله حَتَّى إِذَا أَقَامَهُ عَلَى مَا أَرَادَ قَالَ لَهُ: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلما فعل ذلك له رسول الله صلى الله عليه وآله زكاه الله فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فلما زكاه فوض إليه دينه فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

(١) مجمع البحرين: ج ٢، ص ٣٢٧، (أدب).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

(٤) سورة القلم: الآية ٤.

(٥) سورة الحشر: الآية ٧.

(٦) انظر بصائر الدرجات: ص ٣٩٩، ح ٤؛ البحار: ج ١٧، ص ٨، ح ١١؛ شرح

نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٢٧٠.

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ﴿١﴾ .

وفي ذلك اشارات مهمة:

حقيقة الأدب

منها: أن الأدب ليس بالمجاملات الأخلاقية والكلام الحلو دون صدور من القلب، بل الأدب هو عفو القلب وسماحة النفس وسعة الصدر والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين لا الانتقام والتشفي.

ومنها: أن الأدب سابق على الأخلاق؛ لأنها خلاصة الأدب، ولذا وصفه بالخلق العظيم بعد التأدب.

ومنها: أن شدة الأدب وعظمة الأخلاق تجعل صاحبها عالماً حكيماً بعيداً عن الأخطاء والقبائح، وفي ذلك إشارة مهمة لأهل المعرفة في أن بعض مراتب العصمة تنال بسعة الصدر والصبر والعفو عن أخطاء الآخرين. هذا من الناحية النظرية.

وأما من الناحية العملية. فقد ورد عن أسلوبه ﷺ الرحيم ما يبهر العقول.

الرحمة العملية

منها: ما ورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كثر حوله المهاجرون والأنصار، وكثرت عليه المسائل، وكانوا يخاطبونه بالخطاب الشريف العظيم الذي يليق به ﷺ، وذلك أن الله تعالى

(١) البحار: ج ١٧، ص ٨، ح ١١.

كان قال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١) وكان رسول الله ﷺ رحيماً بهم وعليهم عطفاً وفي إزالة الآثام عنهم مجتهداً حتى أنه كان ينظر إلى كل من يخاطبه، فيعمل على أن يكون صوته ﷺ مرتفعاً على صوته؛ ليزيل عنه ما توعدده الله به من إحباط أعماله حتى أن رجلاً أعرابياً ناداه يوماً وهو خلف الحائط بصوت له جهوري: يا محمد! فأجابه بأرفع من صوته يريد أن لا يآثم الأعرابي بارتفاع صوته^(٢)، فسأله الأعرابي ما يريد وأجابه رسول الله ﷺ بكلام لين علمه هداة، وأنقذه من ذنب رفع صوته وسوء أدبه مع النبي ﷺ. ترى لو بدر هذا في مقابل أي حاكم آخر كيف كان يتم التعامل معه؟.

معاداة اليهود للنبي ﷺ

وكان اليهود يعادون النبي ﷺ ويظهرون عداوته بألستهم بالكنايات والتصریحات، ولم يعاملهم رسول الله ﷺ بالمثل مع قدرته وتمكنه منهم.

فقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر في معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣) إن لفظة ﴿رَاعِنَا﴾ من ألفاظ المسلمين الذين يخاطبون بها رسول الله ﷺ.

(١) سورة الحجرات: الآية ٢.

(٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٤٧٧، ح ٣٠٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٠٤.

يقولون: راعنا أي اراع أحوالنا، واسمع منا كما نسمع منك، وكان في لغة اليهود معناها (اسمع لا سمعت) فلما سمع اليهود المسلمين يخاطبون بها رسول الله ﷺ يقولون: راعنا ويخاطبون بها قالوا: إنا كنا نشتم محمداً إلى الآن سرّاً، فتعالوا الآن نشتمه جهراً، وكانوا يخاطبون رسول الله ﷺ ويقولون: راعنا ويريدون شتمه، ففطن لهم سعد بن معاذ الأنصاري - وهو ابن المدينة يعرف لغتها، وبعض اليهود كانوا أقرباءه وأصهاره - فقال: يا أعداء الله ! عليكم لعنة الله، أراكم تريدون سب رسول الله ﷺ وتوهمونا أنكم تجرون في مخاطبته مجرانا، والله لا سمعتها من أحد منكم إلا ضربت عنقه، ولولا أنني أكره أن أقدم عليكم قبل التقدم والاستئذان له ولأخيه ووصيه علي بن أبي طالب عليه السلام القيّم بأمور الأمة نائباً عنه فيها لضربت عنق من قد سمعته منكم يقول هذا، فأنزل الله سبحانه: يا محمد ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْأَسْنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ...﴾^(١) ... وأنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾^(٢) فإنها لفظة يتوصل بها أعداؤكم من اليهود إلى شتم رسول الله ﷺ وشتمكم، وقولوا: (انظرونا) فإنه ليس فيها ما في قولكم: (راعنا) ولا يمكنهم أن يتوصلوا بها إلى الشتم، كما يمكنهم بقولهم: راعنا، (واسمعوا) إذا قال لكم رسول الله ﷺ قولاً واطيعوا^(٣).

(١) سورة النساء: ٤٦.

(٢) سورة البقرة: ١٠٤.

(٣) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٤٧٨ - ٤٧٩، ح ٣٠٥.

١٢٨ مايقوله القرآن في سورة الحمد

وفضلاً عن دلالة الحديث الصريح على رحمة النبي ﷺ ولطفه في أسلوبه
وتعامله مع أعدائه المخالفين له في الدين. فإنه يتضمن دلالات عديدة مهمة:

المعرفة بالوصي

إحداها: أن المسلمين كانوا يعلمون بوصي النبي في حياته، وأنه منصوب
للنيابة والخلافة عنه، وكان المؤمنون لا يتقدمون عليه، فدعوى أن النبي
رحل بلا وصية ووصي باطلة.

تحريف المعاني

ثانيها: أن التحريف قد يقع في الألفاظ وقد يقع في المعاني، واليهود ما
حرفوا لفظ الآية بل معناها. وهذا ما وقع به بعض المسلمين في تحريف
الآيات النازلة في أمير المؤمنين ﷺ والعترة الطاهرة عليهم السلام؛ إذ غيروا معانيها.

وجوب تنزيه الإسلام

ثالثها: ينبغي على المسلم أن يسدّ أبواب الطعن والإيذاء بالإسلام
والمسلمين، فلا يستخدم لفظة يتخذها الأعداء طريقاً للعدوان.

شورى النبي ﷺ ورحمته

الثالثة: المشاورة في الأمور المهمة التي تتعلق بمصالحهم الدنيوية وعدم
التفرد بالرأي أو القرار أو تنفيذه، أمّا الأمور الدينية فهي تتبع الوحي، ولا
رأي للناس فيها، فشؤون الحرب والسلام والتعليم والتربية وإدارة البلاد
والعباد سياسياً واقتصادياً ونظامياً وغيرها من شؤون الصالح العام يجب
أن يؤخذ رأي الناس فيها، ولهذا فوائد عظيمة لا يستغني عنها القائد

الكفوء، والقضية لا تتعلق بالعلم والمعرفة وكسب الاطلاع فقط، بل بتطبيب القلوب وتحصيل المعاونة والإسناد فاذا كان رسول الله ﷺ وهو أعلم عباد الله وأكملهم وقد عصمه الباري وسدده بالوحي، مأموراً بالتشاور مع اتباعه فما بالك بغيره؟ وقد ورد عن الإمام الحسن عليه السلام في بيان سر مشورة الرسول ﷺ: ﴿قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستنَّ به من بعده﴾^(١).

وفي رواية ابن عباس عن النبي المصطفى ﷺ: ﴿أما إن الله ورسوله لغنيان عنها - أي الشورى - ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيًّا﴾^(٢) والغني الضلالة والحية^(٣)، والشواهد متضافرة على أنه ﷺ استشار أصحابه في مواطن عديدة تتعلق بشؤونهم.

مشاورات النبي ﷺ

منها: في معركة بدر الكبرى حينما نزل عند أدنى ماء بدر فأشاروا عليه أن ينزل أدنى ماء من القوم فاستجاب لهم، وعن الحباب بن المنذر. قال: أشرت على رسول الله ﷺ يوم بدر بخصلتين فقبلهما مني. خرجت مع رسول الله ﷺ في غزاة بدر فعسكر خلف الماء، فقلت يا رسول الله ﷺ! أ بوحي فعلت أو

(١) مواهب الرحمن: ج ٧، ص ٨.

(٢) مواهب الرحمن: ج ٧، ص ٨.

(٣) مجمع البحرين: ج ١، ص ٣٢١، (غوا).

برأي؟ قال: (برأي يا حباب) قلت: فإنّ الرأي أن تجعل الماء خلفك، فإن لجأت لجأت إليه، فقبل ذلك مني^(١)، ثم استشارهم في الأسارى^(٢).

ومنها: في معركة أحد عندما كان رأيّه أن يبقى في المدينة ويحارب فيها وقد أشاروا عليه بالخروج منها إلى أحد^(٣)، وقد أجابهم لذلك مع علمه بعلم النبوة خطأ ما أشاروا عليه إلّا أنّ مصلحة الإجابة وجعل الشورى سنة دعت إلى الإجابة.

ولما أمر جماعة من الرماة أن يقفوا على سفح الجبل ليحموا ظهر المسلمين وخالفوا وسبّبوا الخسارة للمسلمين لم يذكر التأريخ أنّه ﷺ عاقبهم أو انتقم منهم أو حاكمهم بالخيانة.

ومنها: مشاورته يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة فأبى عليه ذلك السعدان - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - فترك ذلك لرأيهما^(٤).

ومنها: مشاورته يوم قريظة والنضير، فقام الحباب بن المنذر فقال: أرى أن تنزل بين القصور فتقطع خبر هؤلاء من هؤلاء، وخبر هؤلاء عن هؤلاء، فاخذ رسول الله ﷺ بقوله^(٥).

ومنها: مشاورته لأصحابه في معركة الأحزاب عن الوسيلة الفضلى للدفاع

(١) الدر المنثور: ج ٢، ص ٩٠؛ المستدرک: ج ٣، ص ٤٢٧.

(٢) سنن الترمذي: ج ٣، ص ١٢٩.

(٣) تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٤٢٩.

(٤) تفسير ابن كثير: ج ١، ص ٤٢٩.

(٥) الدر المنثور: ج ٢، ص ٩١.

عن المدينة، وأخذ برأي سلمان رضوان الله عليه بحفر الخندق حولها^(١).
إلى غير ذلك من الموارد الكثيرة حتى قال بعض أصحابه: (ما رأيت
أحداً من الناس أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ)^(٢).
وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: ﴿إنَّ رسول الله ﷺ كان يستشير أصحابه
ثم يعزم على ما يريد﴾^(٣) وقد جمعنا جملة من مشاوراته في بعض أبحاثنا^(٤).

أدلة وجوب الشورى

ويستفاد من مجموعها أنَّ الشورى العامة واجبة؛ لمكان الأمر في الآية
فتجب على غيره بالأولية القطعية، وهو ما يقضي به العقل، وجرت عليه
السيرة العقلائية.

فالاستقلال بالرأي أو احتكار القرار أو التفرد في التنفيذ من القبائح
الموجبة للتفرق واختلال النظام وملازم للحرمة؛ لاستلزامه التولي على
شؤون الناس والتصرف بمصالحهم دون إذن، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٥) والمقصود العزم على العمل بعد المشورة، ويجب
أن يكون مطابقاً للشورى وإلا انتقض غرض الاستشارة وأورث الفساد.

(١) تفسير القرطبي: ج ٨، ص ٤١.

(٢) الدر المنثور: ج ٢، ص ٩٠.

(٣) المحاسن: ج ٢، ص ٦٠١، ح ٢١.

(٤) انظر الحرية السياسية (المعالم والضمانات): ص ٧٨ - ٨٢.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

والأمر بالتوكل على الله للإرشاد إلى أن الشورى وحدها لا توجب النصر والغلبة، وإنما التوكل على الله عزَّ وجلَّ وتفويض الأمور إليه؛ لأنَّ الشورى من مقتضيات النجاح وليست من علله التامة، فلا تؤثر إلا بزوال الموانع وهي بيد الله عزَّ وجلَّ، وبالاتكال عليه سبحانه تتم شرائط العلة في التأثير. ومن ذلك يعرف أنَّ التوكل إنما يتم بعد إعداد الإنسان لكل مقومات النجاح ومقدماته، ولكنه لا يعوّل عليها ويتكل على قدرته وتجهيزاته، وإنما على الله سبحانه.

أفضل صفات القائد

إنَّ أفضل صفات القائد الناجح هي الرحمة، وأفضل مظاهرها اللين والسماحة النابعة من القلب والمنعكسة على الفعل والمنهج. هكذا يعلمنا الباري عزَّ وجلَّ بهذه الآية المباركة، خصوصاً القائد الروحي الذي يقتدي به الناس في دينهم، فإنه لا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا تشبَّه بأخلاق الخالق تعالى وأخلاق رسوله ﷺ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان جوهره ومظهره متطابقين في الرحمة.

أصناف القادة

فإنَّ القادة من حيث الرحمة والغلظة على أربعة أصناف:
الأول: من كان قلبه رحيماً وأسلوبه غليظاً وهذا فاشل؛ لأنَّ غلظة الأسلوب تحمي الرحمة، وتزيل آثارها، والنتيجة تتبع أحسن المقدمات، كما يقول المناطقة.

الثاني: من كان قلبه غليظاً وأسلوبه رحيماً وهذا نادر الحصول، ولو حصل فسرعان ما ينكشف؛ لأن الفعل أثر الذات، والصفات مظاهر الملكات، فلا يعقل أن يكون القلب غليظاً والأسلوب رحيماً إلا في ثلاث حالات:

الأولى: المراوغة والاحتيال، وهذا أسلوب سرعان ما ينكشف.

الثانية: الحالة المزاجية وهي لا تدوم؛ لأنها متقلبة تفضح صاحبها.

الثالثة: المصلحة وتندرج في الأول والثاني.

الثالث: من كان قلبه غليظاً وأسلوبه كذلك، وهو أسوأ الأصناف وأكثر الذين دمّروا بلادهم وساقوا الناس الى المهالك الكبيرة من هذا القبيل.

الرابع: من كان قلبه رحيماً وأسلوبه رحيماً وهو أرقى الأصناف وأعلاها مقاماً ورتبة، والأقدر على تحقيق الانجازات والانتصارات، وهو ما أشارت إليه الآية المباركة، ورحمة القلب تلازم المحبة للآخرين والعطف عليهم ومشاركتهم في أوجاعهم وآمالهم، وتشدّ من حبل المودة بين الناس والقائد؛ فلذا يعمّ البلد الذي يحكمه قائد رحيم القلب والأسلوب الأمن الاجتماعي والسلامة النفسية والبدنية والاستقرار السياسي والرفاه الاقتصادي، وهي آثار للربوبية الرحمانية والرحيمية.

التعليم الثالث: رحمة الإسلام.. والعلمانية

ربما يقال إنّ الآية تتنافى مع أحكام الشرع وسيرة أهله؛ إذ هناك جملة من الأحكام التي شرّعها الإسلام تتنافى مع الرحمة.

منها: قانون العقوبات الذي شرّعه الدين، فإنّه يقوم على الرجم للزناة

وقطع يد السارقين.

ومنها: قانون الرق واستعباد الناس، كما أنّ التأريخ شاهد على أنّ السياسة التي حكمت بلاد المسلمين قامت على العنف وسفك الدماء، فأين الرحمة؟ وقد كان ولا زال بعض منهم يقرؤون الإسلام قراءة منقوصة، أو قرؤوه من مصادر مزيفة، أو لم يلتفتوا إلى حكمة الإسلام وأسراره فيثيروا ذلك ويعدوه منقصة تكشف عن قصور الإسلام أو خلوه من المبادئ الإنسانية، والواقع المعتضد بالعقل والمنطق على خلاف ذلك، والإجابة عن ذلك مفصلة ذكرنا بعض وجوها في بعض أبحاثنا^(١)،

من يمثل الإسلام؟

ونكتفي هنا بالقول بأن سياسة حكام المسلمين لا تعكس فكر الإسلام ولا نهجه؛ لأنها كانت مخالفة لأحكامه وحدوده، فمن الظلم الكبير أن تنسب للإسلام أفعال أناس ظالمين فاسدين اتخذوا الإسلام شعاراً وخالفوه في العمل، والإسلام لا يرتضيهم.

إنّ سياسة الإسلام يمثلها رسول الله ﷺ وخلفاؤه المعصومون من عترته عليه السلام، والذي يتبع سياستهم لا يجد فيها إلا ما هو مورد الفخر والاعتزاز للبشرية، وقد شهد لهذا أقطاب في الفكر والأدب الغربي من غير المسلمين.

منهم: جوستاف لوبون في كتابه تأريخ العرب. قال: الحق أنّ الأمم لم

(١) انظر الحرية بين الدين والدولة: الفصل الثاني والثالث والرابع؛ الخلفاء والملوك: ج ١، ص ٥٦ فما بعدها.

تعرف فاتحين متسامحين مثل المسلمين، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم^(١)
ومنهـم: برناردشو الفيلسوف المعروف. قال: إنّ الاسلام دين يستحق
كل احترام وإجلال؛ لأنه أقوى دين على هضم جميع المذنيات، وهو خالد
خلود الأبد، وإنّي أرى كثيراً من بني قومي العلماء قد دخلوا هذا الدين على
بيئة من أمرهم، ومستقبلاً سيجد هذا الدين مجاله الفسيح في كل أنحاء
أوروبا^(٢)، وقد أقرّ بحقيقتين:

دخول علماء الغرب الإسلام

الأولى: أن الكثير من علماء الغرب دخلوا الإسلام لكننا لا نعرف عنهم
إلا القليل، ولعل هذا يعود الى السياسة التي منعت الكشف عن هذه
الحقيقة، أو قلة الاطلاع عنهم، ولو تحرّى أهل البحث والتحقيق
والدراسات الجامعية وغيرها عن ذلك لتعرّفوا على الكثير منهم، ونقلوا
تجربتهم، ولكانت دراسات ذوات فائدة جمة.

أوروبا والإسلام

الثانية: أنّ الإسلام سينتشر في أوروبا ويؤمن به الغرب، ولعله لسببين:
الأول: فشل الفكر الغربي وفلسفته الكونية والسياسية عن تحقيق آمال
الإنسان وإسعاده، وهذه حقيقة يؤكدّها الواقع اليوم.

(١) حضارة العرب: ص ٦٣٠؛ الحرية بين الدين والدولة: ص ٧٣.

(٢) مقارنة الأديان (الإسلام): ص ٢٧٧؛ الحرية بين الدين والدولة: ص ٧٣.

الثاني: قوة فكر الإسلام ومبادئه وقيمه الصادقة، فإنَّ البشر كلّما اتسعت معارفه وارتقى مستواه الفكري والإنساني يبحث عن الأفضل، ولن يجد الأفضل إلّا في قيم الإسلام، ومعلوم أنّ الإسلام له نهجان وطريقان: أحدهما: صنعه الحكّام والملوك والسلاطين، وهذا إسلام مشوّه مزيف صُنِع لخدمة السياسة.

وثانيهما: جاء به النبي والقرآن والعترة، وهذا هو الإسلام الحقيقي الذي منع الملوك والسلاطين في جميع الأزمنة من نشره، ومنعوا البشرية من التعرّف عليه، ولا زال العالم الغربي بسياسته يعمل ليل نهار ليمنع الناس من التعرّف عليه؛ لأنّهم لو عرفوه آمنوا به، ووقائع التاريخ شاهدة على هذه الحقيقة، وأصدق دليل على ذلك هو سياسة القائد مع أعدائه ومناوئيه الذين ظلموه وآذوه وهجّروه من بلده، وعذبوا أهله وأصحابه فحينما ظفر بهم، وهو المنتصر عليهم كان أسلوبه معهم كاشفاً عن سموه وعلو همته وصدقه في دعواه.

سياسة النبي الفاتح

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة جمع أهلها ورموز أعدائه وهم أسرى بين يديه، فقال لهم: ﴿ما تقولون إنّي فاعل بكم؟﴾ قالوا: خيراً أخ كريم وابن عم كريم، وهذا بذاته شاهد على مدى ثقة الناس به حتى أنّ أعداءه يظنون به خيراً. فقال لهم: ﴿أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ

عَلَيْكُمْ^(١)،^(٢) وقال: اذهبوا فانتم الطلقاء^(٣). فقد أشعرهم بتمثيله بقول يوسف أنهم أخوته وأهله كأخوة يوسف الذين ظلموه وآذوه وكادوا يقتلونه، ولما ظفر بهن عفا عنهم، وليسوا غرباء عنه ولا أعداء، ثم لم يؤاخذهم على ما فعلوه به، ولم يقتصص من أحد منهم بل أطلقهم جميعاً ولم يكتف بذلك، بل أعطى عفواً عاماً للجميع الذين يطلبون الأمن ويضعون الحرب والسلاح، وجعل بعض بيوت رموز أعدائه مأمناً لكل خائف وهارب من جرمه وجريته. فقال ﷺ: ﴿من دخل دار أبي سفيان وهو بأعلى مكة فهو آمن، ومن دخل دار حكيم وهو بأسفل مكة فهو آمن، ومن أغلق بابه وكف يده فهو آمن﴾^(٤).

وربما يسجن الإنسان القادر عدوه، وغاية نبه أن يعفو عنه لكن أن يجعله مأمناً للناس ومأوى للأمن والسلام فهذا فقط في نهج رسول الله ﷺ ترى هل توجد لهذه الرحمة والسباحة أمثلة في أرقى الدول وأكثرها التزاماً بحقوق الإنسان؟

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.

(٢) الكافي: ج ٤، ص ٢٢٥-٢٢٦، ح ٣؛ البحار: ج ٢١، ص ١٣٢.

(٣) الكافي: ج ٣، ص ٥١٣، ح ٢؛ الاستبصار: ج ٢، ص ٢٦، ح ٧٣؛ التهذيب: ج ٤، ص ٣٨، ح ٩٦.

(٤) البحار: ج ٢١، ص ١٠٤.

سياسته الداخلية

وكان حاكماً نزيهاً زاهداً متواضعاً محباً لرعيته حتى من الذين يخالفونه في دينه، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَّ يَهُودِيًّا كَانَ لَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَنَائِيرٌ فَتَقَاضَاهُ فَقَالَ لَهُ: يَا يَهُودِي! مَا عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ. قَالَ: فَإِنِّي لَا أَفَارِقُكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى تَقْضِيَنِي، فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا أَجْلَسَ مَعَكَ فَجَلِسْ مَعَهُ حَتَّى صَلَّى فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَالْغَدَاةَ، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَدَّدُونَهُ وَيَتَوَعَّدُونَهُ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا الَّذِي تَصْنَعُونَ بِهِ؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودِيٌّ يَجْبَسُكَ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ يَبْعَثْنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ أَظْلِمَ مَعَاهِدًا وَلَا غَيْرَهُ، فَلِمَا عَلَا النَّهَارُ قَالَ الْيَهُودِيُّ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَشَطَرَ مَالِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَمَا وَاللَّهِ مَا فَعَلْتُ بِكَ الَّذِي فَعَلْتُ إِلَّا لِأَنْظُرَ إِلَى نَعْتِكَ فِي التَّوْرَةِ، فَإِنِّي قَرَأْتُ فِي التَّوْرَةِ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَاهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجِرُهُ بَطْيَبَةَ، وَلَيْسَ بَفُظٍّ وَلَا غَلِيظٍّ وَلَا سَخَّابٍ وَلَا مَتَزَيِّنٍ بِالْفَحْشِ وَلَا قَوْلِ الْخَنَا»^(١).

الفظ سيء الخلق وذو القلب القاسي^(٢)، والغليظ الشديد العنيف^(٣)، والسخاب صيغة مبالغة من السخب بالتحريك وهو شدة الصوت وعلوه

(١) البحار: ج ١٦، ص ٢١٦ - ٢١٧، ح ٥؛ الأمالى (للصدوق): ص ٥٥٢، ح ٧٣٧.

(٢) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٢٨٨، (فظظ).

(٣) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٢٨٨، (غلظ).

عند الخصومة^(١)، وتطلق على الجاهل ذي العقل الطفولي^(٢)، والفحش كل مستقبح من الفعل والقول^(٣)، والخنأ أفحش الكلام^(٤)، وتضمن الخبر دلائل تحيّر العقول:

منها: حبس الحاكم الأعلى في البلد لأجل دَيْن بسيط، وممن خالفه في العقيدة، فعلى ماذا يدل هذا؟ يدل على مستوى زهد الحاكم وبساطة عيشه ومستوى التضحية براحته ووقته لأجل حقوق الناس.

حق المواطنة

ويدل على سيادة المواطنة في البلد وعدم التمييز بين مؤمن وغير مؤمن، وموال وغير موال، وأقلية وأكثرية في حقوق المواطنة، كما يدل على قوة الأمن الفكري والاجتماعي الذي يناله الجميع، فلا للحاكم حماية تمنعه من رعيته ولا من يزود عنه؛ لأن سلطان الحق وقوة العدل أمضى من سلطان القوة والسلاح، والملفت أن رسول الله ﷺ لم يتعامل معه بقانون الإسلام فيفك حبسه فإنّ الباري عزّ وجلّ أمر بإمهال المديون المعسر فقال: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾^(٥) ولم يطلب من أحد ضماناً أو كفالة، ولعله كان يتوسّم به الصدق، وإنّه سيؤمن في نهاية المطاف، فحرصاً على

(١) مجمع البحرين: ج ٢، ص ٨١، (سخب).

(٢) المعجم الوسيط: ج ١، ص ٤٢١، (السخاب).

(٣) مجمع البحرين: ج ٤، ص ١٤٧، (فحش).

(٤) لسان العرب: ج ١٤، ص ٢٤٤، (خنا).

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

إنقاذ هذا اليهودي صبر على جفائه وقسوته. وهذا ما شهد له الباري عزَّ وجلَّ له بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١) وحرصه هذا يشمل المسلم والمعاهد والكافر، ولذا قال ﷺ: ﴿لم يبعثني ربي عزَّ وجلَّ بأن أظلم معاهداً ولا غيره﴾ فأين يجد الناس قيادة وسياسة بهذا المستوى من السمو الأخلاقي، والتسامح الفكري، والرحمة في الإسلوب؟

وكان يقول: ﴿أفضل الأعمال ثلاثة: التواضع عند الدولة، والعفو عند المقدرة، والعطية بغير منة﴾^(٢).

سياسة الغاصبين

هذه هي حقيقة الإسلام وواقع سياسته لا سياسة من غصبوا خلافة النبي ﷺ وأبعدوا عثرته الطاهرة عنها، فإنَّ الإسلام لا يتمثل بالغصبة والقاتلين الذين داسوا كتاب الله وأحكامه، واتبعوا شهواتهم، ومن التجني الكبير على الدين وأهله أن تنسب سياسة هؤلاء إلى الإسلام، ومن التجني الكبير أن تحسب تصرفات الفئات التي صنعها الغرب والشرق وأباح لها الارهاب والقتل باسم الإسلام على الإسلام. إن هذه صنائع الغرب والشرق لا صنائع الإسلام، وكذلك من التجني أن تحسب تصرفات بعض الحكومات والدول باسم الإسلام على الإسلام؛ لأنَّ الإسلام يمثل من جاء به لا الحكمَّ وأمثالهم.

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) المواعظ العديدة: ص ١٥٨ - ١٥٩؛ وانظر الفقه (السلم والسلام): ص ٣٩٣.

تعالوا إلى الإسلام

ومن هنا أسجل دعوة الى شباب المسلمين وأبنائهم ممن أخذوا طريق العلمانية وغيرها من الطرق التي صنعها الغرب والشرق لهم وأوهمهم بأن الإسلام غير قادر على إدارة الحياة أن يدرسوا الإسلام ويتعرفوا عليه من منبعه الصافي منبع محمد وآل محمد عليه السلام، لا منبع معاوية والحجاج وهارون العباسي وأمثالهم، ولا منبع الأحزاب والجماعات التي تقنعت بالإسلام لأجل الحكم، وهي دعوة لعموم أهل العقل والمنطق والشعور الإنساني الرفيع أن يتعرفوا على الإسلام من منبعه الصحيح، فإنهم سيجدون فيه الكثير الذي لا يجدونه في غيره.

هل عقوبات الإسلام قاسية؟

وأما دعوى القساوة في قانون العقوبات وأحكام الرق فجوابه من وجوه:
أولاً: يجب أن نعرف أن الاسترقاق قسمان جزائي وعدواني، والأول يقوم على أسر الكافر المحارب للإسلام في ساحة المعركة التي يخوضها الكفار ضد المسلمين من جهة الدين، وغايتها طمس الدين، وهزيمة المسلمين، فمنشأ الرق في الإسلام هو الجزاء كأحد أساليب الدفاع عن الدين وأهله، وتختص بالأسير في الحرب العدوانية على الإسلام والمسلمين في ضمن الشروط المتقدمة، والتأريخ البشري حافل بالحروب، وكل معركة لا تخلو من أسرى كثر، وأكثرها لا تحمل أهدافاً مقدسة، بل طامعة إلى مزيد القدرة والنفوذ والمصالح الاقتصادية أو السياسية، ولا زال العالم يخوض الحروب لهذه الدواعي الفاسدة والمفسدة التي يرفضها الدين ويحرمها.

وثانياً: يجب أن نعرف أنّ هذا البحث في هذه الأيام نظري لا واقع له في الخارج؛ لعدم توفر شروطه التي ذكرها الفقهاء، لكننا نتناوله للإجابة عن الشبهة وإزالة الغشاوة عن الأبصار والأذهان.

قضية الرق في الإسلام

والجواب عن الشبهة يتم بجوابين: نقضي وحلي، وفي الجواب النقضي نتساءل كيف يتعامل العالم مع الأسير في الحرب؟ والجواب بسجنه لأجل التفاوض عليه، أو النظر في مصيره، ونعود ونسأل ما فرق السجن عن الاسترقاق؟

بين السجن والرق

والجواب: توجد مغايرة في المفهوم، فإنّ أحدهما يعبر عنه بالاسترقاق والثاني بالسجن، وأمّا من حيث الواقع فكلاهما سواء؛ لأنّ معنى الرق أن يملك الإنسان ويكون طوع أمر مالكة، وعلى المالك إطعامه وإكساؤه وحمايته.

والسجين الأسير كذلك يوضع في حبس ويطعم ويكسى ويكون طوع أمر ضباط السجن والحاكمين فيه لا يملك لنفسه شيئاً، وفي كثير من الأحيان يكون ذليلاً متتهك الحرمة، وربما معذباً، ثم يدخل طرفا الحرب بالتفاوض عليه فيكون مصيره بيد الطرفين المتفاوضين، فلو اتفقا على إطلاقه أطلقوه وإن كان رافضاً ذلك، وإن اتفقا على إبقائه في السجن أبقوه على رغم أنفه، وإن اتفقا على قتله أو قرر أحدهما ذلك قتلوه أو جندوه لخدمة مصالحهم، أليس هذا هو واقع الأسر والسجون؟

فأيها أفضل أن يكون الأسير بيد سجانين يلعبون بمصيره ويستملكون قراره ولا حول له ولا قوة، أم يكون مملوكاً لإنسان مؤمن يجعل تحت حمايته ورعايته، وله حرية الحركة والقول والاعتقاد، ومتى شاء أن ينفصل عن مالكة انفصل بأسباب عديدة؟

منها: أن يشتري نفسه أو يتفق معه على إنجاز خدمة مقابل تحريره، فلو كان طبيباً أو شاعراً أو حرفياً مثلاً ويتفق مع مالكة أنه لو شافاه من مرضه حرره، فإن له ذلك، فالأسير المملوك عنده باب الأمل والرجاء مفتوح، وبرغم رقيقته فإن له شيئاً من الحرية في تقرير مصيره بخلاف السجين. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن هناك أبواباً فتحها الشرع لتحرير المملوك لا يملك المالك الحرية فيها؛ إذ جعل الشرع جملة من الأحكام الجزائية والعبادية تتعلق بفك الرقاب، فمن أفطر عمداً في شهر رمضان جزاؤه عتق رقبة كأحد خصال الكفارة، وكذا من خالف نذره، ومن قتل عمداً، ومن العبادات التي يتقرب بها الإنسان المؤمن إلى ربه عتق الرقاب، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يشتري في السنة الكثير من العبيد يقيهم عنده إلى شهر رمضان فيعتقهم جميعاً في سبيل الله ^(١).

(١) الصحيفة السجادية: ص ٢٨٦ - ٢٨٧؛ إقبال الأعمال: ج ١، ص ٤٤٤؛ البحار: ج ٩٥، ص ١٨٧.

أسباب العتق القهري

ومن جهة أخرى جعل الشرع أسباباً للعتق القهري:

منها: الظلم والتنكيل بالمملوك، فلو كان المالك ظالماً معذباً لمملوكه ونكّل به فإنه يتحرر منه رغماً عنه، إلى غير ذلك من حدود وأحكام قررها الفقهاء في باب العتق، فترى أي الموقفين فيه الرحمة والمحبة والإنسانية العالية، استرقاق الأسير ثم تربيته وإصلاح أمره وإدخاله ضمن العبادات التي يتقرب فيها إلى الله أفضل أم سجنه وحرمانه من أبسط حقوقه؟

الرق المعاصر

وثالثاً: إذا كان الشرع جعل الرق جزائياً خاصاً بأسرى الحرب فإن العالم المتمدن والمتحضر - كما يقولون - يزاول الرق بلا حرب، بل يسترق الناس الآمنين بلا حرب، وهو رق عدواني، كما تدل عليه الشواهد.

فماذا يقال للتجارة بالجنس التي تقوم على اختطاف الفتيات وبيعهن في أسواق الجنس؟ وماذا يقال في اختطاف الأولاد الصغار لأجل التجارة بأعضائهم؟ فالإحصاءات في هذا المجال مرعبة، هناك (٥٠٠) ألف في العام الواحد يتعرضون للتجارة بالبشر وتشغيلهم في الفاحشة رغماً عليهم. تباع البنت في بعض الدول ب (٤٠٠) دولار، وفي المانيا ب (١٠٠٠) دولار لعمل الفاحشة وتستخدم كأمة، ومجموع ما يباع منهن لكل أوروبا ب (١٢٠) ألف، ومجموع المال الذي يكتسب من ذلك (٣٢) مليار دولار في السنة، والعصابات العاملة بهذه التجارة (٣٦٠٠) تختطف البنات

وتجبرهن على العمل كأمة لممارسة الجنس، وفرقها عن غيرها أنّها يمارس الجنس معها في كل ثقب من جسدها، فأين الرقية؟ ومن الذي يسترقّ الناس؟ ومن هو الرحيم؟ هل من يسترق الأسير ليقبل الحرب ثم يهديه ويعلمه ثم يعتقه أم الذي يسترق الأحرار بالغصب والخطف ويبيعهم ويتاجر بهم ويصادر حقوقهم؟

ومن التأريخ الأمريكي الأسود إعلان في أحد الصحف الأمريكية المحلية عن بيع النساء من فيتنام مقابل (٦٠٠٠) دولار فقط عام ١٩٦٦، ومن مزايا المرأة المباعة أن تكون عذراء وتسلم لك خلال (٩٠) يوماً من دفعك المبلغ وغير مكلفة، أي بدون حقوق كمواطنة أمريكية، أي إذا تم اغتصابها أو قتلها فالقانون لا يجرمك، فقط يغرمك بعقوبة إتلاف ممتلكاتك، وإذا هربت خلال السنة المتعاقد عليها تحصل على امرأة أخرى مجانياً، وكان ضباط كبار بالجيش الأمريكي يشرفون على شبكات تجارة البشر والدعارة وبيع النساء الفيتناميات في أمريكا، وتصديرهنّ إلى دول أخرى كاليابان وإستراليا بإشراف وزارة الدفاع الأمريكية، وبعلم من الصحف والمجلات المحلية الخاصة والعامة للدولة - يعني الرأي العام على علم وموافق - ولكم أن تتخيلوا أنّ ذلك التأريخ الحديث لأمريكا، فهو منذ ما يقرب من (٥٠) عاماً فقط، أي أن الكثيرين ممن عاصروا تلك الأحداث ما زالوا موجودين على قيد الحياة، والآن يحاضرون علينا باسم حقوق المرأة وحقوق الإنسان، ويتهمون على الإسلام وشرائعه بأنّه إهانة لحقوق المرأة، لكن المحزن حقاً أنّ أغلبنا من المغيّبين يصدقون ذلك،

ويتشددون بتحضر الغرب، بل ويتخذونهم مثلاً أعلى لهم^(١).

استرقاق الخدم

وماذا يقال عن نظام الخدامة الذي قرر نقل الخدم من بلد إلى بلد لأجل كسب لقمة العيش،، ويكون مصير الخادم والخدمة بيد من استقدمه واستخدمه؟

سلب حقوق الوالدين

وماذا يقال للقوانين التي تسلب من الأب والأم حق الأبوة والأمومة إذا طلب الولد ذلك أو تمرد عليها؟ فهل القانون أولى من الأب في الولد أم السلطة أولى؟ فإذا السلطة أو القانون سلب الأب حقوقه في أولاده ولا يحق للأب أو الأم الاعتراض ويجبران على مفارقة أولادهما فماذا يسمى هذا؟ أليست الرقبة سلب الاختيار والحقوق؟! وماذا يقال في غسيل الأدمغة الذي يجري على الناس لأجل توظيفهم وتسخيرهم لخدمة الأغراض السياسية والاقتصادية؟ وماذا يقال عن الشريحة التي يراد زرعها في أبدان البشر للتحكم بهم، وتستقر في أدمغتهم وجعلهم مسيرين لا مخيرين؟ فإن هذه ليست رقاً محدوداً؛ لأنّ كل العالم مهدد بها وهي أسوأ من الرق، والمنظمات الحقوقية التي شرعت القوانين لمنع الرق بمعناه المصطلح عليها أنّ تشريع القوانين المانعة من الرق التجاري والسياسي وتحاربه، وهو أخطر

(١) صحيفة الأحداث السياسية (رئيس التحرير إبراهيم آل درويش): تاريخ ٧ / ١ / ٢٠٢١.

وأسوأ من الرق المصطلح بكثير؟! وعلى الذين يرون أن الرق مخالف للرحمة وناقض للحقوق الإنسانية أن ينظروا إلى ما هو أسوأ ويعملوا على مكافحته ووضع القوانين الرادعة له.

التعامل الشرعي مع الأسير

وأما الجواب الحلي فنقول: إن الرق ليس هو المصير الوحيد لأسير الحرب في الإسلام، بل هو أحد خيارات عديدة تدور بين أربعة هي: المنّ بإطلاق سراحه، وفي الغالب يشمل الأسرى المضللين المخدوعين الذين سيقوا إلى حرب الإسلام دون إرادة كاملة منهم، فيعطف عليهم ويحررون، وهذا أحد وجوه تسمية العبيد بالرقيق؛ لأنهم ممن يستحقون الرقة والرحمة^(١)، أو إطلاقه بفداء يدفعه هو أو غيره، ولعله يشمل من لا يؤمن عوده إلى الحرب أو الأسر والتفاوض عليه أو الاسترقاق، ولعله يشمل ما يرجى هدايته وصلاحه، والأمر موكل إلى ما يراه الحاكم الإسلامي الجامع للشرائط الشرعية من المصلحة، والغاية منه تعود إلى أمرين:

أحدهما: تحديد الحرب وتحجيمها، فإن المقاتل إذا علم بأنه لو شارك في الحرب وأسر يسترق ربما يفكر ألف مرة قبل الدخول فيها.

ثانيهما: الهداية والتربية، فإن المملوك إذا عاش في ظل مالك مسلم مؤمن رحيم يرى آداب المسلمين ويتعرف على أحكام الإسلام وأخلاقه ربما يكون له ذلك داعياً إلى الإيمان، فإن كل عاقل إذا يقارن بين عادات الكفر وأفكاره

(١) انظر مجمع البحرين: ج ٥، ص ١١٨، (رقق)؛ مفردات الراغب: ص ٣٥١، (رق).

وجاهليته مع رحمة الإسلام وحكمته وعدالته ونوره يفصل الإسلام على الكفر، ولا أقل من أن يكون محباً للإسلام والمسلمين ومحيداً لهم، فيخرج عن الخصومة والعداوة معهم، وهذا الآخر مكسب عظيم يقلل من دواعي الحرب.

شواهد من أهلها

وهذا ما شهد له بعض المؤرخين من غير المسلمين.

منهم غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب. قال: إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، وإنما ما ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من ساداتهم السابقين... فالحق إن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم^(١). وقريب منه قاله الكونت هنري دي كاستري في كتابه الإسلام خواطر وسوانح حول حرية الفكر في الإسلام^(٢) وغيره^(٣).

أخلاق علي عليه السلام مع الأقليات

وهذه هي أخلاق قادة الإسلام وأئمة مع غير المسلمين. فقد ورد عن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: ﴿أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحِبَ رَجُلًا ذَمِيًّا فَقَالَ لَهُ الذَّمِّي:

(١) انظر حضارة العرب: ص ٨ - ٩؛ وانظر مفاهيم القرآن: ج ٢، ص ٤٠٧؛ الحرية بين الدين والدولة: ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) انظر حضارة العرب: ص ٣٩ - ٤٣؛ الحرية بين الدين والدولة: ص ٢٧٣.

(٣) انظر الحرية بين الدين والدولة: ص ٢٧٥ - ٢٧٧.

أين تريد يا عبد الله؟ فقال: أريد الكوفة - وهذه قرينة على أنه كان الحاكم - فلما عدل الطريق بالذمي - أي وصلاً مفترق طريق - عدل معه علي عليه السلام فقال له الذمي: ألسنت زعمت أنك تريد الكوفة؟ فقال له: بلى فقال له الذمي: فقد تركت الطريق. فقال: قد علمتُ. فقال له: فلم عدلت معي وقد علمت ذلك؟ فقال له علي عليه السلام: هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه، وكذلك أمرنا نبينا صلى الله عليه وآله، فقال له الذمي: هكذا؟ قال عليه السلام: نعم. قال الذمي: لا جرم إننا تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، فأنا أشهدك أنني على دينك، ورجع الذمي مع علي عليه السلام، فلما عرفه أسلم ^(١).

والقرائن الداخلية شاهدة على أن الحادثة وقعت حينما كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الحاكم الأعلى للمسلمين، وقد ألفت الإمام عليه السلام في جوابه للذمي أن أخلاقه التي تعامل بها معه ليس خلقاً شخصياً بل هو قيم الدين ومبادئه النبوية؛ لذا إنذهل الذمي بها وأسلم.

عقوبات الإسلام وعقوبات العلمانية

وأما ما يقال في قساوة قانون العقوبات فلنا أن نتساءل ما هي فلسفة القضاء وجعل العقوبات؟ والجواب لا يخلو من احتمالين:
الأول: أن يراد به الإنتقام من الجاني، ولا نظن أن أحداً يزعم هذا أو يرتضيه؛ لأن القضاء لم يوضع للإنتقام بل للعدالة.

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٨٠، ح ٥؛ قرب الإسناد: ص ١١، ح ٣٣؛ البحار: ج ٤١، ص ٥٣، ح ٥.

الثاني: أن يراد به رفع الظلم والحفاظ على الأمن الاجتماعي بإجتثاث أصول الجريمة ودواعيها، وهذا هو الذي يتفق عليه عقلاء العالم، وقامت عليه قوانينهم، وبناء عليه يجب أن تكون العقوبات رادعة للمجرم عن جرمه إما بإجتثاث دواعيه في نفسه بإصلاحه وتربيته وتهذيبه، أو بإيجاد الموانع من وقوعه. هذا ما يقتضيه المنطق، وبه تتحقق الغاية، وحينئذ نسأل كيف يمكن الوصول إلى ذلك؟ وما هي العقوبات التي لو اتخذت يمكن أن ترفع دواعي الجريمة من نفوس المجرمين، أو تحول دون ارتكابهم لها؟ إنَّ التجربة وقاعدة (تعرف الأشياء بآثارها) أكبر برهانين على هذه الحقيقة، فإنَّ العالم بأصنافه وإتجاهاته وتنوع قوانينه وأنظمته محكوم بالقضاء العلماني الوضعي القائم على إقصاء الدين عن الحياة العامة، وعقوباته للجرائم تدور بين ثلاث عادة:

مساوئ عقوبات القانون الوضعي

الأولى: السجن.

والثانية: الغرامات المالية.

والثالثة: العقوبات الجسدية، وبعض الجرائم تصل إلى حد الإعدام، فهل استطاع القضاء غير الإسلامي أن يمنع من الجريمة، ويربي المجرمين، أو يمنع من إرتكابهم للجرم؟ كلا. بل الملحوظ أن نسبة الجريمة في تزايد، وبعض الجرائم خطيرة جداً تصل إلى حد الإبادات الجماعية وأمثالها.

فالتجربة تشهد بأن نظام العقوبات الحاكم في العالم عاجز عن مكافحة الجريمة، ومعنى ذلك أنه لم يحقق الغرض الذي وجد من أجله، فلا بد من

إعادة النظر في أحكامه واستبداله بأحكام تحقق هذا الغرض.

ولو قارناه بالقضاء الإسلامي الذي كان يحكم البلاد الإسلامية وكانت شاسعة المساحة متنوعة الأقوام والأديان والأحوال الاجتماعية والاقتصادية سنجد الفارق الكبير، وأن وقوع الجرائم بين الناس نادر لأسباب ثلاثة:

محاسن العقوبات الإسلامية

الأول: لأن الإسلام يهذب النفوس والأخلاق فيجثث دواعي الجريمة من النفوس، فلذا يكون المسلم ومن يعيش مع المسلم من أهل الكتاب والكفار آمناً على دمه وماله وعرضه وكل شؤونهم، فإن «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه»^(١) و: «المؤمن من أمن جاره بوائقه»^(٢)، ولا يوجد وازع أعظم من وازع الضمير والدين في منع العدوان والظلم.

الثاني: لأن الإسلام يعطي لكل حقه، ويزيل أسباب الجريمة، فقد أوجب العفة والحجاب، ومنع الاختلاط المحرم، وسهل أمر الزواج فقطع دواعي الزنا، ووفر للجميع حرية العمل والتجارة والزراعة، وأباح الأرض للناس بقانون (الأرض لله ولمن عمرها)^(٣) وأعطى حرية السكن

(١) معاني الأخبار: ص ٢٣٩، ح ١؛ عوالي اللآلئ: ج ١، ص ٢٨٠، ح ١١٥.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٦٦٨، ح ١٢؛ التوحيد: ص ٢٠٥، وفيه: "المؤمن الذي يأتمنه المسلمون على أموالهم وأنفسهم".

(٣) الكافي: ج ٥، ص ٢٧٩، ح ٢؛ التهذيب: ج ٧، ص ١٥٢، ح ٦٧٢؛ الوسائل: ج ٢٥، الباب ٣ من أبواب من أحيل أرضاً، ص ٤١٤، ح ٣٢٢٤٥.

والتنقل واستملاك المباحات، وأوجد بيت المال لينفق على كل محتاج فقطع داعي السرقة، فإن أكثر الجرائم تنشأ من الحرمان والحاجة، فإذا رفع الحرمان بالحرية والحاجة بالعطاء لا يبقى داع للجريمة.

المعالجات الجذرية للجريمة

الثالث: لأنّ العقوبات التي وضعها الإسلام رادعة تجعل المجرم يفكر ويتردد كثيراً قبل إقدامه على فعل شيء، فلو أراد شخص أن يقتل أحداً ظلماً وعلم أن عقوبته القصاص، ولو أراد أن يسرق وعلم أن عقوبته قطع يده، ولو أراد أن يزني وهو محصن وعلم أن عقوبته الرجم، ولو أراد أن يشرب الخمر وعلم أن عقوبته الجلد ترى هل يستسهل الإقدام؟ إن الكثير من هؤلاء سيتجنبون هذه الكبائر والمنكرات إن لم يكن بسبب تهذيب نفوسهم فبسبب شدة العقوبة.

وهذا التأريخ شاهد على أنّ الجرائم والجنايات التي وقعت في بلاد المسلمين أيام حكومة المسلمين أقلّ بما لا يقبل المقارنة مع ما يقع منها في ظل قوانين الأرض، وعلى هذا إذا دار الأمر بين وضع العقوبات الصارمة التي تجتث الجريمة أو تمنع من وقوعها أو وضع العقوبة غير الرادعة فبماذا يحكم العقل والعقلاء؟ وإذا كانت العقوبة رادعة عن الجريمة فإنها وإن كانت من حيث الظاهر قاسية لكنها من حيث الغاية رحمة وحكمة عالية، فيكون مثلها مثل الشخص الذي يقدم على بتر رجله لفسادها لأجل حفظ حياته، ونسأل ترى كيف يميز العقل والعقلاء للطبيب

أن يقطع رجل المريض أو يده إذا فسدت لوقاية سائر البدن من سراية

المرض والموت، ولا يجوز للقاضي العادل أن يقطع يد السارق وقتل القاتل لسلامة أمن الناس من العدوان والظلم، مع اتفاق العقلاء والعلماء على أنَّ الأمراض النفسية والاجتماعية أخطر من البدنية؟

فلو التفت العاقل إلى حكمة الإسلام في عقوباته لوجد الأثر الفاعل في اجتثاث الجريمة والفساد من المجتمع، وتشهد الوقائع حضور المجرم عند القاضي ليطبق عليه الحد الشرعي طلباً للتطهر، وخلاصاً من عذاب الآخرة، وإذا أُقيم عليه الحد يكون فرحاً مدعناً لحكم الله وتسليماً لأمره.

من شواهد العلاج

فقد قال الأصبغ بن نباتة: كنت جالساً عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقضي بين الناس إذ جاءه جماعة معهم رجل أسود مشدود الاكتاف، فقالوا: هذا سارق يا أمير المؤمنين. قال له: ﴿يا أسود! أسرقت؟ ولعله سماه أسود لأنه مجهول الحال فاكتفى بوصفه عن اسمه، أو كان أسود قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال له: (ثكلتك أمك إن قلتها ثانية قطعت يدك) - ونلاحظ أنَّ الإمام يلقنه سبيل الخلاص أن لا يقرَّ على نفسه - قال: نعم يا مولاي. قال: (ويلك انظر ماذا تقول أسرقت؟) قال: نعم يا مولاي، فعند ذلك قال عليه السلام: (اقطعوا يده، فقد وجب عليه القطع) لأنه أقر ثلاثاً. قال: فقطع يمينه.﴾

والقطع - من رؤوس الأصابع لا كل الكف أو اليد -، فأخذها بشماله وهي تقطر دماً، فاستقبله رجل يقال له ابن الكواء - وكان من المنافقين المعادين لأمير المؤمنين عليه السلام - فقال: يا أسود من قطع يمينك؟ قال: قطع يميني سيّد الوصيين، وقائد الغر المحجلين، وأولى الناس بالمؤمنين علي بن

أبي طالب ﷺ إمام الهدى، وزوج فاطمة الزهراء ابنة محمد المصطفى، أبو الحسن المجتبى، وأبو الحسين المرتضى، السابق الى جنات النعيم، وصادم الأبطال، المنتقم من الجهّال، معطي الزكاة، منيع الصيانة من هاشم القمقام ابن عم الرسول، الهادي إلى الرشاد، والناطق بالسداد، شجاع مكّي، جحجاح وفّي، بطين أنزع، أمين من آل حم وطه والميامين^(١).

ترى في أي زمان وقانون هكذا ينظر المقطوع بسبب جريمته الى قاضيه وقاطعه؟ وما الذي ألزمه بهذا القول وهو في موضع يتمناه الخصوم ويتخذونه للانتقام والانتقاص لولا التهذيب والتربية، وعلم الجاني بأنّه إن لم يؤاخذ بعقوبة الدنيا سيعاقب في الآخرة بما هو أشد وأقسى، أو سموه الأخلاقي الذي يدعوه إلى تنزيه نفسه من كل ما هو قبيح ومذموم.

وفي بعض الأخبار ما يدل على أنّ الجاني إذا ندم على توبته يعفى عنه لتحقيق الغرض. فقد جيء برجل أقرّ عند رسول الله ﷺ بالزنا فأمر برجمه، فلما رموه هرب فلحقه الناس فقتلوه، فقال لهم النبي ﷺ: ﴿فهلّا تركتموه إذا هرب يذهب، فإنما هو الذي أقرّ على نفسه وقال لهم: أما لو كان علي ﷺ حاضراً معكم لما ضللتكم﴾ ووداه من بيت مال المسلمين^(٢).

وفيه دلائل مهمة:

(١) الفضائل (لابن شاذان القمي): ص ١٧٢؛ البحار: ج ٤، ص ٢٨١ - ٢٨٢، ح ٤٤؛ مدينة المعاجز: ج ٢، ص ٦٨، ح ٤٠٣.

(٢) الكافي: ج ٨، ص ١٨٥، ح ٥؛ التهذيب: ج ١٠، ص ٣٤ - ٣٥، ح ١١٧؛ عوالي اللآلئ: ج ٣، ص ٥٥٧، ح ٤١.

لِلْحَاكِمِ أَنْ يَعْفُو

منها: أَنَّ الجاني إِذَا أَقْرَبَ بِهَا فَعَلَ وَلَمْ تُثَبِّتْ عَلَيْهِ الجُنَايَةُ بَيِّنَةٌ وَدَلِيلٌ أَوْ كَلَّ أَمْرُهُ لِلْحَاكِمِ فَلَهُ أَنْ يَعْفُو وَلَهُ أَنْ يَعْقِبَ.

ومنها: أَنَّهُ لَوْ قَرَّرَ عَقُوبَتَهُ وَفَرَّ مِنَ الْعِقَابِ يَعْفَى عَنْهُ.

ومنها: لَوْ أَخْطَأَ النَّاسُ فِي الْحُكْمِ وَقَتْلَوْهُ وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّ وَجِبَ عَلَى الْحَاكِمِ أَنْ يَدْفَعَ دَيْتَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ. ثُمَّ يَشِيرُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى حَقِيقَةِ عَظِيمَةِ تَهْدِي قُلُوبِ الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ وَقَعُوا فِي الْخَطَأِ لِعَدَمِ وَجُودِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَهُمْ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمْ لَمَّا ضَلُّوا، وَهَذَا هُوَ التَّعْلِيمُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُلْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّاسُ وَيَعْرِفُوا أَنَّهُمْ بِلَا عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْعُونَ فِي الضَّلَالَةِ، وَهَذَا نَسْأَلُ هَلْ يَوْجَدُ فِي قَوَانِينِ الدُّنْيَا مَا يَشْتَمِلُ عَلَى هَذِهِ الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ فَلْيَعْرِفُوهَا لَنَا؟ هَذَا أَوَّلًا.

وثناناً: أَنَّ الْعُقُوبَاتَ الشَّرْعِيَّةَ مَحْدُودَةٌ التَّطْيِيقُ؛ لِأَنَّهَا تَرْتَفِعُ فِي مَوَاطِنِ الشَّبَهَاتِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، كَمَا قَرَّرَهُ الْفُقَهَاءُ فِي بَابِ الْحُدُودِ ^(١)، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ لِلْإِنْتِقَامِ، بَلْ لِمُعَالَجَةِ الْمَرَضِ وَاجْتِنَابِ الْجَرِيمَةِ.

فَفِي رَوَايَةِ جَمِيلِ بْنِ دَرَاكِجٍ عَنْ أَحَدِهِمَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي رَجُلٍ سَرَقَ أَوْ شَرَبَ الْخَمْرَ أَوْ زَنَى فَلَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَمْ يُوَازِخْ حَتَّى تَابَ وَصَلَحَ، فَقَالَ: ﴿إِذَا صَلَحَ وَعُرِفَ مِنْهُ أَمْرٌ جَمِيلٌ لَمْ يُقَمَّ عَلَيْهِ الْحَدُّ﴾ ^(٢).

(١) الْقَضَاءُ وَالشَّهَادَاتُ: ج ٣، ص ١٣١٩.

(٢) الْكَافِي: ج ٧، ص ٢٥٠، ح ١؛ التَّهْذِيبُ: ج ١٠، ص ١٢٢، ح ٤٩٠.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن أحضر لديه رجل أقرّ على نفسه بالزنا أربع مرات قال: ﴿ما أقبح بالرجل منكم أن يأتي بعض هذه الفواحش فيفضح نفسه على رؤوس الملائة أفلا تاب في بيته، فوالله لتوبته فيما بينه وبين الله أفضل من إقامتي عليه الحد﴾^(١).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة﴾^(٢).
وعنوان المسلمين لا يراد به الحصر، بل من باب الغلبة أو الأولى بالاتباع، والخطاب عام يشمل كل القضاة، والتعليل يفيد قاعدة عامة مفادها أن القاضي في أي مورد لم تحرز عنده الجريمة موضوعاً لا يجوز أن يقيم الحد وإن احتمل الخطأ في الحكم؛ لأن الخطأ في حكم القاضي أولى من معاقبة البريء، فأين تكون الرحمة في الإسلام أم في غيره؟

السجون عقوبة جماعية

وثالثاً: أن الخيارات الثلاثة التي يعمل بها القانون الوضعي كلها مخالفة للرحمة؛ لأن السجون مضارها أكثر من نفعها، وملازمة للظلم على أهل الجاني وذويه، فهي في واقعها عقوبة جماعية تشمل أناساً أبرياء لا علاقة لهم بجناية الجاني، فسجن السارق مثلاً لا يعاقب السارق وحده بل زوجته وأهله وعشيرته، وينزل به عقوبات روحية واجتماعية كثيرة.

(١) الكافي: ج ٧، ص ١٨٨، ح ٣؛ البحار: ج ٤٠، ص ٢٩٣، ح ٦٦.

(٢) عوالي اللآلي: ج ٢، ص ٣٤٩ الهامش (٣).

ومن جهة أخرى في كثير من الأحيان يفسد السجين، ويزيد من خبريته في الجناية بسبب اختلاطه بنزلاء السجون الإجرامية، كما تقتضيها العادة وطبائع الأشياء، أو توجب اعتياده على معاشة السجن والسجناء، فلا يهابه بعد ذلك. وهذا كله نقض لغرض العقوبة.

مساوى الغرامات

وأما الغرامات المالية فهي لا تضر بالأغنياء، بل توجب تماديهم بالجرم خاصة لو كانوا يملكون القدرة على إرشاء القضاء أو التوسط فيه، فمعاقتهم بها ينقض غرض القضاء. نعم ربما تضر بالفقراء، وحيث إنهم يعجزون عن دفع المال يودعون السجون، وينالهم أضرارها كما بيناه.

مساوى الإعدام

وأما الإعدام والأعمال الشاقة التي توضع على بعض الجنايات فهي أيضاً قساوة ومخالفة للحرية، فكيف أجازها القانون؟ فإن قيل ذلك من باب الضرورة يقال كل العقوبات مما تقتضيها الضرورة، ومنها القطع والجلد.

ويتحصل: أن العقوبات غير الإسلامية لا تفي بغرض القضاء، ولا توافق العدالة، ومخالفة للرحمة، بخلاف عقوبات الإسلام فإنها مطابقة للرحمة والحكمة معاً؛ لأنها تجتث الجريمة وتمنع من وقوعها، فهي في باطنها وجوهرها رحمة وإن كان ظاهرها شدة، وبه يتضح أن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لا يختص بشؤون التكوين بل التشريع والقضاء.

التعليم الرابع: آثار الرحمة

يستفاد من الآيات المباركة أنّ النجاة من كل شدة وبلاء تتم باللجوء الى الله سبحانه والاستغاثة برحمته، فالأنبياء والمؤمنون بهم نجّاهم الله من عذاب أعدائهم برحمته ^(١)، ومريم العذراء نجّاهم من قومها الكافرين برحمته ^(٢)، والذين يطلبون المعرفة الإلهية ودرجات القرب عنده سبحانه فإنهم يبلغون مرادهم برحمته؛ إذ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ^(٣).

والهداية الموصلة إليه تتم بالرحمة، والسبيل الى نيل الرحمة هو اللجوء الى الله والاستغاثة به، ولعل هذا أحد الأسرار التي أوجبت أن يلزم العباد بذكر الرحمة في كل يوم في أفضل العبادات وأهمها وهي الصلاة، ففي كل صلاة مفروضة يكرر المصلون (الرحمن الرحيم) ويكررونه في كل ركعة ثلاث مرات في البسملة في السورتين وفي الفاتحة، وفضلاً عن الآثار التربوية لهذا الذكر العظيم فإنّ له آثاراً تكوينية ووضعية تترتب على المؤمنين وخاصة المصلين منهم، وهو أن ينالوا رحمة الله ويهتدوا إلى أفضل مصالحهم، ويزول عنهم الشقاء والبأس المادي والمعنوي. نعم يشترط في ذلك شرط واحد هو تحابهم واعتصامهم وإحسانهم لبعضهم؛ إذ يقول

(١) انظر سورة هود: الآية ٥٨، الآية ٦٦، الآية ٩٤.

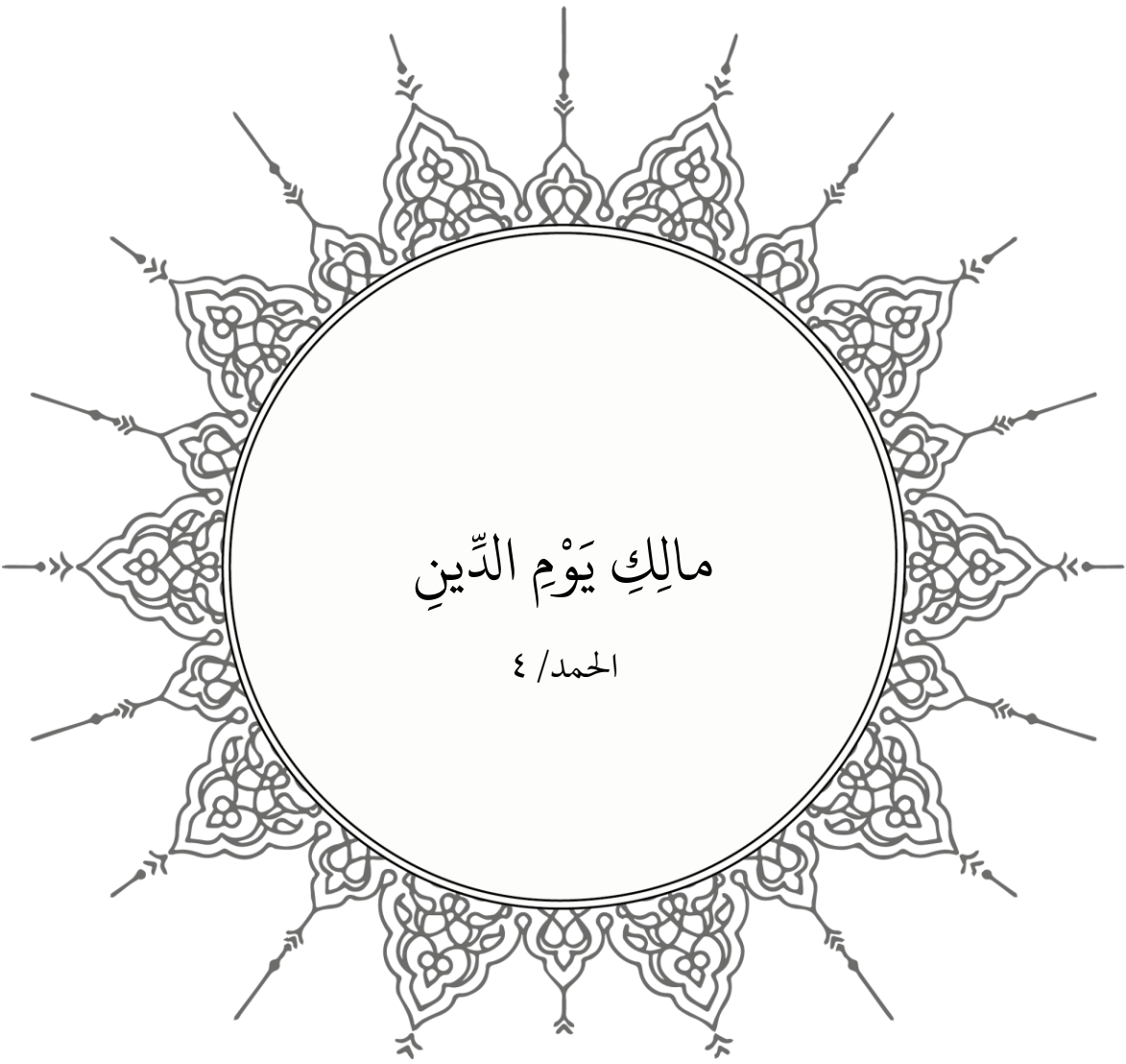
(٢) انظر سورة مريم: الآية ٢١.

(٣) سورة النساء: الآيتان ١٧٤ و ١٧٥.

سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

فلو التزم المؤمنون بهذا الذكر والتفتوا إلى بركاته لنجوا من الشدائد، وظهرت البركة في سمائهم وأرضهم، وفي ذراريهم وأرزاقهم؛ بداهة أنّ السعادة لا تنال بالعسر والحقد والغضب، ولا بالعداوة والحرب، بل بالمحبة والرحمة. هذه سنة الله سبحانه في خلقه.

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٦.



مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ

الحمد / ٤

القراءة الصحيحة

وقد قرئت (مَلَكٌ) و (مَلَكٌ) بصيغة الفعل و (مَلِكٌ) ^(١) بصيغة الإسم أو صيغ أخرى ^(٢)، وكلها على خلاف الأصل الذي قررناه، فالحق هو ما ورد بنص الآية وهي قراءة الأئمة عليهم السلام، كما في رواية الزهري عن علي بن الحسين عليهما السلام ^(٣)، ورواية داود بن فرقد عن الصادق عليه السلام ^(٤)، وكذا رواية الحلبي عنه ^(٥)، وعن الإمام السجاد عليه السلام: ﴿لَوْ مَاتَ مَنْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَمَا اسْتَوْحِشْتَ لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ مَعِيَ، وَإِذَا قُرِئَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ كَرَّرَهَا وَكَادَ أَنْ يَمُوتَ مِمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ﴾ ^(٦).

ولأن يوم الدين والحكم والجزاء فيه من أهم أركان الاعتقاد بربوبية الخالق وعدله ورحمته وجب ذكره في مفتتح القرآن، وفي سورة الحمد بالخصوص لأنها مجمل ما في القرآن وخلاصة الدين والعقيدة الحقّة، وورودها بعد قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ يتضمن دلائل عديدة:

أصناف الحمد والحامدين

الأولى: أنّها بيان لعلّة ثلاثة غير الربوبية والرحمة لتفرد الباري عزّ وجلّ باستحقاق الحمد، وهو المملكية ليوم الدين أي يوم الإدانة والحساب، فإنّ

(١) انظر التبيان: ج ١، ص ١٠٤؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٨٦.

(٢) انظر روح المعاني: ج ١، ص ١١١؛ لسان العرب: ج ١٠، ص ٤٩١، (ملك).

(٣) البحار: ج ٨٢، ص ٢٣، ح ١٢.

(٤) البحار: ج ٨٢، ص ٢٢، ح ١١.

(٥) تفسير العياشي: ج ١، ص ٢٢؛ البحار: ج ٨٢، ص ٢٢، ح ١١.

(٦) الكافي: ج ٢، ص ٦٠٢، ح ١٣؛ مشكاة الأنوار: ج ١، ص ١٢٠؛ البحار: ج ٨٢، ص ٦٦، ح ٥٧.

استحقاق الحمد يعود إلى وجوه أربعة، لكل وجه شريحة من الناس:
الأول: جهة المعرفة بجماله وجلاله، وأنه مجمع الفضائل والفواضل، فهو الكامل المطلق في ذاته وصفاته.

الثاني: حمد الربوبية وإيصال الإحسان إلى خلقه.

الثالث: حمد الرجاء والأمل بالفضل والإحسان، ولا ينالونه إلا بحمد المنعم وشكره.

الرابع: حمد الخوف والرغبة من انقطاع نعمه إذا لا يحمد.

وعلى هذا ينقسم الحامدون على أربع مراتب، فالأكملون يحمدونه على كماله وغناه وجامعيته لصفات الجمال والجلال وهو حمد المعرفة، وهو حمد النبي وعترته الطاهرة ﷺ، والكاملون يحمدونه على فواضله ونعمه وإحسانه - وإن وصلت إلى غيرهم - وهو حمد الربوبية، والأدنى منهم رتبة يحمدونه على نعمه الواصلة إليهم وهو حمد أهل الرجاء والأمل، وأدنى المراتب حمد من يخشى انقطاع النعمة والمؤاخذه على عدم الحمد وهو حمد الخائفين.

وبهذا يتضح أن التسلسل بين الآيات منطقي على حسب المراتب المذكورة، فبقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى حمد العارفين؛ لكون الاسم المبارك مجمع صفات الجمال والجلال الذي تدركه بصائر أهل اليقين، وبقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى حمد الكاملين، وبقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى حمد الراجين الطامعين، وبقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إشارة إلى حمد الخائفين.

فالآية إخبار بداعي الإنشاء، وحث العباد إلى حمده تعالى وعبادته في أي مستوى ومرتبة كانوا، فكأنه جلّ وعلا يقول: يا أيها الناس إن كنتم من أهل الكمال والجلال فأنا الله الجامع لذلك فاحمدوني له، وإن كنتم من أهل الربوبية فأنا رب العالمين، وإن كنتم من أهل الرجاء والأمل فأنا الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمتي كل شيء، وإن كنتم من أهل الخوف من العقاب والمؤاخذه فأنا مالك يوم الدين، وبذلك يتسانخ الحمد والربوبية والرحمة ومالك يوم الدين ^(١).

تهذيب الشاكرين

الثانية: أنها تشتمل على بشارة وإنذار وترغيب وتهذيب فهي للشاكرين، أما البشارة لأن الرحمن الرحيم إذا كان هو المالك يوم الدين كبر الأمل في قلوب عباده، واطمأنوا أنه يغفر لهم ويعفو عنهم ويشملهم برعايته، فمصيرهم إلى خير؛ لأنّ من أوجدهم وأحياهم وأنعم عليهم في الدنيا الملازمة للجهل والغفلة والعصيان لغناه وخيره ورحمته لا يمكن أن يجرمهم من ذلك، وهم واردون عليه عاجزون بين يديه.

وأما الإنذار فهو للكافرين بالكفر العقيدي والعملي بأنهم إذا لا يشكرون الله سبحانه ويؤمنون به ويطيعونه فإنّ لهم يوماً وموعداً يعودون إليه ويحاسبهم على ما فعلوا، وهو يوم الدين، وحصر ملك يوم الدين به كما تفيدته الإضافة للتنبيه بأن السلطة المطلقة في هذا اليوم له، فلا حكم ولا

(١) مجد البيان: ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

ملك ولا سلطة لغيره، فهو يوم فريد في مزاياه. تنسلب فيه المزايا والملوكيات والسلطنات غير الإلهية التي كانت حاكمة في الدنيا ومستحكمة في الأرض وأهلها. وبه وردت بعض الروايات ^(١).

ففي يوم الدين تنقطع أسباب أهل الكفر والفسوق التي كانوا يتخذونها وسائل للملوكتهم وسلطانهم، كالمال والثروة والأتباع والتعهدات والتحالفات السياسية والعسكرية والقدرات العلمية والصناعية في ذلك اليوم يجدون أنهم ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ^(٢).

وقال: تقطعت للإشارة إلى عدم وجود فرصة للتواصل والتواصي فيما بينهم كما كانوا في الدنيا، حتى أنسابهم وأرحامهم تنقطع عنهم: ﴿فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ ^(٣) و: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ ^(٤) والمال والأولاد الذين كانوا يعولون عليهما كباقي الأسباب لا تنفعهم ﴿لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ^(٥) ولا ينفع إلا القلب السليم والعمل الصالح.

وأما الترغيب فهو لأهل البصيرة لما فيها من إشعار بأن الحمد علة نيل الرحمة الإلهية في الدنيا والآخرة، وهي علة نيل الفيوضات والألطاف الإلهية الخاصة، فإن من كان محسناً في مبدأ الخلق والإيجاد رحيماً بخلقه سواء عرفوه

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٣٧، ح ١٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٦.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.

(٤) سورة الممتحنة: الآية ٣.

(٥) سورة الشعراء: الآية ٨٨.

أو أنكروه وأطاعوه أو عصوه انقطعوا إليه أو غفلوا عنه لا يمكن أن يمنع رحمته عنهم، وهم راغبون إليه وكادحون لأجله، وذاكرون له، وهذا ما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿تَبَيَّنْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(١) وقد خصص الإنباء بعباده المنسوين إليه نسبة التشريف والتحبيب، لبيان أن هذه حقيقة معرفية دقيقة يدركها أهل القلوب.

وأما التهذيب فليبان أن الرب الرحيم لا يتعامل مع من يستحق العقاب بالرحمة، بل بالإدانة والمحاسبة، فهو رحيم من جهة، ومحاسب من جهة أخرى، وبهذا يتم التوازن في تربية العباد؛ لأن الرحمة وحدها تقودهم الى التهاون والتسيب، والمحاسبة وحدها تقودهم الى التنفر والتذمر، ولا يستقيمون إلا بالرحمة والمحاسبة معاً، وبهذا يكتملون ويستوون في أعمالهم.

الأصل الأخير في الإيمان

الثالثة: بيان الأصل الأخير الذي يكتمل به إيمان الإنسان وعمله، ففي الآيتين السابقتين أدرج أصول الإيمان الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والإمامة في صفة الربوبية كما بيناه، فاقضى ذلك بيان الأصل الرابع الذي به يكتمل الإيمان ويجب على كل مكلف الإذعان له، وهو الإيمان بالمعاد، فلا يكتمل إيمان العبد إذا أحل بعقيدة الربوبية، كما لا يكتمل إذا أحل بالإيمان بالمعاد، وبهذا الاعتقاد تكتمل البشرية ويعتدل نظامها الاجتماعي ونظامها الأخلاقي، ومن هنا ذهب جمع من أهل المعقول إلى أن الاعتقاد

(١) سورة الحجر: الآيتان ٤٩ و ٥٠.

بالمعاد هو أهم أركان الإصلاح في الحياة الإنسانية.

وبيان ذلك: أن الإنسان الذي يؤمن بوجود يوم يعود فيه الى حاكم عادل يقاضيه على كل ما فعل وفكر وقدم وأخر فإنه سوف يحسب لأفكاره وأعماله ومواقفه حساباً، ولا يكون ارتجالياً متحرراً منقاداً لرغباته وشهواته.

آثار الاعتقاد بالمعاد

وبهذا الاعتقاد ينتظم فكره وسلوكه، ويستثمر حياته وماله من قدرات لتنمية نفسه وإسعادها. وفي عين الحال يشعر بالأمن والطمأنينة والاستقرار الفكري والنفسي؛ لأنه يستشعر وجود الله معه يراقبه ويكافئه في الخير والشر، بخلاف الإنسان الذي لا يؤمن بذلك. هذا في البعد الشخصي.

وأما في البعد الاجتماعي فإن التراحم والتحابب والتعاون بين الناس يقوم على هذه العقيدة، فلو لم يؤمن الإنسان بالآخرة والحساب العادل فيها قد لا يجد البعض داعياً للصلاة والصيام وكف يده عن أموال الناس وأعراضهم، ولا كف لسانه عنهم.

إن جوهر الدين وأحكامه وأنظمته قائمة على هذا الأصل، والإيمان بالتوحيد وحده، وكذا النبوة والإمامة لا تكفي لجعل البشر صالحين في أعمالهم متراحمين فيما بينهم آمنين ساكنين؛ لأنها ترتقي بعقولهم ونفوسهم في المعرفة، ولكن لا تحذرهم من التقصير والمخالفة، بخلاف الاعتقاد بيوم الدين الذي فيه تظهر الأعمال ويحاسب عليها أهلها إلا الأنبياء والأولياء ومن يدنوهم في المرتبة، فإن المعرفة وحدها كافية لعصمتهم من المخالفات، وأما عموم الناس فلا يصلحهم إلا الترغيب والترهيب. وتلخصت هذه

الحقيقة بقوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

تحديد الظلم والظالمين

الرابعة: بيان أنّ مالكيّتهم في عالم الدنيا التي تقتضيها الربوبية مستمرة إلى الآخرة؛ لأنّ الربوبية لا تنقطع عن خلقه في جميع النشآت والعوالم، فهو مالك الدنيا لانه رب، وهو مالك الآخرة ومالك يوم الحساب، والربوبية في الدنيا تستحق الحمد، وربوبية الآخرة تستحق الحمد الأعظم؛ لأنّها أساس النظام والعدل والأمن والسلام بين الناس، فإذا لا يوجد يوم للحساب لتمادى الظالم في ظلمه، وازداد المستضعف ضعفاً، ونجا الأشرار الذين ملؤوا الدنيا شراً وفساداً، وحرّم المؤمن الذي منع نفسه من شهوات الدنيا ومغرياتها من الجزاء ففادت عليه دنياه وأخراه.

ولولاه لما أحسن محسن، ولا اتقى متق، ولا سكن شيطان من شياطين الإنس والجن، فوجود يوم يحضر فيه جميع الخلق عند حاكم عادل عالم لا تخفى عليه خافية، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، ويحاسب الجميع على ما قدّم وأخّر. هو الذي حفظ التوازن النفسي والفكري والاجتماعي في الأرض، وأشعر الناس بالأمن، وشحنهم بطاقة كبيرة للصبر والاستقامة.

فلو لم يؤمن الناس بالآخرة أو آمنوا بها ولكن كانت الآخرة محكومة

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

بمعايير الدنيا القائمة على المصالح والأمزجة والشبهات والجهالات لم يقيم لهم نظام ولا استقرار، ولشعروا بالملل من الحياة ومشاكلها، أو أصابتهم خيبة الأمل من تحصيل حقوقهم، وذلك يدفعهم لأحد خيارين إمّا أن يستسلموا للقدر فيعيشوا الأمراض والآلام الروحية، وإمّا أن يتصدوا للمعتدي عليهم فتزداد الحياة شحناً وتظالماً وتضارباً، وما يعيشه البشر اليوم من تعاسة وظلم وفساد في ظل العلمانية والأنظمة الوضعية أقوى شاهد على هذه الحقيقة، لكن وجود يوم يدان فيه الناس يحكم فيه الرب الرحمن الرحيم من شأنه أن يعطي للجميع ميزانه وحدوده.

إن قلت: لكننا نرى بعض المؤمنين يظلمون ويأكلون أموال الناس بالباطل. فالجواب: لأنهم نسوا الله وغفلوا عن الآخرة، فإن الإيمان بوجود يوم فيه يدان الناس يحكم فيه مالك واحد عالم مطلع على كل شيء. حكمه عدل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. لا تضلله الأموال والشهوات من شأنه أن يحيي القلوب، ويعطي للوجود توازنه وللبشر عدالته، فإذا غفل الناس عن الآخرة ضلوا وفسدوا.

عشرة تموت بها القلوب

قيل لرسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١).

كنا ندعو الله ولم يستجب لنا؟ قال ﷺ: ﴿لم يستجب دعوتكم لأن قلوبكم ماتت من عشرة أشياء:

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

- الأول: عرفتم الله فلم تؤدوا حقه.
- الثاني: قرأتم كتاب الله فلم تعملوا به.
- الثالث: قلمت نحب رسول الله ﷺ وتركتم سنته.
- الرابع: قلمت نحب الجنة ولم تعملوا لها.
- الخامس: قلمت نخاف النار ولم تهربوا منها.
- السادس: الشيطان عدو لكم ولم تخالفوه.
- السابع: الموت حق ولم تستعدوا له.
- الثامن: اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونسيتم عيوب أنفسكم.
- التاسع: عرفتم نعمة الله فلم تشكروا له.
- العاشر: دفتتم موتاكم فلم تعتبروا بهم^(١).

مالكية الله ومالكية غيره

الخامسة: إلفات العبد الى طريق السعادة والكمال، وذكر أهم خمسة أسماء له عز وجل، هي (الله) أعظم أسمائه الدال على جمعية صفات جماله وجلاله، والرب والرحمن والرحيم والمالك.

فبالآية المباركة يختم الباري تسلسل الآيات ببيان الأسماء الحسنی التي

(١) إرشاد القلوب: ج ١، ص ٣٦٧، " وليس فيه قيل لرسول الله وإنما قيل: دخل إبراهيم بن أدهم البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا...؛" المواظ العديدة: ص ٥٤٥؛ الجوهر النضيد والعقد الفريد: ج ١، ص ٤٥٠، ح ١٦٤٣.

يقوم عليها نظام التكوين والتشريع، وهي خمسة، وهي: الله والرب والرحمن والرحيم والمالك.

الأسماء التي يقوم بها العالم

على هذه الخمسة يقوم نظام العالم. (الله) مجمع الصفات الجمالية والجلالية، و (الرب) واسطة الاتصال بين الخالق والمخلوق، و (الرحمة الرحيمية) جهة الاتصال بين الخالق والمخلوق، و (الرحمة الرحمانية) بها يحاسب الناس في الآخرة، وهو (المالك) لكل هذا العالم.

فالعقيدة الصحيحة الكاملة بالتوحيد الإلهي المتضمنة لتوحيد الألوهية والربوبية والعبودية وتوحيد المحبة بهذه الآيات.

وكل انسان بوجدانه إذا أخرج نفسه من الغفلة يدرك أنه مخلوق، ومخلوقيته ليست في زمان، بل هو في كل لحظة وأن مخلوق، والخلايا التي تتكون في البدن وهي بالمليارات تتجدد في كل لحظة وأن، فهي بين خلق وإيجاد وإعدام فهو دائماً في خلق، ويدرك بوجدانه أنه مربوب، فمن الذي ربّاه وعلمه وكبّره؟ الإنسان مرّ على حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ثم تكوّن من نطفة لا ترى إلا بالمجهر، ويكبّر في المجهر مرات كثيرة لكي يرى حتى في المجهر، فمن الذي صيّره؟ ومن الذي نّمّاه حينما يودع في الرحم ويصبح كائناً له جسم وصورة وبدن وسامعة وباصرة وفكرة وحافظة؟ فمن صيّره وكوّنه؟ وحينما يولد لا تنفك ربوبيته عنه حتى حينما يجلس على مائدة الطعام يأكل اللقمة، ولكن لا سلطة له عليها إذا بلغت حد بلعومه، فتدخل في جوفه وتخضع لعمليات كثيرة من التحلل، ويمتصها البدن،

وكل عضو منه يأخذ منها ما يريد والزائد منه يخرج فضلات، وبعضها يتحول الى طاقة بها يمشي ويفكر ويبصر، فبأي منها للإنسان سلطة على هذه؟ فالتسلسل المذكور في الآيات يفيد فائدتين:

العقيدة الصحيحة

الأولى: محاكاة عقل الإنسان وقلبه في أن سعادته وكماله وأمنه وسلامه يقوم على هذه العقيدة لا غير، فإنَّ وجدانه يشهد بأنَّه مخلوق مربوب وخالقه الله سبحانه، وبه استحق الألوهية، وهو الذي ربَّاه وغذَّاه ونمَّاه وعَلَّمه، فهو ربه لا غير، وهو دائم الفيض والعناية به؛ لأنَّه رحمان يستحق العبودية، وإذا عصى وفعل القبائح فهو رحمان رحيم يغفر له ويعفو عنه، ولا يؤاخذ أهل مملكته بألوان العذاب، وإذا ظلم أو اعتدى عليه فإنَّه مالكة ومالك الجزاء يأخذ بحقه ويثيبه على صبره وفعله.

خلاصة نظام الربوبية

الثانية: تلخيص نظام الوجود تكويناً وتشريعاً وعقيدة بثلاثة أسماء هي الله الرب المالك، فتكويناً لا خالق إلاَّ الله، ولا رب إلاَّ هو، ولا مالك للوجود غيره، وتشريعاً لا مشرّع ولا حاكم إلاَّ هو، وكل حكم ونظام وتشريع غير شرعه وحكمه باطل؛ لأن من يملك الوجود والموجود يملك التشريع والتقنين له.

وكل عقيدة مغايرة لهذه الحقيقة كاذبة زائفة وخارجة عن المنهجية العلمية، وكل المدارس والاتجاهات الفكرية البشرية لم تستطع أن تثبت

خالقاً ولا ربّاً ولا مالكاً غيره، وغاية ما لدى الملاحدة وأمثالهم الشك والحيرة لا النفي؛ لأنّ النفي مخالف للفطرة والعقل والوجدان وقواعد العلم، فالعقل والمنطق يمليان عليها الإذعان لألوهيته وربوبيته وعبوديته، وبذلك يتضح الترابط الموضوعي بين هذه الآية وبين الآيات السابقة، وأمّا تفصيل البحث فيها فيقع في مباحث.

المبحث الأول: في مفردات الآية المباركة



وهي ثلاث:

المفردة الأولى: ﴿مالك﴾

صيغة اسم فاعل تفيد الدوام، ومصدره الملك، وقد اختلف أهل اللغة والتفسير في بيان معناه^(١)، والحق الذي يقتضيه التحقيق ويساعد عليه العرف والعقل هو احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به^(٢) اقتناءً وتصرفاً، فالقدرة على التصرف ملازمة للملك، فالمالك هو المحتوي للشيء والقادر على التصرف به بغير منع، والاحتواء والقدرة تنشآن من سببين: أحدهما: إيجاد الشيء وخلقها، وهو الملك الحقيقي.

وثانيهما: التسلط المشروع على الشيء وهو الملك الاعتباري الذي ينشأ من العقود والاعتبارات العقلائية، فالذي يحوز الشيء المباح يملكه؛ لأن من حاز ملك^(٣)، والذي يحوزه بعقد من ماله الأول يملكه أيضاً، وقيدناه

(١) معجم مقاييس اللغة: ص ٩٦٠، (ملك)؛ مفردات الراغب: ص ٧٧٤، (ملك)؛ جمع البحرين: ج ٥، ص ٢٩٠، (ملك)؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٥٩.
(٢) انظر لسان العرب: ج ١٠، ص ٤٩٢، (ملك)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٨٨٦، (ملك)؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٨٧.
(٣) العناوين الفقهية: ج ١، ص ٧٩.

بالمشروع لإخراج تسلط الغاصب للشيء؛ فإنه لا يفيد التملك، ولا يوجد في الوجود مالك حقيقي إلا الله سبحانه، وكل ملك تكويني وتشريعي يعود إليه، وأما غيره فمالكيته اعتبارية.

مزايا الملكية الحقيقية

فمالكية الباري تتميز عن مالكية غيره بخصائص عديدة:

الأولى: أنها مالكية حقيقية تكوينية ناشئة من خلقه وإيجاده للأشياء، وبهذا الاعتبار تكون عامة شاملة لا يخرج من محيطها شيء من الموجودات، بخلاف مالكية غيره فهي اعتبارية تشريعية ومحدودة بحدود السلطة التي يملكها صاحب القدرة وبمقدار ما أذن به تبارك وتعالى.

ولا يقال إن المهندس الذي يصنع الجهاز والآلة هو مالك تكويني له، والأب والأم هما سبب إيجاد الولد، فهما مالكان له فيشارك الله سبحانه في المالكية.

والجواب: أن مالكيته ليست ذاتية بل اعتبارية؛ لأن تصرف المهندس يكون في ملك الله سبحانه فهو تصرف فيما أوجده الله وخلق وصنع منه شيئاً، فالمواد الأولية للجهاز والقانون الذي اعتمده في صناعة الجهاز هذه كلها من الله وليست منه، فهو متصرف في ملك الله سبحانه، والذي يملك الأصل يملك الفرع، وليس للمهندس إلا الملكية الاعتبارية بحدود جهده ومقدار عمله، وكذلك بالنسبة للوالدين فإن الأب لم يخلق النطفة، ولا الأم تخلق البويضة، ولا هما سبب التخصيب ولا إعطاء الحياة والروح، فماذا يملكان؟ هذا أولاً؟

وثانياً: أن الله سبحانه هو الذي أوجد المهندس والأبوين، والذي يملك الأصل يملك فروعه، فلا يوجد مالك حقيقي إلا الله، وكل الملكيات الأخرى تعود إليه تكويناً وتشريعاً وإلا كانت وهماً ومخالفة لقواعد المنطق والعقل.

الثانية: أنها مالكية دائمة مستمرة لا تضعف ولا تنقطع ولا تزول ولا تقبل النقل والانتقال، بخلاف مالكية غيره فإنها تنقطع وتنتقل بالاعتبارات العقلانية كالبيع، وتزول بالموت وتلف المملوك، وتضعف بالشراكة.

موانع الملكية الاعتبارية

الثالثة: أنها مالكية ذات سلطة فعلية نافذة في جواهر الأشياء وتكوينها، فلا يمنع منها مانع، بخلاف مالكية غيره فإنها مبتلاة بموانع ثلاثة هي: القوة كالمال المغصوب، فإن مالكية المالك تبقى عليه ولكن سلطته مفقودة. والشرع فإنه قد يمنع المالك من التصرف في ماله بسبب فساد أو ضرر، ولذا منع المالك من الإسراف أو التبذير في ماله، كما منعه من التصرف به تصرفاً إضرارياً بالغير، وهذا المنع ناشئ من سعة حكومة الخالق على المخلوق، فبالمالكية الخالق يمنع من سلطة المالك غير الخالق.

والعقل فإنه قد يمنع المالك من التصرف فيما يملكه بسبب وجود مصالح أو ترتب مفسد على التصرف، والمراد بالعقل ما يشمل العقلاني الذي يقوم عليه النظام العام، فإن العقل يمنع المالك من استعمال السلاح الذي يملكه لإرهاب الناس وإخافتهم، والعقلاء يمنعون من مخالفة الأنظمة والتعاليم الموضوعة في الطريق والسوق والدوائر والمدارس والجامعات وهكذا، فلا يمكن لمالك السيارة أن يسير بأي اتجاه يريد

بدعوى أنّه مالك إذا كان يؤدي إلى إخلال النظام، كما لا يحق للتاجر أن يبيع ماله بأي سعر يريد إذا نخل بتوازن السوق، وليس للشاب أن يلبس أي لباس يريد ولو تنافى مع القيم والأخلاق الاجتماعية بحجة أنّه يملك نفسه ويملك لباسه، ولا مانع من اجتماع المانع العقلي والشرعي كما في الطفل الصغير والمجنون والسفيه والمفلس، فإنّه يملك ماله ولا يصح له التصرف فيه، ويتفق على هذا العقل والشرع، فالمالكية غير الإلهية محدودة وسلطانها مثلها، بخلاف المالكية الإلهية.

المالكية الشمولية

الرابعة: أنّها مالكية تتعلق بكل شيء، فتملك الشمس والقمر والبحار والأنهار والغابات والهواء وكل ما في الوجود، وأمّا مالكية غيره سبحانه فهي لا تصح إلا في البشر والجن، وأمّا غيرهما فلا يقال له مالك. إن قلت: فكيف يقولون في الاستعمال العرفي القفص للطائر والعربة للحصان والحظيرة للحيوان والخلية للنحل وهكذا؟ فالجواب: أنّ اللام فيها ليست للملك بل للاختصاص، وأمّا الملك فلا يصح إلا للعاقل؛ لأنها ملكية اعتبارية ولا تكون إلا في الحدود الاعتبارية وهي مقيدة بالعقل.

مالكية الحساب

فقوله سبحانه: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي هو القادر المتسلط في اليوم الذي يحشر فيه الناس ويدانون على أعمالهم، ولا يوجد غيره مالك لذلك اليوم إلا

هو، ويفوض الباري عز وجل قدرته في ذلك اليوم الى محمد وآل محمد ﷺ ليحكموا في ذلك اليوم وينفذوا العدل الإلهي في عبادته، وهذا تفويض تشريف وتكريم وتعظيم وتدبير.

وبذلك يتضح وجه الترابط بين الآيات، فهو سبحانه المعين الوحيد لخلقه كما أفادته البسملة، وهو الرب الوحيد لجميع العالمين. وحيد في ربوبيته وفي رحمانيته ورحيميته، وهو الوحيد الذي يستحق الحمد على ذلك، فهو الذي يربي الخلق وأنزل عليهم الكتب وأرسل الأنبياء ونصب الأئمة ووضع لهم الحدود والأحكام، وهو الوحيد الذي يملك محاسبتهم على ما قدموا وأخروا؛ فلذا قال سبحانه بعد تلك الآيات: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

وإنما ذكر مالكيته بيوم الدين مع أنه مالك كل شيء للإشارة إلى أن من يملك الآخرة يملك الأولى أي قبل الدنيا، كما يملك عالم الدنيا، وهو مقتضى ربوبيته وخالقيته للعالمين، فكل ما سواه مملوك له منذ الأزل وإلى الأبد؛ لأنه يملك حسابه وجزاءه.

ويتحصل مما تقدم: أن لا توجد مالكية حقيقية في الوجود إلا مالكية الله سبحانه، وكل المالكيات الأخرى فهي مجازية اعتبارية لا حقيقية، ومنشأ المالكية الحقيقية الخلق والإيجاد والربوبية الشاملة، أما غير الحقيقية فمنشؤها الاعتبارات ومرجعها إلى الأولى؛ لأنها ليست إلا تصرفاً فيما أوجده الخالق وكونه.

وعلى هذا الأساس تبطل النظريات التي تتوهم الملكية وهي عديدة:

لا مالكية للدولة

منها: نظرية ملكية الدولة للأراضي والثروات ومنع الناس من استثمارها والتصرف فيها، فإنَّ الله سبحانه أباحها للناس وليس للدولة. قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾^(١) وسخر لهم البحر^(٢)، وفي الأخبار: ﴿الأرض لله ولمن عمرها﴾^(٣) إلا أنَّ القوانين الفاسدة تمنع من ذلك، ولا تتيح التصرف إلا بمقابل يدفعه الناس للسلطة، وهذا ظلم يخالف لحكم الله تعالى، وهو أحد أسباب أزمات العمل والسكن والفقر في بلاد المسلمين، وهو لون من ألوان التجبر والطغيان.

مالكية المال المحدود

ومنها: ملكية الناس لأموالهم، فيعطون لأنفسهم صلاحية التصرف المطلق فيها، وإذا كلفوا بدفع الحقوق الشرعية التي جعلها الباري عزَّ وجلَّ عليهم فبعضهم يستثقلون ذلك ويتأبى بتوهم أنَّه ماله.

هل الإنسان يملك نفسه؟

ومنها: ملكية الإنسان لنفسه، فيتوهم بأنَّه حر في سائر تصرفاته، ولا يحق لأحد أن يمنعه أو يحدد من سلطته، فإن هذا خطأ؛ لأنَّ الإنسان وما يملك

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣.

(٢) سورة الجاثية: الآية ١٢.

(٣) الكافي: ج ٥، ص ٢٧٩، ح ٢؛ الاستبصار: ج ٣، ص ١٠٨، ح ٣؛ التهذيب: ج ٧، ص ١٥٢، ح ٦٧٢.

مملوك لخالقه وربّه، وهو الذي امتنّ عليه ومنحه السلطة على نفسه وماله لكي يستثمر عمره وأرضه فيما ينفعه، ويرتقي به إلى الأفضل، وله أن يحدد من سلطته على نفسه وماله، ولذا حرم عليه قتل نفسه أو الإضرار بها إضراراً كبيراً أو إضراراً لهوياً لا نفع فيه ولا فائدة دينية أو دنيوية، كما حرم عليه إنفاق أمواله في المحرمات، أو أن يدّل جنسه من الذكر الى الأنثى أو بالعكس أو يتشبه بذلك، فتصور البعض بأن هذا تقييد من حرية الإنسان خاطئ وبعيد عن الحقيقة؛ لأنّ الإنسان لا يملك نفسه إلّا بحدود ما ملكه الله سبحانه ذلك، ولم يمنحه الله سبحانه سلطة واسعة على نفسه حتى يتصرف بها كما يشاء.

ومن هنا يمنع الشرع المحرمات ويحاسب عليها في موازين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يتطابق مع فلسفة الوجود والرؤية الكونية للخلق والإيجاد، وما يزعمه الغرب والشرق والقانون الوضعي في خلاف ذلك مبني على خطأ في النظرية وفي التطبيق معاً.

فالتحرر الحقيقي بالالتزام بأحكام الله والسير مع سننه لا مخالفتها. وقد وصف الباري عزّ وجلّ تشريعه بأنّه يحلّ الطيبات ويحرم الخبائث، ويضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم^(١).

أكّد هذه الحقيقة قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: ﴿أنا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك إلّا ما ملّكنا، فمتى ما ملّكنا ما هو أملك به منّا

(١) انظر سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

كلّفنا، ومتى أخذه منّا وضع تكليفه عنّا^(١) فالتكليف الإلهي يدور مدار التملّيك والإقذار للعباد عليه، فلا توجد قدرة وسلطة ولا ملكية إلّا منه تبدأ وإليه تعود.

معاني اليوم في القرآن

المفردة الثانية: ﴿يوم﴾

والمراد به في الآية ظاهر وهو الوقت الذي يحشر فيه العباد إلى الله، ويحاسبون على ما قدّموا وأخّروا، وله في المصطلحات معان عديدة تختلف في المدة:

الأول: اليوم العرفي، وهو عبارة عن مقدار الوقت ما بين طلوع الشمس وغروبها.

الثاني: اليوم الفقهي، وهو ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس في بعض الموارد كالصوم، وفي بعض الموارد من طلوع الفجر إلى طلوع الفجر.

الثالث: اليوم الفلكي، وهو مقدار دوران الأرض حول محورها، ومدته أربع وعشرون ساعة^(٢).

الرابع: اليوم الظرفي، وهو مطلق الوقت، وعليه جماعة من المفسرين. ففي التبيان وغيره: يوم الدين عبارة عن زمان الجزاء كله، وليس المراد به ما

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٩٥، قصاص الحكم ٤٠٤؛ البحار: ج ٥، ص ٢١٠، ح ٤٩.

(٢) تفسير الكاشف: ج ١، ص ٣٤.

بين المشرق والمغرب وطلوع الشمس إلى غروبها^(١)، وقريب منه في المجمع^(٢) ومفردات الراغب^(٣).

اليوم المعرفي ووضع الألفاظ

والخامس: اليوم المعرفي، وهو ظرف ظهور الأشياء وحضورها عند ربها من باب الملازمة بين ضياء اليوم وظهور الأشياء، واستدل له بورود هذا المعنى في القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٤) فإنه لا يستقيم المعنى إلا بحمل اليوم على الظهور، لامتناع حمله على الوقت؛ لأنّ اليوم بهذا المعنى شأن جديد من عطاء الله سبحانه، فلو أُريد به الوقت كان للوقت وقت، وكان الوقت الذي يحصل فيه الشأن ثابتاً، وهو دور وتسلسل وخلف، وإن قيل إنّ تفسير اليوم بالظهور مجازي فجوابه بأن الألفاظ موضوعة لأرواح المعاني، وروح اليوم ظهور الأشياء فيه، فهو من الاستعمال الحقيقي لا المجازي^(٥)، ونمثّل له بلفظ الإنسان، فإنه موضوع لروحه لا لجسده؛ لذا قال سبحانه في أول الخلق: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ *

(١) التبيان: ج ١، ص ٣٦؛ مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١٧؛ مواهب الرحمن: ج ١، ص ٤٠؛ روح المعاني: ج ١، ص ١١٣.

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ٦١.

(٣) مفردات الراغب: ص ٨٩٤، (يوم).

(٤) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٥) تفسير تسنيم: ج ١، ص ٤٣٨ - ٤٣٩؛ وانظر بيان السعادة: ج ١، ص ٣٠.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿١﴾ فالإنسان اسم لروحه قبل حلولها في بدنه. نعم يصح إطلاق الإنسان على البدن ولكن بعناية الروح، ولذا إذا خرجت الروح من الجسد يقال له جنازة أو جثمان، وهذه قاعدة عامة ومنها اليوم، ويعززه أن اليوم ظرف زمان تقع فيه الأحداث، والزمان نفسه لا يملك؛ لأنه متصرم الوجود، فلو حمل على معناه الزماني لزم من قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ انقلاب المستحيل إلى ممكن، وما لا يملك إلى ما يملك.

التحقيق في معنى اليوم

والتحقيق أن اليوم في الآية لا يمكن تفسيره باليوم العرفي؛ لأنه محدود ويوم الدين غير محدود، ولا باليوم الفقهي:

أولاً: لما حققناه من أن اليوم الفقهي من طلوع الفجر إلى طلوع الفجر، وأما طلوع الفجر إلى غروب الشمس فهو مدة النهار، واليوم يشمل الليل والنهار وهو الأصل فيه، وإذا أريد غير ذلك يجب بيانه كما في الصيام؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (٢) فبين أنه أراد من يوم الصيام نهاره.

وثانياً: لأنه هو الآخر محدود فلا يحيط باللامحدود، ومثله يقال في اليوم الفلكي، وأما اليوم المعرفي فهو بعيد عن فهم العرف وقواعد اللغة،

(١) سورة الرحمن: الآيات ١ - ٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

والاستدلال عليه بالآية من المصادرة؛ لإمكان حمل اليوم في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(١) على مطلق الوقت، وتعدد الاحتمال يبطل الاستدلال.

هل الزمان يملك؟

ودعوى أن الزمان لا يملك باطلة بدعوى أن الماضي متقدم والمستقبل غير متحقق والحاضر متصرم الوجود وغير مستقر، وهو من الخلط بين المالكية الاعتبارية والحقيقية، والزمان لا يملك بالمالكية الاعتبارية ويملك بالمالكية الحقيقية.

أولاً: لأن اليوم من المخلوقات والمجعولات التكوينية إما بالمباشرة أو بالتبع لنشوءه من حركة الفلك. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾^(٢) واليوم مجموع الليل والنهار، وخلق المركب بخلق أجزائه. وثانياً: أن الخالق يملك المخلوق وأثره.

وثالثاً: أن المملوك كل ما يدخل تحت القدرة والسيطرة الواقعية كما عرفت، واليوم خاضع لقدرة الله سبحانه. نعم البشر يقصر عن ملك الزمان واليوم؛ لأن ملكيته اعتبارية، والمالك للاعتبار قاصر عن ملك الزمان؛ لأنه محاط به لا محيط به، والمالكية تستدعي الإحاطة ولكن الله سبحانه قادر ومحيط بكل شيء، وهو مجرد عن الزمان والمكان، وبما أن الزمان مخلوقه فله أن يمدّه ما يشاء ويقصره ما يشاء.

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

ومن هنا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١) فما يعده البشر يوماً لا يستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة، وأما عند الله فيمتد اليوم كألف سنة من اعتبارات البشر. وهذا يوم ملكوتي ينبسط فيه الزمان، ولذا يمتد زمان عروج الملائكة إلى أكثر من ذلك كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٢) فالزمان الفلكي خلقه الله وجعل له مدة أربع وعشرين ساعة، وربما يقبض الزمان فيجعل تسعة شهور في تسع ساعات أو ست ساعات، كما في حمل مريم لعيسى عليه السلام وولادته، والزمان الملكوتي يجعله ألف سنة باعتبار، وخمسين ألف سنة باعتبار، فما شاء فعل في قبض الزمان وبسطه، وبذلك يظهر بطلان المحاذير العقلية التي يتمسك بها أصحاب المعنى الخامس.

فيدور الأمر بين حمله على مطلق الوقت أو الإصطلاح الخاص للمعاد الذي يحشر فيه الناس إلى الله عز وجل فيكون اسماً خاصاً له مجرداً عن الزمان، ويمكن القول بأنهما بمعنى واحد؛ لأن اليوم يستبطن الدلالة على الزمان ولا يمكن تجريده منه. نعم يمكن تجريده من الحد والمبدأ والمنتهى فيفيد مطلق الوقت وهو الحق.

اليوم في القرآن والسنة

هذه معاني اليوم في المصطلحات، وأمّا في القرآن الكريم والسنة فقد أطلق اليوم على معان عديدة أيضاً وجامعها ما ذكرناه.

(١) سورة الحج: الآية ٤٧.

(٢) سورة المعارج: الآية ٤.

منها: الفعل من مبدئه إلى منتهاه بشهادة قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(١) والسموات ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٢) أي وقتين هما ابتداء الخلق وأنقضائه كما ورد عن آل محمد عليهم السلام^(٣).

ومنها: الفصل السنوي، والسنة لها أربعة فصول أطلق القرآن على كل فصل اسم يوم. قال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ... وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾^(٤).

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أي في أربعة أوقات، وهي التي يخرج الله فيها أقوات العالم من الناس والبهائم والطير وحشرات الأرض وما في البر والبحر من الخلق والثمار والنبات والشجر، وما يكون فيه معاش الحيوان كله، وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء، ففي الشتاء يرسل الله الرياح والأمطار والأنداء والطلول من السماء فيسقي الأرض والشجر، وهو وقت بارد، ثم يجيء من بعده الربيع وهو وقت معتدل حار وبارد فيخرج الشجر ثماره والأرض نباتها فيكون أخضر ضعيفاً، ثم يجيء من بعده وقت الصيف وهو حار فينضج الثمار، ويصلب الحبوب التي هي أقوات العالم وجميع الحيوان، ثم يجيء من بعده وقت الخريف فيطيه ويبرده، ولو كان الوقت كله شيئاً واحداً لم يخرج النبات من الأرض؛ لأنه

(١) سورة فصلت: الآية ٩.

(٢) سورة فصلت: الآية ١٢.

(٣) تفسير القمي: ج ٢، ص ٢٦٢؛ التفسير الصافي: ج ٤، ص ٣٥٣.

(٤) سورة فصلت: الآيتان ٩ و ١٠.

لو كان الوقت كله ربيعاً لم تنضج الثمار، ولم تبلغ الحبوب، ولو كان الوقت كله صيفاً لاحترق كل شيء في الأرض... فجعل الله هذه الأوقات لمصالح العباد، وجعل الله هذه الأوقات ﴿سَوَاءٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ يعني المحتاجين؛ لأن كل محتاج سائل^(١).

ومنها: المرحلة كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾^(٢) يوماً لخلق السماوات ويوماً لخلق الأرض، وأربعة أيام لخلق الأوقات فيهما، كما نصت عليه الآيات السابقة.

ومنها: الوقت الذي تحدث فيه الأحداث والوقائع، وقد اشتهر القول (أيام العرب) أي وقائعها^(٣)، وفي التنزيل العزيز: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٤) و: ﴿الْيَوْمَ يَتُوسُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾^(٥) وهو الوقت الذي نصب فيه رسول الله ﷺ أمير المؤمنين خليفة على الناس من بعده، وأخذ البيعة له منهم في واقعة الغدير، وقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾^(٦) أي الأيام التي وقعت فيها وقائع منسوبة إلى الله سبحانه في

(١) تفسير القمي: ج ٢، ص ٢٦٢-٢٦٣؛ مجمع البحرين: ج ٦، ص ١٩١-١٩٢، (يوم).

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٤.

(٣) مجمع البحرين: ج ٦، ص ١٩١ - ١٩٢، (يوم)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ١٠٦٧، (يوم).

(٤) سورة المائدة: الآية ٣.

(٥) سورة المائدة: الآية ٣.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ٥.

النِّعَم والنِّقَم، مثل إنجاء آل فرعون، وتضليل بني إسرائيل بالغمام، والعقوبات التي نزلت في الكفار ومعاندي الرسل في الأيام الخالية.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: ﴿أيام الله ثلاثة: يوم قيام القائم، ويوم الكَرَّة، ويوم القيامة﴾^(١) وهي من التفسير بالمصداق الأجل، ومن مصايدقه يوم الغدير، ويوم عاشوراء، وأيام الفتوح التي حققها النبي صلى الله عليه وآله، ويوم شهادته، وشهادة علي وفاطمة عليهما السلام، وكل الأيام التي تذكّر بالله هي من أيامه.

ومنها: النهار، وهو من إطلاق لفظ الكل على الجزء، بشهادة قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾^(٢) وبقرينة المقابلة بين الليالي والأيام تحمل الأيام على النهار، والنهار اسم للضياء المنفسح الظاهر لحصول الشمس بحيث ترى عينها أو معظم ضوئها^(٣)، وهذا حد النهار، ويقابله الليل.

ومعنى الآية أنّه سبحانه يحكم في القيامة بامتداد الضياء إلى أن يفرغ من القضاء، ويستقر أهل كل دار فيها^(٤).

هم الأيام عليه السلام

ومنها: النبي والأئمة عليهم السلام، وهم أعظم ما جاءت به القدرة الإلهية، وتسميتهم بالأيام إمّا من جهة كونهم أفضل وأشرف ما وقع في الزمان، فإنّ

(١) الخصال: ص ١٠٨، ح ٧٥؛ التفسير الصافي: ج ٣، ص ٨٠.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٧.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص ٥٥١، (١٢٢٧).

(٤) انظر مجمع البيان: ج ١، ص ٦١.

الزمان ينتسب إلى الأشرف، كما يقال في أيام إبراهيم عليه السلام وأيام الحج وهكذا، وإما من جهة أنهم سبب الأيام أو غاية وجودها أو مدار حوادثها، فإن أغلب حوادث الأيام تدور على معرفتهم والولاية لهم والبراءة من أعدائهم، ولولاهم لما خلق الله، وعلى معرفتهم دارت القرون الأولى^(١)، وأكثر حوادث التأريخ تدور على الحق والباطل والإيمان والكفر، وهم ميزان ذلك وجميع الأنبياء والرسل والشرائع مبشرة بهم وممهدة، ولم يصل نبي إلى مقام النبوة والاصطفاء إلا بمعرفتهم والإقرار بولايتهم والإذعان لهم، وتأريخ الإسلام وحوادثه قام على أساس الولاية لهم والإيمان بنهجهم في مقابل أعدائهم ونهجهم، وحتى المذاهب والمدارس الفكرية راجعة إلى هذا المحور.

لا تعادوا الأيام

وإلى يومنا هذا فإن الكثير من الأحداث التي تجري في بلادنا من حروب وصراعات ومشاكل وأزمات يصنعها الغرب والشرق ومن يعمل معهم أو لهم دوافعها دينية اعتقادية متلبسة بثياب سياسية واقتصادية، ويشهد لهذه الحقيقة ما ورد في الحديث: «لا تعادوا الأيام فتعاديكم»^(٢).

وفي بيان معناه قال الامام الهادي عليه السلام: «يوم السبت اسم محمد صلوات الله والأحد أمير المؤمنين عليه السلام، والاثنين الحسن والحسين عليهما السلام، والثلاثاء علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر محمد عليهما السلام، والأربعاء موسى بن جعفر وعلي

(١) انظر الأمالي (للطوسي): ص ٦٦٨، ح ١٣٩٩؛ البحار: ج ٤٣، ص ١٠٥، ح ١٩.

(٢) الخصال: ص ٣٩٤، ح ١٠١؛ معاني الأخبار: ص ١٢٣، ح ٥.

بن موسى ومحمد بن علي وأنا، والخميس ابني الحسن، والجمعة ابن ابني وإليه يجتمع عصابة الحق، وهو الذي يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، فهذا معنى الأيام فلا تعادوهم في الدنيا فيعادوكم في الآخرة^(١).

فاطمة عليها السلام وأيام الأسبوع

ولعله لم يذكر الزهراء عليها السلام لأنها مشمولة مع رسول الله صلى الله عليه وآله لأنها بضعة منه، أو أمير المؤمنين، أو معها عليها السلام؛ لأنها مشتقة من نورهما، أو لأنها أم أبيها وأم الأئمة الأطهار عليهم السلام، والأم الأصل الذي يلزم فروعه وما يتصل به في جميع الأحوال.

وهذا تكون جميع أيام الأسبوع لفاطمة عليها السلام، ويعزز ذلك زيارات الأيام فإنها واردة فيهم بحسب التسلسل الوارد في الرواية الشريفة.

وهذا يفتح الإمام باباً لأهل الدعاء والذكر والعبادة يلفتهم إلى مَنْ يجب أن يتوسلوا به من الأئمة في أيام الأسبوع، فإن لكل يوم أئمة معينين به، فينبغي التوسل إلى الله بهم. وبه يتضح لماذا يوم الجمعة وردت فيه مستحبات خاصة بالدعاء والزيارة للصاحب عليه السلام، والمعنى الجامع لجميع المعاني هو الظرف الذي تقع فيه الحوادث في الدنيا والآخرة، ويعرف امتداده وحدوده بالإضافات والنسب، ففي الصيام حدد بالنهار، وفي واقعة الغدير حدد بالوقت الحاضر في الواقعة، وخلق السماوات والأرض

(١) الخصال: ج ٢، ص ٣٩٦، ح ١٠٢؛ معاني الأخبار: ص ١٢٣، ح ١؛ البحار: ج ٩٩، ص ٢١١، ح ١.

وأقواتها حدد بستة أيام، والنبي والأئمة وصفوا بالأيام بأحد الاعتبارات الثلاثة المذكورة.

ويوم القيامة يعرف امتداده بالآية التي حددت اليوم الإلهي بألف سنة، وبالقرينة العقلية القاضية بامتناع حصول أحداث القيامة بكل ما فيها من تفاصيل في يوم عرفي أو فلكي أو اصطلاحى، فلا بد وأن يحمل على مطلق الوقت.

وبذلك ينحل الخلاف الواقع بين المفسرين في تحديد اليوم.

كن كما شئت كما تدين تدان

المفردة الثالثة: ﴿الدين﴾

وأضيف إليه اليوم (يوم الدين) اسم من أسماء يوم القيامة. وقد ذكروا أنّ له أكثر من مائة اسم. صرح بأربعة وثلاثين منها في القرآن^(١)، منها يوم الدين الذي يتم فيه محاسبة العباد على ما قدّموا وأخّروا، فيجزى الذين أحسنوا بالحسنى، والذين أساءوا بالعذاب الأليم باتفاق أهل التفسير واللغة والمروى عن الباقر عليه السلام^(٢)، وقد نصت الآية على أنّه سبحانه مالك ليوم الدين لبيان اختصاص ذلك اليوم به سبحانه، فلا يوجد فيه مالك ولا حاكم إلّا هو، وهو وإن كان المالك الحق لكل شيء قبل الآخرة وفيها، لكنه في الآخرة يظهر تفرّده في الملك والحكم والحساب، بخلاف الدنيا فإنّ فيها

(١) رسائل في تفسير سورة الحمد: ج ١، ص ٤٥١.

(٢) التبيان: ج ١، ص ٣٦؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٢٤.

ملوكاً وحكاماً وقضاة يملكون ويحكمون ويحاسبون، ولا يلتفت إلى تفردّه
إلا ذوو الايمان العالي والبصائر النافذة، وأمّا سائر الناس فيغفلون عن ذلك
أو يقرّون بها بألستهم ولا تستيقن لها قلوبهم.

أمّا في الآخرة فيحشر إليه كل الخلق حتى ملوك الدنيا وحكامها
وقضاتها، ويزول عنهم سلطانهم: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾^(١)

ويذل لحكمه وقضائه وعدله الجميع. هناك يظهر لجميع الخلائق أنّه
المالك الحقيقي والحاكم العدل ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^(٢).

ولذا ورد في أسمائه الحسنی ﴿يَا مَنْ فِي الْقِيَامَةِ مَلِكُهُ﴾^(٣) والحصر يدل
على نفي ما عداه، أمّا في الدنيا فهناك من يملك ويقال له مالك ولو تسامحاً.

معاني الدين

هذا وقد اختلف المفسرون من أهل اللغة في معنى ﴿الدين﴾ وذكروا له
معاني عديدة:

منها: الطاعة.

ومنها: الجزاء.

ومنها: الحساب.

ومنها: الشريعة.

(١) سورة طه: الآية ١١١.

(٢) سورة الإنفطار: الآية ١٩.

(٣) المصباح (للكفعمي): ص ٢٥٢؛ البلد الأمين: ص ٤٠٦؛ البحار: ج ٩١، ص ٣٨٩.

ومنها: الاعتقاد بالتوحيد وما يتفرع منه من أصول العقائد.

ومنها: كل ما يعبد به الله سبحانه.

ومنها: الإسلام^(١).

ومنها: الحكم.

واستدلوا لكل منها ببعض الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢) أريد به الشريعة والاعتقاد، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٣) أريد به الجزاء، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾^(٤) أريد به الطاعة، وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٥) أريد به العبادة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٦) أريد به الإسلام، وقد كثر وروده بهذا المعنى كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٨) بينما ورد بمعنى

(١) انظر مفردات الراغب: ص ٣٢٢ - ٣٢٣، (دين) ؛ معجم الفروق اللغوية:

ص ٢٩٨، (١٢٠١) ؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٨٧؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٦٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٢.

(٤) سورة النساء: الآية ١٢٥.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٩.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

(٧) سورة الصف: الآية ٩.

(٨) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

الجزء في (١٥) موضعاً، وبمعنى الطاعة والشيعة في (٤٧) موضعاً^(١)، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَخِي أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾^(٢) أي حكمه، وبعض أهل اللغة فسّر اليوم في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بيوم الحكم^(٣).

والحق الذي يقتضيه التحقيق أنّ الدين له معنى جامع إليه تعود سائر المعاني المذكورة؛ لأنّها من مصاديقه أو لوازمه وهو الانقياد والذل^(٤)، وهو يشمل المعاني الشرعية والعرفية، ومن هنا يقال للقرض دين؛ لأنّ فيه انقياداً من المدين إلى الدائن وملازم للذل عادة، وإليه يشير ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿الدِّينُ ذَلٌّ بِالنَّهَارِ وَغَمٌ بِاللَّيْلِ﴾^(٥) كما يقال للتدبير بالإدانة؛ لأنّه محاسبة ملازمة للذل، ومنه قوله ﴿كَمَا تَدِينُ تَدَانُ﴾^(٦) والمدين المماطل يدان، ولا تناله مغفرة إذا لم يعط حقوق الناس، وفي الحديث عن الباقر عليه السلام: ﴿أَوَّلُ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِ الشَّهِيدِ كَفَّارَةٌ لِدُنُوبِهِ إِلَّا الدِّينَ فَإِنْ كَفَّارَتَهُ قَضَاؤُهُ﴾^(٧) وهذا يشمل الديون المالية والمعنوية، كما يشمل مثل الزوج الذي لا يعطي مهر زوجته مع مطالبته.

(١) انظر تفسير الفرقان: ج ١، ص ١٠٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ٧٦.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص ٣٥٣، (دين).

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الفقيه: ج ٣، ص ١٨٢، ح ٣٦٨١؛ سفينة البحار: ج ٣، ص ١٦٨.

(٦) المحاسن: ج ١، ص ١٠٧، ح ٩٤؛ البحار: ج ٧٠، ص ٦٧.

(٧) الفقيه: ج ٣، ص ١٨٣، ح ٣٦٨٨؛ الوسائل: ج ١٨، الباب ٤ من أبواب وجوب

قضاء الدين، ص ٣٢٦، ح ٢٣٧٧٥.

والدَّيَّان من أسمائه سبحانه؛ لأنَّه الحاكم القاضي المجازي بالخير والشر،
الذي يخضع وينقاد إليه كل شيء ^(١)، وفي الحديث القدسي: ﴿يا ابن آدم! كن
كما شئت كما تدين تدان﴾ ^(٢) وبها قام نهج الدنيا والآخرة، وأنَّهم يجازون بما
يختارونه لأنفسهم من عقائد وأعمال.

أوصاف يوم الدين

وقد وصف الباري عزَّ وجلَّ هذا اليوم بأوصاف كثيرة من أبرزها ستة
تلازم الانقياد والذل:

الأول: أنه عظيم، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ^(٣).

والثاني: أنَّه محيط، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ ^(٤).

الثالث: أنَّه عبوس قمطرير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ ^(٥) أي شديد الانقباض والرعب والضاوأة ^(٦).

(١) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٣٠٧، (دان).

(٢) الكافي: ج ٢، ص ١٣٨، ح ٤؛ مستدرک سفينة البحار: ج ٨، ص ٦١٥.

(٣) سورة مريم: الآية ٣٧.

(٤) سورة هود: الآية ٨٤.

(٥) سورة الإنسان: الآية ١٠.

(٦) انظر نفحات الرحمن: ج ٦، ص ٣٨٨.

الرابع: أنه يوم الشر المستطير، كما في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(١) أي منتشرًا في أرجاء العالم، ويبلغ مداه كل من يستحق العذاب، وسرعته تفاجئهم فلا ينظرون ليستعدوا له.

الخامس: أنه يوم المشيب. يشيب فيه الولد الصغير، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(٢) ولا يراد به شيب الشعر، بل انحناء الشيب وضعفه وفقدان طاقته.

والسادس: أنه يوم الزلزلة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾^(٣).

ونسبة الأوصاف الخطيرة إلى اليوم من باب وقوع الحوادث فيه، فهو وصف باعتبار المتعلق، فهو عظيم باعتبار حوادثه العظيمة، ومحيط باعتبار حضور جميع الخلائق والأعمال فيه، فلا يفلت منه شخص ولا عمل، وهو عبوس لأن وجوه الناس فيه كذلك، ويوم الشر لأن الكفار يلاقون أشد العذاب، ويشيب الولدان فيه لشدة الخوف والفرع من مشاهدته وآثاره، ويوم الزلزلة لأن الأرض تتزلزل في يوم القيامة؛ لذا يحشر الناس إلى ربهم كما نصت عليه سورة الزلزلة.

(١) سورة الإنسان: الآية ٧.

(٢) سورة المزمل: الآية ١٧.

(٣) سورة الحج: الآيتان ١ و ٢.

ما معنى يوم الدين؟

وأما ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي اليوم المضاف إلى الدين، فهو في المصطلح القرآني اسم خاص ليوم القيامة باعتبار ما يقع فيه من حساب وجزاء، والظاهر أنه موضوع له بالوضع التعييني الناشئ من كثرة الاستعمال، فقد ورد بهذا المعنى في جميع الآيات الشريفة، وربما بلغت العشر وأكثر، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٣)، إلى غير ذلك من الآيات^(٤)، وهو المتبادر منه في عرف المسلمين، وربما عموم أهل الأديان، وتعرّضه الروايات الواردة بطرق الفريقين:

ففي الفقيه عن الإمام الرضا عليه السلام في معنى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: ﴿إقرار له بالبعث والحساب والمجازاة، وإيجاب ملك الآخرة له كإيجاب ملك الدنيا﴾^(٥).

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ

(١) سورة الإنفطار: الآيتان ١٤ و ١٥.

(٢) سورة الصافات: الآية ٢٠.

(٣) سورة ص: الآية ٧٨.

(٤) انظر سورة الذاريات: الآيتان ٦ و ١٢؛ وسورة الواقعة: الآية ٥٦؛ سورة المعارج: الآية ٢٦؛ سورة المدثر: الآية ٤٦.

(٥) الفقيه: ج ١، ص ٣١٠، ح ٩٢٦؛ انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ١١٤، ح ٣٤.

الدِّينِ: ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(١) وكذا ورد عن الإمام الباقر عليه السلام^(٢)، كما ورد بطرق العامة عن ابن مسعود وأناس من الصحابة^(٣).

وعن ابن عباس في معنى ﴿مَالِكِ﴾ قال: (لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا). وفي معنى ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ قال: يوم حساب الخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرّاً إلا من عفا عنه^(٤) وقريب منه ورد عن قتادة^(٥).

وعن الإمام العسكري عليه السلام قال: ﴿قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ هو يوم الحساب﴾^(٦) بل في الحديث القدسي: ﴿إذا قال العبد ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ قال الله تعالى أشهدكم كما اعترف بأني مالك يوم الدين لأسهلنَّ يوم الحساب حسابه، ولأثقلنَّ حسناته، ولأتجاوزنَّ عن سيئاته﴾^(٧) وهذا من بركات قراءة سورة الحمد، أما الطغاة الجبابرة فهم أذلاء منقادون في يوم الدين.

وفي تنبيه الخواطر: فملوك الأرض في ذلك اليوم هم أذل أهل الأرض

(١) تفسير القمي: ج ١، ص ٢٨.

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ٢٤.

(٣) انظر الدر المنثور: ج ١، ص ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ج ١، ص ٢٩؛ الدر المنثور: ج ١، ص ١٤، وفيه: "إن خيراً فخير، وإن شراً فشر".

(٥) انظر الدر المنثور: ج ٦، ص ١١٢.

(٦) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٣٨؛ تأويل الآيات: ج ١، ص ٢٦.

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٦٩، ح ٥٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٥٣٠.

وأصغرهم وأحقرهم يوطؤون بالأقدام مثل الذر، وعند ذلك تقبل الوحوش من الجبال والبراري منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها، حشرهم شدة الصعقة وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾^(١)، ولعل المراد بالوحوش البشر الذين يصنفون بصفات الوحوش.

ثم يؤتى بالشياطين المردة من شياطين الإنس والجن بعد تمردها مذعنة خاضعة تصديقاً لقوله تعالى: ﴿قَوْ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾^(٣) ولاحظ القسم العظيم والتأكيد وصورة وفي الحديث مكتوب في عصا موسى التي صنعت العجائب خلاصة الحقيقة: (كل سلطان لا يعدل فهو مع فرعون سواء) و: (كل غني لا راحة في ماله هو مع قارون سواء، وكل عالم لا يعمل بعلمه فهو مع إبليس سواء، وكل فقير لا يصبر على فقره هو مع الكلب سواء)^(٤) أي سواء في العمل والأثر. وقد ذكر هذه الأربعة؛ لأنهم أذلّ الخلق كما وصفتهم النصوص.

ففي فرعون يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

(١) سورة التكوير: الآية ٥.

(٢) تنبيه الخواطر: ج ١، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٣) سورة مريم: الآية ٦٨.

(٤) انظر زهر الربيع: ص ٦٣٤، (بتصرف).

العَذَابِ^(١) ، وأما قارون يقول تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ^(٢)﴾ والخسف يبلع مدن وحضارات، لكن قارون له خسف خاص، وفرعون يهوي في ماء النيل الذي كان سبب موته، وقارون في أعماق الأرض، والأول سر الحياة، والأرض سبب للهلاك، وفي إبليس وأتباعه يقول: ﴿فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ^(٣)﴾ والعالم غير العامل بعلمه الذي يضل الناس هذا مصيره، وكبكبوا أي دهوروا وجمعوا ثم رمي بهم في هوة النار^(٤) ، وهذا من الإذلال، وأما وضع الكلب وذلته فلا يحتاج الى بيان.

وهذا ما كان يقلق حتى الانبياء وقد ورد أن يحيى بن زكريا كان يفكر في طول الليل في أمر الجنة والنار فيسهر ليلته ولا يأخذه النوم، ثم يقول عند الصباح: اللهم أين المفر وأين المستقر؟ اللهم لا مفر إلا إليك^(٥) .

يوم الدين اصطلاحاً

ويتحصل: أن يوم الدين في المعنى المصطلح يلزم الدين بالمعنى اللغوي، وإليه تعود سائر المعاني التي ذكرت للدين؛ لكونها من مصاديقه، فيوم الدين

(١) سورة غافر: الآية ٤٦ .

(٢) سورة القصص: الآية ٨١ .

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ٩٤ و ٩٥ .

(٤) لسان العرب: ج ١، ص ٦٩٧، (كبب) .

(٥) مصباح الشريعة: ص ٨٦؛ البحار: ج ٦٨، ص ٢٦٦، ح ٨؛ ينابيع الحكمة: ج ٢،

هو يوم الحساب والجزاء، وفيه تظهر شريعة الله وحقائقها وآثارها، كما تظهر آثار الطاعات وعظمة الإسلام والإيمان وآثار الاعتقاد بهما، وفيه تنقاد العباد لأمر ربهم تكويناً وتشريعاً بعد أن كانوا في الدنيا منقادين له تكويناً ومخيرين تشريعاً، وتذل له الرقاب والأعناق، وينال كل جزاءه.

دلالة المفردات الثلاث

وبذلك يتضح أنّ المفردات الثلاث للآية تهدي العقول والقلوب إلى وحدانية الخالق والرب والمالك بمقتضى الآيات السابقة، وبهذه الآية تهديهم إلى التمسك بنهجه وشريعته وآدابه وسننه؛ لأنه السبيل الوحيد لكمالهم وسعادتهم، وهذا وجه آخر من الوجوه التي يستحق الباري به الحمد المطلق.

المبحث الثاني: في لطائف الآية المباركة



وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: عقيدة الجاهليين بالمعاد

يستفاد من إطلاق الآية في مالكية يوم الدين. أن قضية وجود يوم يدان فيه الناس على أعمالهم قضية مفروغ منها، وكان الناس قد سمعوا بها، وبعضهم آمن بها إمّا من جهة إخبار الأنبياء السابقين، أو من جهة حكم العقل بضرورة وجود يوم يحاسبون فيه على ما قدّموا وأخروا، وذلك يلوح إلى أنّ العرب قبل الإسلام ما كانوا يكفرون بيوم المعاد جميعهم بل بعضهم، كما كانوا يؤمنون بوجود الخالق إلا أنّهم كانوا يشركون في العبادة، فشرّكهم في العبودية، وقد ورد أنّ جماعة منهم كانوا يربطون البعير النفيس والفرس الجواد على قبر الميت ويتركونه إلى أن يموت، ويقولون: إنّهُ يحشر فيكون مع مركوبه^(١)، وكان بعضهم يقول: إن كان محمد ﷺ صادقاً فيما يقول من أمر البعث والآخرة فنحن أهل الجنة؛ لأنّهم أهل النبي وقومه، فردّ عليهم الباري هذه التوهّمات بقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ

(١) تفسير الرازي: ج ٢٠، ص ٦٠؛ الباب في علوم الكتاب: ج ١٢، ص ٩٤؛ مقتنيات الدرر: ج ٦، ص ١٧٣.

الحُسْنَى ﴿١﴾، ﴿٢﴾ .

وبهذا يتضح أنّ منكري المعاد والمبدأ من أهل هذا الزمان بعد كل هذا الرقي العلمي والعقلي كم ابتعدوا عن الواقع، وعطّلوا أنفسهم عن الفكر السليم والفطرة الأصيلة.

اللطفية الثانية: ما تملكه وما لا تملكه

الآية المباركة جملة خبرية كاشفة عن حقيقة واقعية مفادها حصر الملكية بالله سبحانه، وكل ملكية أخرى عرفية أو اصطلاحية إمّا تعود إليه سبحانه أو زائفة. وهذه حقيقة يقضي بها العقل فضلاً عن النقل، ويتفق عليها عقلاء العالم، وهي أنّ للوجود مالكاً حقيقياً، وأشارت الآية إلى أنّه من يملك يوم الدين؛ لأنّ من يملك المنتهى يملك الأولى أيضاً، ومن يملك الآخرة يملك الدنيا، ولا أحد من الخلق يدعي أنّه يملك الآخرة، وكل من ملك في الدنيا من ملوك وزعماء وأثرياء فإنّهم يقرّون بأنّ ملكهم يزول بموتهم أو بعجزهم، وأنهم في الآخرة مملوكون.

ولا ينبغي أن يختلف في هذه الحقيقة أحد؛ لأنّ الأشياء تعرف بعواقبها، فمن يملك توالي الدنيا يملك مبتدأها، ونقرّب هذه الحقيقة بمثال:

فإنّ السوق عبارة عن سلسلة من المالكين يبدأ من أكبر تاجر يملك المال الأكثر والتصرّف الأكبر وكل من دونه يرجعون إليه وإن كانوا مالكين؛ لأنّ

(١) سورة النحل: الآية ٦٢.

(٢) انظر مقتنيات الدرر: ج ٦، ص ١٧٣.

من يملك قرار التصرف في السوق والتحكم بمجرياته هو المالك الحقيقي، وباقي المالكين ينتمون إليه ويتفرعون منه.

وكذلك من يملك القرار في الدولة فإنه الحكومة الحقيقية وإن كان له جهاز مكوّن من وزراء ومدراء وموظفين ونحو ذلك، فإذا يرجع إلى الموظف الصغير في شيء يفوق صلاحيته لا يتصرف دون الرجوع إلى مديره، ومديره أيضاً يرجع إلى من أعلى منه، وهكذا حتى يعود الأمر إلى الحاكم الأعلى الذي يملك سلطة القرار والاستقلال به، ومن هذا الرجوع إلى المنتهى يعرف أن مالك القرار هو من يرجع إليه في نهاية الأمر.

وهذه الحقيقة تؤكد الآلية، فإنّ في الآخرة كل المالكين والملوك يرجعون إلى الله وهو الذي يحكم فيهم، ولكن في الدنيا منح الإنسان مالكية وسلطة وجعله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

أصناف الملكية

وبيان ذلك: أنّ للملكية معاني عديدة تتفاوت بحسب العلوم والآثار:

المفهوم الفلسفي للملك

أحدها: الملكية الفلسفية، ويراد بها الهيئة الحاصلة من إحاطة شيء بشيء ويتنقل بانتقاله، وهي من الأعراض التسعة عندهم، ويعبرون عنها بمقولة الجدة، كاهيئة الحاصلة من إحاطة العمامة بالرأس، والخاتم بالأصبع، والثوب بالجسد، وبقيد الانتقال تميزت عن مقولة الأين، وهي النسبة إلى المكان، فإنه

وإن كان هيئة عرضية للشيء بسبب إحاطته بالمكين إلا إنه لا ينتقل بانتقاله^(١).

فالملكية متغيرة بحسب اختلاف الاحتواء والإحاطة، وليس لها وجود حقيقي في الخارج، بل هي تعود إما إلى الصور الذهنية أو الاعتبار العقلي أو العقلاني، فإن كانت من الأول رجعت إلى الملكية التكوينية بالتبع من قبل الوجود العرفي كالسرعة للحركة، والزوجية للأربعة، فتكون حقيقة انتزاعية وإن كانت اعتبارية تعود إلى اعتبارات المعبرين فلا واقع لها في الخارج، وهذا التردد في حقيقتها أقرّ به بعض أعلام الحكمة، ففي كشف المراد قال أبو علي: إن مقولة الملك لم أحصلها إلى الآن، وتشبه أن تكون عبارة عن نسبة الجسم إلى حاوٍ له أو لبعض أجزائه كالتسلح والتختم^(٢).

ومعلوم أن هذا إن أُريد به الاصطلاح فلا مشاحة فيه، وإن أُريد به الملكية التي تترتب عليها الآثار فهو باطل لسببين:

الأول: للزوم أن يكون كل كبير مالكا لكل صغير يودع فيه، فالدار تملك أهلها، والسيارة تملك الراكبين.

الثاني: للزوم أن يثبت الملك لغير العاقل وكلاهما باطل.

فإنها ليست ملكية حقيقية؛ لرجوعها إلى ملكية الخالق عز وجل للمخلوق، فإن من يملك الأصل أي الحاوي، على أنه على فرض التسليم يملك آثاره فكيف بمن يملك الحاوي والمحتوى.

(١) انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج ٢، ص ١٦٤٠.

(٢) كشف المراد: ص ١٧١.

المفهوم الفقهي للملك

ثانيها: الملكية الفقهية، وهي في اصطلاح الفقهاء اتصال شرعي بين الإنسان وبين شيء يكون مطلقاً لتصرفه فيه، وحاجزاً عن تصرف غيره فيه ^(١)، وهو غير دقيق؛ لأنّ الاتصال إن أُريد به المادي فهو منقوض بالمالك البعيد عن ملكه، وإن أُريد المعنوي فالتعبير عنه بالنسبة أدق، على أن الاتصال المذكور ليس شرعياً بل إما حقيقياً أو اعتبارياً لدى العقلاء، ولا خصوصية للاعتبار الشرعي فيه، وإلا لوجب حصر التملك بأهل الشرائع فقط.

ومن هنا قال أصحابنا الفقهاء بأنّ الملكية أمر اعتباري صرف ^(٢)، لكنه تعريف بالأخص؛ لأنّ الملكية على ثلاثة أقسام:

أقسام الملكية الفقهية

الأول: الملكية الوهية، وهي ملكية حقيقية ناشئة من هبة الله سبحانه للإنسان القدرة والسلطة على التصرف في نفسه وبدنه وأعصابه وملكاته وقواه، فكل إنسان حرّ مسلّط على نفسه وليس عبداً مملوكاً. خلقه الله سبحانه على هذه الشاكلة، ومنحه القدرة والإرادة والاختيار على التصرف فيما أعطاه، وبهذا الاعتبار تكون ملكيته وهبية إلهية في مقابل الفاعل المجبر، فإنّه لا يملك سلطة على نفسه. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ^(٣) أي تركتم ما

(١) التعريفات (للسيد الشريف): ص ١٠٠؛ مناهج البيان: ج ١، ص ١٢٠.

(٢) انظر مصباح الفقاهة: ج ٢، ص ٢٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٤.

ملّكناكم، وتفضلنا به عليكم في الدنيا - فشغلّكم عن الآخرة - وراء ظهوركم، وهو مأخوذ من حوّله الله الشيء أي ملّكه إياه^(١).

الملكية الفكرية

الثاني: الملكية الخلقية، وهي ملكية الإنسان على ما يوجده ويخلقه من أفعال وصنائع وإبداعات تتعلق بفعله البدني، كالصناعات والزراعات التي ينتجها بعمله، أو بملكاته النفسية كالشعر والأدب واللوحات التي يرسمها أو التي يخطها ونحو ذلك الناشئة من فعل النفس، أو ينتجها بملكاته العضوية كالصوت الجميل والأفعال الرياضية ونحوها، أو بملكاته العقلية كالفكر ونحوها من انجازات يخلقها عقله وفكره، وكل هذه الأمور مما ينتجه الإنسان ويخلقه في نفسه إمّا بقوته البدنية، أو بقوة بعض أعضاء بدنه، أو بقوة روحه ومشاعره، أو بقوة عقله وتفكيره.

فالإنسان علة لأفعاله وسبب لإيجادها، والموجد يملك ما يوجده، وهذه الملكية حقيقية تكوينية ناشئة من الخلق والإيجاد، وربما تجتمع تحت عنوان الملكية الفكرية للإنسان باعتبار أنّ الفكر سبب لكل أفعال الإنسان بما فيها الأعمال الشعرية والفنية، فإن كل فعل يبدأ من الفكر ثم ينعكس على الإرادة ثم العزم ثم الوقوع الخارجي.

فالفكر هو الأصل الذي تعود إليه أفعال الإنسان وإنجازاته، وبه يتضح

(١) مجمع البحرين: ج ٥، ص ٢٥٢، (قول) ؛ وانظر تفسير كنز الدقائق: ج ٤، ص ٣٦٦ تفسير الآية المزبورة.

أن هذه الملكية قائمة بنفسه وقواها التي وهبها الله سبحانه له، فلا تزول عنه ولا تتوقف على اعتبارات المعتبرين.

وبهذا تنحل معضلة فقهية كانت ولا زالت مدار البحث في أن الإنسان يملك أفكاره وآثاره المعنوية أم لا؟ وإذا ملكها تثبت له حقوقاً فيجوز له بيعها وهبتها وتوريثها، ولا يجوز الانتفاع بها إلا بإجازته أم لا؟ فإنه إذا ثبت أنها ملك وأنه مالك تثبت له آثار الملكية بلا فرق بين الأعيان والمنافع.

والحق أن هذه الملكية تعود إلى الملكية الوهبية؛ لأن ما لدى الإنسان من مواهب وملكات راجعة إلى من خلق الإنسان، وما أودع الله سبحانه فيه من مواهب وقدرات، ويشتركان - الوهبية والخلقية معاً - في الخصائص والآثار من جهات ثلاث:

خصائص الملكية الوهبية والخلقية

الأولى: أن كل واحدة منهما ملكية حقيقية تكوينية فتوجد وتعدم بالخلق والتكوين.

الثانية: أنها ملكية تفويضية بما جعل الباري الإنسان مسلطاً على نفسه، فلا تؤثر بها الاعتبار العقلانية.

الثالثة: أن ما تنتجه النفس من أعمال وآثار هي الأخرى مملوكة له بمقتضى الخلق والإيجاد. نعم تتميز الملكية الخلقية عن الوهبية في أن للإنسان دوراً في تنميتها وتطويرها بواسطة التعلم والتمرين والممارسة، ولكن هذا لا يعطيها امتيازاً بحيث تتحرر من الملكية الإلهية؛ لأن من يملك الأصل يملك فروعه أيضاً، وليس للإنسان ما يملكه بالملكية الحقيقية

المستقلة عن ملكية الباري عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسان وما لديه من قوى وملكات وتوفيقات هي من فعله تبارك وتعالى.

حقيقة الملكية الاعتبارية

الثالث: الملكية الاعتبارية، وهي ملكية متفرعة عن الملكية الأولى تقوم على اختيارات المالكين وتعهداتهم، فالبناء حينما يبني أرضه داراً يملكه بالملكية الحقيقية باعتباره موجداً له، ويجوز له أن يستبدله بالمال فيعطي الدار مقابل المال بالبيع أو الهبة المعوضة، فبالعقد يتم نقل ملكية الدار إلى صاحب المال في مقابل ملكية المال إلى صاحب الدار، وهذا هو المقصود بالملكية الاعتبارية.

فليس المراد من الملكية الاعتبارية أنَّها توجد وتعدم بالاعتبارات العقلائية؛ لأنَّ الاعتبار لا ينفي التكوين، بل إنَّها تنتقل من مالك لآخر بتعهدات المالكين؛ لأنَّ العقلاء لا يملكون حق إيجاد الملكية أو نفيها، والذي يملك هذه القدرة فقط من أوجدها بالخلق والإيجاد، أو بتفويض الخالق المالك، وعليه يحمل التملك الحاصل من حيازة المباحات في قولهم: ﴿من حاز ملك﴾^(١) فإنَّ الحيازة سبب الملكية التفويضية من المالك الحقيقي، والإعراض عن الملك مزيل للملكية عن المالك لا بمعنى إعدامها، بل بإباحة نقلها لمن شاء من الناس.

ويتحصل: أن لا توجد ملكية ولا مالك حقيقي في الوجود إلا الله

(١) العناوين الفقهية: ج ١، ص ٧٩.

تبارك وتعالى، فكل ملكية أخرى مزعومة تعود إليه، وإلا كانت وهماً. يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(١) والتمكين الإقدار والتمليك، ويتم بنحوين:

أحدهما: تفويض المملوك إليه كالأرض وخيراتها.

وثانيهما: إعطاؤه القدرة على التصرف فيه برفع الموانع^(٢)، فالتمكين توفير القدرة على العمل وتهيئة الأسباب ورفع الموانع، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يشير إلى أن أرزاق الخلق أيضاً بتفويض وإعطاء إلهي، فلو لم يسخر الله الأرض للبشر لاستحال عليه حفرها وزراعتها، كما استحال عليه أن يقبض الهواء لأنه لم يسخره لذلك، ولو اجتمعت قدرات العالم على قبض الهواء باليد لتعذر ذلك؛ لأنه سبحانه لم يسخره لهم، بينما سخر لهم الأرض وجعل فيها معاشهم وليس عليهم إلا السعي لتحصيلها.

وإطلاق المعاش يشمل ما كان للإنسان والحيوان والنبات والجماد؛ لأن معيشة كل شيء بحسبه، فإذا أدرك البشر هذه الحقيقة بلغ الشكر النظري، وإذا أذعن لها وعمل بمقتضاها وأطاع ربه فيما خوله فيه بلغ الشكر العملي، ولكن لأن الغالب يغفل عن ذلك أحياناً ويستذكر أحياناً قال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(٣).

(١) سورة الأعراف: الآية ١٠.

(٢) مجمع البحرين: ج ٦، ص ٥٦٩، (مكن) ؛ تفسير كنز الدقائق: ج ٥، ص ٢٩ تفسير الآية المزبورة.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٠.

ويعززه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في بيان معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) قال: ﴿إنا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك إلا ما ملكنا، فمتى ما ملكنا ما هو أملك به منا كلّفنا، ومتى أخذه منا وضع تكليفه عنا﴾^(١).

الأحكام اللازمة للملكية

وبهذا الاعتبار تتضح الحكمة في جملة من الأحكام الشرعية.
منها: أن الدولة لا تملك شيئاً؛ لأنها جهاز منظم ومراقب لا مالك، والمالك الحقيقي هو الله عزّ وجلّ، ولم يملك الباري الدولة أو الحكومة، وإنما أعطى للإنسان الملكية في ثلاثة مجالات.

حدود ملكية الإنسان

الأول: الملكية لنفسه، وقواه فجعله مسلطاً على نفسه وماله وحقوقه.

الثاني: الملكية لما يعمل به وينتجه.

الثالث: الملكية لما يعمره ويحوزه من مخلوقات الله سبحانه، فالأرض ليست ملكاً للدولة بل لله، وقد جعلها الباري لمن عمرها^(٢)، ومباحات البر والبحر لله وملكها لمن حازها^(٣)، وهذا أحد معاني الخلافة في الأرض، وأن الإنسان خليفة الله في أرضه^(٤).

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٩٥، قصار الحكم ٤٠٤.

(٢) الكافي: ج ٥، ص ٢٧٩، ح ٢؛ الاستبصار: ج ٣، ص ١٠٨، ح ٣٨١.

(٣) العناوين الفقهية: ج ١، ص ٧٩؛ القواعد الفقهية: ج ١، ص ١٩، الرقم ١٨.

(٤) انظر سورة البقرة: الآية ٣٠.

ومنها: أنَّ ثروات كل بلد لا تملكها الدولة بل هي ملك لأهل البلد بحسب التفويض والجعل الإلهي، فيجب أن تنفق في مصالح أهل البلد وسعادتهم وتنميتهم لا في طموحات ورغبات السلطة كالحروب وأمثالها.

ومنها: أنَّ ملكية الإنسان لما يعمل ليست حقيقية، بل ملك لله سبحانه وليس للإنسان في ذلك إلاَّ أجور عمله، وهي الأخرى لا يملكها، بل يفوض فيها لكي يقوت نفسه ويحفظ وجوده. هذا ما يقضي به العقل؛ لأنَّ الذي يملك الأصل يملك فروعه إلاَّ أنَّ من لطف الله ورحمته وفضله وإحسانه أن جعل الإنسان مالكا، وفوض إليه كل ما ينتجه ويعمله، وألزمه بدفع الحقوق الشرعية من الخمس والزكاة، وهي نسبة قليلة بالقياس إلى ما أعطي، وهذا حكم لطفي إرفاقي.

جزاء الإمتناع عن الخمس والزكاة

فالذي يستمتع بما أعطاه الله من أموال ولا يعطي حقها الشرعي عليه أن يعرف شدة القبح والحرام الذي فعله، فمثله مثل الأب الذي يودع ماله أمانة عند ولده ويكلفه بأن يستخرج منه خمس المال يعطيه للفقراء والمساكين لكنه يأكل الجميع.

وبذلك يتضح وجه الإشكالات الكثيرة التي يبتلى بها الذين لا يخمسون ولا يزكون في حياتهم وطعامهم وشرابهم ولباسهم.

عن عيسى بن موسى عن الصادق عليه السلام: ﴿يا عيسى! المال مال الله عزَّ وجلَّ جعله ودائع عند خلقه، وأمرهم أن يأكلوا منه قصداً، ويشربوا منه قصداً، ويلبسوا منه قصداً، وينكحوا منه قصداً، ويركبوا منه قصداً، ويعودوا

بها سوى ذلك على فقراء المؤمنين، فمن تعدّى ذلك كان ما أكله حراماً، وما شرب منه حراماً، وما لبسه منه حراماً، وما نكحه منه حراماً، وما ركبته منه حراماً^(١) والقصد استقامة الطريقة، وتتم بالتوسط بين الإفراط والتفريط^(٢)، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾^(٣) أي في أسلوبك وطريقة عملك، ومنه الاقتصاد في المعيشة أي التوسط بين التبذير والتقتير^(٤)، وهو النهج الشرعي له، فالتجاوز على التوسط والإخلال بالحد الشرعي تجاوز، ولذا وصفه ﷺ بالحرام، فالذي يبذر بالمال أو يتصرف فيه زائداً على ما حدده الشرع يكون تصرفاً فيما لا يملك بغير رضا من المالك الحقيقي.

وفي وصية أمير المؤمنين ﷺ لكميل: ﴿يا كميل! البركة في مال من أتى الزكاة وواسى المؤمنين ووصل الأقربين﴾^(٥) والزكاة في الآيات والروايات يراد بها كل حق مفروض في المال، فيشمل الزكاة والخمس والصدقات عموماً، والوجدان والواقع الخارجي شاهد على أن بركة المال تظهر بأداء حقوقه، فإذا لا تعطى تزول بركته، ولا يستمتع به صاحبه كما ينبغي، فضلاً عن السؤال والحساب عند مالك يوم الدين، فإنه يسأل ابن آدم عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن أمير المؤمنين ﷺ: ﴿شر الأموال مال لم ينفق

(١) البحار: ج ١٠٠، ص ١٦، ح ٧٣؛ مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٥٢، ح ١٤٧٢٠.

(٢) مفردات الراغب (مع ملاحظات العاملي): ص ٥٩٧؛ مجمع البحرين: ج ٣، ص ٩٠، (قصد)؛ معجم الفروق اللغوية: ص ٤٣٠، (١٧٢٩).

(٣) سورة لقمان: الآية ١٩.

(٤) مجمع البحرين: ج ٣، ص ٩٠، (قصد).

(٥) تحف العقول: ص ١٧٢؛ البحار: ج ٧٤، ص ٤١٢ - ٤١٣، ح ٣٨.

في سبيل الله منه ولم تؤد زكاته^(١).

مشكلة الضرائب ومشروعيتها

ومنها: أنّ الضرائب التي تضعها السلطات على الناس ليست مشروعة بالاعتبار الشرعي؛ لأنها بلا مبرر مشروع؛ لأنّ دواعي الضريبة لا تخلو من ثلاثة:

الأول: أن تُقدّم السلطة للشعب خدمات تستدعي نفقات تؤمنها من جيوب الناس، وهذا الفرض يصح فيما لو كانت السلطة توزع ثروات البلد على الأهالي، وتأخذ منهم أجور ما تُقدّم من خدمات، وهذا منطقياً معقول، وأما إذا استولت السلطة على الثروات ولم تعطيها للأهالي ورغم ذلك تأخذ منهم مقابل أعمالها فهذا ظلم مضاعف، وأحد أسباب الفقر.

الثاني: أن تُقدّم السلطة خدمات عالية النفقات أكثر من ثروات البلد لتطويره وتحسين معيشة أهله، فتستعين بالأهالي في ذلك، وهذا أمر معقول لكنه مشروط بشروط:

أحدها: أن تكون السلطة كفوءة وموثوقة.

ثانيها: أن يكون للشعب رقابة حقيقية فاعلة على ذلك عبر مؤسسات وفتنات خاصة.

وثالثها: أن يحدد الشعب ما يحتاجه في التطوير والارتقاء عبر خبراء

(١) غرر الحكم: ص ٤٠٨ - ٤٠٩، ح ١٢؛ ينابيع الحكمة: ج ٥، ص ٩٢، ح ٩٤٣٠.

مستقلين عن السلطة، أي أن يكون للشعب لجان استشارية إرشادية ترسم له ما ينفعه وما يضره.

وإن قيل: إنّ مجلس النواب وأمثاله سلطة رقابية وتشريعية.

فالجواب: إنّ هذا يصح لو افترضنا أن مجلس النواب يمثل سلطة مستقلة بالمعنى الدقيق، ويراعي مصالح الشعب لا مصالح السلطة.

فإنّ الديمقراطية وحكومة الشعب التي يزعمها الغرب ومن يسير على نهجه لم تستطع أن تقدم النموذج المثالي لذلك.

الثالث: أن يتعرض البلد إلى ظروف قاهرة لا تنهض بها خزينة الدولة فتضطر إلى طلب معونة الناس بوضع الضريبة، وهذا أمر معقول بشروط:

الشرط الأول: أن تكون الدولة شرعية موثوقة.

الشرط الثاني: أن تكون الضريبة مؤقتة ومحدودة بحدود الحاجة، فترفع بعد انتفائها؛ لأن الجواز من الضرورات التي تقدر بقدرها، فالضريبة استثناء، ولا تجوز بالأكثر من الحاجة وإكراه الناس على الدفع، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام للحكّام: ﴿إنّ هذا المال ليس لي ولك، وإنما هو للمسلمين، وجنا أيديهم لا يكون لغير أفواههم﴾^(١).

الشرط الثالث: أن تكون الحاجة مشروعة لا باطلة، أو ناشئة من خطأ السياسات أو سرقة أو فساد ونحوها.

(١) غرر الحكم: ص ٣٤١، ح ٧٧٩٨.

خلل الديمقراطية والمجالس النيابية

فإن قلت: لكن في الدول الكبيرة في العالم والعريقة في الديمقراطية ما يصلح أن يكون النموذج.

فالجواب: ليس كذلك، فقد تضافرت الشواهد على أن مجالسها لا تعمل لمصالح الشعب فقط، بل لمصالح سياسة الدولة والقوى العاملة فيها، وإذا حصلت منافسة بين أحزابها فإنّ تنافسها لأجل تولي السلطة لا لأجل تقديم البلاد وتحسين حياة الناس، وما أكثر الخطط والوعود التي يقدمها المرشحون للانتخابات ثم يخالفونها.

فالانتخاب وحده ليس ضماناً لاختيار الأفضل، وليس الخيار الكافي لتحقيق مصالح الناس، ولذا نلاحظ بين آونة وأخرى يخرج الناس إلى الشوارع اعتراضاً على سياسات من انتخبوهم؛ لأنهم يجدونهم لا يمثلون رأي الناس وطموحاتهم الواقعية.

ترى هل يمكن القول بأن الشعب الأمريكي يرضى بسياسة أمريكا في أكثر بلاد العالم ولا سيما في بلادنا، أو الشعب الفرنسي أو البريطاني أو غيرهم؟ وهل يمكن القول بأن الاستغلال والاستعمار والحروب والدمار التي تسببها سياسات الغرب والشرق في بلاد العالم هي ما تريدها شعوبها واقعاً؟

ضرورة تطوير الديمقراطية

فلا بد وأن يعيد العالم النظر في الديمقراطية، ويضع ضوابط وموازن أفضل مما عليه اليوم، ولا بد أن يعيد النظر أهل الرأي والقرار في بلادنا

الإسلامية في قوانينهم وأنظمتهم وسياساتهم التي وضعوها ومشوا عليها، فقد أثبتت التجارب أنّها لا تصل ببلادنا ولا بشعوبنا إلى خير، والحل هو الرجوع إلى قوانين الله وتشريعاته، وجعل الضوابط الشرعية هي الحاكمة.

التطوير عبر ثلاثة أصول

ويمكن ذلك عبر ثلاثة أصول:

الأصل الأول: اختيار طائفة من خبراء الشريعة والسياسة والعلوم والفنون لوضع النظام الأفضل الذي يقيم السلطة وفروعها ضمن ضوابط الشريعة والعلم، وهذا أمر قد يستبعده البعض ويراه مثالياً لا واقعياً لكن الاستبعاد غير صحيح. نعم مسافته طويلة، ولكن يمكن الشروع به عبر مراحل اللازمة حتى تصل إلى النهاية، فإنّ رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.

وما تضعه اللجنة يكون الدستور الحاكم، وتتكون من أهل الخبرة الأمانة لا أعضاء مجلس النواب بحسب المتعارف عليه عادة.

الأصل الثاني: جعل الانتخابات شعبية لا نخبوية، بمعنى أن الشعب يضع لجنة لاختيار الصالحين للترشيح ضمن ضوابط، فإنّ الناس أعرف ببعضهم، وهم يختارون من يمثلهم. أمّا الهيئات التي تضعها السلطة فإنها غير مأمونة الاستقلالية، فلا يمكن للسلطة أن تدير العملية الانتخابية وهي التي تضع ضوابط المرشحين وتضع آلية الانتخاب.

الأصل الثالث: إيجاد هيئة من الفقهاء المشهود لهم بالفقاهة والاعتبار يرجع إليها في سياسات الدولة ومقرراتها لكي تصادق على ما يوافق الشريعة وتردّ ما يخالف، وفي عين الحال يكون لها جهة الرقابة على التنفيذ، وهذا

يمكن ضمان واقعية السلطة وتمثيلها لرأي الشعب وحكم الله سبحانه.

الدولة الدينية والمدنية

وإن قيل: إن هذا معناه أن تكون السلطة دينية لا مدنية.

والجواب: أن التفريق بين السلطة الدينية والمدنية غير دقيق، وأكثر من نادى بهذا لم يدركوا حقيقة هذا القول فتوهموا بأن الدين ينافي المدنية، ولم يقرؤوا الدين ولم يعرفوا حدوده وضوابطه. إن الدين مدني في أصوله وفروعه.

هل دولة الأنبياء دينية أم مدنية؟

فهل النبي المصطفى ﷺ كَوّن دولة مخالفة للمدنية؟ أم أمير المؤمنين ﷺ؟ أم يوسف وسليمان وداود عليهم السلام؟ كلا إن المدنية لا تكون سعيدة ومرفهة إلا في ظل الشريعة وأحكام الدين، وفي الحديث عن أمير المؤمنين ﷺ: ﴿صَيَّرَ الدِّينَ حَصْنَ دَوْلَتِكَ، وَالشُّكْرَ حَرْزَ نِعْمَتِكَ، فَكُلْ دَوْلَةَ يَحُوطُهَا الدِّينُ لَا تَغْلِبْ، وَكُلْ نِعْمَةً يَحْرُزُهَا الشُّكْرُ لَا تَسْلُبُ﴾^(١) لاجتماع الأسباب المادية والمعنوية في تقويمها.

وفي الحديث النبوي: ﴿لَمْ نَبْعَثْ لِمَالٍ وَلَكِنْ بَعَثْنَا لِإِنْفَاقِهِ﴾^(٢) وإنفاقه يكون في عمارة الأرض ورفاه أهلها، ففي الحديث العلوي في وصيته للحكام وجبة المال: ﴿وَلَيْكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ

(١) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٣، ح ٧٨٦٣.

(٢) مشكاة الأنوار: ص ٣٢١، ح ١٠١٨.

نظرك في استجلاب الخراج^(١).

فإنَّ الخراج الحق الشرعي على الأرض، فلا ينبغي أن يكون اهتمام الحاكم بجلب مالها، بل إعمارها وإظهار خيرها، فالدين يحارب الفساد والظلم والمنكر، وهل هناك من يقبل بشيوع وسائل الدمار الفكري والروحي والاجتماعي في البلد؟ إنَّ الظلم والفساد والمنكرات عوامل هدم في المجتمعات، فمن يا ترى يرتضيها؟ فإذا يريد من يطالب بالدولة المدنية الدولة التي تنشر الظلم والفساد فليعرف أنَّه يطالب بما يخرب البلد، وأن هذا ما يسعى له الأعداء، وإذا يريد الدولة التي تقضي على الظلم والفساد فليست إلا الدولة التي تحتكم بأحكام الله سبحانه، وأكثر دول العالم اليوم بحسب معيار مصطلح المدنية هي دول مدنية، فهل استطاعت أن تأتي للناس بالخير والسعادة والرفاه؟ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لا تنفك المدنية من شر حتى يجتمع مع قوة السلطان قوة دينه وقوة حكمته﴾^(٢).

فهي أركان ثلاثة للمدنية الراقية بأفكارها ومبادئها لا ينفك أحدها عن الآخر.

خلل الدولة المدنية

إنَّ الدولة المدنية اليوم على قسمين: دول مدنية خربت بلادها وأهلها بالحروب والاستعمار، ودول مسالمة في سياستها عمّرت بلادها لكنها ما

(١) نهج البلاغة: ج ٣، ص ٩٦، الكتاب ٥٣؛ البحار: ج ٣٣، ص ٦٠٦، ح ٧٤٣؛ تحف العقول: ص ١٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٢٥٨، ح ٢٩.

استطاعت أن تبني الإنسان الكامل السعيد، وعلى فرض وجود بعض الدول قد حققت في ذلك بعض الإنجاز فلائها أخذت بما قرره الباري عزَّ وجلَّ للبشر وإن لم تلتفت إليه أو التفتت ولم تصرِّح به، فبمقدار ما يأخذ الناس بأحكام الله يسعدون، وبمقدار ما يخالفون ذلك يشقون. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

وبركات السماء الماء والهواء وإجابة الدعاء، وبركات الأرض خيراتها، والفتح يدل على الكثرة والوفرة، وإنما يلاحظ التأخر والانحطاط في بلاد المسلمين مع أنهم أهل إيمان لأنهم لم يأخذوا بأسباب البركة، لأن الآية لم تجعل مدار البركة على الإيمان بل على التقوى، والكثير من المسلمين مؤمنون لكن التقوى قليلة الوجود في شؤون حياتهم أخذاً من الحاكم ونظام الحكم إلى الأسرة والعلاقات الاجتماعية، فما أكثر المعاصي؛ لذا قال تعالى: ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا﴾ وهو تكذيب العمل وإن كانوا في القول يظهرون الإيمان.

السعادة بتعاليم الدين

ويتحصل من هذه الاستفاضة: أن المالك الحقيقي للوجود هو الله سبحانه، فيجب أن يمضي كل شيء على سننه وأحكامه، ولا بد أن تخرج البشرية من أوهامها وتلتفت إلى أنها لا تملك شيئاً في هذا العالم، فلا يمكن أن تسعد وترتقي إذا خالفت أحكام الله وحدوده، وفي الحديث العلوي

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

الشريف: ﴿من جعل ملكه خادماً لدينه انقاد له كل سلطان، ومن جعل دينه خادماً لملكه طمع فيه كل إنسان﴾^(١) وبقوله: ﴿انقاد له كل سلطان﴾ أي كل قوة وقدرة.

وفي ذلك إشارة إلى جميع أهل العلوم والفنون أن الاستجابة لتعاليم الدين تفتح على الناس أسباب المعرفة والارتقاء، بخلاف التخلي عنه فإنه يجعل الناس شرهين. كل منهم يتطلع إلى السلطة ونيل القدرة على حساب الكفاءة.

اللطيفة الثالثة: أصناف الأسماء الحسنى

أن الآية وصفت الخالق بالمالك ليوم الدين، ولدى تتبع الآيات، نجد أن المالك بمفردها لم ترد في أسماء الله سبحانه، والوارد منها (المالك) كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾^(٢) و (المليك) كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(٣) وأما المالك فلم ترد إلا مضافة إلى غيرها مثل: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ﴾^(٤).

وفي النصوص الواردة عن النبي والأئمة عليهم السلام كذلك، ففي دعاء الجوشن مثلاً الذي جمع أسماء الله الحسنى ورد: ﴿يا مالك كل مملوك و: يا مالك الملك و: يا مالكاً غير مملوك و: يا مالك يوم الدين وأما غيره مثل

(١) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٤، ح ٧٨٨٨.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٣.

(٣) سورة القمر: الآية ٥٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

المملك والمملك فوردا مستقلين، كما في الآيتين المتقدمتين، ووارد في جمل وصفية مثل: يا ملكاً لا يزول و: يا من لا ملك إلا ملكه و: يا من ليس له شريك في الملك و: يا من له ملك لا يزول و: يا من ملكه قديم و: يا من هو ملك بلا عزل و: يا من ملك فقدرو: يا من لا يزيد في ملكه شيء ووارد أيضاً يا إله كل شيء ومليكه^(١).

وفي دعاء البهاء الشريف ورد: ﴿اللهم إني أسألك من ملكك بأفخره وكل ملكك فاخر، اللهم إني أسألك بملكك كله﴾^(٢) ويستفاد من ذلك أمران:

الأمر الأول: أن الأسماء الحسنى على قسمين بسيط ومركب، والأول يرد مستقلاً في نفسه، مثل الله والرحمن والرحيم والمملك، والثاني لا يأتي إلا مركباً بنحو الإضافة أو الصفة، مثل أرحم الراحمين أحكم الحاكمين قاضي حوائج المحتاجين، ومثلها (مالك) فإنه لا يرد إلا مركباً كما في الآية.

ولعل السر في ذلك يعود إلى أن (مالك) في نفسه لا يصلح للدلالة على كمال الذات؛ لأنه تعريف بالأعم لوجود مالك غيره، فإن المالك المتصرف في الأشياء المملوكة وهو يشمل الإنسان ولا يتخصص في معناه إلا بالإضافة والصفة. مثل: ﴿مالك يوم الدين﴾ و: ﴿مالك كل مملوك﴾ و: ﴿يا مالكا غير مملوك﴾ وهذه أوصاف يتفرد بها الباري عز وجل.

(١) البلد الأمين: ص ٤١٠؛ زاد المعاد: ص ٤٤١، ح ٩٤؛ البحار: ج ٩١، ص ٣٩٦.
(٢) مصباح المتعجب: ص ٧٦١؛ إقبال الأعمال: ج ١، ص ٢٢٠؛ المصباح (للكفعمي): ص ٦٩٣.

منشأ ملوكية البشر

إن قلت: إن هذا منقوض باسمه (الملك) فإنه ورد بسيطاً مع وجود من يقال له ملك من البشر.

والجواب: أن الملك هو المتسلط على ملكه، القاهر بأمره وحكمه، وهو الملك الحقيقي المتسلط على عرش الوجود بأصنافه وأنواعه والحاكم فيه، وكل ملك آخر غيره فهو ليس بوصف حقيقي وإنها مجازي؛ لأن ملوكية البشر ناشئة من أحد وجهين:

أحدهما: القوة والغلبة القاهرة بالظلم والجور، فملوكيتها ليست واقعية. ثانيهما: الاختيار من قبل الناس، وهي ملكية اعتبارية توجد وتعدم بالاعتبار، ولذا ورد في أسمائه ما يشير الى الملكية الزائفة مثل: (يا ملكاً لا يزول) و: (يا من هو ملك بلا عزل) إشارة إلى أن كل ملك آخر غيره إما يزول بالموت أو يزول ملكه عنه.

ولا يخفى أن مما ينبغي الالتفات إليه أن أسمائه في دعاء الجوشن وردت بصيغتين، ففي كل مورد قال: ﴿اللهم إني أسألك باسمك﴾ ذكر الأسماء البسيطة، مثل (يا الله) (يا رحمان) (يا رحيم) ودعا في الفصل الذي يأتي بعده بالنداء بالصفات لا بالأسماء، فيقول: ﴿يا سيد السادات﴾ ﴿يا محيب الدعوات﴾ ﴿يا رافع الدرجات﴾^(١) وهكذا في سائر الدعاء، فكل فصل يختتمه بقوله: ﴿الغوث الغوث خلصنا من النار يا رب﴾ وقبله يذكر الاسم

(١) المصباح (للكفعمي): ص ٢٤٧؛ البحار: ج ٩١، ص ٣٨٤.

البيسط وبعده يذكر الصفات، وفي هذا دالتان هامتان:

دلالات الأسماء البسيطة والمركبة

الأولى: أن البسائط هي الأسماء الحسنى وهي أسماء أعلام له عز وجل موضوعة بالوضع الشخصي التعبدى، وليس للعباد فيها خيار أو زيادة أو نقيصة لأنها توقيفية، وهي الأخرى ثلاثة أقسام:

أحدها: ما ينبئ عن صفات ذاته كالقادر والعالم والحي.

وثانيها: ما ينبئ عن صفات فعله كالخالق والرازق والمحسن.

وثالثها: ما ينبئ عن ألوهيته مثل المعبود والمشكور والقدوس، وكلها أسماء أعلام له عز وجل باختلاف اللحاظ.

وأما المركبات فهي أوصاف لا أسماء، ويمكن للعباد أن يذكروه بأوصافه.

الثانية: أن الداعي يسأل بأسمائه الحسنى ثم ينادي ويستغيث بأوصافه؛ لأن الاسم واسطة الارتباط ومفتاح وصول الدعاء ومفتاح الإجابة، ومن باب المثال ورد: ﴿اللهم إني أسألك باسمك يا علي يا وفي يا غني...﴾^(١) وفي الفصل الواحد والعشرين ورد: ﴿يا من أظهر الجميل، يا من ستر القبيح، يا من لم يؤاخذ بالجريرة، يا من لم يهتك الستر﴾^(٢) وهكذا سائر الفصول يذكر فصلاً من الأسماء الحسنى وثلاثاً من الصفات، وفي ذلك دلالات وإشارات لأهل المعرفة لا يسعها المجال هنا.

(١) البحار: ج ٩١، ص ٣٨٧.

(٢) البلد الأمين: ص ٤٠٤؛ المصباح (للكفعمي): ص ٢٥٠.

أسماء الأعلام والأوصاف

ويستخلص منها: أن الأسماء الإلهية أعلام وأوصاف، والأول بسائط وهي الأسماء الحسنى وربتها أعلى، والثاني مركبات وهي تسميته بأوصافه، و (مالك) من قبيل الثاني لسبيين:
الأول: ما ذكرناه سابقاً.

والثاني: لأن المالك من صفات الفعل التي تتقوم بوجود المملوك، نظير الخالق والرازق، والمملك ناقص وهو الزائل، وكامل وهو الدائم، فلا يعرف كماله إلا بأوصافه.

وبذلك يظهر وجه الخلل في قول بعض المفسرين بأن المالك وحدها من الأسماء الحسنى^(١). نعم ورد في دعاء المجير: ﴿سبحانك يا ملك تعاليت، يا مالك أجرنا من النار يا مجير﴾^(٢) وهو وارد بعنوان الوصف لا الاسم، وكما يتضح السر في كراهة تسمية الأولاد باسم مالك كما تضافر في النصوص والفتاوى^(٣).

لماذا ورد لفظ مالك؟

الأمر الثاني: أن الآية المباركة خصت ذكر (المالك) لا (المَلِك) ولا المليك لأنه أوفق بغرض الآية، فإن المالك هو القادر على التصرف في مملوكه على

(١) تسنيم: ج ١، ص ٤٣٨.

(٢) المصباح (للكفعمي): ص ٢٦٨.

(٣) التهذيب: ج ٧، ص ٤٣٩، ح ١٧١٥؛ الوسائل: ج ٢١، الباب ٢٨ من أبواب أحكام الأولاد، ص ٣٩٨، ح ٢٧٣٩٩.

وجه ليس لأحد منعه منه، ولكن ليس بالضرورة ينفذ أمره فيه، فقد يكون المالك ممنوعاً من التصرف شرعاً كالمحجور عليه، أو عقلاً كالمغضوب منه، أو كلاهما كالمجنون، والملك المتصرف في الجمهور بالأمر والنهي، ويختص بسياسة الناطقين، فلا يقال لملك الأشياء غير الناطقة إنه ملك عليها إلاّ تجوزاً^(١)، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ﴾^(٢) ولم ينسب إلى غيرهم في القرآن، ولازمه وجود القدرة الواسعة على المقدور مع نفوذ أمره فيه، والنسبة بين المالك والملك هي العموم من وجه؛ إذ قد يكون الملك غير مالك، مثل ملك الروم بالقياس إلى الرب فإنه ملك ولكن لا يملكهم^(٣)، والملك في بعض البلاد الدستورية فإنه اسم رمزي ووصف لصاحب السلطة العليا دون أن يمتلكها، ولذا قد يسلب عنه، وقد يكون مالكاً غير ملك وهو كثير، فأنت تملك الدراهم ولا يقال لك ملك الدراهم، ويعززه الإطلاق العرفي، فإنهم يقولون ملك العصر الفلاني ولا يقولون مالك العصر الفلاني؛ لأنّ دلالة المالك أعمّ من الملك، فإنّ إثبات الملوكية لشخص في عصر لا ينفي ما عداه، بخلاف إثبات المالكية^(٤).

(١) انظر مفردات الراغب: ص ٧٧٤، (ملك)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٨٨٦، (ملك).

(٢) سورة الناس: الآيتان ١ و ٢.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص ٤٧٣، (١٩٠٠).

(٤) انظر تفسير الميزان: ج ١، ص ٢٥.

بين المالك والملك والمليك

كما أنَّ المالك يقال لكل قادر، فيقال لله: (مالك السموات والأرض) أمَّا ملك لا يقال إلَّا إذا كان مَنْ تحت السلطة عاقلاً، كالإنس والجن والملَّك، ولَمَّا كان جيش سليمان ﷺ ومملكته وقدرته تتسع للحيوان والجماد قال: ﴿مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾^(١) ولم يقل مملكة سليمان، بينما بلقيس كانت نافذة القدرة على البشر وصفها بالملكة؛ إذ قال الهدهد في إخباره عنها: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) وكذا وصف طالوت بأنه ملك لمحدودية ملكه بالعقلين.

والمليك صاحب الملك، ومليك الخلق ربهم ومالكهم^(٣)، وهو من صيغ المبالغة، مثل سميع وعليم بمعنى فاعل إلَّا أَنَّهُ يتضمن الكثرة ولا يقتضي مملوكاً، وإنَّما يراد به إثبات سعة الصفة له^(٤)، وكلها مأخوذة من المُلْك والمِلْك والملَّك وهو القدرة والسلطان، فملك الله سبحانه سلطانه وعظمته، وأصله احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به^(٥)، إلَّا أَنَّهُا تختلف من حيث الدلالة من جهتين:

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النمل: الآية ٢٣.

(٣) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٨٨٦، (ملك).

(٤) معجم الفروق اللغوية: ص ٥١٣، (٢٠٧٥).

(٥) لسان العرب: ج ١٠، ص ٤٩٢، (ملك)؛ وانظر المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٨٨٦، (ملك).

الأولى: صيغة الجمع، فإنَّ جمع مُلِكٍ مُلكاء، وجمع الملك ملوك وأملاك، وجمع المالك مُلْكٌ ومُلَّاكٌ^(١)، واختلاف الجمع من وجوه بيان الفرق الدلالي بين المفردات المشتركة في المادة، مثل (أمر) الذي يتميز معناه بصيغة جمعه، فإنَّ الأمر بمعنى الطلب جمعه (أوامر) وبمعنى الشأن جمعه (أمور).

الثانية: أنَّ غاية يوم القيامة هو الحساب والثواب والعقاب، وهذا يتطلب وجود أمور:

أحدها: وجود إحاطة علمية للمالك بالمملوك.

ثانيها: وجود سلطة وقدرة على الحساب والعقاب.

ثالثها: وجود قدرة وغنى على الثواب، وهذا يفيد (مالك) لا ملك؛ لأنَّ الملك قد لا يملك ولا يقدر، ولا يفيد المليك لأنَّه قد لا يعقل، فالمالك هو القادر المتصرف في مملوكه، ولكن حيث إنَّ المالك وحده مفهوم عام خصصته الإضافة إلى يوم الدين فقال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾، وبها أفاد أنَّ ملكيته حقيقية ثابتة ودائمة لا تضعف ولا تزول في جميع العوالم والنشآت؛ لأنَّ من يملك ختم العالم وختامه يملك مبدأه.

اللطيفة في مالك

وهناك إشارة لطيفة أخرى في مالك مفقودة في غيرها، وهي الإشارة إلى اللطف والرفق في المعاملة، فإنَّ المالك حينما يتصرف في الشيء فإنَّه يكون أرق في تصرفه من الملك؛ لأنَّ الملك فيه جهة الشدة والقوة، أمَّا المالك فيه جهة

(١) لسان العرب: ج ١٠، ص ٤٩٢، (ملك).

الرأفة والرحمة، ويعضده السياق؛ إذ وردت الآية بعد بيان الربوبية بصفتيها الرحمانية والرحيمية ليلفت قلوب عباده إلى رحمته، وأنها ملازمة لهم في جميع العوالم فلا تغلبهم دهشة أو خوف في يوم القيامة ما داموا على الإيمان.

وفي الأمالي عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته﴾^(١) ورحمته تسع الجميع، ويجعل لرحمته مظاهر أعظمها محمد وآل محمد عليهم السلام، فهم رحمة الله الواسعة.

ما قالته فاطمة لأبيها عليها السلام

فقد روى الصدوق في الأمالي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿قالت فاطمة لرسول الله صلّى الله عليه وآله: يا أبتاه! أين ألقاك يوم الموقف الأعظم ويوم الأهوال ويوم الفرع الأكبر؟ قال: يا فاطمة! عند باب الجنة ومعني لواء الحمد، وأنا الشفيع لأمتي إلى ربي. قالت: يا أبتاه! فإن لم ألقك هناك. قال: القيني على الحوض وأنا أسقي أمتي. قالت: يا أبتاه! فإن لم ألقك هناك. قال: القيني على الصراط وأنا قائم أقول: ربي سلّم أمتي قالت: فإن لم ألقك هناك. قال: القيني على شفير جهنم أ منع شررها ولهبها عن أمتي، فاستبشرت فاطمة بذلك﴾^(٢).

والمؤمن يشفع في الآخرة لحميمه إلا أن يكون ناصبياً، ولو أن ناصبياً شفع له كل نبي مرسل وملك مقرب ما شفّعوا، كما ورد عن

(١) الأمالي (للصدوق): ص ٢٧٤، ح ٣٠١؛ البحار: ج ٧، ص ٢٨٧، ح ١؛ سفينة البحار: ج ٣، ص ٣٣٣.

(٢) الأمالي (للصدوق): ص ٣٥٠، ح ٤٢٢؛ البحار: ج ٨، ص ٣٥، ح ٦؛ حق اليقين: ص ٤٥٣.

الصادق عليه السلام ^(١)، والعالم يشفع لمن يأخذ منه العلم والأدب، وهذا من سعة رحمة الله، ففي العلل عن الصادق عليه السلام قال: ﴿إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقف بين يدي الله عز وجل قيل للعابد: انطلق إلى الجنة، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم^(٢) .

والناس يفيد السعة والشمول لكل من أخذ منه مباشرة أو تأثر به واقتدى، أو أخذ منه بالوسائط، ولا يختلف فيه من وافقه الرأي ومن خالفه، بل حتى مجالس العالم التي يذكر فيها الله سبحانه ويعلم فيها معالم الدين لها أثرها البالغ في الآخرة.

عظمة مجالس العالم

فقد ورد عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: ﴿إنّ الملائكة يَمرون على خلق الذكر فيقومون على رؤوسهم، ويبكون لبكائهم، ويؤمنون لدعائهم، فإذا صعدوا إلى السماء يقول الله تعالى: يا ملائكتي! أين كنتم -وهو أعلم- فيقولون: يا ربنا! إنّنا حضرنا مجلساً من مجالس الذكر، فرأينا أقواماً يسبحونك ويمجدونك ويقدّسونك ويخافون ناركَ. فيقول الله سبحانه: يا ملائكتي!... أشهدكم أنّي قد غفرت لهم، وآمنتهم مما يخافون، فيقولون: ربنا إنّ فيهم فلاناً وإنّه لم يذكركَ، فيقول: قد غفرت له بمجالسته لهم، فإن

(١) ثواب الأعمال: ص ٢١١؛ حق اليقين: ص ٤٥٥.

(٢) علل الشرائع: ج ٢، ص ٣٩٤، ح ١١؛ البحار: ج ٢، ص ١٦، ح ٣٦؛ حق اليقين: ص ٤٥٣.

الذاكرين من لا يشقى بهم جليسهم^(١).

وهنا تظهر أهمية حضور مجالس العلم والعلماء، ومجالس الذكر وبركتها على عاقبة الإنسان ومصيره، فإن ذكر الله يكفي المهمات طراً وعن النبي ﷺ قال: ﴿قال الله تعالى يا بن آدم! اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما أهمك﴾^(٢) وبهذا يفتح النبي ﷺ باباً لكل من يريد الخير في حياته.

مجالس الذكر

ومجالس الذكر كثيرة أهمها ثلاثة:

١ - مجالس قراءة القرآن والدعاء.

٢ - مجالس الحسين عليه السلام.

٣ - مجالس العلم والعلماء.

وكل من يحضر هذه المجالس ينال الكثير من الخير، ومنها حسن العاقبة ونيل الأمان، وفي هذا توجيه للشباب وغيرهم أن لا يغيبوا عن هذه المجالس فإنهم يحرمون أنفسهم من الخير، فإن الحضور فيها تكمل نواقص الإنسان في الفكر والأخلاق والخير والبركات، ولذا قال: ﴿فإن الذاكرين من لا يشقى بهم جليسهم﴾^(٣).

(١) عدة الداعي: ص ٢٤١؛ مشكاة الأنوار: ص ٣٨٠؛ ينابيع الحكمة: ج ٢، ص ٤٠٤ - ٤٠٥، ح ٣٧٥٤.

(٢) الأمالي (للصدوق): ص ٣٩٨، ح ٥١٤؛ ثواب الأعمال: ص ٤٦؛ عدة الداعي: ص ٢٤٢؛ البحار: ج ٨٣، ص ٢٩٧، ح ٥٢.

(٣) انظر عدة الداعي: ص ٢٤١؛ مشكاة الأنوار: ص ٣٨٠؛ ينابيع الحكمة: ج ٢، ←

اللطيفة الرابعة: المالكية صفة فعل أم ذات؟

يتضح من مجموع النصوص والبراهين العقلية وما ورد في اللغة أنّ المالكية تعود إلى الخالقية، وهي الأخرى تعود إلى القدرة الإلهية، وبهذا الاعتبار تكون المالكية من صفات الفعل، كما أشارت إليه الآية، ولكن يستفاد من بعض النصوص الأخرى أنّ المالكية سابقة على القدرة، والقدرة متفرعة عنها، ولازمه أن تكون من صفات الذات، ومعناها أن كل ما سواه في قبضته وسلطته فهو قادر لأنه مالك، وهو ما يقضي به العقل؛ إذ لولا مالكيته للأشياء لكان تصرفه فيها لا يخلو إمّا أن يكون ممتنعاً تكويناً أو تشريعاً. أمّا الأول فباطل؛ لاستلزامه محدودية قدرته، وأمّا الثاني فلاستلزامه التصرف في غير ما يملك، وهو باطل من وجهين:

أحدهما: يستلزم الإقرار بوجود مالك غيره، وهو يقتضي وجود خالق غيره. وثانيهما: تناقض التشريع، وأباح للناس التصرف فيما لا يملكون، ولذا ورد في دعاء سيد الشهداء عليه السلام في يوم عرفة: ﴿يا من ملك فقدر، وقدر فقهر﴾^(١) ففرّع القدرة على الملك، وورد أيضاً: ﴿سبحانك من ملك ما أمنعك﴾^(٢) وهو ظاهر في قوة ملكه وعظمته في ذاته، وأنّه من الصفات القديمة لا الحادثة، ويعززه ما في دعاء الصحيفة السجادية: ﴿اللهم يا ذا

→

ص ٤٠٥، ح ٣٧٥٤.

(١) إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٨٥؛ البلد الأمين: ص ٢٥٧.

(٢) الصحيفة السجادية: ص ٣١٨.

الملك المتأبد بالخلود، والسلطان الممتنع بغير جنود.. واستعلى ملكك علوا سقطت الأشياء دون بلوغ أحد^(١).

مراتب الملكية

ووجه الجمع بينهما أن يقال إنّ الملكية لها ثلاث مراتب:

الأولى: المملكية، وهي صفة الذات الإلهية، وهي صفة حقيقية باعتبار المحيط بكل شيء.

الثانية: الملكية، وهي صفة الذات باعتبار تسلطه واستيلائه على عرش القدرة.

الثالثة: الملكية، وهي صفة الفعل باعتبار نفوذ أمره وسلطانه في الأشياء. والآية المباركة ناظرة إلى الرتبة الثالثة، وما ورد في الأدعية الشريفة ناظر إلى الرتبة الأولى والثانية، وجميعها ملازمة للقدرة في رتبتيها: القدرة الذاتية وهي صفة القدرة التي هي عين الذات، والقدرة الفعلية وهي نفوذ سلطته في الأشياء.

مفهوم الملكية عند المفسرين

وبهذا ينحل الخلاف الواقع بين أهل اللغة وبعض المفسرين في تعريف الملكية، فقد انقسموا على قولين:

أحدهما: عرّفها بالقدرة على التصرف في المملوك، فالملك هو القادر على

(١) الصحيفة السجادية: ص ١٦٨.

ذلك وليس لأحد منعه منه ^(١).

وثانيهما: عرّفها باحتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به، فالمالك هو الذي يحوز الشيء ويقدر على التصرف به ^(٢).

فإن كلا التعريفين يستعينان بالقدرة لتعريف المالكية، فهو المعنى الجامع الذي يتفق عليه الاثنان سوى أنّ الأول ناظر إلى صفة الفعل والثاني ناظر إلى صفة الذات.

اللطيفة الخامسة: آل محمد ﷺ مظهر مالكية الله تعالى

قد يتساءل البعض عن وجه الجمع بين الأدلة المتواترة نقلاً والبراهين المتضافرة عقلاً الدالة على أنّ مرجع العباد في يوم القيامة إلى محمد وآل محمد ﷺ، وأنّ حسابهم عليهم، وبين الآية الشريفة الدالة على أنّه سبحانه مالك يوم الدين. قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ^(٣).

والإياب الرجوع، وضمير الجمع يفيد الرجوع إلى جماعة، وإنّ الحساب كذلك يكون على أيديهم، ولا يعقل أن يكون ذلك إلى الله سبحانه؛ لأنه ليس في مكان ولا في جهة ولا تراه العيون، فلا بد وأن يكون له خلفاء يمثلون أمره ونهيه وحكمه وإرادته، ويجب أن يكون المحاسب من كان حجة على

(١) التبيان: ج ١، ص ١٠٤؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٥٩؛ الجامع لأحكام القرآن: ج ١، ص ١٤٤؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ٢١٥.

(٢) مواهب الرحمن: ج ١، ص ٣٨؛ مناهج البيان: ج ١، ص ١٢١؛ انظر تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٨٧.

(٣) سورة الغاشية: الآيتان ٢٥ و ٢٦.

الناس في الدنيا والمطلع على أسرارهم وخفاياهم، والذي مثل أمر الله ونهيه لا غيره، وليس إلا محمداً وآل محمد عليهم السلام، ولا يعقل أن يكون غيرهم؛ لأنَّ الغير إن كان فلا يخلو إمَّا أن يكون مساوياً لهم أو أدنى أو أعلى منهم، وقد تضافرت الأدلة النقلية والعقلية على عدم وجود من هو أعلى منهم فضلاً عن المساوي، فالخلق كلهم دون فضلهم ومقامهم بما فيهم الأنبياء والملائكة، فالآية المباركة أثبتت الكبرى، والعقل والنقل يتفقان على الصغرى ^(١).

منظومة الشهادة والشفاعة في الآخرة

ولهذا النظام رأس هو أعلاه، ثم سلسلة مراتب لكل مرتبة وظيفة ومهمة إلهية تكوينية وتشريعية. قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ ^(٢) وقد ورد بطرق الفريقين أنَّ الشهداء هم أهل البيت عليهم السلام ^(٣)، وشهادة الرسول عليهم تفيد وجود نظام وتسلسل مراتب، فالحاكم الأول في القيامة هو رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعده أمير المؤمنين عليه السلام، ثم ذريته الطاهرة، ثم يأتي بعض أفاضل شيعتهم وخواصهم، ثم الأنبياء والأولياء والعلماء والشهداء والصالحون من عباد الله. كل منهم له مقام الشهادة والشفاعة، ولفاطمة الزهراء عليها السلام مقام عظيم تشفع فيه لشيعتها ومحبيها، بل تطفمهم من النار ^(٤).

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج ١٤، ص ٢٥٨، ح ٣٦٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٣) الكافي: ج ١، ص ١٩٠، ح ١، ح ٢؛ شواهد التنزيل: ج ١، ص ٩٢؛ انظر إحقاق الحق: ج ١، ص ٥٥٣.

(٤) تفسير فرات: ص ٣٢٢؛ مناقب آل أبي طالب: ج ٢، ص ١١٠.

ويتلخص: أن قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يفيد فعلية الملك والقدرة على التصرف في المملوك دون مانع، والله سبحانه هو المالك الحقيقي لكل المخلوقات، وله في يوم القيامة خلفاء يمثلون مالكيته وقدرته وحكومته في الخلق، فيحاسبون الناس على ما قدّموا وأخروا وهم محمد وآل محمد ﷺ، ومالكيته تعود إلى الأقسام الثلاثة للملكية، فهي ملكية وهبية باعتبار أنّ الله سبحانه اصطفاهم وفضلهم على خلقه، وجعلهم الحجاج والسادة والقادة والخلفاء في أرضه وهي ملكية خلقية باعتبار أنّهم وسائط التقدير الإلهي إلى الخلق، وأنّهم السبب المتصل بين الخالق والمخلوق، وهي ملكية جعلية اعتبارية؛ لأنّ الله سبحانه نصبهم حكاماً على الناس منهم بدؤوا، وبهم اهتموا، وإليهم يعودون.

وهذه الحقيقة تؤكدها الروايات الشريفة، ففي حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللَّهُ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ لِفَصْلِ الْخُطَابِ. دَعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَعَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَيَكْسِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَّيَ عَلَيْهِ وَآلَهُ حُلَّةَ خُضْرَاءَ تَضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَيَكْسِي عَلِيَّ عليه السلام مِثْلَهَا، وَيَكْسِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُلَّةَ وَرْدِيَّةٍ يَضِيءُ لَهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَيَكْسِي عَلِيَّ عليه السلام مِثْلَهَا... ثُمَّ يَدْعَى بَنَاءً فَيَدْفَعُ إِلَيْنَا حِسَابَ النَّاسِ، فَنَحْنُ وَاللَّهُ نَدْخُلُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَدْعَى بِالنَّبِيِّينَ ﷺ فَيَقَامُونَ صُفُوفَيْنِ عِنْدَ عَرْشِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى نَفْرَغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، فَإِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِيّاً فَأَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَزَوَّجَهُمْ، فَعَلِيَ وَاللَّهُ الَّذِي يَزُوجُ أَهْلَ الْجَنَّةِ

في الجنة، وما ذاك إلى أحد غيره كرامة من الله عز ذكره له، وفضلاً فضله به، ومن به عليه، وهو والله يدخل أهل النار النار، وهو الذي يغلق على أهل الجنة إذا دخلوا فيها أبوابها؛ لأن أبواب الجنة إليه وأبواب النار إليه^(١).

ولعل سرّ الحلتين الخضراء والوردية يعود إلى أثر الألوان، فاللون الأخضر علامة الحياة والسيادة، والوردي علامة المحبة والأمن، وفي ذلك دلالة على أنهما السيدان في الآخرة، والأئمة عليهم السلام يباشرون الحساب عنهم، وأمير المؤمنين يباشر ختم الحساب، ويعطي لكل منزله ومكانته في الجنة والنار، وهو مقام تكريم وتعظيم له ليظهر للمؤمن الذي جاهد كثيراً بولايته أثر ولايته، ويظهر للمخالف أثر تخليه عنها، وتزويجه لأهل الجنة يشمل الاخوان الذين يرافقونه فيها كما سيتضح من رواية زيد الشحام القادمة، كما يشمل النساء والخوريات اللاتي تختص به.

وقريب منه ورد في حديث جابر الجعفي عن الإمام الباقر عليه السلام^(٢).

حساب الناس عليهم

وحديث سماعة عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: كنت قاعداً مع أبي الحسن الأول عليه السلام والناس في الطواف في جوف الليل. فقال: «يا سماعة! إلينا إياب هذا الخلق وعلينا حسابهم، فما كان لهم من ذنب بينهم وبين الله عز وجل حتمنا على الله في تركه لنا فأجابنا إلى ذلك، وما كان بينهم وبين الناس

(١) الكافي: ج ٨، ص ١٥٩، ح ١٥٤؛ البحار: ج ٢٧، ص ٣١٦، ح ١٤.

(٢) الكافي: ج ٨، ص ١٥٩، ح ١٥٤؛ البحار: ج ٢٧، ص ٣١٦، ح ١٤.

استوهبناه منهم وأجابوا إلى ذلك، وعوضهم الله عزَّ وجلَّ^(١).

حال الشيعة في الحساب

ويستفاد من متواتر الروايات أنَّ للشيعة والموالين خصوصية خاصة في الحساب، وهي النجاة و ضمان الجنة، ففي حديث داود بن سليمان عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه الكرام عليهم السلام عن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَلِينَا حِسَابَ شِيعَتِنَا، فَمَنْ كَانَتْ مَظْلَمَتُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَكَمْنَا فِيهَا فَأَجَابْنَا، وَمَنْ كَانَتْ مَظْلَمَتُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ اسْتَوْهَبْنَاهَا فَوَهَبْتُ لَنَا، وَمَنْ كَانَتْ مَظْلَمَتُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَنَا كُنَّا أَحَقَّ مِنْ عَفَا وَصَفَحَ﴾^(٢) وقريب منه ورد في حديث عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام^(٣)، ورواية القمي عن الصادق عليه السلام^(٤)، وكذا عن الباقر عليه السلام^(٥)، ورواية جميل بن درّاج عن الكاظم عليه السلام^(٦).

وفي رواية زيد الشحام قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: ﴿يَا زِيدُ! جَدِّدِ التَّوْبَةَ وَأَحْدِثِ عِبَادَةَ. قَالَ: قُلْتُ: نَعَيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي؟ قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا زِيدُ! مَا عِنْدَنَا لَكَ خَيْرَ وَأَنْتَ مِنْ شِيعَتِنَا. إِلَيْنَا الصِّرَاطُ وَإِلَيْنَا الْمِيزَانُ، وَإِلَيْنَا

(١) الكافي: ج ٨، ص ١٦٢، ح ١٦٧؛ البحار: ج ٨، ص ٥٧، ح ٧١.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٥٧، ح ٢١٣؛ البحار: ج ٦٥، ص ٩٨، ح ١.

(٣) الأُمالي (للطوسي): ص ٤٠٦، ح ٩١١؛ البحار: ج ٨، ص ٥٠، ح ٥٤.

(٤) انظر تفسير كنز الدقائق: ج ١٤، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٥) تنظر تفسير كنز الدقائق: ج ١٤، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٦) المصدر نفسه.

حساب شيعتنا، والله لإنا لكم أرحم من أحدكم بنفسه، يا زيد! كأني أنظر إليك في درجتك من الجنة ورفيقك فيها الحارث بن المغيرة النصري^(١).

وفي حديث صفوان الجمال قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام قلت: جعلت فداك سمعتك تقول: شيعتنا في الجنة وفيهم أقوام مذنبون، يرتكبون الفواحش، ويأكلون أموال الناس، ويشربون الخمر، ويتمتعون في دنياهم، فقال عليه السلام: «هم في الجنة. أعلم أن المؤمن من شيعتنا لا يخرج من الدنيا حتى يبتلى بدَيْن أو بسقم أو فقر، فإن عُفي عن هذا كله شدد الله عليه في النزاع عند خروج روحه حتى يخرج من الدنيا ولا ذنب عليه» قلت: فداك أبي وأمي فمن يرد المظالم؟ قال: «الله عز وجل يجعل حساب الخلق إلى محمد وعلي عليهما السلام، فكل ما كان على شيعتنا حاسبناهم مما كان لنا من الحق في أموالهم، وكل ما بينه وبين خالقه استوهبناه منه، ولم نزل به حتى ندخله الجنة برحمة من الله، وشفاعة من محمد وعلي عليهما السلام^(٢).

وتضمنت دلائل عديدة لا يسعها المجال.

شفاعة النبي ﷺ

وهناك مقام خاص آخر يناله بعض الشيعة، وهو شفاعة النبي ﷺ خاصة، ولعل سياقها يفيد أن هذا المقام لأهل الكبائر والمعصيات الكبيرة حتى أن النبي ﷺ يتدخل في إنقاذهم.

(١) رجال الكشي: ص ٢٨٦؛ البحتر: ج ٦٥، ص ١١٤، ح ٣٠.

(٢) البحار: ج ٦٥، ص ١١٤، ح ٣٣؛ الفضائل (لابن شاذان): ص ٢٢٤، ح ١١٨٥.

ففي حديث قبيصة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(١) قال: ﴿فينا التنزيل﴾ قال: قلت: إننا أسالك عن التفسير؟ قال: ﴿نعم يا قبيصة إذا كان يوم القيامة جعل الله حساب شيعتنا علينا، فما كان بينهم وبين الله استوهبه محمد عليه السلام من الله، وما كان فيما بينهم وبين الناس من المظالم آذاه محمد عليه السلام عنهم، وما كان فيما بيننا وبينهم وهبناه لهم حتى يدخلوا الجنة بغير حساب﴾^(٢).

ويتحصل من كل ما تقدم: أنَّ العقل والنقل متضافران على أنَّ المالك ليوم القيامة اثنان: المالك الذاتي وهو الله سبحانه، والمالك الامتدادي وهو خليفة الله في أرضه وحجته على عباده وهم محمد وعلي وعترتهما الطاهرة عليهم السلام، وهم الذين يباشرون الحكم والحساب في الآخرة، فهنيئاً لمن كان أولياؤه شهداءه وشفعاءه، فإنه يحشر معهم ويكون منهم.

وهذا ما ورد في تفسير العياشي عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿دخل مروان بن الحكم المدينة فاستلقى على السرير وثم هناك مولى للحسين عليه السلام فقال: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾^(٣) فقال الحسين عليه السلام لمولاه: ماذا قال هذا حين دخل؟ قال: استلقى على السرير فقرأ: ﴿رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ...﴾ قال فقال الحسين عليه السلام: نعم

(١) سورة الغاشية: الآيتان ٢٥ و ٢٦

(٢) تفسير فرات: ج ١، ص ٥٥٢؛ البحار: ج ٧، ص ٢٠٣، ح ٨٩.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٦٢.

والله رُدِدْتُ أنا وأصحابي إلى الجنة ورُدَّ هو وأصحابه إلى النار ﴿١﴾ .

اللطيفة السادسة: لماذا مالك اليوم لا الدين؟

في قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ يرد سؤال أنّ الله سبحانه مالك الزمان وجميع الأيام فلماذا خصص يوم الدين بالذكر ولم يقل مالك الدين؟ وربما يتصور البعض أنّ مالك الدين أنسب بالذكر لبيان زيف كل الأديان والاتجاهات والمذاهب إلّا دين الله؛ لأنّه من الله سبحانه.

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنّ الدين بمفرده ظاهر فيما يتدين به الإنسان، ويشمل العقيدة والشريعة، ولا يدل على يوم القيامة، وإذا دل عليه فهو من باب الدلالة التضمنية أو التلازمية باعتبار أنّ الدين يشتمل على الإيمان بالمبدأ والمعاد، فلا يطلق الدين على يوم القيامة إلّا من باب المجاز من باب إطلاق لفظ العام وإرادة الخاص، وعلى فرض استعماله كذلك فإنه يستوجب ذكر القرينة؛ لأنّ استعمال اللفظ في غير معناه قبيح بلا قرينة، والقرينة الدالة على المعاد هي اليوم، فيتعين وجوب ذكر اليوم وقبح التعبير بالدين.

الوجه الثاني: لو قلنا بصحة التعبير بالدين عن يوم القيامة إلّا أنّ القرينة العقلية مانعة لأنّ الدين وحده لا يحقق غرض الآية؛ لكونه مفهوماً عاماً لم يتضح له مبدأ أو منتهى، وهو من نسبة الشيء إلى نفسه؛ إذ لا شك في أنّ

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٦٢، ح ٣٠؛ البحار: ج ٤٤، ص ٢٠٧، ح ٣؛ تفسير كنز الدقائق: ج ٤، ص ٣١٩.

الله سبحانه مالك الدين بمعنى الحكم والقضاء، والآية ليست في مقام بيان هذا المعنى؛ لأنه من توضيح الواضح، وإنما هي في مقام بيان وجود يوم يعود فيه الناس إلى ربهم الذي أنعم عليهم بصنوف النعم والخيرات، وساسهم بالرحمة الرحمانية والرحيمية لكي يحاسبهم على ما قدموا وأخروا، ولذلك ثلاث غايات عظيمة يقوم عليها الدين والحياة:

غايات ذكر يوم الدين

الأولى: إلفات العباد إلى أنهم في حياتهم الدنيا في حال اختبار وامتحان، فلا النعيم فيها دائم، ولا الحرمان فيها دائم، ولا الإنسان دائم، والشيء الدائم الذي يلزم كل البشر وفي جميع الحالات هو الاختبار الإلهي للعباد، وأثره يظهر في يوم يلاقي الإنسان فيه نتائج عمله، ومن مقتضيات الحمد والرحمة الإلهية أنه فوض الإنسان وأعطاه ولاية على نفسه وملكاته وأفعاله وأقواله ثم يحاسبه عليها، ولولا ذلك بطلت حكمة خلق الدنيا وغرض إرسال الرسل وجعل الأحكام والشرائع والثواب والعقاب، وبهذا يتضح أن نظرية الجبر التي يقول بها العامة تتناقض مع حكمة الخلق في التكوين والتشريع.

الثانية: تحذير العباد وتذكيرهم بأنهم تحت الرقابة الإلهية، وأنهم يقاضون على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذا عامل أساس في إكمال نفوسهم وعقولهم وضبط أعمالهم وتهذيبها التي هي الغاية الأساس من بعثة الأنبياء والرسل وإنزال الكتب وتشريع الأحكام والسنن.

وهذا الغرض العظيم لا يتحقق بذكر مالكيته للدين، بل ليوم الدين، ويشهد له دعوة إبراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة دعا بالإسلام والحج والتوبة

والمغفرة، ثم دعا لرسول الله ﷺ، وبيان مهماته الإلهية، التي تدور على وضع النظام الكامل للبشر الذي بدونه لا يبلغ البشر إلى مقام قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١) فرسول الإنسانية من الناس لا من الجن ولا من الملك، وهو من قومه الذين يحيطون بالكعبة وليس غريباً عليهم، وإذا كان من مركز الأرض ومجتمعها كان لجميع الإنسانية بالتبع، ومهماته أربع:

مهمات النبي ﷺ

الأولى: يتلو عليهم آيات الله، والمراد بها الأعم من التدوينية والتكوينية، فإن كل ما في الوجود هو آية من آيات الله تعالى دالة على علم الله وقدرته وحكمته ورحمته، فيتلو عليهم هذه الآيات بالتعليم والإشارة والإرشاد ليفتح عقولهم، وينير أفكارهم، فلا يميلوا إلى يمين أو شمال.

الثانية: يعلمهم الكتاب أي يهديهم إلى القواعد الكلية والأسرار العظيمة في الوجود، والكتاب يشمل الكتاب التدويني والتكويني معاً، فإن القرآن النظام الإلهي الكاشف عن الأسرار والقوانين الإلهية في الخلق والوجود، فهو ليس كتاب عبادة وثواب فقط، وإنما هو منهج إلهي للوجود يعلم ويهدي ويربي، ولو أخذ المسلمون به لبلغوا مقامات عالية في مختلف العلوم والفنون لكنهم أعرضوا عنه، وانخدعوا بما خطط لهم الأعداء من عزل القرآن عن الحياة؛ لذا تأخروا وصاروا يتبعون الشرق والغرب بسياسة مرسومة.

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

الثالثة: ويعلمهم الحكمة، وهي العلوم والمعارف وفن تدبير الأمور ووضع الأشياء في مواضعها من سياسة وإدارة وفنون التوازن والارتقاء.

الرابعة: تزكية النفوس، وهذه هي الغاية الأهم وإليها تعود سائر المهمات والوظائف، فإنّ التعليم والتعلم غايته صناعة الإنسان وتربيته وتهذيبه ليكون كائناً إلهياً لا بشرياً شهوانياً أو شيطانياً.

إذا صار العلم بلا تهذيب

وهذه المهمة لا يقوم بها إلاّ الأنبياء، فإنّ مهمة الأنبياء ليست الصناعات والتقنيات واختراع السيارات والطائرات، بل صناعة الإنسان وتكميله وتربيته؛ لأنّ التربية هي الغاية من كل علم ومعرفة ومنهج، والعلم بلا تربية يقود الإنسان إلى الدمار، واليوم نلاحظ أنّ العالم حينما تطور وفقد التربية تحوّل كل شيء إلى مصالح، حتى حياة الإنسان محكومة بالمصالح الاقتصادية والسياسية وصحته ومناهج تعليمه، وكل شيء في الدنيا صيرّته العلوم الخالية من التربية إلى أداة من أدوات السياسة والاقتصاد؛ لذلك نلاحظ أنّ القرآن يقدّم التربية على التعليم في الكثير من المواضع^(١)؛ لأنّ التربية تأتي بالتعليم المفيد، أمّا التعليم فربما يأتي بالمفيد وغير المفيد، والعقل هو الذي يضع المناهج أولاً ثم يسلك الطريق، وعلم النبي والأئمة يجمع الاثنين معاً، وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿يا مؤمن! إنّ هذا العلم والأدب ثمن نفسك فاجتهد

(١) انظر سورة البقرة: الآية ١٥١؛ سورة آل عمران: الآية ١٦٤؛ سورة الجمعة: الآية

في تعلمهما، فما يزيد من علمك وأدبك يزيد في ثمنك وقدرك، فإنَّ بالعلم تهتدي إلى ربك، وبالأدب تحسن خدمة ربك، وبأدب الخدمة يستوجب العبد ولايته وقربه، فاقبل النصيحة كي تنجو من العذاب^(١).

وفيه إشارتان مهمتان:

الأولى: أنَّ العمل منه مقبول وغير مقبول، والمقبول هو الذي يقرب العبد لربه ويكون بأدب العمل لا بذات العمل.

عظمة الأدب وأثره

الثانية: أن مراعاة الأدب في العبادة والعمل ينجي من عذابين: عذاب الآخرة وعذاب البعد عن الله، وهذا للكاملين أهم من الأول.

وفي حديث آخر يظهر شدة تأثير الأدب على الناس. قال ﷺ: ﴿عليكم بالأدب فإن كنتم ملوكاً بررتهم، وإن كنتم وسطاً - أي أوساط الناس - ففُتْم وإن أعوزتكم المعيشة عشتُم بأدبكم﴾^(٢) أي عشتُم بعزة وكرامة؛ لأنَّ المؤدب لا يذل نفسه لأجل فقره، ويعرّض نفسه للمهانة لأجل اللهفة على الدنيا.

ومن جهة أخرى فإنَّ الناس يحبّون المؤدب فيساعدونه على عزة الحياة بالعمل المناسب والفرص السانحة، فالإنسان الكامل المقترن بالأدب هو الناجي من العذاب، فهذا الغرض العظيم لا يتحقق بهالك

(١) مشكاة الأنوار: ص ٢٣٩، ح ٦٨٩؛ روضة الواعظين: ص ١١؛ البحار: ج ١، ص ١٨٠، ح ٦٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٣٠٤، ح ٤٨٣.

الدين بل بمالك يوم الدين.

الثالثة: إلفات نظر العباد إلى أنّ لكل شيء حداً ومتهى، فللظلم حد ينتهي فيه الظالم ويبقى رهين ظلمه، وللمؤمن الصالح حد تنتهي إليه مجاهداته وصبره على الطاعات ويغتني آثار وخيرات عمله، وهذا من شأنه أن يعطي أهل الإيمان طاقة عظيمة على الثبات والصبر والاستقامة والأمل، وأن وراء كل جهاد ومجاهدة نتائج باهرة، ومن شأنه أن يحذّر أهل الفسق والظلم، فإمّا أن يتوبوا وإمّا أن يخففوا من ظلمهم فيرتكبوا الفاسد دون الأفسد.

وهذه هي الأخرى حكمة عظيمة بها ينتظم أمر العباد، ويسود بينهم الأمن، وتفتح لهم أبواب الأمل للثقة بالعدالة الإلهية.

العدالة الإلهية

الوجه الثالث: أنّ ذكر اليوم يرشد إلى وجود العدالة الإلهية في نهاية المطاف، ويصل كل إنسان إلى حقه، فإنّ الدنيا وإن تضمنت قانون المحاسبة والقضاء والجزاء إلّا أنّ قوانينها وسننها قاصرة عن إيصال كل ذي حق لحقه، فلا بد من وجود يوم تظهر فيه العدالة الإلهية بمعناها المطلق التي أخبر الباري عزّ وجلّ عنها وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١).

وبقوله: ﴿أَحَدًا﴾ أشار إلى عدم وجود استثناء في عدالة الله، فالكل يصل إلى حقه، وهذه حقيقة تعجز عنها عدالة الأرض والإنسان، فإنّها مهما بالغت في الإنصاف تبقى بعض الأفراد والجهات مظلومة ومحرومة.

(١) سورة الكهف: الآية ٤٩.

والظلم هنا بمعناه اللغوي أي نقصان الحق، كما وعد العاملين أنهم ينالون جزاء أعمالهم مهما صغرت. فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١) ويجب أن يكون لرؤية آثار الأعمال وقت وزمان ومكان.

قصور العدالة الدنيوية

وبيان ذلك: أن أهل الدنيا ينقسمون إلى صالحين وطالحين وظالمين ومظلومين، والصالحون حينما يجاهدون أنفسهم، ويقمعون شهواتهم، ويتجنبون المحرمات - وربما يلاقون من أهل الظلم والفساد أذى كثيراً - فإنهم ينالون جملة من الآثار الطيبة في أرزاقهم وسلامتهم البدنية والروحية ومكانتهم الاجتماعية، ويعيشون الأمن وراحة الضمير والأمل بالمستقبل الأفضل، إلا أن هذا أثر وضعي للأعمال في الدنيا، وليس كل ما يستحقونه بحسب الوعد الإلهي، فإن الله سبحانه وعد الذين آمنوا بالجنان والرضوان والحياة الخالدة الأبدية، وحيث لم ينالوا ذلك في الدنيا فلا بد من يوم ينالون ذلك تحقيقاً لوعد الله سبحانه.

والطالحون وعدوا بالشقاء وضنك العيش لكننا في الدنيا نراهم متنعمين يمارسون شهواتهم بما تمليه عليه شياطينهم وليس لهم عناء، وبعض الظالمين منهم من ينتشر ظلمه على كل عباد الله وبلاده، وغاية ما يناله من جزاء في الدنيا هو إسقاطه من السلطة وربما قتله، فهل الذي قتل الآلاف المؤلفة من

(١) سورة الزلزلة: الآيتان ٧ و ٨.

الأبرياء يكون جزاؤه قتلاً واحداً؟ والذي نهب أموال الناس وأفقرهم وأجاعهم وعرضهم للأمراض والمخاطر جزاؤه أن يحبس أو يصادر أو يسترد ماله فقط؟ كلا فإنه لو كان الأمر هكذا لم يكن عدلاً، فلا يمكن أن تكون العدالة الإلهية ظاهرة وحاكمة إلا إذا كان هناك موعد ينتهي فيه العمل، ويبدأ فيه الحساب.

عدالة المهدي عليه السلام

إن قلت: لكنّ المستفاد من الأدلة أنّ العدالة الإلهية تسود الأرض وأهلها في زمان الظهور المبارك لولي الله الأعظم، فكيف يبقى اليهود والنصارى؟ والجواب: أنّ ذلك حق لا شك فيه، لكنّ الأدلة لم تنص على أنّ العدالة تكون مطلقة من كل جهة بحيث لا يبقى ظلم وجور أبداً، فإنّ أكثر الروايات تقول: ﴿يملأ الارض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً﴾^(١) والامتلاء معنى إضافي يختلف من حال لحال، كما أنّه مفهوم عرفي لا يراد به المعنى العقلي الدقيق.

فغاية ما يستفاد من النصوص أنّ العدالة في زمانه المبارك هي الأصل الحاكم في العالم، وينخمد صوت الظلم والفسق والنفاق، ولكن ربما لا ينتهي نهائياً، ويعزز ذلك شاهدان:

الشاهد الاول: الأخبار الدالة على شهادة الإمام عليه السلام على أيدي أهل

(١) كمال الدين: ج ١، ص ٢٨٧، ح ٤؛ إعلام الوری: ج ٢، ص ٢٤٨؛ البحار: ج ٥٢، ص ٢٤، ح ١٦.

الشقاق والنفاق^(١) .

والشاهد الثاني: بعض الآيات الصريحة في بقاء بعض أهل الكتاب على عنادهم واختلافهم إلى يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(٢) في النصارى، وقوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) في اليهود، ونسبة الفعل إلى غيرهم يدل على أنهم وفروا في أنفسهم القابلية والاستحقاق لإيقاع العداوة والبغضاء بينهم، والعداوة الحرب الظاهرة، والبغضاء التنافر الروحي والحقد الدفين.

وفي ذلك إشارة إلى أن الحرب بينهم حقيقية نابعة من حقدهم وضغيتهم على بعضهم، وليس فقط لمصالح سياسية قد تنتهي وتصفو القلوب. وفي الآيتين ثلاث دلائل هامة أخرى:

فرق الإغراء عن الإلقاء

الأولى: أن الإغراء والإلقاء مختلفان في المعنى، فإن الإغراء من غرا أي لصق، وأصله من الغراء وهو ما يلصق به^(٤)، وأُطلق في الآية للإشارة إلى ملازمتهم للعداوة والبغضاء لتعلق قلوبهم بهما، وفي مجمع البيان: المراد

(١) إلزام الناصب: ج ٢، ص ١٤٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٤) مفردات الراغب: ص ٦٠٦، (غرا)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦١٥، (غرا).

بالإغراء تسليط بعضهم على بعض^(١)، والإلقاء طرح الشيء حيث تلقاه أي تراه^(٢)، وإلقاء الله الشيء في القلوب أي قذفه، فالإغراء أثر للإلقاء وهو من شؤون اليهود؛ لأنهم أكثر عناداً وجحوداً، ومن شأنهم اصطناع الفتن وإشعال العداوات بين الناس كما أخبر عنه الباري عز وجل بقوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣).

فساد اليهود

وتضمنت الآية إخباراً عن واقع حال اليهود في جميع الأزمنة، واستمرار ذلك إلى يوم القيامة، ومنه يعرف أن ما يشاهده العالم اليوم من حروب ونشر للفساد والرذيلة بين أهل الأرض مصدره اليهود، فهم أصله ومنشؤه وإن تخفى وراء وجوه مسيحية أو مسلمة أو كافرة، وأن الذين يعملون لإشعال الحروب وينشرون الظلم والفساد هم اتباع لهذا المنهج سواء علموا أو جهلوا، وإطلاق الحرب والفساد يشمل جميع الأصناف بما فيها الفتن الاجتماعية والتعصبات الدينية.

وقد خصّص النصارى بالإغراء واليهود بالإلقاء لبيان الفرق بينهما، فإن اليهود أشدّ عناداً وجحوداً، فألقى بينهم العداوة والبغضاء؛ للإشارة إلى أنّهم سبب العداوة والبغضاء.

(١) مجمع البيان: ج ٣، ص ٢٩٩.

(٢) مفردات الراغب: ص ٧٤٥، (لقى).

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٤.

أما النصارى فهم متأثرون بذلك فتلازمهم العداوة والبغضاء وإن لم يكونوا سبباً لهما، ونسبة الإلقاء والإغراء إلى الباري عز وجلّ إمّا من باب وجود المقتضي لأنهم وفروا في نفوسهم الاستعداد والقابلية لذلك، ولم يجاهدوا أنفسهم للتجرد من العداوات والبغضاء فاستحقوا ذلك، وإمّا من باب عدم إيجاد المانع منه بسلب توفيقهم الى الهداية والصلاح.

أنحاء العداوة بين اليهود والنصارى

ومن مجموع الآيتين يستفاد أنّ العداوة والبغضاء في اليهود والنصارى تقع على ثلاثة أنحاء:

الأول: العداوة والبغضاء بين النصارى أنفسهم، فكل جماعة متحاملة على الأخرى.

والثاني: العداوة والبغضاء بين اليهود أنفسهم.

والثالث: العداوة والبغضاء بين النصارى كجماعة واليهود كجماعة.

فالاختلاف الواقع بين أهل الكتاب بعضه داخلي بين أهل كل ديانة على بعضهم البعض، وبعضه خارجي بين أهل كل ديانة على الأخرى.

والآيتان صريحتان في بقاء هذا الاختلاف والحرب إلى يوم القيامة، والواقع الخارجي يصدق هذه الحقيقة، فإنّ أهل الكتاب كانوا ولا زالوا مختلفين، والصراع ملازم لهم حتى أخرجوا بلادهم، وذبحوا أبناءهم، وأقاموا حروباً عالمية بينهم، واليوم جمعهم المصالح فأخذوا الحرب المباشرة فيما بينهم، وصيّروها حرباً غير مباشرة تتمظهر في كل أرجاء العالم، فكل

أزمة بما فيها الأزمات في بلادنا هي من مظاهر الحرب والعداوة بين اليهود والنصارى^(١)، ولذا نلاحظ أنّ العالم محكوم بالتحالفات المتعادية، وبألوان للحرب مختلفة.

المسلمون واليهود والنصارى

الثانية: إذا كان اليهود والنصارى متحاربين فيما بينهم فليس المسلمون منهم في منجى؛ لأنّ كل طرف يسعى لكسب المسلمين إلى صفّه، فإنّهم إذا كانوا لا يرحمون بعضهم ولا تتصافى قلوبهم كيف تتصافى قلوبهم مع المسلمين؟ هذه الحقيقة يجب أن يعرفها المسلمون ولا تخدعهم الدعايات والإعلام الكاذب، والشعارات التي يرفعها الغرب والشرق بدعوى حقوق إنسان أو حرية أو سلام وأمن، فإنّ ذلك كله مطلوب لهم مادام يحقق مصالحهم، فإذا أضرّ بمصالحهم داسوه، وما لم يعود المسلمون إلى دينهم ويوحدوا كلمتهم ويجعلوا لأنفسهم سيادة وكرامة لأنفسهم فإنّ بلادهم ستبقى تحت سطوة الحروب والعداوات المسيحية واليهودية، وشعوبهم محرومة من حقوقهم.

والآية الثانية تلفت إلى أنّ كل مشاريع اليهود في إيجاد العداوة والحروب بين الناس المباشرة وغير المباشرة تنتهي إلى الفشل، وربما تحقق بعض أغراضها في تدمير شعوب الأرض ولكنها لا تصل إلى ما يريهم؛ لأنّ الباري

(١) انظر تفسير المراغي: ج ٢، ص ١٥٤؛ تفسير الأمل: ج ٣، ص ٣٩٠، تفسير الآية المزبورة.

عَزَّ وَجَلَّ أخبر أنَّ كل ما يشعلونه من حرب يطفئها^(١)، لا سيما مكائدهم ضد المؤمنين الموالين، وفي رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾^(٢) قال: ﴿كلما أراد جبار من الجبابرة هلكة آل محمد عليهم السلام قصمه الله﴾^(٣).

وتكشف الرواية عن أنَّ جبابرة الأرض هم من أدوات المشاريع اليهودية، وأنهم لا يصلون إلى أهدافهم حتى يقوم حجة الزمان عجل الله تعالى فرجه ويحمد صوتهم، ويكسر شوكتهم بإذن الله تعالى. فإنَّ الإطفاء يكون على نحوين:

أحدهما: إفشال ما يخططون له، وتخيب سعيهم.
والثاني: نصره أولياء الله عليهم بنجاح ما يخططون له ويسعون إليه.

الرجعة من يوم الدين

الثالثة: إنَّ إطلاق يوم القيامة يشمل مرحلتين:
الأولى: يوم الرجعة الذي هو القيامة الصغرى، وهي أول مراحل الآخرة.
والثانية: يوم المحشر في الآخرة، ولا يطلق يوم القيامة على زمان الظهور المبارك.

(١) إشارة إلى الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٣) تفسير القمي: ج ١، ص ١٩٧؛ تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٣٠، ح ١٤٨؛ البحار: ج ٢٤، ص ٣١١، ح ١١.

والمحصلة: أن الآيتين تدلان على أن العدالة في زمان الظهور تكون هي الحاكمة المنتشرة في ربوع الأرض، ولكن لا تدل على خلو كل الأرض من الظلم والفساد، ولا تخلو منهما إلا في يوم القيامة.

ومن هنا لم يستعص عن لفظ الدين بلفظ الجزاء أو الحساب؛ لأن الدين يفيد مكافأة الجزاء للعمل، فكل عامل ينال جزاء عمله، فالآية بهذا اللفظ تفيد أنه سبحانه مالك يوم العدل، كما أشار إليه قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾^(١).

ولو قال: مالك يوم الحساب أو يوم الجزاء لدل على وجود محاسبة ومكافأة وليس بالضرورة تدل على العدالة في الحساب والجزاء إلا إذا استعين بأدلة أخرى تفيد ذلك.

ويتحصل: أن مالكية الباري للدين لا تفني بغرض الآية، والذي يفني به ذكر الحد الذي فيه ينتهي العمل ويبدأ فيه الحساب، وهو اليوم لكيلا يتهاذى ظالم في ظلمه، ولا ييأس المؤمن من رحمة ربه.

اللطيفة السابعة: أثر السياق في الآية

أن سياق قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وورودها بعد قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يفيد فائدتين:

الأولى: حث العباد على التربية والتهذيب، وهما يقومان على ركنين: الترغيب أولاً ثم التهذيب ثانياً، فإنه سبحانه رحيم بعباده ومجازٍ لهم على

(١) سورة غافر: الآية ١٧.

أعمالهم، وهو ما تضافر في آيات عديدة، كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(١).

فلا يمكن أن يتأدب العباد بالترغيب فقط ولا بالترهيب فقط؛ لأنَّ الأول ينتهي إلى التسيب وتضييع الحدود والأحكام اعتماداً على الرحمة، والثاني ينفرهم من الطاعات، ويخرج محبة الطاعة من القلوب.

بين ربوبية الدنيا وربوبية الآخرة

والثانية: بيان أنَّ مالكية يوم الدين مرتبة من مراتب الربوبية الإلهية، ووجه آخر من وجوه استحقاقه سبحانه للحمد المطلق، فإن مقتضى الربوبية للعباد تهذيبهم وتكميلهم ومجازاتهم على أعمالهم، فهو رب العالمين في المبدأ والمعاد سوى أنَّ ربوبية المبدأ قائمة على إحسانه، وأمَّا ربوبية الآخرة فقائمة على أعمال العباد أنفسهم، وفي ذلك تعليم مهم لبني البشر في أنَّهم يملكون مصيرهم، وهم الذين يعيّنون لأنفسهم المستقبل، ويختارون الحياة التي يعيشونها.

فهو سبحانه أوجدهم عاقلين مختارين، وأفاض عليهم جميع النعم؛ لأنَّه رب رحيم، وسيجازيهم على أعمالهم؛ لأنَّه مالك يوم الدين، ولا نزن أنَّ العباد إذا التفتوا إلى هذه الحقيقة يخرج منهم كافر أو عاص أو متهاون في حب الله وطاعته.

(١) سورة الحجر: الآيتان ٤٩ - ٥٠.

اللطيفة الثامنة: قراءة (ملك) بدلاً عن (مالك)

قيل إنّ أكثر القراء ذهبوا الى قراءة (ملك) بدلاً عن مالك، ونسب إلى أكثر المفسرين ترجيح ذلك. نعم اشتهرت قراءة مالك في هذا الزمان، كما قيل إنّ الفرق بينهما أن مالك مشتقة من الملك، وأمّا مَلِكٌ فمشتقة من المُلْك^(١)، وقد عرفت أنّ الأصل الذي قررناه هو عدم صحة القراءات، وهذا الأصل يكفيننا لترجيح قراءة مالك ولا نرفع اليد عنه إلاّ بدليل، ومن هنا ينبغي النظر في أدلة القائلين بقراءة ملك.

أدلة قراءة ملك

وعمدة ما استدلووا به دليلاً فضلاً عن الشهرة:

الدليل الأول: الإضافة إلى (يوم) وهو ظرف زمان، والظرفية تناسب الملك لا المالك؛ لأنّ مالك لا تضاف إلى الزمان؛ لأنّها صفة تدور بين الوجود والعدم، فإذا وجدت تبقى مستمرة في كل زمان ومكان، بخلاف مَلِكٍ فإنّه يصحّ إضافتها إلى الزمان. فيقال مثلاً: (مَلِكُ الزمان) و: (ملك العصر) ولا يقال: (مالك الزمان) و: (مالك العصر).

الدليل الثاني: بعض الآيات والروايات الواردة بذلك منها قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

(١) تفسير تسنيم: ج ١، ص ٤٤١

(٢) سورة الناس: الآيتان ١ و ٢.

لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ^(١) وَالْمَلِكِ أَصْلَ الْمَلِكِ^(٢). ومنها: ما روي بطرق العامة عن النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ (ملك)^(٣) ، ومن طرقنا رواية داود بن فرقد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقرأ ما لا أحصي (ملك يوم الدين)^(٤) .

مناقشة الأدلة المذكورة

وفي كلا الدليلين نظر من وجوه:

الوجه الأول: أَنَّ الشهرة المزعومة على قراءة مَلِكٍ معارضة بدعوى الشهرة على قراءة (مالك)^(٥) ، وشهرة (مالك) أرجح؛ لأنها موافقة لمتن القرآن، ولأنَّ سيرة المسلمين عليها؛ لوضوح أَنَّ المسلمين يقرؤون ما ورد في القرآن. أمَّا القراءات فهي فنون اجتهادية اصطنعها القراء فلا يعرفها إلا أهل الخبرة والاطلاع، وإذا دار الأمر بين شهرة الخواص وشهرة عموم المسلمين فإنَّ الإعتبار للثانية لا الأولى؛ لأنها قراءة جرت عليها السيرة عن النبي والأئمة عليهم السلام والعلماء الربانيين وأهل القراءات أجمع، فهي معلومة الاعتبار. والخلاصة: أَنَّ الشهرة المزعومة على قراءة (ملك) على فرض تحققها صغروياً فهي شهرة القراء وليست بشهرة عامة، فلا تصلح دليلاً لرفع اليد

(١) سورة غافر: الآية ١٦.

(٢) مجد البيان: ص ٢٩٥.

(٣) الدر المشور: ج ١، ص ١٣ - ١٤؛ تفسير الفرقان: ج ١، ص ١٠٢.

(٤) تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٧، ح ٢٣؛ البرهان: ج ١، ص ١٢١؛ ح ٣٠.

(٥) انظر مجد البيان: ص ٢٩٥؛ المتار: ج ١، ص ٥٤؛ التبيان: ج ١، ص ١٠٤؛ مجمع

البيان: ج ١، ص ٦٠؛ مناهج البيان: ج ١، ص ١١٩.

عن (مالك) التي وردت في القرآن.

الوجه الثاني: أن دليل الإضافة غير صحيح؛ لأنّه ينطبق على الملكية الاعتبارية، أمّا الملكية الحقيقية فهي أزلية فوق الزمان والمكان، فيصح أن يقال لله سبحانه أنّه مالك الزمان ومالك الدهر، كما يصح أن يقال ملك الزمان وملك الدهر؛ لأنّ الأشياء طرّاً مملوكة له ومحكومة بحكمه، فالدليل مبني على خلط بين الملكية الاعتبارية والملكية الحقيقية، على أن التعبير بمالك الزمان صحيح حتى في الملكية الاعتبارية إذا أُريد به المجاز هذا أولاً.

وثانياً: أن مفردة ﴿يوم﴾ حينما تطلق في آيات المعاد تكون مجردة عن الظرفية الزمانية، ويراد بها مبدأ عالم الآخرة، وما يجري فيه من أحداث، والغاية منه بيان ظرفية الملكية الإلهية للأشياء، لا سيما على القول بأن يوم القيامة اسم خاص للمعاد، وأُطلق عليه (اليوم الآخر) ولذا تميّز عن باقي الأيام في مدته، وأنّه ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١) كما عرّف بعض أهل اللغة والتفسير اليوم بالحوادث التي تقع فيه، وفُسّر مثل قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾^(٢) بنقمة في الأمم الماضية ونعمه أيضاً^(٣)، نظير النهار قيل إنّ اسم للضياء الظاهر لحصول الشمس بحيث ترى عينها أو معظم ضوئها، وهو مدّ النهار، وليس في الحقيقة اسم للوقت^(٤).

(١) سورة الحج: الآية ٤٧.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٥.

(٣) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ١٠٦٧، (ياومه).

(٤) معجم الفروق اللغوية: ص ٥٥١، (٢٢٢٧).

وفي مجمع البيان حكى عن بعضهم أنّ المراد بيوم الدين امتداد الضياء إلى أن يفرغ من القضاء ويستقر أهل كل دار فيها^(١)، وتعززه قرينة العقل، فإنّ الآية: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ليست في مقام بيان ملكية اليوم، بل ملكية كل ملك ومملوك إليه، وظهور حكم الله وقدرته وتصرفه في الأشياء في نهاية الدنيا وبداية عالم الآخرة الذي تنتهي فيه كل ملكية وملوكية، ويظهر للجميع مالكية الله سبحانه وملوكيته المطلقة على كل شيء.

أسماء الله معارف

ومن هنا قال بعض المفسرين: إنّ أسماء الله كلها معارف موضوعة بالوضع الشخصي للذات المقدسة الإلهية، وإضافة هذه الأسماء الحسنى في مثل قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ليست لغرض التعريف والتخصيص ورفع الإبهام عن مفادها، وإثبات مالكيته ليوم الدين فقط ونفيه عما سواه، وإنّما الغرض منها تمجيدته تعالى وتعظيمه وتحميده وتسيحه بهذه الأسماء أي مفادها، وإنّما يستقيم ذلك إذا كانت الأسماء معرفة، واللاحاظ المقصود في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بيان بروز مالكيته تعالى وظهور سلطانه سبحانه بأكمل بروزاته وظهوراته^(٢).

مناقشة الآيات والروايات

الوجه الثالث: أنّ النصوص الشرعية التي استندوا إليها لا تثبت المدعى. أمّا الآيات فلما بيّناه في الفرق بين ملك ومالك، وأنّ الملك يكون

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٦١.

(٢) انظر مناهج البيان: ج ١، ص ١١٧، (بتصرف).

على ذوي العقول اما المالك أعم، فلو قرئت بمعنى الملك لزم تحديد ملك الخالق ونفوذ أمره في ذوي العقول وهو واضح البطلان، على أن قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ يراد بها بيان مالكيته سبحانه لهم في نفوسهم وأعيانهم لا مجرد الحاكم فيهم، فدليلهم قاصر عن إثبات المدعى، والتفريق بين مالك وملك برجوع الأول إلى الملك بكسر الميم، والثاني إلى الملك بضمها لا يساعد عليه عرف أو لغة، فإن الاثنين مرجعهما إلى الملك، واستعمال المُلْك في المَلِك لا ينفي صحة استعماله في المالك، وإلا لنقض في مثل قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١) فإنه يراد به المالكية لا الملوكية، فإن المَلِك أعم من المُلْك، فالمالك ملك وليس العكس كما بيناه، ويشهد له قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾^(٢) فالمُلْك مرجعه إلى مالك يملكه فيه لمن يشاء ويتزعه ممن يشاء وأما الروايات فهي معارضة بطائفة منها وردت بطرق الفريقين تثبت قراءة ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بعضها عن النبي ﷺ، وبعضها عن الأئمة الأطهار عليهم السلام.

والملفت أن بعض الراوين لقراءة (ملك) أنفسهم رَوَوْا قراءة (مالك)^(٣)، وأما رواية داود بن فرقد فهي معارضة برواية الحلبي والزهري عن الإمامين زين العابدين والصادق عليه السلام^(٤)، وغيرهما الواردة بقراءة (مالك).

(١) سورة الحديد: الآية ٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٣) انظر الدر المنثور: ج ١، ص ١٣-١٤؛ تفسير الفرقان: ج ١، ص ١٠٣، الهامش (١).

(٤) انظر تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٧-٣٨؛ ح ٢١، ح ٢٢، ح ٢٣.

ولو افترضنا أنّ التعارض مستقر ولا وجه للجمع الدلالي بينها تصل النوبة إلى الترجيح، والقواعد تقتضي ترجيح ما ورد بقراءة مالك؛ لأنّها موافقة للقرآن وتلك مخالفة، ولأنّها موافقة لسيرة المسلمين وقرائن العقل.

أرجحية قراءة مالك

فإنّ قراءة مالك أنسب بيوم القيامة من ملك من جهات عديدة:
 منها: أنّ الملكية تستدعي تحديد سلطة الخالق بذوي العقول وهو باطل.
 ومنها: أنّ القهر ونفوذ الحكم والأمر والسلطة المطلقة على التصرف في الأشياء أنسب بأحوال القيامة وهو يوافق معنى المالك لا الملك، فإنّ الرعية يملكون سلطة على أنفسهم وهم تحت سلطة الملك؛ لأنّهم محكومون لا مملوكون مع أنّ الحقيقة تفيد أنّهم مملوكون لا مالكون في الآخرة.
 ومنها: قاعدة زيادة المباني الدالة على زيادة المعاني المعتضدة بما ذكره البعض من أنّ قراءة مالك أكثر ثواباً من ملك ببركة زيادة حرف فيه ^(١).
 ومنها: أنّ الملك يستدعي وجود أمر ونهي وحكم وتدبير للأمور وهذا أنسب بعالم الدنيا، أمّا عالم الآخرة فهو وقت القضاء والفصل والحساب ومجازاة كل عبد بما عمل، ويتوافق مع معنى مالك.
 ومنها: أنّ قراءة مالك أوفق بالرحمة الإلهية بالخلق، فهي تناسب رأفة الخالق واحتياج المخلوق، فإنّ الملك له هيبة وسياسة وسطوة، والمالك له

(١) انظر مقتنيات الدرر: ج ١، ص ١٧؛ تفسير الرازي: ج ١، ص ٢١٢.

رأفة ورحمة، واحتياج العباد إلى الرأفة والرحمة لاسيما في الآخرة أشدّ من حاجتهم الى السياسة.

ومن هنا قال بعض أهل اللغة: اقرأ مالك يوم الدين؛ لأنّ هذه القراءة هي الدالة على الفضل الكثير والرحمة الواسعة^(١).

فيتحصل من كل ما تقدم: أنّ الأدلة العقلية والنقلية متضافرة على صحة قراءة مالك دون ملك، وهذه قاعدة عامة تجري في سائر الآيات التي اجتهد فيها القراء، وأوجدوا قراءات مغايرة للنص القرآني.

(١) انظر تفسير الرازي: ج ١، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة



وهي عديدة:

التعليم الأول: مراحل بناء العقيدة السليمة

الآية المباركة بضميمة سياقها مع الآيات السابقة ترشد أهل العقول إلى ثلاث حقائق، هي مراحل الإيمان، وبناء العقيدة السليمة، والتخلص من الشكوك والأوهام والإلحاد.

الأولى: أن العالم له مبدأ وله منتهى، فمبدؤه الله ومنتهاه إلى الله سبحانه، وما بينهما إلى الله عز وجل، فالترتيب اللفظي للآيات مطابق للترتيب الحقيقي الكوني، فإن سلسلة الوجود تبدأ من الله وهو الإله ذو المحامد كلها في الفضائل والفواضل، ثم بفعله وهي الربوبية، وهي ربوبية عادلة محسنة تتعامل بالرحمة، ومقتضى العدالة وجود يوم يرجع فيه العباد إلى الله سبحانه لمحاسبتهم على أعمالهم، وبهذه النظرة يكون العبد موحدًا، فالكون كله مخلوق وفق نظام وقانون عادل وحكيم، ويقوم على توحيد الألوهية والربوبية، فلا إله إلا الله ولا رب سواه، ويوم القيامة مظهر من مظاهر الربوبية. هذه الحقيقة إذا أدركها الإنسان بلغ في معرفته مقام الحب لله عز وجل، ومقام التوكل عليه، ومقام تفويض الأمر إليه والتسليم بحكمه وأمره ونهيه، ومجموعها يشكل خصال الإنسان الكامل في معرفته وعمله، ومن كان كذلك تهيأ نفسياً وقلبياً لخلوص العبودية، وينفتح له باب للدخول في

الآية التي تليها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا هو التوحيد القلبي.

الانقطاع العقلي

الثانية: أن العبد إذا لا يبلغ مقام التوحيد القلبي فلا يفوته التوحيد العقلي الاعتقادي، فإن العقل يوجب على الإنسان الانقطاع إلى الله سبحانه في معتقده وعبادته.

أولاً: لأن الله سبحانه الذي يتفرد باستحقاق الحمد لكونه الجامع للفضائل والفواضل، فإن العقل إذا أدرك كمال الخالق في ذاته وصفاته حكم عليه باستحقاقه الحمد دون غيره.

ثانياً: وإذا أدرك أنه رب للعالمين ربى الموجودات برحمته وإحسانه ولطفه وكرمه فهو رحمان رحيم حكم باستحقاق الشكر والعبادة، فلا يستحقها أحد غيره.

قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿سجدة الشكر واجبة على كل مسلم تتم بها صلاتك، وترضي بها ربك، وتعجب الملائكة منك، وإن العبد إذا صلى ثم سجد سجدة الشكر فتح الرب تبارك وتعالى الحجاب بين العبد وبين الملائكة، فيقول: يا ملائكتي! انظروا إلى عبدي أذى فرضي، وأتم عهدي، ثم سجد لي شكراً على ما أنعمت به عليه، ملائكتي! ماذا له عندي؟ قال: فتقول الملائكة: يا ربنا! رحمتك، ثم يقول الرب تبارك وتعالى: ثم ماذا له؟ فتقول الملائكة: يا ربنا! جنتك، فيقول الرب تعالى: ثم ماذا؟ فتقول الملائكة: يا ربنا! كفاية مهمه، فيقول الرب تعالى: ثم ماذا؟ ولا يبقى شيء من الخير إلا قالت الملائكة، فيقول الله تعالى: يا ملائكتي! ثم ماذا؟ فتقول

الملائكة: يا ربنا! لا علم لنا، فيقول الله تعالى: لأشكرته كما شكرني، وأقبل عليه بفضلي، وأريه رحمتي^(١) ومثل هذا الرب العظيم الكريم كيف لا يدركه العقل، ولا تعرفه البصيرة؟!

التوحيد القلبي والعقلي

وثالثاً: وإذا أدرك أنّ للرب يوماً يعود فيه الناس إليه، ويحاسبهم على أفعالهم، ويجازيهم في الخير والشر، فإنّه يلزمه بوجوب الطاعة والانقياد إليه، والانضباط بحدوده وأحكامه لكي ينال خير، ويتجنب عقابه من باب وجوب شكر المنعم، ودفع الضرر الخطير، فإنّ مرحلة التوحيد القلبي لا ينالها إلا المصطفون الأخيار؛ لتوقفها على نورانية قلبية، ونزاهة عالية في النفس، وسمو روحي كبير، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: ﴿إذا وجدت رسول الله ﷺ في الخلوة عن الناس سألته إلحاحاً يا رسول الله! ما الطريق إلى الله؟ قال عليه السلام: عليك بقلبك﴾^(٢).

فالذي يقصر عن هذا المقام لا يفوته المقام الثاني وهو توحيد العقل الذي يبلغه ذو العقل والحكمة، ويتوقف على التفات وإدراك لحقائق الوجود وفهم روابطها، ففي ذلك دلالة على صحة ما يقوله الإمامية من أسبقية حكم العقل لحكم الشرع في المستقلات العقلية، وأنّ الحسن والقبح عقليّان

(١) الفقيه: ج ١، ص ٣٣٤، ح ٩٧٩؛ البحار: ج ٨٣، ص ٢٠٥، ح ١٩؛ الوسائل: ج

٧، الباب ١ من أبواب سجدة الشكر، ص ٦، ح ٨٥٦٤.

(٢) الجواهر النضيد والعقد الفريد: ج ١، ص ٦٥، ح ١٤ / ١٤.

لا شرعيّان كما تزعمه الاشاعرة^(١)، كما تبطل نظرية المجبّرة، وأنّ الله خالق لأعمال البشر، وفي عين الحال تبطل نظرية المفوضة؛ لأنّه سبحانه مالك ليوم الدين ومالك للإنسان وكل ما في الوجود، سوى أنّه قدّر للإنسان أن يكون فاعلاً مختاراً فيحاسبه على اختياراته^(٢).

التوحيد العملي

الثالثة: أنّ للعبد أن يلتزم بالحق بعمله وإن لم يدركه بقلبه وعقله، وهو المقام الثالث الذي يسلكه القاصرون في بصائر القلوب والعقول، فيؤمن ويطيع ربه، ويستجيب له بعمله، ويضبط عمله وسلوكه في حدوده وأحكامه؛ لأنّه مالك ليوم الدين يخاف من عقابه، ويطمع في جنته، وهو إيمان العوام.

وبذلك يتضح أنّ باب الإيثار والعقيدة الحقّة مفتوح أمام جميع الخلق على اختلاف مستوياتهم ومقاماتهم، ولا يحتاج إلى مزيد برهان، فإنّ الإنسان الزكي النقي يدرك ربه بقلبه، واللييب الحصيف يدركه بعقله، والأدنى منه يدعوه عقله إلى طاعته واجتناب معصيته، كما يتضح أنّ القصور بالمعنى الدقيق في المعتقد نادر الوجود؛ لأنّ الناس لا يخلون من المراتب الثلاث، وعقائدهم تدور بين ثلاث مراتب أعلاها توحيد القلب، وثانيها توحيد العقل، وثالثها توحيد العمل، ويقوم على خوف الحساب والجزاء، وإن قصر لم يتمتع بجذوة الحصافة ولا نورانية القلب، وهذا أحد

(١) انظر روح المعاني: ج ١، ص ١١٦.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج ١، ص ٢١٦، الفائدة الخامسة.

معاني قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١) على جميع البشر؛ لأن كل واحد منهم بحسب رتبته ومقامه يدرك ربه ووجوب طاعته، وقد وصفها بالبالغة للإشارة إلى أنها توصل إلى المطلوب وتبلغ المراد، كما يفيد معنى البلوغ لغة وعرفاً^(٢)، وأنها تقطع العذر حتى أنه جعل العقل من الداخل هادياً، وجعل الأنبياء والرسل والأئمة معصومين لينفي كل تردد وخطأ واشتباه وسهو ونسيان عن بلوغ الحجة.

وساوس الملاحدة

وأما الملاحدة أو من يزعمون أنهم ملاحدة فهم فقدوا النظر وأدوات الاستدلال، ووقعوا في الشكوك والأوهام وتسويلات الشيطان؛ لأنهم إن كانوا يراعون حكم العقل لاتفقوا مع جميع عقلاء العالم في النتيجة، ولو كانوا يراعون حكم الفطرة لما خرجوا عن نهج سائر الناس ووقعوا في الوسوسة، فإنهم بمخالفتهم للبديهة العقلية والعقيدة الفطرية خرجوا من العقلانية، ووقعوا في وساوس الشيطانية، ولذا هم القلة في البشر في طول التاريخ البشري، حتى أهل الجاهلية كانوا يعتقدون بوجود الخالق، وأنه يستحق العبادة والتقرب إليه، وكانوا يعبدون الأصنام بتوهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، فما فائدة التقرب إذا لم يكن له آثار مطلوبة؟

فالملاحدة في صراع عميق في دواخل نفوسهم ناشئ من اضطراب حكم

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٩.

(٢) مجمع البحرين: ج ٥، ص ٦، (بلغ).

العقل البديهي والفطرة واصطدامها بالوسوسة والشكوك النفسانية.

صراع العصاة مع نفوسهم

والعصاة أيضاً في صراع مستمر بين عقولهم وفطرهم، وبين شهواتهم وشياطينهم، لذلك لا يكون الملحد في راحة ولا العاصي في راحة، ولا راحة إلا للمؤمن؛ لأنه بإطاعته لعقله وفطرته وبارتباطه بربه آمن مطمئن: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَظْمِئُ الْقُلُوبُ﴾^(١) ولذا ورد في بعض الأخبار أن الحجة البالغة لله تظهر في يوم القيامة.

ففي رواية مسعدة بن زياد قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام وقد سئل عن قول الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبادي أكنت عالماً؟ فإن قال: نعم. قال له: أفلا عملت بما علمت؟ وإن قال: كنت جاهلاً قال له: أفلا تعلمت حتى تعمل فيخصمه، فتلك الحجة البالغة﴾^(٢).

الحجة البالغة

فإن قيل وكيف يتعلم؟ والجواب من طريقين:

الأول: العقل فإنه يوصل العبد إلى وجوب معرفة الله وتوحيده وطاعته، وهو الحجة الإلهية الباطنة على جميع بني آدم كما تضافرت به النصوص^(٣).

(١) سورة الرعد: الآية ٢٨.

(٢) الأمالي (للطوسي): ص ٩، ح ١٠؛ الأمالي (للمفيد): ص ٢٩٢؛ البحار: ج ٢، ص ٢٩، ح ١٠.

(٣) انظر الكافي: ج ١، ص ١٦، ح ١٢؛ تحف العقول: ص ٣٨٦.

الثاني: الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وهم الحجة الظاهرة التي إليها يرجع ذوو القلوب ليزدادوا نوراً، وذوو العقول ليزدادوا معرفة، وعموم الناس ليتعلموا منهم دينهم وطاعتهم، ففي رواية داود الرقي عن العبد الصالح عليه السلام قال: ﴿إِنَّ الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حتى يعرف﴾^(١).

والغاية من قوله: ﴿حتى يعرف﴾ تتعلق بالإمام، والمعنى أن معرفة الإمام هي حجة الله البالغة على خلقه؛ لأنَّ به يقوم الدين، ومنه يأخذ المتدينون، والروايات بهذا المعنى متواترة.

ويتحصل منه: أنَّ الجهل القصورى نادر الوجود؛ لأنَّ الإنسان مهما كان بعيداً تصله الحجة الظاهرة باللفظ الإلهي عبر الإمام عليه السلام إن شاء الهداية هداه وأوصله إلى مطلوبه بأساليبه الخاصة، وهذه إحدى حكم ضرورة وجود الإمام في الأرض وعدم انقطاعه عن رعيته. هذا فضلاً عن الحجة الباطنة التي توصله من أدنى مستواها إلى معرفة العمل والطاعة من باب وجوب شكر المنعم ودفع الضرر الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

أول طريق المعرفة

فبلوغ مقام المعرفة والتوحيد يبدأ من الفكر لا من الوسوسة أيها الطالبون للحقيقة والتائبون في طريق الاستدلال. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿كفى بالموت واعظاً، وبالعقل دليلاً وبالتقوى زاداً، وبالعبداء شغلاً، وبالله مؤنساً، وبالقرآن بياناً... والفكرة مرآة الحسنات، وكفارة السيئات، وضيء القلب،

(١) الكافي: ج ١، ص ١٧٧، ح ١؛ البحار: ج ٢٣، ص ٥١، ح ١٠٣.

وفسحة للخلق، وإصابة إصلاح المعاد، وإطلاع على العواقب، واستزادة في العلم، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها... فكرة ساعة خير من عبادة سنة، ولا ينال منزلة التفكير إلا من خصّه الله تعالى بنور المعرفة والتوحيد^(١).

وعن الرضا و العسكري عليهما السلام: «ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة وإنما العبادة كثرة التفكير في أمر الله»^(٢) وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أفضل إيمان العبد أن يعلم أن الله معه حيث كان»^(٣) وهذه هي التقوى والورع والعصمة في بعض مراتبها.

التعليم الثاني: ما هو مستند الإيمان بالمعاد؟

أن ذكر يوم القيامة ووصفه بيوم الدين دون باقي الأوصاف يلفت الأنظار إلى أن حقيقة الإيمان تتقوم بالإيمان بالمعاد؛ لأن الإيمان بالمبدأ قضية فطرية لا يشك بها أحد إلا مكابر ومعاند، وأما الإيمان بيوم القيامة فهي قضية عقلية يجب أن تستند إلى مقدمات حتى تصدق، وربما تبطل بالأوهام والظنون والوساوس فتحتاج الى ترسيخ بذكرها وتأكيداها والاستدلال عليها بالعقل وتكرار ذكرها بالنقل، وبهذا تثبت حقيقة علمية هامة وهي أن الإيمان بالخالق مستنده الفطرة، أما الإيمان بالمعاد فمستنده العقل في ضرورة وجوده؛ لأنه لولاه يكون وجود البشر وبعثة الأنبياء ووضع التكليف على

(١) مصباح الشريعة: ص ١١٣-١١٤؛ مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ١٨٥، ح ١٢٦٩٤.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٥٥، ح ٤؛ البحار: ج ٦٨، ص ٣٢٥، ح ١٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٢٥٩.

الناس عبثاً ولغواً، وأمّا تفاصيل وقائعه وأحداثه فيثبتها النقل. يشهد لهذا القرآن الكريم، ففي إيمان أهل الجاهلية بالخالق ورد قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١) وجوابهم يأتي فوراً بعد السؤال بلا حاجة إلى تريث أو تدبر وتفكير؛ لأنّ الإيمان بوجود خالق لهذا العالم أمر بديهي يدركه كل ذي فطرة سليمة.

وأمّا إيمانهم بالمعاد فلم يكن كذلك، بل كانت تضللهم الأوهام والوساوس، ولذا كان بعضهم يستهزئون إذا دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان، وفي ذلك ورد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ * أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ^(٢) .

ونلاحظ أنّهم ينكرون الدعوة إلى الاعتقاد بالمعاد ويتهمونهم بالافتراء على الله، فيدل على أنّهم كانوا يؤمنون بالخالق وينكرون معاده، كما نسبوه إلى الجنون؛ لأنّ عقولهم لا تقر بالمعاد، ووصفوا الذي يدعو إليه بالمجنون، لكن القرآن أجابهم في ذات الآية فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾^(٣) فأشارت إلى أنّهم مرضى في نفوسهم وعقولهم يعيشون العذاب والاضطراب والغفلة عن الواضحات، وفي عين الحال ليس لهم مأوى وركن يأوون إليه يحصلون به على الاطمئنان، وانحرافهم شديد أخذهم الى المهالك.

(١) سورة لقمان: الآية ٢٥.

(٢) سورة سبأ: الآيتان ٧ و ٨.

(٣) سورة سبأ: الآية ٨.

من ينكر المعاد؟

ولا يخفى أنّ الإيمان بالمعاد قضية يدركها العقل السليم، والذين يخالفونها عادة فئتان:

الأولى: أصحاب المصالح السياسية الذين يظنون أنّ الإيمان بالمعاد يجردهم من مصالحهم، أو يمنعهم من بلوغ مآربهم؛ لأن الإيمان بالمعاد يوجب العدل والإنصاف واحترام الحقوق.

الثانية: أصحاب الشهوات الذين يظنون أنّ الاعتقاد بالمعاد يقيدهم ويمنعهم من ممارسة شهواتهم بحرية، وكلاهما واهم؛ لأنّ الإيمان بالمعاد لا يلغي مصالح الناس، ولا يمنعهم من ممارسة شهواتهم، وإنّما يهدّدها وينزهها من الفسق والعدوان، ووقائع التاريخ تشهد بأن المنكرين للمعاد ليسوا إلاّ هاتين الفئتين وإن تلبست بألبسة أخرى، ولو فهموا هذه الحقيقة وأذعنوا لعقولهم لوجدوا أنّ الاعتقاد بها ضرورة لا يمكن أن يكون للوجود البشري مبرر لولاها.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿من سرّه الفساد ساءه المعاد﴾^(١) و: ﴿لا يؤمن بالمعاد من لم يتخرج عن ظلم العباد﴾^(٢).

وفي رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿كان فيما وعظ به لقمان عليه السلام ابنه أن قال: يا بنيّ! إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولا

(١) غرر الحكم: ص ٦١٢، ح ٧٢١؛ عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٤٨.

(٢) غرر الحكم: ص ٧٨٨، ح ٤٠٩؛ عيون الحكم والمواعظ: ص ٥٤٣.

تستطيع ذلك، وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك، فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك، وإنما النوم بمنزلة الموت، وإنما اليقظة بمنزلة البعث بعد الموت^(١).

وفي رواية الثمالى عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قال: ﴿عجبت للمتكبر الفخور كان أمس نطفة وهو غداً جيفة! والعجب كل العجب لمن شك في الله وهو يرى الخلق! والعجب كل العجب لمن أنكر الموت وهو يرى من يموت كل يوم وليلة! والعجب كل العجب لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى الأولى! والعجب كل العجب لعامر دار الفناء ويترك دار البقاء^(٢)﴾.

النظريات التي تبطلها الآية المباركة

وبذلك يظهر أن الآية المباركة بتأكيدا على وجود يوم للدين وأن لهذا اليوم مالكا هو رب رحمان رحيم تبطل نظريات عديدة لها أتباع وأنصار إلى يومنا هذا:

الأولى: نظرية إنكار المعاد الجسماني التي قال بها بعض الفلاسفة، فإن الآية تفيد أن كل عبد سيحشر إلى ربه ويكافأ على أعماله، وهي ظاهرة في الحشر والحساب الجسماني، وبضميمة إخبار جميع الرسل والأنبياء والكتب السماوية وما يقضي به العقل فإن بقي ذلك يكون من إنكار البديهي الضروري، ولا دليل يثبت مدعاهم سوى توهم استحالة إعادة المعدوم،

(١) قصص الأنبياء (للجزائري): ص ٣٧٠؛ البحار: ج ٧، ص ٤٢، ح ١٣.

(٢) المحاسن: ج ١، ص ٢٤٢، ح ٢٣٠؛ البحار: ج ٧، ص ٤٢، ح ١٤.

وهي باطلة في صغرها وكبرها^(١).

الثانية: نظرية العبثية والصدفة في الخلق.

والثالثة: نظرية اللادين، وكلاهما يؤمن بهما الطبيعيون والملاحدة القدماء والجدد، فإن الآية تفيد أن الوجود له مبدأ وله غاية وله يوم يحاسب فيه الناس، ولازم ذلك وجود تكاليف وأحكام ووجود أنبياء ورسل، وهذا ما يقضي به العقل السليم، والذي ينكر ذلك عليه أن يأتي بدليل ينفي. أمّا الشك والوسوسة التي وقعوا فيها فليس بدليل، بل انحراف عن موازين العقل والفطرة، ولذا هم القلة من الناس.

النظريات العلمانية التي تبطلها الآية

الرابعة: نظرية العلمانيين الذين يؤمنون بالملكيات الدستورية أو الملكيات الشعبية ونحوها.

الخامسة: نظرية القانون الوضعي القائمة على أن الدول وسلطاتها تملك حق التشريع والتملك.

السادسة: نظرية الدول القديمة التي كانت تعد الملك مالكا للبلاد والعباد. فإن هذه النظريات باطلة؛ لأن المالك الحقيقي للوجود هو الله عز وجل، ومن يملك أصولهم يملك تشريعهم والحكم بينهم، فكل سلطة ومملكة ومملك لا يستند إلى حكم الله وشريعته مخالف لقواعد العلم، ومضاد للسنن الإلهية في الوجود، وسيجمع الباري عز وجل المخالفين له في يوم القيامة،

(١) انظر رسائل في تفسير سورة الفاتحة: ج ٢، ص ٧٠٩.

ويظهر لهم حقانية ملكه ومملكته، ويجري فيهم عدله فيجازي المحسن بإحسانه، ويرى المسيء نتائج عمله، والذين لا يؤمنون بهذه الحقيقة سينالهم من الجزاء ما يناسب هذه العقيدة، فإنَّ الباري عزَّ وجلَّ لم يخلق الخلق لكي تسود فيه أحكام الشيطان وسياسته، وتقود البشر إلى المهالك الدنيوية والدينيوية، وإنَّما خلقهم ليختبرهم ويكمل عقولهم ونفوسهم، ويعدّهم للحياة الخالدة الأفضل في الآخرة، وقد وضع لهم الشريعة والقانون، ونصب لهم القادة الكُملين، وأمرهم باتباعهم، فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١) فإذا خالفوا هذا التوجيه جمعهم في يوم القيامة، وحاسبهم على ما فعلوا قادة كانوا أو أتباعاً، وفي الآخرة سيظهر لكل مدعي الملوكية أنَّهم ليسوا على شيء، ويقول لهم سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢). وبرزهم له حالات:

الأولى: بارزون من قبورهم لا شيء لهم، ولا يملكون من أمرهم شيئاً.

الثانية: بارزون في الحشر لا يسترهم شيء.

والثالثة: بروز دواخلهم وأسرارهم وأعمالهم لا يخفى منهم شيء، وهناك يظهر أنَّ كل طواغيت الأرض وجابرتها وعصاتها الذين كانوا يزعمون أنَّهم مالكون وحاكمون أنَّهم مملوكون ومحكومون.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) سورة غافر: الآية ١٦.

موت الحضارة الغربية

وبذلك تحاكي عقول العالم بشارتين:

الأولى: أن هذا الوضع المأساوي للعالم اليوم سيتتهي، وتموت حضارة الغرب لكثرة ظلمها وفسادها وستنتهي لسببين:

١. عوامل الهدم التي تحملها معها.

٢. إرادة الله سبحانه لأنه وعد الصالحين بأنهم سيرثون الأرض وما عليها: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١) ونحن اليوم نعيش مراحل الاختبار الإلهي للغرب، ويبدو من القرائن الكثيرة أن حضارته على وشك الزوال. وشواهد التاريخ تؤكد أن الحضارات لم تبق بيد واحدة، بل تنتقل من يد إلى يد ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢) هذا نقوله لعقلائهم وحكمائهم لكي يتلافوا هذا الطغيان والفساد الذي ملؤوا به الأرض.

الثانية: أن الفرج لأهل الإيمان قريب، وأن الله سبحانه سيفرج به عن المؤمنين ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾^(٣) ونرجو الله تعالى أن يقرب أيام الفرج الإلهي وهو قريب إن شاء الله تعالى كما تضافرت به الأخبار.

ففي رواية أبي حمزة الثمالي عن أبي خالد الكابلي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: ﴿تمت الغيبة بولي الله الثاني عشر من أوصياء رسول

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

(٣) سورة الروم: الآيتان ٤ و ٥.

الله ﷺ والأئمة بعده، يا أبا خالد! إنَّ أهل زمان غيبتة القائلون بإمامته، والمنتظرون لظهوره أفضل أهل كل زمان؛ لأنَّ الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله ﷺ بالسيف. أولئك المخلصون حقاً، وشيعتنا صدقاً، والدعاة إلى دين الله سرّاً وجهراً» وقال عليه السلام: «انتظار الفرج من أعظم الفرج»^(١).

والسؤال: ماذا يعني انتظار الفرج ولماذا هذا الجزاء؟

أحوال أهل الزمان وصفاتهم

والجواب: لأنَّ المجاهدة أعظم والتحديات أكبر والمغريات ومناهج الشيطان أضخم. انظر إلى ما ورد في الكافي بسنده عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: سيأتي على الناس زمان لا يُنال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى - أي بالغصب والبخل - وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدّق بي»^(٢) لأنه لا يحتمل ذلك ويخالف التيار العام إلا صديق من خواص الصديقين.

(١) الاحتجاج: ج ٢، ص ٥٠؛ البحار؛ ج ٥٢، ص ١٢٢، ح ٤.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٩١، ح ١٢؛ مشكاة الأنوار: ص ٥٥؛ البحار: ج ١٨، ص

١٤٦ - ١٤٧، ح ٨.

فما هي نتيجة هذه المجاهدة؟ النتيجة هي العدل والخير والأمن والسلام، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له يصف به أيام دولته: تستبشر الأرض بالعدل، وتعطي السماء قطرها، والشجر ثمرها، والأرض نباتها، وتزین لأهلها، وتأمّن الوحوش حتى ترتعي في طرق الأرض كأنعامهم، ويقذف في قلوب المؤمنين العلم، فلا يحتاج مؤمن إلى ما عند أخيه من علم، فيومئذ تأويل هذه الآية: ﴿يُغْنِي اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾^(١) وتخرج الأرض كنوزها، ويقول القائم: ﴿كلوا هنئنا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾^(٢).

التعليم الثالث: انظروا إلى العواقب

أن مالكية الباري عز وجلّ ليوم الحساب هي الخاتمة التي يجب أن ينظر إليها كل إنسان، فإن حركة الحياة طويلة وفيها الكثير من المطبات، ويواجه الإنسان فيها اللذات والآلام والمنافع والأضرار، والعاقل الناجي فيها هو الذي ينظر إلى آخر النفق وماذا ستكون النهاية، فإن الله سبحانه خلق الدنيا والأرض والناس وأعطاهم حرية العمل والقول. لا يضع أقفالاً على ألسنتهم، ولا على أيديهم من حديد، وإنما أراد أن يجعلوا لأنفسهم الحدود والأقفال بالتهذيب والتربية والتعليم، فإذا ما جعلوا لأنفسهم ذلك فإنه لا يمنعهم من فعل ما يريدون، ومن لطفه أنه لا يُعَجِّل لهم المؤاخذه والعقاب على أفعالهم إذا عصوا وجحدوا؛ لأنه سبحانه قادر عليم محيط ذو أناة فلا

(١) سورة النساء: الآية ١٣٠.

(٢) البحار: ج ٥٣، ص ٨٥، ح ٨٦؛ وانظر مكيال المكارم: ج ١، ص ٢٢٥.

يعجل في المؤاخذه، لأنّ مصير الجميع إليه ﴿إنّما يعجل من يخاف الفوت﴾^(١) فما الذي يفوت عليه حتى يعجل في المؤاخذه، لكن هذه سنّته في الوجود أنّه يمنح الجميع فرصة الاختبار، وإظهار ملكاته وإبدعته في أفعاله.

والإنسان الذي ينظر إلى نهاية النفق وأنّه مملوك وراجع إلى ربه يجب أن يكون مؤمناً صالحاً لا يؤذي ولا يظلم ولا يعصي، فإنّ ذلك كله جحود وهلكة، ولذا على العاصي أن يسأل نفسه إلى متى هذا العصيان، وأنت بعصيانك تتحدى مَنْ؟ وتعاود مَنْ؟ وتطيع هواك وشيطانك عناداً لربك لماذا؟ هل الله سبحانه يستحق منك ذلك؟ المرأة التي تتبرّج ولا تبالي بحجابها تتحدى مَنْ؟ الله يقول تحجّبي لو كنت عبدة لله تسمعين وتطيعين، فإذا لم تسمعي وقفت موقف المعاند المتحدي، فهل لك قدرة على ذلك؟

والإنسان الذي يشرب الخمر ويأكل الرشا، والشاب الذي يعق والديه إلى غير ذلك من المعاصي لو فكّر هؤلاء أنّهم في خاتمة أمرهم يعودون إلى حاكم عادل محيط بكل ما يفعلون لتجاوزوا العصيان، وصاروا في الطاعة، والذي يزيد الظلم ظلماً أنّهم بنعم الله يعصون الله سبحانه، فبنعمه وقوته وجماله وماله الذي أعطاهم إياه يعصونه (من يقن أنّ الله سبحانه يراه وهو يعمل بمعاصيه فقد جعله أهون الناظرين)^(٢) فالتعليم الذي نستفيده هنا أنّ على الإنسان أن يفكّر في عواقب الأمور قبل فعلها والإقدام عليها.

(١) الإقبال: ج ١، ص ٢٥٠؛ البحار: ج ٨٨، ص ٢٤، ح ٧.

(٢) كنز الفوائد: ص ١٦٣؛ البحار: ج ٧٥، ص ٩٢، ح ٩٨.

وأفضل الناس من لم يرتكب سبباً حتى يميز ما تجني عواقبه^(١)

الصبر على النتائج

وهذا الفكر يضمن الإنسان أمرين:

الأول: السلامة من العيوب والقبايح وارتكاب الأخطاء؛ لأنّ النظر إلى العاقبة يجعل الإنسان متأنياً قبل الإقدام على أي فعل يريده.

الثاني: تحصيل النتائج الأفضل، فإنّ المستعجل في كثير من الأحيان يصاب بالزلل، ويفشل في مطالبه؛ لأنّ كل نتيجة تتطلب مقدمات يجب أن تُهيأ حتى يحصل عليها، والمستعجل في غالبه يعمل بلا مقدمات كافية، والنتائج تتبع مقدماتها، ولذا ورد في الأحاديث الشريفة الحث على عدم التعجّل؛ لأنّ فيه الندامة وتفويت المصالح^(٢).

وهنا نلفت النظر إلى ملاحظتين:

إلفات إلى طلبة العلم

إحدهما: لطلبة العلم في المدارس والجامعات والحوزات العلمية أنّ من أراد حرق المراحل الدراسية دون تأنّ فيها فإنّه يبقى جاهلاً، وربما أحرقته.

(١) كتاب ذم الهوى (لابن الجوزي) : ص ٢٥؛ التمييز (لابن معن) : ص ٢٢٩؛ وقد ورد بصيغة أخرى:

فإنّ اللبيب الذي لا يرتكب عملاً حتى يفكر ما تجني عواقبه

(٢) غرر الحكم: ص ٤٨٠، ح ٨٣؛ تصنيف غرر الحكم: ص ٢٦٧، ح ٥٧٩٧.

تَأْتِي الْقَادَةَ وَالْإِدَارِيِّينَ

وثانيتها: للتجّار والساسة والموظفين والإداريين. من أراد أن يقفز المراتب النظامية في الارتقاء يفشل في مهامه؛ لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ﴿من رفع بلا كفاية وضع بلا جناية﴾^(١) والكفاية لا تأتي بالعجلة، بل بالصبر والجد والمثابرة وارتقاء المراحل بالنهج الوازن، ولذا ورد في الأحاديث الشريفة التحذير من التعجل؛ لأنّ فيه الندامة وتفويت المصالح، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ذر العجل فإنّ العجل في الأمور لا يدرك مطلبه، ولا يحمده أمره﴾^(٢).

مضار العجلة وآثارها

وهذه قضية هامة لا يختلف فيها الناس، وإليها يعود الكثير من الفشل والمشاكل والأزمات. نلاحظ مثلاً بعض طلبة العلم يتوفقون في التحصيل، وبعضهم يبذلون جهداً ولا يصلون، وحينما ندرس الأسباب نجد أهمها هو العجلة، فإنّ المتأني يلازمه النجاح، والمتعجل يلازمه الفشل، والكثير من حالات الطلاق التي تحصل في البيوت منشؤها التعجل في اتخاذ القرار، لذلك جعل الشرع شروطاً في الطلاق، وألزم المرأة بالعدة، وأجاز للزوج الرجوع إليها في العدة الرجعية لكي يبقى مجالاً للتأني ومراجعة النفس والنظر في العواقب، فبعض القرارات تصدر بعفوية واستعجال يندم عليها

(١) تصنيف غرر الحكم: ص ٢٦٧، (٥٧٩١).

(٢) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٤، ح ٧٨٨٥.

أهلها، ولو تأنى الأزواج قبل اتخاذ هذا القرار لقلت نسبة الطلاق كثيراً.
وهكذا العالم في الفتوى فإنه إذا تعجل ربما أخطأ بخلاف المتأني
والمحتاط، وكذلك المدير والوزير، وحتى الذنوب والمعاصي فإن الكثير
منها تقع نتيجة العجلة، ولو تأنى ونظر إلى العواقب فإنه يتراجع في الكثير
من الأحيان؛ لأن التأني والصبر من نفحات الرحمن وهي توصله الى الرحمة،
بخلاف العجلة فإن فيها نفث الشيطان فتقوده إلى الهلكة والندامة، فلو
التفت الناس إلى هذه الحقيقة وفكروا بعواقب الأمور قبل فعلها فإنهم
سيكونون إلى الصواب أقرب في الكثير من أمورهم، ويبلغون ما يريدون.

أكثر الجنايات بالعجلة

ويقول أهل المعرفة إن أكثر الجنايات والجرائم تقع بقرار خاطئ
مستعجل، فربما لحظة واحدة يستغفل الإنسان ويستعجل ويقتل، وربما قتل
أولاده. وأكثر الحروب التي تقع تنشأ من التعجل؛ لذا يسعى أهل الحكمة
والتشريع إلى تطويل أمد اتخاذ القرارات المصيرية في الدولة، ويخضعونها إلى
إجراءات معقدة للوقوف أمام الارتجال والاستعجال في القرارات وإتاحة
الفرصة الكافية للنظر في عواقب الأمور، والله عز وجل يعلمنا بهذه الآية
أن نستحضر دائماً هذه الحقيقة، وهي أن مسيرة الحياة التي نعيشها تنتهى
يحاسب فيه الإنسان على أعماله، وجعلها آية في أعظم سور القرآن التي
فرض قراءتها على الناس في صلواتهم لكيلا يغفلوا عن هذه الحقيقة
فيستقيموا في الأعمال، ويهتدوا في الأفكار، ويحسبوا لكل شيء حسابه.

ولو أخذ الناس بهذه الحقيقة لارتفعت أسباب الكثير من المشاكل
والأزمات والمفاسد الاجتماعية والسياسية، وصارت حياتهم أكثر أمناً

وسلامة وسعادة، وهذا ما تعززه الروايات عن أمير المؤمنين عليه السلام، ففي وصيته لمحمد بن الحنفية قال: ﴿من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ، ومن تورط في الأمور غير ناظر في العواقب فقد تعرض لمفطعات النوائب، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم، والعاقل من وعظته التجارب﴾^(١) لأن المتعجل يخطأ ويجب أن يتعلم، والنوائب جمع نائبة وهي النازلة من المهمات والحوادث.

أثر النظر في العواقب

وفيما أوصى آدم ابنه شيثاً: ﴿إذا عزمتم على أمر فانظروا إلى عواقبه، فإني لو نظرت في عاقبة أمري لم يصبني ما أصابني﴾^(٢).

والنظر في العواقب لا يختص بالمصائب والابتلاءات، بل حتى في الإنجازات، فإن الطالب إذا نظر إلى عاقبة أمره لا يجهده السهر والتعب، والمصلي والصائم والمتقي المتورع لا يتعب من الرياضة.

وفي جوامع كلام أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق بأن لا ينزل به مكروه أبداً. قيل: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال العجلة واللجاجة والعجب والتواني﴾^(٣) والتواني هو التقصير في موقع المهمة.

(١) الفقيه: ج ٤، ص ٣٨٨، ح ٥٨٣٤؛ الوسائل: ج ١٥، الباب ٣٣ من أبواب جهاد النفس، ص ٢٨١، ح ٢٠٥١٧.

(٢) البحار: ج ٧٥، ص ٤٥٢، ح ١٩؛ مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٣٠٧، ح ١٣١١٤.

(٣) البحار: ج ٧٥، ص ٦٢، ح ١٤٤.

وفي رواية أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: علمني يا رسول الله. فقال: عليك باليأس عما في أيدي الناس فإنه الغنى الحاضر. قال: زدني يا رسول الله.

قال: إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر. قال: زدني يا رسول الله. قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك خيراً ورشداً فاتبعه، وإن يك غياً فاجتنبه^(١) وهذا سر النجاح والفلاح في الأعمال والعلاقات الاجتماعية.

هذه الحقيقة يرشدنا إليها الباري بقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ أي انظروا قبل كل شيء إلى عواقب الأمور، فإن أقوالكم وأعمالكم أنتم مسؤولون عنها في نهاية المطاف، فليختر كل إنسان مصيره.

التعليم الرابع: آثار الإيمان بالمعاد

أنّ للإيمان بيوم القيامة آثاراً وفوائد كثيرة على حياة الناس. بعضها أشرنا إليها، والتعليم المهم هو أنّه يجعل الإنسان يعيش بين الخوف والرجاء، وهذان محوران مهمان يقودان الإنسان إلى الأفضل، فإنّ تهذيب النفس يقوم على أساس الاعتقاد بيوم القيامة ولدى أصناف البشر، أما الصالحون من العباد سواء كانوا من التجّار الذين يعبدون الله طلباً للنعيم أو من العبيد الذين يعبدونه خوفاً من الجحيم فواضح، وكذا المقرّبون الذين يطلبون درجات القرب منه، فإنّهم يرغبون ببلوغ هذا المقام في ذاك

(١) المحاسن: ج ١، ص ١٦، ح ٤٦؛ البحار: ج ٧٤، ص ١٢٩ - ١٣٠، ح ٣٦؛ الوسائل: ج ١٥، الباب ٣٣ من أبواب جهاد النفس، ص ٢٨٢، ح ٢٠٥٢٢.

اليوم العظيم. وهذه الحقيقة يدركها أهل الاصطفاء

ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على الله تعالى وفضيحة هتك الستر على المخفيات لحق للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متصل بالتلف، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه إلى عرصاتها مدعو، وفي غمراتها مسؤول. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١) (٢).

فالاعتقاد بربوبية الخالق ووحدانيته والعبودية له وحدها لا تكفي لتربية الإنسان وتهذيبه ما لم يكن هناك منتهى يعود فيه إلى ربه، ويحاسب على أفكاره وأعماله، ويمجّز عليها، ولذا جعل الباري عز وجل ملازمة بين العذاب وبين نسيان يوم الحساب في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٣) ونسيانهم ليوم الحساب يجتمع مع اعتقادهم بالخالق والعبودية له، إلا أن هذا الإيمان وحده لا يدعو الإنسان إلى الالتزام الكامل؛ لأن المعتقد بالله يعتقد برحمته ولطفه وإحسانه، وهذه العقيدة تعطي صاحبها الشعور بالأمل والرجاء، فربما

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٢) مصباح الشريعة: ص ٨٥؛ تفسير نور الثقلين: ج ٢، ص ٤٩٧، ح ٩٨؛ البحار: ج

٦٨، ص ٢٦٥، ح ٨.

(٣) سورة ص: الآية ٢٦.

تهاون في واجباته وتمادى في ذلك.

نعم العقيدة الحقّة تدعوه إلى الطاعات ولكن ليس بالضرورة تدعوه إلى اجتناب المعاصي، والذي يضبط الإنسان على الطاعات واجتناب المعاصي هو الاعتقاد بيوم القيامة، فإذا نساه تمادى في العصيان، ونال العذاب الشديد.

فالآية المباركة ترشدنا إلى حقيقة هامة وهي أنّ الهداية لسبيل الله والنجاة من النار يتوقف على هذه العقيدة، وهذا ما يؤكده الواقع الخارجي، فإنّ الظالمين والفاستدين والمجرمين والغاصيين وكل معتد أثيم لو كان يعتقد بيوم الحساب ويستحضره فإنّه لا يعتدي ولا يرتكب المعاصي، ومتى ما وجدنا ظلماً وظالماً وجريمة ومجرماً عرفنا أنّ سببه ضعف الإيمان بيوم الحساب، ولذا ورد (مَنْ أَمِنَ الْعُقُوبَةَ أَسَاءَ الْأَدَبُ) ^(١) ولا يأمن العقاب إلّا من نسي الآخرة (ومن خاف العقاب انصرف عن السيئات) ^(٢) وتؤثر هذه العقيدة في إدارة النفوس والأفراد، فإنّ الرحمة وحدها دون محاسبة ومؤاخذه تسبب التهاون والتسيّب في الأمور، كما أنّ الحساب وحده يوجب التذمر والنفور، ولا تستقيم الإدارة إلّا بالاثنين معاً.

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في معنى ﴿يوم الدين﴾ قال: ﴿هو يوم الحساب. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا أخبركم بأكيس الكيسين

(١) أخلاق أهل البيت عليه السلام: ص ٢٤٩؛ شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٣٦١.

(٢) تصنيف غرر الحكم: ص ١٤٦، ح ٢٦٤٤؛ غرر الحكم: ص ٦٢٧، ح ٩٧٤؛ عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٦٠.

وأحمق الحمقى؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أكيس الكيسين من حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت، وإنَّ أحمق الحمقى من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله تعالى الأماني، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! وكيف يحاسب الرجل نفسه؟ قال: إذا أصبح ثم أمسى رجع إلى نفسه فقال: يا نفس! إنَّ هذا يوم مضى عليك لا يعود إليك أبداً، والله تعالى يسألك عنه فيما أفنيت، فما الذي عملت فيه، أذكرت الله أم حمدته؟ أفضيت حوائج مؤمن؟ أنفست عنه كربة؟ أحفظتيه بظهر الغيب في أهله وولده؟ أحفظتيه بعد الموت في مخلفيه؟ أكففت عن غيبة أخ مؤمن بفضل جاهك؟ أعنت مسلماً؟ ما الذي صنعت فيه؟ فيذكر ما كان منه، فإن ذكر الله جرى منه خير حمد الله تعالى وكبره على توفيقه، وإن ذكر معصية أو تقصيراً استغفر الله تعالى، وعزم على ترك معاودته، ومحا ذلك عن نفسه بتجديد الصلاة على محمد وآله الطيبين، وعرض بيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام على نفسه وقبوله لها، وإعادة لعن أعدائه وشائتيه ودافعيه عن حقه، فإذا فعل ذلك قال الله تعالى عز وجل: لست أناقشك في شيء من الذنوب مع موالاتك أوليائي ومعاداتك أعدائي^(١).

التعليم الخامس: يزول الملك ويبقى الأثر

يعلمنا قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أن كل ملك يعود إليه سبحانه، وأن ما يملكه الإنسان في الدنيا فهو زائل العين يقيناً، والذي يبقى منه أثره،

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٣٨؛ تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٨٩؛ تأويل الآيات: ج ١، ص ٢٦.

وهو لا يخلو من حالتين إمّا أن يكون أثراً طيباً يقوده إلى نعيم مالكة، وإمّا أن يكون أثراً سيئاً يعود به إلى عذاب مالكة. تضافرت على هذه الحقيقة الأدلة النقلية والبراهين العقلية؛ لأنّ الأعمال تتجسّم، وتجسّمها يبقّيها في كل مراحل الزمان، فكما أنّ الإنسان يبقى في النشآت ويتقلب من حال إلى حال كذلك أعماله وآثاره، فلا يوجد شيء يتبدّل إلى عدم محض، بل يتبدل من وجود إلى وجود آخر، وقد قررنا غير مرة أنّ للإنسان وجودين أحدهما ملكي ظاهر، والآخر ملكوتي باطن، فكذلك أعماله وأفعاله لها صورة ظاهرة وأخرى باطنة، ولذا يجب أن يحسب لتصرفاته فيما يملك ألف حساب؛ لأنّ كل تصرف يصدر منه فإنّه يبقى، فليسع لأن يكون له نوراً وذخراً في مستقبل أيامه في الدنيا وفي الآخرة.

ومما ينبغي للعاقل أن يفكر في دوام ملكه وبقائه أن ينتفع به في جميع الأوقات من ناحيتين:

الأولى: الناحية الظاهرية وتتقوم بأمرين:

الأول: أن يكتسب ماله بالحلال.

والثاني: أن ينفقه بالحلال.

والثانية: الناحية المعنوية وتتقوم بإنفاق المال في الخيرات والمبرات، وهذا هو النهج القويم الذي يصير المال أداة لسعادة الإنسان وكماله، ومن دون ذلك فإنّه يكون من أسباب شقائه.

كيف تبقي مالك وولدك؟

والروايات الواردة بهذا الشأن كثيرة، منها ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجُلٍ يَغْرِسُ غَرْسًا فِي حَائِطٍ لَهُ، فَوَقَفَ لَهُ وَقَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غَرْسٍ أَثْبَتُ أَصْلًا وَأَسْرَعُ إِينَاعًا وَأَطْيَبُ ثَمَرًا وَأَبْقَى؟ قَالَ: بَلَى فِدْلَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: إِذَا أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ فَقُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَإِنْ لَكَ مِنْ قُلْتِهِ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ عَشْرَ شَجَرَاتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَاكِهَةِ وَهَنَّ مِنْ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، قَالَ: فَقَالَ الرَّجُلُ: فَإِنِّي أَشْهَدُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ حَائِطِي هَذَا صَدَقَةٌ مَقْبُوضَةٌ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ ^(١) ^(٢).

وقد أشار بها إلى الشجرة الباطنة للمال والعمل، وفيها دلالة عظيمة لأهل المال والإنفاق ليتخذوه وسيلة لبقاء العمل ودوام ثمره، ويضمنوا به القبول والرضا وهو الإعطاء عن تقوى وتصديق بتعويض الله سبحانه لهم، وهذا يشمل من ينفق درهماً أو ضيعة في سبيله تعالى، فإنه يكافئ الحسن بالأحسن. وما يقال في المال يقال في الأولاد؛ لأنها جزء ما يملكه الإنسان عرفاً وشرعاً بالملكية الدلالية أي ملكية التصرف، فإذا لا يسلك معها سبيل

(١) سورة الليل: الآيات ٥ - ٧.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٥٠٦، ح ٤؛ الأمالي (للصدوق): ص ٢٧٠، ح ٢٩٨؛ البحار: ج ٩٠، ص ١٦٨، ح ٢.

الخير قاده إلى جهنم، وبهذا الاعتبار وصفت الأموال والأولاد بأنها فتنة^(١)، وأن كنز الأموال دون إنفاق في سبيل الله يحمى عليها في نار جهنم ثم تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم^(٢).

فتدل على أن المال الذي يكتنزه الإنسان يبقى ولا يفنى ويتبدل في النشآت حتى يعود في الآخرة ويُعَذَّب به في جبهته وجنبه وظهره؛ لأنَّ الجبهة محل الشرف، والجنب محل الراحة والسكون، والظهر محل الحماية، والذين يكتزون الذهب والفضة يكتزونهما لهذه الدواعي الثلاثة، فبها يُعَذَّبون من ذات جهات الكنز والادخار والبخل بها عن الإنفاق، فلا يقود صاحب المال إلى النعيم المقيم إلاَّ الإنفاق في سبيل الله، وسبيل الله يشمل كل وجوه الخير بما فيها التوسعة على العيال.

الممدوح والمذموم في المال

ومنه يتضح أن كثرة المال ليست هي المذمومة بل هي ممدوحة في نفسها، والذي يوجب وصفها بالمدح والذم هو جهة كسبه وجهة إنفاقه. وهذا ما تعززه الروايات، فعن الصادق عليه السلام قال: ﴿يقول إبليس - لعنه الله -: ما أعياني في ابن آدم فلن يعينني منه واحدة من ثلاث: أخذ مال من غير حله، أو منعه من حقه، أو وضعه في غير وجهه^(٣)﴾.

(١) انظر سورة الأنفال: الآية ٢٨.

(٢) انظر سورة التوبة: الآيتان ٣٤ و ٣٥.

(٣) الخصال: ص ١٣٢ - ١٣٣، ح ١٤١؛ البحار: ج ٦٠، ص ٢٢٣، ح ٦٨.

وقوله: (أعياني) أي أعجزني، وأخذ المال من غير حله يعني مصدر كسبه، ومنعه من حقه عدم إعطاء الحقوق الشرعية المتعلقة به من خمس أو زكاة، ووضعه في غير وجهه أي إنفاقه في الوجوه غير المحللة، ولكل واحد من هذه الوجوه الثلاثة أثر سيء.

ففي رواية هشام بن الحكم عن الصادق عليه السلام قال: ﴿من كسب مالا من غير حلّ سلّط الله عليه البناء والماء والطين﴾^(١).

ومرجع الضمير في (عليه) يحتمل معنيين:

الأول: أنّه المال، أي أنّ المال الحرام مصيره الدفن فلا ينتفع منه صاحبه، ويكون وبالاً عليه.

بركة المال وأثره

الثاني: أنّه صاحب المال، ويراد تسليط ذلك عليه، إمّا إنفاقه فيما يبيّنه لنفسه من دور ونحوها كناية عن خراب داره فيصرفه في ترميم حاله أو في بناء بدنه، وتخليصه من الأمراض وما يتعلق بشؤونه، ولا ينتفع منه في النماء ولا في الراحة كما كان يطلب ويسعى له.

وإما يموت فلا ينتفع ويدفن في قبره، وهو نوع تسليط للبناء والماء والطين عليه، ولا مانع من الجمع لوجود المقتضي وانعدام المانع.

وربما يقرأ (سُلّط) مبنياً للمجهول، ومفاده أن يُسلّط الباري عزّ وجلّ

(١) الكافي: ج ٦، ص ٥٣١، ح ٢؛ الخصال: ص ١٥٩، ح ٢٠٥؛ البحار: ج ١٠٠، ص ٤، ح ١٢.

عليه ذلك، أو تتسلط عليه الأسباب الطبيعية وتقوده إلى هذا المصير، وأمّا آثاره المعنوية فتجعل الإنسان من جنود إبليس ومساقه إلى النار.

فعن النبي المصطفى ﷺ: ﴿من لم يبالِ من أي باب اكتسب الدينار والدرهم لم أبالِ يوم القيامة من أي أبواب النار أدخلته﴾^(١) لأنّ للنار أبواباً، وكل باب يخصّ قسماً من المذنبين المجرمين، وعدم المبالاة بكسب المال له أبواب عديدة؛ لذا تفتح له كل أبواب جهنم، وفي ذلك كناية عن أنّ الشفاعة لا تقبل بحقه ولا يغفر له، وإذا غفرت له بعض الذنوب وأغلقت عليه بعض أبواب النار يبقى بعضها الآخر مفتوحاً له، فمصيره إلى النار حتمي، ولا تناله شفاعة محمد وآل محمد ﷺ؛ لأنّه عبّد المال واتبعه في دنياه وأطاع موارده المحرمة، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: ﴿أنا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الفجار﴾ ومعنى ذلك: أن المؤمنين يتبعوني، والفجار يتبعون المال كما تتبع النحل يعسوبها، وهو رئيسها^(٢).

بين أولياء الله وأعدائه

وهذا يتميّز أولياء الله عن غيرهم، فإنّ سيرة أولياء الله إنفاق المال، أمّا سيرة النواصب وأعداء آل محمد جمع المال، وبيع الدين لأجل المال، والذي يجمع المال من المؤمنين ولا ينفق منه في الآخرة قد تعظم حسرته؛ لأنّه يرى أنّ

(١) الاختصاص: ص ٢٤٩؛ مستدرک الوسائل: ج ١٣، ص ٦٧، ح ١٤٧٦٦.

(٢) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٧٥، قصار الحكم ٣١٦؛ البحار: ج ٣٤، ص ٣٤٧، ح ١١٧٢، وفيه: "كما تتبع النحل يعسوبها".

ماله ذهب لغيره فانتفع به، وكان وباله عليه فقد ورد عنه عليه السلام: ﴿أَنْ أَعْظَمَ الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالا في غير طاعة الله، فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنة ودخل الأول به النار﴾^(١).

عبودية المال والأوثان

ولا بد وأن يلتفت ابن آدم إلى أنّ حب المال إذا لا يكون في الطاعة قد يدرجه في شريعة عبّاد الأوثان وربما أكثر. فقد ورد عن ابن عباس أنه قال: ﴿إنّ أول درهم ودينار ضربا في الأرض نظر إليهما إبليس، فلما عاينهما أخذهما فوضعهما على عينيه، ثم ضمهما إلى صدره، ثم صرخ صرخة - وهي صرخة الفرح والسرور - ثم ضمهما إلى صدره ثم قال: أنتما قرّة عيني وثمرّة فؤادي ما أبالي من بني آدم إذا أحبوكما أن لا يعبدوا وثناً، حسبي من بني آدم أن يحبوكما﴾^(٢).

والوثن كل معبود غير الله سواء كان مجسّداً أو غير مجسّد، ولذا وصف اللعب بالشطرنج والنرد وسائر أنواع القمار بالوثن^(٣)، وهو أعمّ من الصنم، فإنّهُ المعبود المجسّد المصنوع من الحجارة والصخر ونحو ذلك^(٤).

وكان فيما سأل يهودي أمير المؤمنين عليه السلام: لم سمي الدرهم درهماً والدينار

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ١٠٠، قصار الحكم ٤٢٩؛ البحار: ج ١٠٠، ص ١٢، ح ٥٧.

(٢) الأُمالي (للصدوق): ص ٢٦٩، ح ٢٩٦؛ البحار: ج ٧٠، ص ١٣٧، ح ٣.

(٣) مجمع البحرين: ج ٦، ص ٣٢٤، (وثن).

(٤) مجمع البحرين: ج ٦، ص ١٠٣، (صنم)؛ معجم الفروق اللغوية: ص ٣٢٢،

ديناراً؟ فقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا سُمِّيَ الدرهم درهماً لَأَنَّهُ دار هم. من جمعه ولم ينفقه في طاعة الله أورثه النار وإنَّما سمي الدينار ديناراً لَأَنَّهُ دار النار. من جمعه ولم ينفقه في طاعة الله أورثه النار﴾^(١) ومنه يتضح أن خير ما يملكه الإنسان ما يورثه ذخراً وذكراً، ويكسبه حمداً وأجراً^(٢).

هذا كله في المُلْك الشخصي، وأمَّا الملك العام وما تقام عليه الدول فثباته بالعدل والإنصاف، والصرامة في الحق بها يدوم الملك والحكم والممالك.

خدعة الديمقراطية والانتخابات

وبهذا الميزان سوف يحاسب الباري الملوك والحكّام والحكومات، أي يحاسبها على إقامة العدل، ولا يعني العدل ما يقال له الديمقراطية والإتيان بالانتخابات، فكل العالم يعلم اليوم أنّ الديمقراطية الحقيقية غير موجودة، وكل انتخاب يتلاعب فيه المال والإعلام والمصالح، فلا عدل في الانتخابات المقامة حالياً، ولا يعني العدل أن تجعل البلد بيد الأهواء والشهوات والتحلل من القيم، وساحة للهو واللعب باسم الحرية والانفتاح وأمثال ذلك، فإنّ الفساد ظلم وعدوان وليس بعدل، ولا يعني العدل أن تفتح البلد للآخرين وتجعله ساحة صراع اقتصادي أو تجاري أو سياسي، فإنّ هذا ظلم وليس بعدل.

(١) علل الشرائع: ج ١، ص ٣، ح ١؛ البحار: ج ٧٠، ص ١٤٠، ح ١٤.

(٢) الغرر: ص ٢٤٤، ح ٢٢٤.

دلائل العدل والظلم

وإنما العدل يقوم على عوامل عديدة من أهمها أمران:

الأول: أن يأخذ صاحب الحق حقه، وأن لا يبقى محروم في الناس، ولا توجد موانع وعراقيل وروتين وغالب ومغلوب، وإنما كل مواطن في البلد له حقوق على الدولة تصل إليه بالواجب والحق ويسر وسهولة، فيكون الحق مثل الهواء الذي يتنفسه الإنسان يصل إليه، سواء كان حقاً أولياً كالطعام والشراب والسكن بتهيئة فرص العمل الكافية، أو حقاً تكميلياً كالتعليم والصحة، أو حقاً رفاهياً كالعيش الكريم، فإذا اختلت هذه ولم يصل إليها الإنسان بشتى المبررات والأسباب فليعلم أن الحكم غير عادل، وأن الحرمان هو الحاكم، ولا يمكن أن يجتمع العدل مع الحرمان.

الثاني: أن يكون الدين والضمير الإنساني هو معيار التعامل والارتباطات في السياسات والمعاملات، فلا يعقل أن يكون عدل ويحكم العلاقات بين الدولة والناس وبين الناس أنفسهم رابط المال والمادة والمصالح؛ لأن المال والمصالح سيّدان الأنانية والاحتكار، وهما يلازمان الحرمان، ولا يمكن أن تزول القيم الإنسانية التي يرسّخها الدين في العلاقات الاجتماعية؛ لأنّ زوال القيم يعني انعدام الأخلاق وموت الضمير، وهو الآخر يوجب غلبة القوي على الضعيف والغني على الفقير، ولا يأمن الإنسان في مجتمع بلا قيم على نفسه وماله وعرضه، والذي يوجب الأمن والراحة والسعادة هو الدين والقيم الإنسانية ﴿وَمَنْ لَمْ

يَحْكُمُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(١).

المتدينون ومحترفو الدين

ويجب أن يميّز الناس بين الدين الإلهي وبين من ينتسبون إلى الدين، أو ينتفعون باسم الدين لأجل المال والسلطة، فالفرق كبير بين الطرفين، فإنّ أبا سفيان ومعاوية ويزيد وبني العباس كانوا باسم الدين يحكمون، وكانوا يلبسون الزي الديني ولهم عمام ولحى، ويججّون ويصلّون الجمعة والعيد، ويصومون رمضان بحسب ظاهرهم، ولكنهم في واقعهم كانوا وحوشاً وطالبي دنيا، حتى في يوم عاشوراء كان يصلي عمر بن سعد والشمر، وصلى على قتلاه لكنه ترك حجة الله على الأرض عارياً مسلوباً، وأخذ نساءه وأطفاله سبايا، وهكذا من سبقهم ومن لحق بهم، فالأكل والتجارة باسم الدين كثيرة، ولكن على الناس أن لا يغفلوا عن هذه الحقيقة، وهي أنّ الدين مظلوم، وأهل الدين الحق مظلومون ومجهولو القدر.

فإنّ أهل الدنيا قد يسرقون ويظلمون باسم الدين ويتمظهرون بمظهره، ولكنهم ليسوا متدينين، بل محترفي الدين، فلا ينبغي أن يحسبهم الناس على الدين.

آل محمد ﷺ هم الدين

الدين الحق عند محمد وآل محمد ﷺ، هم دين الله، وبهم يعرف نهجه وموازينه وأحكامه.

هم جبل الله المتين وصراطه المستقيم، ومنهم يجب أن يؤخذ، وكل نهج

(١) سورة المائدة: الآية ٤٥.

يخالف نهجهم لا يمكن أن يكون نهجاً دينياً ولا سياسة دينية، ولا يمكن أن يكون عدلاً، وهذا ما ترشد إليه الأخبار، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ثبات الدول بإقامة سنن العدل﴾^(١) وسنن العدل يعني طريقه وأساليبه.

مظاهر العدل في الدولة

وطرق العدل عديدة ولها مظاهر:

منها: تحكيم الدين وقيمه في الحياة، فإنّ الدين لله، والله هو المالك الحقيقي للأشياء، وشريعته هي شريعة الحياة.

ومنها: أن يصل كل صاحب حق إلى حقه، فلا تمنعه الحزبيات والفئويات والروتين الإداري، ولا الانتخابات المزيّفة ولا غيرها.

ومنها: أن تصان حرمة الإنسان وكرامته وعرضه وماله.

ومنها: أن يكون للناس رأي واضح حر وصريح في مناهج الدولة وسياستها غير مغلف ولا مقنّع.

فإنّ العدل حقيقة بسيطة لا يتنصّف ولا يتجزّأ، فلا يمكن للدولة العادلة أن تكون عادلة في الاقتصاد وتوزيع الثروة وظالمة في القضاء مثلاً، أو تكون عادلة مع الموظفين وتحرم غير الموظفين من ثروات البلاد، فلا تحصّن الدول بمثل استعمال العدل الشامل في كل مجالات الحياة، وذلك لا يكون إلّا إذا صار الدين قائماً على الأمور. وهو ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

(١) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٠، (٧٧٦١).

﴿صَيَّرَ الدِّينَ حِصْنَ دَوْلَتِكَ، وَالشُّكْرَ حِرْزَ نِعْمَتِكَ، فَكُلْ دَوْلَةً يَحُوطُهَا الدِّينَ لَا تَغْلِبُ، وَكُلْ نِعْمَةً يَحِرْزُهَا الشُّكْرَ لَا تَسْلُبُ﴾^(١).

والعدل من أظهر مصاديق شكر نعمة المُلْك، فإذا كان الحاكم متديناً شاكراً يحصن دولته بحصنين إلهيين حصن الشكر وحصن العدل، ولكن المقصود دين محمد وآل محمد لا دين بني أمية وأمثالهم، والدين الذي يؤخذ من القرآن والسنة لا تصرفات أهل الدنيا باسم الدين، والحاكم والمحكوم كلاهما يرجعان إلى الدين لا الأهواء، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث آخر: ﴿مَنْ جَعَلَ مَلِكَهُ خَادِماً لِدِينِهِ انْقَادَ لَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ، وَمَنْ جَعَلَ دِينَهُ خَادِماً لِمَلِكِهِ طَمَعَ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ﴾^(٢).

وهنا بيّن الإمام سرّ القوة والهيبة والعظمة بين الدول والمجتمعات، فإنّ من يلتزم بالدين الحق فإنّ الله عزّ وجلّ - وهو سلطان السماوات والأرض - يجعل كل سلطان تحت أمره بواسطتين: أحدهما: السبب الغيبي.

وثانيهما: السبب الطبيعي؛ لأنّ العدل والدين يوجبان المحبة والتعاون والأمل، ويفتحان العقول والابداع والطاعة، ويرفعان الجرائم والجنايات أو يخففانها؛ لأنّ الجرائم تأتي من الحرمان، والعدل يرفع الحرمان، ويوجب عدالة القضاء، وبالعكس ذلك الظلم والجور،

(١) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٣، (٧٨٦٣).

(٢) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٤، (٧٨٨٨ - ٧٨٨٩).

فإنه يهدم بانيان الدول مهما قويت، ومما يزيد من هدمه أن الله سبحانه يهيء أسباب هدمه؛ لذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿من جار في سلطانه وأكثر عدوانه هدم الله بنيانه، وهدد أركانه﴾^(١).

سر سقوط الدول والحضارات

وهذه قاعدة حقيقية مفادها أن سقوط الدول والحضارات يقوم على سببين:
الأول: الجور في السلطة والسلطان.

الثاني: كثرة العدوان.

وكثرة العدوان لها مظاهر، ومن أجلى مظاهرها شيوع الفساد الإداري والمالي والأخلاقي في سياسة الدولة ودوائرها، فيصبح كل شيء لا يقضى إلا بالعدوان، إما بتوسط الأقوياء وبه يجرم الضعفاء، وإما بالاختلاسات والابتزازات بالمال وهو غصب وأكل لمال الناس بالباطل، ومثل هذا الوضع لا يعقل أن يدوم وسرعان ما يسقط أولاً من قلوب الناس، وثانياً عند الله عز وجل، فيتدخل في إسقاطه وهدم أركانه.

ومن هنا بدأت توقعات بانتهاء حضارة الغرب لكثرة عدوانها وفسادها؛ لأن الظلم لا يرضى به الله سبحانه، وقد جعل الباري معادلة عظيمة وهي أن المملك قد يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم؛ لأن الكفر إضرار بشخص الكافر^(٢)، أما الظلم إضرار لكل الناس، والله عز وجل ينتقم لضعفاء خلقه ولكن بشرط أن يكونوا مع الله سبحانه.

(١) تصنيف غرر الحكم: ص ٣٤٦، (٧٩٧٧).

(٢) انظر الكافي: ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤.

فساد الناس وفساد الحاكم

فإذا فسد الناس وفسد الحاكم فإنّ الكل يتعذب، وإذا فسد الحاكم دون الناس هدم الله بنيانه، وإذا فسد الناس دون الحاكم هدم الله بنيانهم، والله عزّ وجلّ يتدخل في تكوين الدول وسقوطها إذا وجد الاستحقاق من قبل الناس.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن دولة الفراعنة، فلما طغى فرعون ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١) أغرقه الله بالبحر؛ لأنّ الناس كانوا مظلومين، ولما تواضع حاكم مصر لله سبحانه جعل له يوسف عليه السلام وزيراً أنقذه وأنقذ بلده وشعبه من المجاعة، ولما فسدت أقوام الأنبياء عليهم السلام تركهم وشأنهم، وأرسل عليهم عذاب الاستئصال.

وهذه هي القاعدة أنّ الناس إذا صلحوا وفسد الحاكم ينتصر الله لهم، ولكن إذا فسدوا وفسد الحاكم عذبهم ببعضهم، وهذا ما يدل عليه الحديث القدسي الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام: ﴿قال الله تبارك وتعالى: إني أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك، وقلوبُ الملوك بيدي، أيّ قوم أطاعوني جعلت الملوك عليهم رحمة - أي بإلهامهم الرحمة والمحبة وتوفير النعمة - وأيّ قوم عصوني جعلت الملوك عليهم نقمة. الظالم سيفي أنتقم به وأنتقم منه. ألا لا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك. توبوا إليّ أعطف قلوبهم عليكم﴾^(٢).

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٢) الأمالي (للصدوق): ص ٤٤٨، ح ٦٠٠؛ مشكاة الأنوار: ص ٥٤٧؛ البحار: ج ٧٢، ص ٣٤١، ح ٢١.

بالظلم لا يدوم الملك

فالملك يدوم مع الكفر ولا يدوم مع الظلم، وهذا ما تعززه الأخبار، ففي رواية اسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ فِي مَمْلَكَةِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَّارِينَ أَنْ أَنْتَ هَذَا الْجَبَّارُ فَقُلْ لَهُ: إِنِّي لَمْ أَسْتَعْمَلْكَ عَلَى سَفْكِ الدَّمَاءِ وَاتِّخَاذِ الْأَمْوَالِ، وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلْتُكَ لَتَكْفٍ عَنِّي أَصْوَاتُ الْمَظْلُومِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَدْعِ ظَلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كَفَاراً﴾^(١).

ومعنى ذلك أن يزيل ملكه ويهدمه، وإذا ظلم الناس بعضهم بعضاً أهلكتهم، فعن أبي جعفر عليه السلام: ﴿الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله، وظلم لا يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد﴾^(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً﴾^(٣) هذا في الدنيا.

الملوك والقرآء والأغنياء في الآخرة

وأما في الآخرة فعن الإمام الصادق عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تُكَلِّمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةً: أَمِيراً وَقَارِئاً وَذَا ثَرَوَةٍ مِنْ

(١) الكافي: ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤؛ ثواب الأعمال: ص ٢٧٢؛ البحار: ج ٧٢، ص ٣٤٥، ح ٤٤.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٣٣٠ - ٣٣١، ح ١؛ الأمالي (للصدوق): ص ٢٣٥، ح ٣٧٩.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٤٤٣، ح ١؛ نهج البلاغة: ج ٢، ص ٩٥، الخطبة ١٧٦.

المال، فتقول للأمير: يا من وهب الله له سلطاناً فلم يعدل، فتزدرده كما يزدر الطير حب السمسم، ولا تعطيه فرصة للجواب كناية عن حقها عليه، وتقول للقارئ: يا من تزين للناس وبارز الله بالمعاصي فتزدرده، وتقول للغني: يا من وهب الله له دنيا كثيرة واسعة فيضاً وسأله الفقير اليسير قرضاً فأبى بخلاً فتزدرده^(١).

والازدراء الابتلاع، ومفاده أن النار تلتهمهم من فوهتها وتلقيهم إلى قعرها، ولشدة تلهفها على عذابهم لا تعطيهم فرصة الكلام والإجابة عن سؤالها، هذا جزاء كل واحد منهم على فعل واحد، فما بالك بما لو اجتمعت كلها في الأمير والمسؤول ومن على شاكلتهم.

التعليم السادس: فبصرك اليوم حديد

أن الآية تفيد بأنه سبحانه مالك يوم الدين، واسم الفاعل يفيد الدوام والاستمرار في كل زمان حاضر ومستقبل، ويجازي الناس ويحاسبهم على محاسنهم ومساوئهم، فإن يوم الدين حاضر في الدنيا ومستمر في الآخرة، ومالكة في العالمين واحد وهو الله سبحانه، فهو سبحانه مالك الدنيا والآخرة، ولكن مالكيته في الدنيا قد تخفى عن الحس الضعيف المحدود بالمادة، ولكن تدركها العقول والقلوب وتظهر للحس في الآخرة، فيوم القيامة ظرف لظهور مالكية الله للخلائق أجمعين وليس ظرفاً لها. نعم تظهر

(١) الخصال: ص ١١١، ح ٨٤؛ البحار: ج ٨٩، ص ١٧٩، ح ٨.

الأعمال لبعض أهل البصائر والقلوب في بعض مراتبها ويرونها بالحس، وأما لآل محمد ﷺ فلا يختلف الحال عندهم بين الدنيا والآخرة؛ لأن جميع العوالم منكشفة لديهم؛ لأنهم الحجب عليها، والعالم كله بوساطتهم نال الوجود وظهر؛ لأن باطن العالم وظاهره كلاهما موجود، ولكن قصور الإنسان صيره ظاهراً وباطناً.

فالإنسان عاجز عن رؤية غير المحسوس، ولذا توصف بالمخفيات والغيبات، أي أنها موجودة ولكنها غائبة عن حس الإنسان ومخفية عن حواسه، ولما يموت الإنسان تنكشف له المستورات؛ لأنه يرى بعين الروح لا الجسد، وقوة الروح الهائلة تكشف الحقائق. يقول عز وجل: ﴿لَقَدْ كُنْتُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١).

والحديد مأخوذ من الحد. يقال حدة البصر وحدة الذكاء؛ لأنه قوي يخترق الأشياء، والبصر إذا ارتقى اخترق الحجب والأغطية فيرى ما لا يرى غيره، وفي ساعة الاحتضار يضعف بدن المحتضر لكن بصره يشتد ويخترق فيرى ما لا يراه الحاضرون عنده، فيرى الملائكة وآل محمد ﷺ ويكلمهم، ولكن الناس لا يدركون ذلك: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢) فالرؤية تحصل بعد كشف الغطاء عن الإنسان كما تفيده الإضافة إلى كاف المخاطب.

(١) سورة ق: الآية ٢٢.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٨٥.

انكشاف الحجب

فالآية تدل على أنّ الإنسان هو المغطّى وليست الحقائق، فمثله مثل من يضع الغطاء على رأسه فلا يرى ما حوله، كذلك هو الانسان في المعنويات، ولأنّه في غطاء فهو في غفلة؛ لأنّ طبع الإنسان ينشغل بالمحسوس أكثر من انشغاله بالمعقول، وفي الآخرة سيقول الكفار الذين أنكروا الغيب ولم يؤمنوا بما لم يدركه حسهم: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(١) فيتمنون الهلاك؛ لأنّهم وجدوا صدق ما قاله الأنبياء وحذروهم منه، لكنهم كانوا غافلين بشهواتهم وسلطانهم وأموالهم التي يزعمون أنّهم يملكونها، ومعلوم أنّ الغفلة عن الشيء تتعلق بالموجود الذي لا يلتفت إليه، ولا يقال لعدم الالتفات إلى المعدوم إنّها غفلة.

وتتصافر الشواهد العقلية والنقلية على هذه الحقيقة، أمّا العقل فلأنّ قوة البصر لم تنشأ من العين وإنّما من الروح، وأمّا العين فهي وسيلة البصر، نظير الشخص الذي يرى عبر الناظور أو النظارة فإنّهما وسيلتان للبصر، وأمّا سبب البصر فهو العين، والعين كذلك ليست هي علة الإبصار وإنّما الروح، فإذا استنارت الروح وتحررت من قيود البدن صار نورها أوسع من قفص البدن، فترى الأشياء التي لا تراها العين.

حضور الجنة والنار

وقد ورد في حديث المعراج أنّ النبي المصطفى ﷺ رأى الجنة والنار، واطّلع على أحوال المتقين والمجرمين، ونظر إلى نعيم المتقين وعذاب

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٧.

المجرمين، ولو كانت الجنة والنار غير موجودتين كيف رآهما؟ وكيف يقال للإنسان: إِنَّكَ كُنْتَ غَافِلًا عَنْهُمَا؟ ولذا ورد في الأخبار الشريفة أَنَّ إنكار وجود الجنة والنار في جميع الأزمنة مخالف لعقيدة الأئمة الأطهار عليهم السلام، ووصفوا المنكرين بقولهم: ﴿مَا أَوْلَيْكَ مِنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْهُمْ﴾ ^(١) ويستفاد من قضية حارثة بن مالك أَنَّ هذه الرؤية يمكن أن تحصل لغير المعصوم عليه السلام، فعن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ، فَنَظَرَ إِلَى شَابٍ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَخْفِقُ وَيَهْوِي بِرَأْسِهِ، مُصْفَرًّا لَوْنَهُ، قَدْ نَحَفَ جَسْمَهُ، وَغَارَتْ عَيْنَاهُ فِي رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُوقِنًا، فَعَجِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ وَقَالَ لَهُ: إِنْ لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةٌ فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟ فَقَالَ: إِنْ يَقِينِي يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي، وَأَسْهَرَ لَيْلِي، وَأَظْمَأَ هَوَاجِرِي، فَعَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي وَقَدْ نَصَبَ لِلْحِسَابِ، وَحْشَرَ الْخَلَائِقَ لَذَلِكَ وَأَنَا فِيهِمْ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ، وَيَتَعَارَفُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ مَتَكِّئُونَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِّخُونَ، وَكَأَنِّي أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ ^(٢).

(١) التوحيد: ص ١١٨، ح ٢١؛ الاحتجاج: ج ٢، ص ١٩١؛ البحار: ج ٤، ص ٤، ح ٤.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٥٣، ح ٢؛ البحار: ج ٦٧، ص ١٥٩، ح ١٧.

وقوله: (كَأَنِّي) يكشف عن حالة الحضور والانقطاع الروحي الحاصل لديه، وهذا كان مقداره في البصيرة، ولو ارتفع مقامه وتنور قلبه أكثر لقال: (إِنِّي أَنْظُرُ) لا: (كَأَنِّي).

وقريب من هذا ورد وصف أمير المؤمنين عليه السلام المتقين. وورد فيه: ﴿فَهُم وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مَنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مَعَذَّبُونَ﴾^(١) وبذلك تثبت حقائق:

ظهور الأسرار بنحوين

الحقيقة الأولى: أنَّ الحقائق والأسرار تظهر ولو بعد حين، فلا داعي للزيف والخداع والكذب، وظهورها في الدنيا بنحوين:

أحدهما: بآثارها، وفي المثل جبل الكذب قصير وإن طال.

ثانيها: بفضحها، فإنَّ الباري عزَّ وجلَّ يسلب من الكذابين والمخادعين توفيق النجاح، ويستدرجهم حتى يظهر معايبهم، ووقائع التأريخ شاهدة على أنَّ الكذابين والمخادعين – خصوصاً الذين زاولوا الكذب النوعي واتبعوا طريق التضليل والخداع طلباً للشهرة أو السلطة أو المال – انفضحوا، وخابت مساعيهم.

وأما في الآخرة فتظهر بنفسها لهم ويرونها بأعينهم. يقول عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢).

(١) نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٦١، الخطبة ١٩٣؛ البحار: ج ٦٤، ص ٣١٥، ح ٥٠؛ تحف العقول: ص ١٥٩.

(٢) سورة غافر: الآية ١٦.

فضح الكذابين

ففي القيامة يبرز الناس ولا يبقى أحد منهم خاف، كما كان الكذّابون والدّجالون يتخفّون في الدنيا وراء الشبهات، أو وراء الشعارات، أو البرامج الإعلامية أو السياسية ونحوها، وإذا ظهوروا هم ظهرت معهم آثارهم وأعمالهم؛ لأنّ الله سبحانه كتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصاه في إمام مبین^(١)، فكل شيء فعلوه وقالوه يظهر ويتجسّد، وإذا كانوا في الدنيا يتخفون وراء أملاكهم وممالكهم فإنّ القيامة تبطل كل الأملاك والمملكات وتفضح الملوك، ويكون الملك لله الواحد القهار، وكل واحد منهم يجد ما قدمه حاضرًا^(٢)، فالعاقل هو الذي يستقيم في نهجه، ويصدق في قوله، ويطابق قوله عمله، فإنّ الكذب والخداع - في أي مجال كان ومن أي أحد كان - مفضوح عاجلاً أو آجلاً يفضحه المالك الحقيقي.

انتزاع قوى الإنسان

الحقيقة الثانية: أنّ كل ملك ومملوك للإنسان هو إعارة وليس بملك حقيقي، أعطاه الباري عزّ وجلّ له لطفاً منه لتحقيق أغراضه، والدليل عليه أنّ الباري عزّ وجلّ ينتزعه منه، وأعظم ما يملكه الإنسان في حياته هو نفسه وملكاته من قوة البصر والسمع والنطق والفعل والعقل؛ لأنّها مصدر ما يعمله الإنسان ويكتسبه من أملاك مادية ومعنوية، وهذه القوى التي هي تحت

(١) انظر سورة يس: الآية ١٢.

(٢) انظر سورة الكهف: الآية ٤٩.

سلطته وولايته يفقدها الإنسان بمرور الزمان، إمّا بالأمراض أو بالأعراض، فإنّ بدن الإنسان وقواه تبدأ ضعيفة ثم تقوى ثم تضعف حتى يرد إلى أرذل العمر فلا يعلم ما بعد علم شيئاً^(١)، ولو كانت مالكيته لها حقيقة لما تمكّن أحد من انتزاعها منه، وهذا درس عظيم لبني آدم لكي يضع نفسه عند حدها، فإنّ ما يملكه الإنسان من قواه الذاتية هي استعارة في الحقيقة يقضي بها حاجاته مدة ويؤدي اختبارها ثم تنتزع منه، فما بالك بأملكه الاعتبارية من أموال وقوة وسلطان؟ بل حتى العزة والجاه تمنح له مدة وربما انتزعت منه. فالعاقل هو الذي يفكر في الحفاظ على ما لديه من قوى وسلطات وليس من سبيل إلى ذلك سوى التقيّد بأداب الشرع وأحكامه.

وقد حدد الشرع لذلك طريقتين:

الشكر يديم النعمة

الأول: استعمال القوى والطاقات في الطاعات واجتناب الحرام فيها، فإنّ صرف ما يملكه الإنسان في الحرام من عوامل هدمها وزوالها، واستعمالها في الطاعات من عوامل بقاءها وهنائها، فعن الصادق عليه السلام قال: ﴿مكتوب في التوراة اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنّه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت. والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير﴾^(٢) وهو من التوراة غير المحرّف.

(١) انظر سورة النحل: الآية ٧٠.

(٢) الكافي: ج ٣، ٢٤٣، ح ١٧١٧؛ البحار: ج ٦٨، ص ٥٥، ح ٨٤.

وكل ما لدى الإنسان من قوى وطاقات هي من نِعَم الله سبحانه عليه، فلو استعملها في الطاعات شكرها، وإذا شكرها نَمَتْ وزادت ودامت وصارت مأمونة من التغيير والنقص.

العافية أفضل مطلوب

الثاني: الدعاء، فإنه باب مفتوح، وللإنسان أن يطلب من ربه أن يحفظ قواه وما يملكه إلى آخر لحظة من حياته، فعن النبي المصطفى ﷺ قال: ﴿البلاء معلق بين السماء والأرض مثل القنديل، فإذا سأل العبد ربه العافية صرف الله عنه البلاء﴾^(١).

والعافية هي أفضل ما يسأله العبد في دنياه؛ لأنها تشمل السلامة والهناء بجوارحه وجوانحه، فما يملكه الإنسان من قوى وملكات كلها عواري أعاره الله سبحانه إيّاها لتمشية حاله وتحقيق أغراضه في دنياه، وهي لطف ورحمة إلهية عظيمة وتكريم للإنسان، ولو نزعها لا يجد الإنسان فرصة حتى لتغميض عينيه أو تسهيل يديه، ولا عن بلع لعبه أو غلق فمه، والذي يلاحظ كيف يرحل الناس من الدنيا وفي أي هيئة تتجسد أمامه هذه الحقيقة، فلا داعي للغرور والكبرياء والعيش بالأوهام والأكاذيب.

أوهام أهل السلطة

الحقيقة الثالثة: تبطل الآية المباركة اعتقاد المشركين وأهل الدنيا بأنهم يملكون ما لديهم، وأن أموالهم تخلد لهم، وأنهم أصحاب السلطة، وقد

(١) البحار: ج ٩٠، ص ٢٩٥، ح ٢٣؛ مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ١٨٠، ح ٥٦١٩.

حاربوا الأنبياء وقتلوهم وقتلوهم وقتلوا أتباعهم بتوهم أن دعوتهم تسلب منهم سلطانهم، وعبدوا الأوثان بحجة أنها سرّ دوام ملكهم. أشار إلى هذه المعتقدات الخاطئة القرآن في آيات عديدة، فبعضهم كان يجمع المال ويعدده ويدخره باعتقاد أن المال يخلده في الحياة أو في الدنيا. قال عنه تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُهُ﴾^(١) ويبدو أن هذا اعتقاد أغلبهم؛ لذا عرّض بفساد هذه العقيدة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾^(٢) وقد تضمنت ثلاثة إخبارات:

الأول: أن البشر في نوعه ليس من الخالدين في الحياة الدنيا.

الثاني: أن المشركين كانوا يعتقدون بأنهم خالدون في الدنيا بأموالهم وأولادهم وأملأهم وممالكهم، وأن لا حياة بعد الموت.

الثالث: أن الموت قانون جارٍ حتى على أشرف خلقه وأعظم بريته سيد البشر أجمعين ﷺ، فإن الخلود ليس بيد الإنسان؛ لأنه لا يملك وجوده، والذي يملك الإيجاد يملك الإبقاء، وهذه حقيقة يدركها كل عاقل لكن حب الدنيا والعناد والخوف على المصالح كان يغمض عيونهم، ويعمي أبصارهم وبصائرهم.

الجاهلية المعاصرة

والعجيب أن هذا المعتقد لا زال موجوداً عند الكثير من سلاطين الدنيا وزعماء العالم بألوانه وأشكاله، فيعملون أعمال من يعتقد أنه خالد باق في

(١) سورة الهمزة: الآيتان ٢ و ٣.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

الدنيا، فلا يفترق القدماء عن الجدد إلا في المصاديق أمّا أصل الفكر الجاهلي الذي كان حاكماً في ذاك الوقت فهو حاكم في هذا الوقت.

وفي آية أخرى يبطل عقيدتهم في بقاء أوثانهم التي يعبدونها من دون الله سواء كانت أصناماً كما كان عند أهل الجاهلية الأولى، أم قدرات اقتصادية وأسلحة عسكرية وتقنيات وتحالفات سياسية كما هو عند الجاهلية الحديثة، وبهذه الآية يحاورهم عقلياً بعد أن أبطل مدعاهم حسيّاً في الآية السابقة. قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(١) وقد أشار إلى ثلاثة أمور:

الأول: أنّ الذي يستحق الألوهية والعبادة هو المالك، والذين يعبدون ويدعون من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، بل ولا يملكون أنفسهم، فالذي لا يملك نفسه لا يملك غيره، وليس له سلطة على بقائه وفنائه.

والثاني: أنّهم لا يملكون حتى بعض المثقال. قال ذلك لدفع التوهم بأنّ الذي لا يملك كل المثقال فربما يملك بعضه، والذرة هي أصغر شيء، فنفي أن يكون لهم حتى الأصغر من الأصغر، وقال: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ للإشارة إلى الأشياء اللطيفة الخفيفة والثقيلة، فهم لا يملكون حتى بعض ذرة من هواء أو تراب مثلاً.

(١) سورة سبأ: الآية ٢٢.

والثالث: أنهم لا يملكون قدرة التأثير والمشاركة في إيجاد الأشياء أو تدبيرها، فربما لا يكون الشخص مالكاً لكنه يكون عوناً وشريكاً في التدبير فيمتلك جزءاً من السلطة على الأشياء، وبذلك نفى عنهم الملكية والسلطة معهم عن أصغر شيء في الوجود فكيف يعبدونهم؟

هذا كله في مبدأ الخلق والتكوين وبقائه، فهم لا يملكون سلطة التكوين لكنهم ربما امتلكوا سلطة الواجهة والنفوذ بسبب المال أو القوة، وأمّا في الآخرة فيفقدون حتى سلطة الواجهة، فهم فاقدون للسلطة الحقيقية والسلطة الوجيهة المعنوية؛ لذا قال في الآية التي تليها: ﴿وَلَا تَتَفَعَّلُوا الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(١) لبيان أنهم لا يملكون وجاهة يشفعون بها لأتباعهم؛ لأنّ الشفاعة بيده لا بيد غيره، فالسلطة التكوينية والسلطة المعنوية كلها له سبحانه، يهبها لمن يشاء، وينزعها ممن يشاء، فالحقيقة أن كل ملكية وسلطة ووجاهة ليست من الله زيف وخداع سرعان ما ينكشف ويزول، وبذلك يبين الحق لثلاث فئات من الناس:

تنبيه لأهل الأموال

الأولى: الأثرياء وأصحاب الأموال وكل ميسور الحال؛ إذ ينبغي أن لا ينظروا إلى ما عندهم من أموال وثروات أنها ملك لهم، بل هي وديعة عندهم وهم فيها مفوضون في التصرف. الله عزّ وجلّ هو مالکها وهو الذي جعلها بأيديهم، فيجب عليهم أن يتصرّفوا فيها بحدود ما أذن لهم

(١) سورة سبأ: الآية ٢٣.

المالك، وقد أمرهم بإعطاء حقوق المال من خمس وزكاة وصدقات، وحثهم على تسخير قسم من المال في المبرّات والخيرات، وقسم منه يصرفونه على أنفسهم. هذه حدود المالك الحقيقي التي وضعها لهم، فالتخلف عنها تمرّد على المولى، وتصرف في ملكه من دون إذنه يحاسب عليه صاحبه.

تنبيه للملوك وأصحاب القدرة

الثانية: الملوك والسلاطين وأصحاب القدرة والقرار في أي مجال أن لا يأخذهم غرور القدرة فينسوا قدرة الله عليهم، أو تسكرهم سطوة الملك والحكم فيتصرفون تصرف الفراعنة الذين ادعوا أنّهم المالكون للأرض وأهلها قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾^(١) فإنّ هذه الدعوى قادت فرعون إلى الهلكة المذلة بالغرق، فلا السلطة تملك ولا السلطان يملك، والكل عامل في ملك الله وخاضع لحكمته. فالعاقل هو الذي يطابق قوله وفعله وقراره حكم الله، ويلتزم بحدوده، وإلاّ عرض ملكه للزوال ونفسه للهلكة.

وهذا المصير لا يلاقيه أصحاب الملك والسلطة فقط، بل الشعب الذي يطيعهم ويخضع لأوامرهم الجائرة، فلما استخفّ فرعون قومه بدعواه الزائفة وأطاعوه أغرقهم الباري عزّ وجلّ، وقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾^(٢) لكي يعلم الناس أن هذا النهج يقود إلى هذا

(١) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٥٦.

المصير في أي زمان ومكان.

ففي الخبر عن الإمام الصادق عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿قال النبي صلى الله عليه وآله: تَكَلَّمُ النار يوم القيامة ثلاثة: أميراً وقارئاً وذا ثروة من المال، فتقول للأمر: يا من وهب الله له سلطاناً فلم يعدل فتزدرده كما يزدر الطير حب السمسم - أي بسهولة ويسر لصغر حجمها ونعومة ملمسها - وتقول للقارئ: يا من تزين للناس وبارز الله بالمعاصي فتزدرده، وتقول للغني: يا من وهب الله له دنيا كثيرة واسعة فيضاً وسأله الفقير اليسير قرصاً فأبى بخلاً فتزدرده﴾^(١) والازدراء الابتلاع، والقارئ يحتمل معنيين:

أحدهما: قارئ القرآن ونحوه، ويشمل الباحث والعالم الذي يقرأ على الناس ما لديه فيوقع بينهم الشبهات، ويضلل أفكارهم، ويدعوهم إلى العصيان.

وثانيهما: صاحب الإحسان والضيافة^(٢) الذي يقري الناس ويكرمهم فيكسب قلوبهم ثم يقودهم إلى العصيان.

وقوله: ﴿سأله الفقير﴾ يراد به سؤال الحال، والمعنى لا يعمل على إيصال الحقوق لأهلها، ولا ينفق من أمواله لتصل ذوي الحاجات ولو بمثل إقامة الصناديق الخيرية للقرض الحسن، أو إقامة مؤسسة لتزويج الفقراء، أو مدارس لتعليمهم، ومستشفيات لعلاجهم وهكذا، فإذا منع الغني يده يكون قد بارز الله بالعصيان، وأزال الله ملكه أو بركة ملكه.

(١) الخصال: ص ١١١، ح ٨٤؛ البحار: ج ٨٩، ص ١٧٩، ح ٨.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج ١، ص ٣٤٠، (قرأ).

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنَّ الَّذِي فِي يَدَيْكَ قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى مَنْ بَعْدَكَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهَا جَمْعَتِ بَطَاعَةَ اللَّهِ فَيَسْعِدُ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، أَوْ رَجُلٌ عَمِلَ فِيهَا جَمْعَتِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَشَقِيَ بِهَا جَمْعَتِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ هَذِينَ أَهْلًا أَنْ تَوَثِّرَهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تَحْمِلَ لَهُ عَلَى ظَهْرِكَ﴾^(١).

فالعاقل الحريص على نفسه ومستقبل أيامه يأخذ كفايته من ماله، وينفق الباقي في حياته قبل رحيله من الدنيا، وبهذا يضمن سعادته الدنيوية والأخروية.

تنبيه لأهل الإيمان

الثالثة: عموم أهل الإيمان، فإن التوحيد الحقيقي يقوم على عقيدة تفرّد الخالق بالمالكية التكوينية والتشريعية والسلطوية، فمن يعتقد أنّه مالك لنفسه ولأمواله فليس بموحّد بالتوحيد الكامل، وكذلك الذي يعتقد أنّه يملك حق التقنين والتشريع، والذي يرى لنفسه سلطاناً وقدرة من دون الله لم يدرك حقيقة التوحيد.

وكمال الإيمان أن يعتقد الإنسان بأنّه عبد مملوك لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولو التفت العالم إلى هذه الحقيقة لساده الأمن والاستقرار والعدل والصلاح، وارتقى الإنسان إلى كماله الإنساني والمعرفي.

فإنّ الطغيان والظلم والفساد ينشأ من غفلة الإنسان وتوهمه بأنه مالك ذو سلطة وحق في الحكم وتشريع القوانين، فلا يشرع إلّا ما يطابق هواه

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٩٧، الحكمة ٤١٦؛ تصنيف غرر الحكم: ص ٣٦٨، (٨٣٣٤)؛ وانظر البحار: ج ٧٠، ص ١٤٥، ح ٢٨.

ومصالحه، فلذا ضاعت العدالة، واندرست القيم في السياسة العالمية.

التعليم السابع: أعظم أيام الدنيا

أنّ لمالكية الله ليوم الدين تجليات عظيمة في الآخرة والدنيا، أمّا مالكيته في الآخرة فتتجلى بيوم الحساب إذ تزول كل المالكيات ويبقى الملك لله الواحد القهار، فيجازى كل انسان بعمله؛ وأمّا في الدنيا فتتجلى مالكيته بأحداث ووقائع عديدة أعظمها ثلاثة أيام هي أعظم أيام الدنيا، تظهر فيها مالكية الله سبحانه بثلاثة اعتبارات:

أولها: التسمية، وقد وصفت النصوص كل واحد من هذه الثلاثة باليوم الذي يتعلق بالدين وكيانه.

وثانيها: باعتبار الأثر، فإنّ لهذه الأيام الأثر البالغ في قيام الدين وقوته وظهوره.

وثالثها: باعتبار التقدير والأمر الإلهي بوجودها تكويناً وتشريعاً، فأمر بالإيمان بها والتسليم لها وترتيب الآثار عليها.

الأول: يوم الغدير فهو مالك يوم الغدير، وهو اليوم الذي أكمل فيه الباري الدين، وجعله ديناً لكل البشرية، ويؤس الذين كفروا من مخالفة الإسلام، فقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾^(١) هو اليوم الذي نصب الباري أمير المؤمنين ﷺ خليفة وإماماً على الناس بعد النبي ﷺ وأخذ البيعة له، فهو

يوم عيّنه الباري وعيّن مجرياته وأحداثه، وهو دليل آخر على أن إمامة أمير المؤمنين عليه السلام وولايته ثبتت بالنص الإلهي والتنصيب الخاص، وليس للناس فيها رأي أو قرار سوى البيعة له، فمن رضي وباع اكتمل إيمانه ودينه، ومن خالف كان ناقص الإيمان، ونقصان الإيمان ملازم لعدم الإيمان؛ لأنّ الإيمان حقيقة بسيطة لا تتجزأ، والاعتقاد بالأصول الأصلية أي التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد هو مكوّن الإيمان، فالإخلال بواحد منها إخلال بالإيمان، ومنه يتضح وجه الجمع بين الأدلة التي نصّت على أنّ من أظهرَ الشهادتين فهو مسلم ^(١)، والأدلة التي نصّت على أنّ من لا يعرف إمامه يموت ميتة الكفر والنفاق ^(٢).

صورتا الإسلام

لأنّ الإسلام له صورتان ظاهرة وباطنة، الصورة الظاهرة تتم بإظهار الشهادتين، وبه يحقن دم المسلم ويصان ماله وعرضه، وأمّا الثانية فتتم بولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

يوم الغدير

هذا اليوم تكويناً قدره الباري، وتشريعاً فرضه على الخلق أجمعين، وبه يؤس الكفار والمنافقون من دين الإسلام، وقد كان أهل الكتاب يخططون للقضاء على الإسلام وحكم المسلمين وإعادة سلطتهم بعد النبي صلى الله عليه وآله إمّا إلى دينهم أو

(١) شرائع الإسلام: ج ١، ص ٢٥٧، الحاشية ١٢٢.

(٢) المحاسن: ج ١، ص ٩٣، ح ٤٧؛ الكافي: ج ١، ص ١٨٤، ح ٨.

٣٢٠ مايقوله القرآن في سورة الحمد

إلى الشرك، وبعد أن نصب أمير المؤمنين عليه السلام إماماً وخليفة من بعده أدركوا فشل ما خططوا له؛ لأن وجود أمير المؤمنين عليه السلام هو وجود النبي صلى الله عليه وآله.

فجوهر الدين وهويته وكماله بولاية أمير المؤمنين عليه السلام، والدخول فيه دون الدخول بالولاية يكون ديناً ناقصاً، ولذا لا يرتضيه الباري عز وجل، ومصير الذي لا يرتضي الباري دينه معلوم، والأدلة النقلية المعتضدة بالبراهين العقلية في هذه الحقيقة فوق المتواترة بطرق الفريقين.

وقد ورد في زيارة الغدير الواردة عن الإمام الهادي عليه السلام بإسناد معتبر: ﴿السلام عليك يا دين الله القويم وصراطه المستقيم.. إن الشاك فيك ما آمن بالرسول الأمين، وأن العادل بك غيرك عادل عن الدين القويم الذي ارتضاه لنا رب العالمين، وأكمله بولايتك يوم الغدير﴾^(١).

ولاية علي عليه السلام واجبة على جميع الأنبياء

وهذه العقيدة هي عقيدة جميع الأنبياء والأئمة حتى رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي فرض عين عليهم فرضه الباري، ولولاها لا يبلغون مقاماً ولا رتبة، ولم يكونوا أنبياء، ففي رواية الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿أوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢). قال: إِنَّكَ عَلَى ولاية علي، وعلي هو الصراط المستقيم﴾^(٣).

(١) إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٣٧٣؛ البحار: ج ٩٧، ص ٣٦١، ح ٦.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٤٣.

(٣) الكافي: ج ١، ص ٤١٧، ح ٢٤؛ تفسير نور الثقلين: ج ١، ص ٢٢، ح ٩٩.

وفي رواية أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾^(١) قال: ﴿هي الولاية﴾^(٢) والخطاب موجه إلى النبي صلى الله عليه وآله أولاً ثم إلى سائر الأمة.

وعن الصادق عليه السلام قال: ﴿ولايتي لعلي بن أبي طالب عليه السلام أحب إليّ من ولادتي منه؛ لأنّ ولايتي لعلي بن أبي طالب فرض، وولادتي منه فضل﴾^(٣). وفي رواية أخرى: ﴿ولايتي لأبائي أحب إليّ من نسبي، ولايتي لهم تنفعني من غير نسب، ونسبي لا ينفعني بغير ولايتي﴾^(٤) وبذلك يعرف بعض السر في جعل قراءة سورة الحمد كركن أساس في فرائض الناس وصلواتهم، فلا تصح صلاة بدونها.

مالك يوم عاشوراء

الثاني: يوم عاشوراء، وقد تضافر عن النبي والأئمة عليهم السلام قولهم: ﴿لا يوم كيومك يا أبا عبد الله﴾^(٥) وهذا ليس قول إنسان عادي محاط بزمانه ومكانه واستعداداته المحدودة، وإنّما كلام معصوم وحجة على جميع العوالم والخلائق، ومطلّع على الزمان وأهل الزمان منذ زمان آدم إلى الزمان الخاتم،

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٤١٩، ح ٣٥؛ تفسير القمي: ج ٢، ص ١٥٤؛ البحار: ج ٢٣، ص ٣٧٥، ح ٥٦.

(٣) الروضة (لشاذان القمي): ص ١٠٣، ح ٩٢؛ البحار: ج ٣٩، ص ٢٩٩، ح ١٠٥.

(٤) الروضة (لشاذان القمي): ص ١٠٣، ح ٩٣؛ مشكاة الأنوار: ص ٥٧٥، ١٩١٩.

(٥) الأمالي (للصدوق): ص ١٧٧، ح ١٧٩؛ مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٢٣٨.

حينما يقول: ﴿لا يوم كيومك﴾ يعني في تأريخ البشرية لم يمر ولن يمر مثل يوم عاشوراء. قدره الباري وبارك في آثاره وخصائصه، وتؤكد ذلك النصوص الكثيرة، فهو يوم ظهور قوة الدين والدفاع عنه والتضحية بالنفس والأهل والولد لأجله، ويوم تجلي جميع الشرائع السماوية وقوة ثبات الأنبياء والأولياء لأجل دين الله، ولذا ورد في زيارته الشريفة: ﴿السلام عليك يا قتيل الله وابن قتيله السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره﴾^(١) لأن كل ما جرى في يوم عاشوراء هو بأمر الله وتقديره، وهو عهد معهود بين الله وبين الحسين عليه السلام، فهو الذي قدر هذا اليوم، وهو الذي يملك حقه ويثأر له.

وقد ورد عن مولانا المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في زيارته الناحية المقدسة توصيف لهذه الحقيقة. يقول في وصفه: ﴿كنت للرسول ولداً وللقرآن منقذاً، وللأمة عضداً، وفي الطاعة مجتهداً. حافظاً للعهد والميثاق - وهو ميثاقه مع ربه شاء الله أن يراه قتيلاً - ناكباً عن سبل الفساق، باذلاً للمجهد، طويل الركوع والسجود، زاهداً في الدنيا﴾^(٢).

والسر في هذا العهد الإلهي هو أن الحسين عليه السلام وموقفه والتعاطف معه والحضور عنده صار هو المحك الذي به يحفظ الدين من الاعوجاج، وبه يختبر الناس أنفسهم، ويعرفون مصيرهم أنهم سعداء أم أشقياء.

(١) كامل الزيارات: ص ٢٦٤، ح ٦١٨؛ البحار: ج ٩٨، ص ١٥٢، ح ٣.

(٢) المزار (لابن المشهدي): ص ٥٠٢، وانظر البحار: ج ٩٨، ص ٣٢١، ح ٨؛ تحفة الزائر: ص ٣٤٩.

بالحسين عليه السلام تسعدون وتشقون

وفي مقتل الخوارزمي بسند متصل عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿بي أنذرتهم، ثم بعلي بن أبي طالب اهتديتم، وقرأ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(١) وبالحسن أعطيتم الإحسان، وبالحسين تسعدون، وبه تشقون، ألا وإنّ الحسين باب من أبواب الجنة، من عانده حرّم الله عليه راحة الجنة^(٢) .

فماذا يعني بالحسين تسعدون وبه وتشقون؟ الباء سببية، والمعنى بسبب الحسين تنالون السعادة، وبسببه تفقدونها وتكونون من الخاسرين. كيف هذا؟ لأنّه يمثل نور الله وحقه وثأره، فالتضامن معه ونصرته وإحياء ذكره هي السعادة، والتخلي عن ذلك هو الشقاء، واليوم حيث يعاني الناس من أمراض الكآبة والشباب يعيش الملل والسأم والفراغ يجد سعادته عند الحسين عليه السلام وفي حديث النبي صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام - وهو يصف أثر شهادة الحسين عليه السلام على شيعته وأنصاره - ورد: ﴿يأتيه قوم من محبينا ليس في الأرض أعلم بالله ولا أقوم بحقنا منهم، وليس على ظهر الأرض أحد يلتفت إليه غيرهم. أولئك مصابيح في ظلمات الجور، وهم الشفعاء، وهم واردون حوضي غداً. أعرفهم إذا وردوا عليّ بسيماهم - أي بحب الحسين

(١) سورة الرعد: الآية ٧.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام: ج ١، ص ٢١٢، ح ٦؛ مائة منقبة: ص ٢٢؛ البحار: ج ٣٥، ص ٤٠٥، ح ٢٨؛ غاية المرام: ج ٣، ص ٦.

والارتباط به - وكل أهل دين يطلبون أئمتهم، وهم يطلبوننا لا يطلبون غيرنا، وهم قُوام الأرض، وبهم ينزل الغيث - لأنَّ السماء تحبس قطرها عن أهل الأرض بسبب ظلمهم وجورهم، ولكن بأعمال الشيعة و الموالين ودعواتهم وصلواتهم وحضورهم عند الحسين ينزل الغيث - يا فاطمة! أما ترضين أن يكون مَنْ أتاه زائراً في ضمان الله - أي حتى يضمّنه من الانحرافات وسوء العاقبة، وأهم شيء للآباء ربط أبنائهم بالحسين عليه السلام، والأعداء يسعون إلى فكّ هذا الارتباط - ويكون من أتاه بمنزلة من حجّ إلى بيت الله الحرام - أي كمن أتى إلى الله - واعتمر، ولم يخل من الرحمة طرفة عين، وإذا مات مات شهيداً، وإن بقي لم تزل الحفظة تدعو له ما بقي، ولم يزل في حفظ الله وأمنه حتى يفارق الدنيا^(١).

فيوم عاشوراء هو يوم الدين الذي قدّر الباري عزّ وجلّ وجوده، وأمر الناس بنصرته والكون معه في جميع الأزمنة والأمكنة، وبه يتقوّم اعوجاجهم، وتحيا أرواحهم وقلوبهم، وبه يمتحنون ويختبرون، فهو يوم لحسابهم ومصيرهم.

مالك يوم المهدي عجل الله تعالى فرجه

الثالث: يوم الظهور المبارك. فقد تضافرت النصوص فيه، وهو ما يقرره العقل.

(١) تفسير الفرات: ص ١٧٢؛ البحار: ج ٤٤، ص ٢٦٥، ح ٢٢؛ العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ص ١٤٠ - ١٤١، ح ١١.

وبيان ذلك: أن الوقائع والأحداث لها ثلاث علل:

الأولى: العلة المحدثّة، وهي سبب الوجود في مقابل العدم.

الثانية: العلة المبقية، وهي سبب دوام الوجود في مقابل الهدم.

الثالثة: العلة المظهرة، وهي سبب ظهور آثار الشيء وخواصّها في مقابل بطلان الأثر وانتفائه.

وهذه الحقيقة تحكم الأشياء المادية والمعنوية معاً، وأقربها إلى الأذهان بمثالين من المحسوس:

الأول: السيارة التي يركبها الإنسان ويتنقل بها لها علة محدثة وهو المصنع الذي أوجدها، ولكن وجودها قد يتعرض إلى الخراب فتحتاج إلى علة تبقيها سالمة من العيوب، وهي الصيانة مثلاً، ولكن يبقى ظهور أثر السيارة ومنفعتيها وقوتها وضعفها، وهذا يتوقف على السائق الذي يسوقها، فالسائق العلة المظهرة للسيارة، ولولاه كانت كتلة هندسية من الحديد وغيرها من مكونات السيارة.

فأيّ هذه العلل أهم؟ لا يمكن القول بأفضلية واحدة على الأخرى؛ لأنّ الجميع مهم وله الأثر البالغ في كيان السيارة وظهور منافعتها.

الثاني: الأسرة، فإنّ علتها المحدثّة هو عقد الزوجية بين الرجل والمرأة، ولكن بقاء الأسرة ودوامها يتوقف على العلة المبقية، وهو إدارة الزوجين وحسن تعاملهما مع بعضهما البعض، وأثر الأسرة وخواصّها المادية يظهر في إنجابها في الأولاد، وخواصّها المعنوية تظهر في التربية الصالحة، فأيّ هذه العوامل الثلاثة أهم؟ لا يمكن ترجيح أحدها على الآخر؛ لأنّ تكوين

٣٢٦ مايقوله القرآن في سورة الحمد

الأسرة إذا كان بلا دوام وبقاء لا يجدي، ودوام الأسرة دون الآثار والخواص لا سيما المعنوية لا يجدي، بل قد يكون مضراً.

أيام الملكية الإلهية

وأيام الله سبحانه التي بها ظهرت مالكيته وعدالته في الدنيا ثلاثة:

يوم الغدير وهو يوم العلة المحدثه، فلولا له لم يوجد إيمان صحيح.

ويوم عاشوراء وهو يوم العلة المبقية للدين، ويوم الظهور المبارك وهو العلة المظهرة لآثار الدين وعدالته وحكمته ورحمته، وبه تتحقق الوعود الإلهية للبشر.

فإنَّ الباري عزَّ وجلَّ وعد المؤمنين الذين يجاهدون أنفسهم ويقاومون الشيطان ومغريات الدنيا ويتحملون عدوان الأعداء من شياطين الجن والانس بأن العاقبة لهم، وأنَّهم يعيشون الحياة المباركة الطيبة، وأنَّ كل من يتعفف منهم سيعيش السعادة، وليس هذا يظهر في الآخرة فقط، بل حتى في الدنيا يقول عزَّ وجلَّ في ثلاث آيات: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ولكن في آيتين قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١) وفي آية ثالثة قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾^(٢) فقد بيَّن أنَّ غاية إرسال الرسول والدين الحق هو الظهور على الدين كله، أي كلما وجدت من أديان وأفكار ومدارس واتجاهات سيغلبها الدين ويبطلها ويبقى دين الله هو الحاكم.

(١) سورة التوبة: الآية ٣٣؛ سورة الصف: الآية ٩.

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٨.

وما هو دين الحق؟ إنه دين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أكمله في الغدير، وبسببه ارتضى الإسلام ديناً.

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي بإرادة الله سيظهر الدين الحق وبتقديره وحكمه، ويقوم ويغلب كل الأديان والاتجاهات المخالفة^(١)، فلا تغلبه قوة ولا دول عظمى ولا تقنيات علمية، فإن الله قادر على كل شيء، وليس ذلك في الآخرة - لأنه قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٢) وهذا لا يصدق في الآخرة؛ إذ لا أثر لكرهاتهم هناك، بل هم سوف يُسلمون لأمر الله - وإنما في الدنيا، فإن المشركين بصنفيهم أي الشرك الاعتقادي الذي يلتزم به الذين يعبدون شياطينهم أو الشرك العملي الذي يلتزم به الفساق والعصاة فإنهم يكرهون ظهور الدين؛ لأنه يمنعهم من فسادهم، ويقمع شهواتهم وطغيانهم. وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ أي لا تحتاج القضية إلى شاهد وبرهان؛ لأنها وعد الله، والله لا يخلف وعده، وبظهور الدين ستتحقق الوعود الإلهية، وتظهر مالكية الله سبحانه للدين.

فعن الإمام الكاظم عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ قال: ﴿هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيّه، والولاية هي دين الحق ليظهره على جميع الأديان عند قيام القائم... والله مُتِمُّ ولاية القائم ولو كره الكافرون بولاية علي عليه السلام﴾^(٣).

(١) مفردات الراغب: ص ٥٤٠ - ٥٤١، (ظهر).

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٣؛ سورة الصف: الآية ٩.

(٣) انظر الكافي: ج ١، ص ٤٣٢، ح ٩١؛ البحار: ج ٢٣، ص ٣١٨، ح ٢٩.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿فوالذي نفسي بيده حتى لا تبقى قرية إلا وتنادي بشهادة أن لا إله الا الله ومحمد رسول الله بكرة وعشيا﴾^(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: ﴿القائم منا منصور بالرعب، مؤيد بالنصر... تطوى له الأرض، وتظهر له الكنوز، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عزَّ وجلَّ به دينه على الدين كله ولو كره المشركون، فلا يبقى في الأرض خراب إلا قد عمَّر، وينزل روح الله عيسى بن مريم فيصلي خلفه﴾^(٢).

وبذلك تكون حجة على جميع الغرب والشرق الذين يدينون بالمسيحية، وربما تقرأ (عَمَّر) بالفتح بلا تشديد، فيشير إلى أن الأرض بنفسها تعمّر نفسها، وتظهر خيراتها.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿تستبشر الأرض بالعدل، وتعطي السماء قطرها، والشجر ثمرها، والأرض نباتها، وتزِين لأهلها، وتأمّن الوحوش حتى ترتعي في طرق الأرض كأنعامهم، ويُقذف في قلوب المؤمنين العلم.. وتُخرج لهم الأرض كنوزها، ويقول القائم عليه السلام: كلوا هنياً بما أسلفتم في الايام الخالية﴾^(٣). وهو تعويض للمؤمنين وأهل الولاية عن الأذى والظلم والجوع الذي سببه لهم الطغاة والجبابرة في حياتهم.

(١) التفسير الصافي: ج ٢، ص ٣٣٨؛ نفحات الرحمن: ج ٣، ص ١٤٧؛ مكيال المكارم: ج ١، ص ٧١.

(٢) كمال الدين: ج ١، ص ٣٣١، ح ١٦؛ التفسير الصافي: ج ٢، ص ٣٣٩.

(٣) البحار: ج ٥٣، ص ٨٥-٨٦، ح ٨٦؛ القطرة: ج ٢، ص ٤٩٦، ح ١١٥٤.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿إِنْ قَائِمُنَا إِذَا قَامَ مَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَشِيعَتِنَا فِي أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَائِمِ عليه السلام بَرِيدٌ. يَكْلَمُهُمْ فَيَسْمَعُونَ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ﴾^(١) والتقنية الحديثة قرّبت هذه الحقائق كثيراً وباتت محسوسة.

أربعة أيام كبرى

ويتحصل: أنّ مبدأ التأريخ الإسلامي والإنساني ومصيرهما معاً يقوم على أربعة أيام كبرى، هي يوم الغدير في المبدأ، ويوم عاشوراء في الوسط، ويوم الظهور في الخاتمة، ويوم القيامة في المصير. وفي ذلك دلالة على أنّ السعادة الحقيقية والكمال الإنساني يقع بهذه الثلاثة في الدنيا وفي الآخرة، وبه يظهر التطابق التام بين القرآن والعرة.

نتائج البحث

ويتلخص من ذلك أمور:

الأول: أنّ الولاية لأمر المؤمنين عليهم السلام فرض عين على جميع الأنبياء والأئمة فضلاً عن سائر الناس.

الثاني: أنّ إسلام المسلم غير مرضي عند الله بدونها.

الثالث: أنّ الولاية أمر إلهي غيبي يملكه الله، ويجعله عزّ وجلّ على الناس لأنّه من الدين، والدين بيد الله ليس للناس فيه اختيار أو رأي

(١) الكافي: ج ٨، ص ٢٤١، ح ٣٢٩؛ الصراط المستقيم: ج ٢، ص ٢٦٢؛ القطرة: ج ٢، ص ٥٠٣، ح ١١٦٧. وفي الكافي: (بريد مكان يريد).

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(١).

أثر التكذيب بالولاية

ولما يحشر الناس يسألهم أهل الجنة ما سلككم في سقر، وكانوا يرونهم على حال حسن في الدنيا، فأصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِيِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ * حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٢) وسقر واد في جهنم شديد الحر، سأل الله سبحانه أن يتنفس فتتنفس فأحرق جهنم، وهو من أسماء النار^(٣).

وصدر الآيات وذيلها يدل على أن مشكلة أهل سقر كانت عقدية قبل كل شيء، وهي أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، وهو يوم ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

فعن الإمام الكاظم عليه السلام في معناها قال: ﴿يعني أنا لم نتول وصي محمد صلوات الله عليه وآله والأوصياء من بعده، ولم نصل عليهم﴾^(٤).

وقريب منه ورد عن الإمام الباقر عليه السلام^(٥)، ومنه يظهر أثر الصلاة على

(١) سورة القصص: الآية ٦٨.

(٢) سورة المدثر: الآيات ٤٢ - ٤٨.

(٣) مجمع البحرين: ج ٣، ص ٣٣٤، (سقر).

(٤) انظر الكافي: ج ١، ص ٤٣٤، ح ٩١؛ التفسير الصافي: ج ٥، ص ٢٥١، ح ٤٣.

(٥) الكافي: ج ١، ص ٤٥١، ح ٣٨.

محمد وآل محمد ﷺ .

ما يؤثر في النعيم والجحيم من الأعمال

والآية أشارت إلى أعمال عديدة لها مدخلية في النعيم والجحيم:

الأول: الصلاة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿تعاهدوا أمر الصلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقربوا بها، فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾^(١)﴾^(٢).

والثاني: لم نك نطعم المسكين، وعدم إطعام المسكين يعني ما كانوا يُعطون الزكاة الواجبة عليهم، وفي عين الحال لا يساعدون الفقراء والمحتاجين. وهذا في نفسه شاهد على أنهم كانوا أغنياء مترفين ولكنهم ييخلون بعطائهم، والظاهر أنّ الآية ناظرة إلى الحقوق الواجبة، أمّا ترك الإنفاق في المستحبات فيقلل الدرجة ولا يوجب العذاب.

الثالث: أنهم كانوا يستهزئون بأهل الدين ويضحكون عليهم، ويخوضون مع الخائضين، والخوض في الاستعمال القرآني يطلق على الدخول في كل أمر فيه أذى وتلوّث وباطل^(٣) وهذا شأن صنفين من الناس:

(١) سورة المدثر: الآيتان ٤٢ و ٤٣.

(٢) نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٧٨، الخطبة ١٩٩؛ البحار: ج ٧٩، ص ٢٢٤، ح ٤٨؛ الوسائل: ج ٤، الباب ٧ من أبواب أعداد الفرائض ص ٣٠، ح ٤٤٣٢.

(٣) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٤٩٤، (خوض).

الأول: المترفون.

والثاني: الاتباع السذج، الذين يتبعونهم دون فكر ومعرفة.

أثر العصيان في العقيدة

والرابع: هو أنهم كانوا يُكذِّبون بيوم الدين، ولا يراد منه يوم القيامة لسببين: أحدهما: لأنه لو كانوا كذلك لذكروه أولاً، ولا داعي لتعليل دخولهم النار بعدم الصلاة والزكاة، لأنَّ عدم فعل ذلك متفرِّع عن العقيدة بيوم الدين.

ثانيهما: أنَّ التكذيب بقرينة عدم الصلاة وعدم الزكاة يراد به تكذيب العناد، أي كانوا يعرفون الحق ويكذبونه كما تفيده المبالغة، ولو كانوا يجهلون لقالوا: (كنا لا نؤمن بيوم الدين) فكانوا يعرفون الحقيقة لكنهم يحدونها. وبقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(١) من باب عدم المقتضي، فإذا لاحظنا أنَّ النبي ﷺ قال: ﴿ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي﴾^(٢) يعرف أن تكذيبهم بيوم الدين كان يتعلق بالعقيدة، وهو التكذيب بولاية أمير المؤمنين ﷺ والاستهزاء بأتباعه وأهل ولايته، ومثلهم لا يشفع لهم أحد.

وفي تفسير علي بن إبراهيم في قوله: ﴿وَلَمْ نَكُ نُنْطِمْ الْمَسْكِينِ﴾^(٣)

قال: حقوق آل محمد من الخمس لذوي القربى واليتامى والمساكين

(١) سورة المدثر: الآية ٤٨.

(٢) الفقيه: ج ٣، ص ٥٧٤، ح ٤٩٦٣؛ البحار: ج ٨، ص ٣٤، ح ١.

(٣) سورة المدثر: الآية ٤٤.

وابن السبيل وهم آل محمد،... وقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(١)
قال: ﴿لو أنّ كل ملك مقرب ونبي مرسل شفّعوا في ناصب آل محمد ما
شُفّعوا فيه﴾^(٢).

وفي أصول الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: ﴿من تقدّم إلى ولايتنا أُخّر
عن سقر، ومن تأخر عنّا تقدّم إلى سقر﴾ وفي الآية التي قبلها الذين يتسألون
هم أصحاب اليمين، وهم شيعة آل محمد عليه السلام، فيقولون لأعداء آل محمد:
﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾^(٣) فيقولون: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾^(٤) أي لم نكن
من اتباع الأئمة عليهم السلام^(٥).

وفي الآية دلالة على أنّ أهل النار وأهل الجنة يطّلع بعضهم على بعض
ويتحاورون وإن كان كل منهم في مقام ورتبة، كما يتصل الشخص اليوم
بالهاتف النقال وهو في السجن ويكلّم من هو حرّ.

أربع فوائد فقهية

وبذلك نستخلص أربع فوائد:

الأولى: أنّ الكفار مكلفون بالفروع والأصول.

(١) سورة المدثر: الآية ٤٨.

(٢) تفسير القمي: ج ٢، ص ٣٩٥؛ المحاسن: ج ١، ص ١٨٦، ح ١٩٨؛ البحار: ج
٢٧، ص ٢٣٦، ح ٥٣.

(٣) سورة المدثر: الآية ٤٢.

(٤) سورة المدثر: الآية ٤٣.

(٥) انظر الكافي: ج ١، ص ٤٣٤، ح ٩١؛ تفسير القمي: ج ٢، ص ٣٩٥.

الثانية: أنّ مجالسة أهل الباطل والفسقة وضعاف الإيمان ومخالطتهم حرام، وله الأثر البالغ على مصير الإنسان، فإنّ الإنسان يتأثر بأصحابه وجلسائه، وهذا تعليم وتحذير مهم للشباب في علاقاتهم.

الثالثة: أن أهم ما يجب أن يهتم به الإنسان هو سلامة العقيدة والفكر؛ لأنّ سلامة العقيدة هي الأساس الذي تقوم عليها الطاعات والدرجات، ومن دون ذلك فإنّ صلاته وحدها وزكاته لا تنفعه، والعقيدة الصحيحة بولاية النبي والأئمة عليهم السلام واتباعهم، وقد فرضها الباري عزّ وجلّ في يوم الغدير، وبه أظهر مالكيته وحكومته على الخلائق.

الرابعة: ظهور وجه الترابط بين هذه الآية والآيات التي تليها، وهي قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ كما يظهر أن أهم نعمة تستحق الحمد لله رب العالمين هي نعمة الولاية لأمر المؤمنين عليهم السلام.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

الحمد / ٥

علاقة الربوبية والعبودية

وهي جملة خبرية متضمنة للإنشاء أو بالعكس تخبر عن ضمير الإنسان واعتقاده وارتباطه ومنهجه، وتكشف عن وجود علاقة واحدة في هذا الوجود هي علاقة العبد بالرب، وهذه العلاقة متأخرة عن علاقة الرب، بالعبد، فهي نزولية وصعودية. ابتداءً الوجود بعلاقة نزولية من الرب إلى العبد، وهو الله الذي أوجده وربّاه ورحمه وأعطاه كل النعم الوجودية، وهو الذي يحاسبه ويجازيه، وقد تحدثت الآيات السابقة عن العلاقة النزولية. وأشارت إلى تقومها بقيمتين: الأولى الربوبية، والثانية الرحمة، وبهذه القيمة تبرأ من الشرك.

وفي هذه الآية تبدأ العلاقة الصعودية من العبد إلى الرب، وهي ذات قيمتين أيضاً: هما العبودية والاستعانة، وبهذه يتبرأ العبد من حوله وقوته، والعبودية تقابل الربوبية؛ لأنّه مقتضى حق المنعم، والاستعانة مقابل الرحمة؛ لأنّها استفاضة، فالعبودية للرب والاستعانة برحمته.

وفي الآية التي تليها يلخص أعظم وأهمّ ما يجب أن يسأل العبد ربه، ويستعين به، وهو أن يُعيّن له الصراط المستقيم ويهديه إليه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) والمراد بالصراط المستقيم هو الاستقامة والتوازن في كل شيء في أفكاره ومعتقداته، وفي أخلاقه وسلوكه، وفي أعماله ومواقفه لكي يتوازن العبد مع قيم الرب، ويتحد في المنهج.

(١) سورة الفاتحة: الآية ٦.

أركان الوجود الكامل

وبذلك تتحقق لدى الإنسان الأركان الثلاثة لوجوده الكامل.

الأول: الرب الرحيم.

الثاني: العبودية له والاستعانة به.

والثالث: الصراط المستقيم. ومصداقه الأعظم هو النبي والإمام عليهما السلام.

وبذلك يتضح الترابط السياقي بين الآيات الشريفة، ويكشف عن حقيقة كونية عظمى عليها يقوم نظام الوجود برمته، وفلسفة الأديان والشرائع والمعتقدات الإنسانية بشكل عام. هي علاقة الرب بالعبد والعبد بالرب، وهي علاقة فطرية أولية لا يستطيع أي عاقل يراعي ضوابط الفطرة والعقل أن ينكرها أو ينفیها.

منشأ الإلحاد وتناقضه

والملاحدة الذين يزعمون أنهم ملاحدة لا يستطيعون إنكار وجودها، وإنّما هم بين من يقرّ بها وينفي وجود الشريعة المنظمة لذلك، ويلزمهم أن يقرّوا باللانظام وهو مخالف للوجدان والبرهان وقواعد العلم، وبين من يشك بوجودها لابتلائه بالسوسوسة والشك واضطراب الفطرة، وهو انحراف عن موازين المنطق والعلم، فإنّ الإلحاد بأنواعه يعود إلى قسمين رئيسيين:

أحدهما: الإلحاد الديني، وهو الذي يشك بوجود شريعة ودين يدين به الناس، ويشك بالنبوة والكتاب.

ثانيهما: الإلحاد الربوبي، وهو الذي يشك بوجود رب لهذا العالم، فهو في

القسمين شكّاك وليس بواثق، وسبب ذلك هو الاضطراب النفسي والفكري الحاصل لديه؛ لأنّ قواعد العقل والمنطق والضمير الإنساني السليم تتفق على ضرورة وجود رب وشرعية ودين ونظام للعبودية، وإلاّ استحال الوجود، وبطلت حكمته وغايته، وقد نصت الآية المباركة على هذه الحقيقة بجملة واحدة هي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وكان السياق يقتضي أن يقول: (إيّاه نعبد وإيّاه نستعين) لأنّ الكلام في الآيات السابقة كان بلسان الغيبة، ولكن في هذه الآية جاء الخطاب بلسان الحضور.

سر التحوّل من الغيبة إلى الحضور

ولهذا الانتقال من الغيبة إلى الحضور أسباب ولطائف أدبية عديدة:

منها: الالتفات في الخطاب من الغيبة إلى الحضور، وهو فن بديع من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب، ويعبر عنه في علم البلاغة بالالتفات، سمي بذلك باعتبار أنّ المتكلم يعدل في البيان عن أسلوب إلى آخر يوجب التفات ذهن السامع وفكره، ويلفته الى نقطة مهمة، كما لو عدل الماشي عن طريق مستو إلى طريق آخر، فإنّه مما يجذب الالتفات والانتباه لغرض معالجة قضية أو حل معضلة، وقد كان خطاب الآيات السابقة عن الغائب، وفي هذه الآية ورد الخطاب بلسان الحاضر، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للإلتفات إلى قضية الربوبية والعبودية، وهي أهم قضية في الوجود. ومن آثارها أن من امتلك الصفات العالية التي ذكرتها الآيات السالفة تفوق عظمته الوصف، وليس للعبد إلّا العلم بهذه الحقيقة دون بلوغ كنهها، ومن كان كذلك كان حقيقاً بالشأن والخضوع له والاستعانة به، وحيث إنّ هذه

الحقيقة تملأ جوانحه مجده في كل مكان وزمان، فتذوب فيه الغيبة وتصبح حضوراً؛ لذا يخاطبه بلسان الحضور.

ومنها: الانعطاف من التعبير عن الاسم الظاهر (الله) (رب العالمين) (الرحمن الرحيم) إلى الضمير الحاضر (إِيَّاكَ) والحكمة في ذلك قطع الملل عن ذهن السامع بتجديد نشاط الذهن وتحريكه بتنوع الصور والمعاني، فإن الرتبة في حضور الصور والأفكار إلى الذهن يوجب الخمول والغفلة، أو الشرود الذهني، فاذا تبدل الخطاب جدد فيه التركيز والنشاط، ويستعد لتمام الفهم وأهل المعرفة يقولون: إن الآية المباركة نقلت العبد الغائب عن الله والغافل عنه إلى مقام الحضور، وبه تأهل لأن يخاطب الباري بالمباشرة بلا حجب ولا موانع، فلذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومنها: أن صيغة الجمع في العبادة والاستعانة (نعبد) و(نستعين) تفيد أن القضية عامة لدى جميع العباد وليست قضية شخصية تتعلق بفرد أو أفراد، بل جميع البشر هم على هذه الشاكلة، وهذا يؤكد فطرية هذه الحقيقة؛ لأن الفطريات يشترك فيها الجميع.

ومنها: مجانسة حصر الحمد به المستفاد من أوصافه سبحانه في الآيات السابقة لحصر العبودية والاستعانة به، فمن بدأ النعم هو الذي يستحق العبودية، وإذا لا يوجد غيره رباً لا يوجد غيره معبوداً، فعبثاً يسعى البشر في العبودية لغيره؛ لأنهم يخالفون فطرهم، وبالمحصلة يعودون إليه؛ لأن كل

ما يعبد به البشر يعود إليه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) وبذلك يظهر سر من أسرار تسلسل الآيات في السورة، فإنَّهما قسمان: القسم الأول محض التوحيد في الربوبية والمالكية، وبه تبرأ من الشرك، وفي القسم الثاني تبرأ من الحول والقوة، وانقطع إلى الرب الواحد لا شريك له، وتمت حلقة الارتباط.

ومنها: الانتقال من الشاء إلى الدعاء، والأول يصح بالغيبة، أما الثاني فلا يصح إلا بالحضور، وهو التفات ذهني ومعنوي معاً، فبالأول يتنشّط العقل والقلب ويتوجهان لما يريد، وبالثاني يتعلّم أنّ الدعاء يأتي بعد الشاء، فلا يمكن للعبد أن ينال مطلوبه دون أن يبدأ بالشاء؛ لأنّ بالشاء يلتفت إلى كمال المدعو وجماله وجلاله، وبالدعاء ينال خيره وفضله، ولذا تضافرت الأدلة باستحباب الابتداء في كل دعاء بالشاء، وبالصلاة على محمد وآل محمد، والصلاة عليهم هي في نفسها من أعظم الشاء.

الدعاء بالصلاة على آل محمد ﷺ

فعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿إِيَّاكُمْ إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَسْأَلَ مِنْ رَبِّهِ شَيْئاً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَبْدَأَ بِالشَّاءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمَدْحَ لَهُ وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ حَوَائِجَهُ﴾^(٢).

والتحذير بإياكم كاشف عن مبعوضة الدعاء بدون ذلك، ولا يعقل أن

(١) سورة الصافات: الآية ٩٦.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٤٨٤، ح ١؛ البحار: ج ٩٠، ص ٣١٢، ح ١٧.

يستجيب الباري لما يبغضه.

وفي الكافي الشريف: ﴿إذا طلب أحدكم الحاجة فليشِرْ ربه وليمدحه، فإنَّ الرجل منكم إذا طلب الحاجة من السلطان هيَّأ له من الكلام أحسن ما يقدر عليه﴾^(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿المدحة قبل المسألة﴾^(٢) وبهذا يعلمنا الباري طريق الدعاء وطلب الحاجات وأدب الحديث مع الباري عزَّ وجلَّ. ويستفاد من الأخبار أنَّ من الثناء على الله الصلاة على محمد وآله وإلَّا حجب الدعاء^(٣)، فإنَّها مضمونة القبول فتوجب الإجابة.

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةٌ فَلْيَبْدَأْ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ثُمَّ يَسْأَلْ حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَخْتِمُ بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَكْرَمَ مَنْ أَنْ يَقْبَلَ الطَّرْفَيْنِ وَيَدْعَ الْوَسْطَ إِذَا كَانَتْ الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ لَا تَحْجِبُ عَنْهُ﴾^(٤).

وتتأكد الإجابة إذا سَمَّاهم واحداً بعد واحد، ففي رواية المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾^(٥) قال: ﴿هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه،

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٨٥، ح ٦؛ عدة الداعي: ص ١٤٩.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٤٨٤، ح ٢؛ فلاح السائل: ص ٣٥؛ المصباح (للكفعمي): ص ٧٦٦.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٤٩١، ح ١؛ عدة الداعي: ص ١٩٧.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ٤٩٤، ح ١٦؛ عدة الداعي: ص ١٩٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

وهو أنه قال: يا رب! أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ألا تبت عليّ فتاب عليه^(١).

وعن سلمان قال: سمعت محمداً ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا عِبَادِي! أُولَئِكَ مِنْ لَدُنِّي إِيَّاكُمْ حَوَائِجُ كِبَارٍ لَا تَجُودُونَ بِهَا إِلَّا أَنْ يَتَحَمَّلَ عَلَيْكُمْ بِأَحَبِّ الْخَلْقِ إِيَّاكُمْ تَقْضُونَهَا كَرَامَةً لَشَفِيعِهِمْ؟ أَلَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَيَّ وَأَفْضَلُهُمْ لَدَيَّ مُحَمَّدٌ وَأَخُوهُ عَلِيٌّ وَمَنْ بَعْدَهُ الْأُئِمَّةُ الَّذِينَ هُمْ الْوَسَائِلُ إِلَى اللَّهِ، فَلْيَدْعُنِي مِنْ هِمَّتِهِ حَاجَةً يَرِيدُ نَفْعَهَا أَوْ دَهْمَتَهُ دَاهِيَةً يَرِيدُ كَشْفَ ضَرِّهَا بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ أَقْضِهَا لَهُ أَحْسَنَ مَا يَقْضِيهَا مَنْ تَسْتَشْفَعُونَ لَهُ بِأَعَزِّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ^(٢).

الدعاء بالقرآنيين

وبذلك يتضح بعض السر في جعل أهم أدعية ليلة القدر حمل المصحف ووضعها على الرأس ثم السؤال بأسمائهم ﷺ، وفي ذلك إلفات لأهل القلوب لا ينبغي أن يغفل عنه بالسؤال بالقرآنيين الناطق والصامت، وهو من الالتفات أيضاً. هذا ما تقتضيه دلالة السياق، وأما المفردات واللطائف والتعاليم فالبحث فيها يقع في مباحث.

(١) الخصال: ص ٣٠٥؛ البحار: ج ١١، ص ١٧٧، ح ٢٣؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء، ص ٩٩، ح ٨٨٤٤.

(٢) الوسائل: ج ٧، الباب ٣٧ من أبواب الدعاء ص ١٠١، ح ٨٨٤٨.

المبحث الأول: في مفردات الآية المباركة



خطاب الحضور

المفردة الأولى: ﴿إِيَّاكَ﴾

ذكر النحاة في تعريف (أي) وجوهاً عديدة، كما ذكر القراء لها قراءتين بكسر الهمزة كما ورد في الآية وبفتحتها^(١)، والأقوى أنه ضمير مثل (هو) و(هي)، كما يقول الكوفيون، والكاف يخصصه بالمخاطب الخاص^(٢)، ونسب إلى الخليل أيضاً^(٣)، بل نسب إلى المشهور^(٤)، وبه يخرج الخطاب من الغيبة إلى الحضور، وتعززه الآيات، كقوله تعالى: ﴿لَأَمَرَ آلًا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾^(٦) أشار بذلك إلى ذاته المقدسة، وخصص الخطاب بالمضاف إليه وهما الهاء والياء.

وقد ورد أن رجلاً تعرّض لرجل حلیم فأعرض عنه، فقال له الرجل:

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٩٠ - ٩١؛ التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٧٧.

(٢) تفسير سورة الحمد (لعبد الجواد الآبادي): ص ٩٨١.

(٣) انظر التبيان: ج ١، ص ٣٧.

(٤) روح المعاني: ج ١، ص ١١٦.

(٥) سورة يوسف: الآية ٤٠.

(٦) سورة العنكبوت: الآية ٥٦.

إِيَّاكَ أعني، فقال له الرجل: وعنك أعرض^(١).

وفي بعض الأخبار: (سب رجل رجلاً فلم يلتفت إليه، فقال له: إياك أعني. قال: وعنك أعرض)^(٢)، وذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه فقال له الساب: إياك أعني، فقال له الآخر وعنك أعرض^(٣).

وفي قوله (إِيَّاكَ) انتقل بالخطاب من الغيبة إلى الحضور وهو ما تقتضيه ضرورة المحادثة وجوهر العقيدة، فإنه بعد إقرار العبد بالألوهية والاعتراف بالربوبية والإذعان لحكومته وملوكيته في الآخرة ارتقى معنوياً في دركه ومعرفته وانقطاعه عن الغيبة إلى الحضور لارتقاء قلبه من الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الحضور، فزالت الحجب بينه وبين ربه، وصار حاضراً عنده، فوجب أن يقول: ﴿إِيَّاكَ﴾ وفي الحديث: ﴿أنا جليس من ذكرني﴾^(٤) ولأن هذه مرتبة يبلغها كل من يؤمن ويدعن خاطبه بلسان الجمع، فقال ﴿نعبد﴾ و ﴿نستعين﴾.

مفهوم العبادة والطاعة

المفردة الثانية: ﴿نعبد﴾

العبادة هي الطاعة الملائمة للخضوع وإظهار الذل^(٥)، ولا تستحق إلاّ

(١) انظر تفسير القرطبي: ج ١، ص ١٤٥.

(٢) ربيع الابرار (للزخشي): ج ٢، ص ٢١٣.

(٣) انظر تفسير القرطبي: ج ١، ص ١٤٥.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ٤٩٦، ح ٤؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ٥١، ١٧٥؛

البحار: ج ٩٠، ص ١٥٣، ح ١١.

(٥) معجم مقاييس اللغة: ص ٧٠١، (عبد)؛ مفردات الراغب: ص ٥٤٢، (عبد).

بغاية الإنعام، بخلاف الطاعة فإنها أعمّ وتشمل ما كان من العالي إلى الداني ومن المنعم، ولأنّ الإنعام مختصّ به فلا يجوز أن يعبد غير الله، ولا تكون العبادة إلّا مع المعرفة بالمعبود وهي أخصّ من الطاعة من جهة أخرى؛ لأنّ الطاعة هي الاستجابة لإرادة الغير واتباعه وإن لم يقصد التبع، كالإنسان يكون مطيعاً للشيطان وإن لم يقصد ذلك لكنه اتبع ما أَرَادَهُ مِنْهُ^(١)، فإذا خضع له واستسلم له صار عابداً له، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَغْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾^(٢) لأنهم صاروا من جنوده.

وصيغة المضارع في ﴿نَعْبُدُ﴾ تدل على الدوام والاستمرار، وضمير الجمع الذي تشير إليه النون في ﴿نَعْبُدُ﴾ يدل على الحب والاختيار والانقياد الطوعي للمعبود، وإطلاقه يشمل جميع المخلوقات بقريئة داخلية وهي قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وخارجية وهي مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٣) والإتيان قهري تكويني وإن كان الإنسان هو أرقى عابد وأكمل، وتقديم الضمير المخاطب عليه يفيد حصر العبادة والمعبود بواحد لا شريك له وهو الله سبحانه، وهي نتيجة مترتبة على الاستحقاق لكونه الرب الرحيم المالك، فإنّ كل واحدة من الأوصاف المذكورة تكفي لاستحقاق العبودية؛ لأنّ الرب يستحق طاعة المربوب من باب شكر المنعم، والرحيم يستحق طاعة المرحوم من باب الحب ومقابلة

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص ٣٤٩، (١٣٩٦).

(٢) سورة يس: الآية ٦٠.

(٣) سورة مريم: الآية ٩٣.

الإحسان بالإحسان، والمالك يستحق طاعة المملوك من باب الحق.

أنواع العبادة

وبذلك يتضح أنّ العبادات بعضها تتعلق بالربوبية وهي عبادة الشكر، وبعضها تتعلق بالرحمة وهي عبادة الحب، وبعضها تتعلق بالمالكية وهي عبادة الحق، وكل واحدة منها على ثلاث مراتب:

الأولى: العبادة التكوينية بخضوع كل مخلوق إلى خالقه في وجوده وتكوينه، ولولاه لم يكن شيئاً مذكوراً، وهي عبادة المخلوقين.

الثانية: العبادة التشريعية، وهي التي أوجبها الخالق على مخلوقه كالصلاة والصيام، وهي خاصة بمن توفرت فيهم شرائط التكليف من البشر، وأما لغيره عامة وهي عبادة المكلفين.

الثالث: العبادة العقلية، وهي التي يقرّ بها عقل كل عاقل في أن يكون منقاداً إلى ربه، ملتزماً بנהجه، غير خارج عن إرادته وحبّه وبغضه، وهي عبادة العارفين.

والأولى ملازمة لوجود الخلق في جميع العوالم، فإنّ مقتضى ذات كل مخلوق الفقر والحاجة إلى الغني الكريم، والثانية تختص بعالم الدنيا، والثالثة في الدنيا والآخرة.

عبادة البرزخ والجنة والنار

فإنّ عبادة أهل البرزخ وأهل الجنة عقلية تقوم على الذكر والتسبيح والتهليل لا الصلاة والصيام ونحوهما؛ لأنها تنتهي بانتهاء دنيا الاختبار.

أما العقلية فهي كمالية طوعية يقوم بها الخلق من مقتضى كمالهم. ولأهل النار عبادة وذكر تقوم على الدعاء والاستغاثة؛ لأنهم في النار يدركون الحقائق والحقوق ولو أردنا أن نقرب هذا بشاهد محسوس نمثل له بالتلميذ الذي يدرك كمال الأستاذ وعلو مقامه في العلم والعمل، فإنه يطيعه ويدعن له بمقتضى دركه العقلي؛ لأن العقل ببيدهيته يحب الكمال ويطيع الكامل.

وفي الجنة تكتمل عقول أهلها، فعقولهم تدعوهم إلى العبادة والذكر بالاستحقاق، ولا يحتاجون إلى نبي يرشدهم، ولا عقاب يخوّفهم وثواب يشوّقهم؛ لأنّ هذا من شؤون عالم الغفلة والسهو والخطأ وتسويلات النفوس والشياطين، وفي الجنة كل ذلك يزول، وإنّما خصص العبادة به بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ للإشارة إلى وجود عبودية لغير الله، ولها ثلاثة معبودات هي الشيطان وشهوات النفس والأصنام والأوثان وهو يعود إلى الثاني؛ لأنّ أهلها يطيعون الشياطين وهوى النفوس، وهي من الظلم العظيم الذي يقع فيه بنو آدم دون غيرهم من المخلوقات إلّا ما ندر كما أشارت الأخبار إلى بعض النباتات والحيوانات حينما عرضت عليها الولاية فرفضتها.

أول عهود العبودية

وأول عهد أخذه البارئ عزّ وجلّ من بني آدم قبل عالم الدنيا هو عهد العبودية له وترك العبودية للشيطان، ولذا سيكون أول حجة عليهم في الآخرة؛ إذ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا

الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١﴾ وهو من الاستفهام الاستنكاري، ويراد به الدم، وسيكون مصيرهم وكل ما يعبدونه من دون الله حصب جهنم؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (٢).

حصب جهنم

والحصب هو الحصى، وإذا كان في النار زادها لهباً واضطراباً، وتشير الآية إلى أن الأوثان التي كانوا يعبدونها تصبح حصي جهنم بها توقد وتضطرم وعبادها كذلك، والحصب أخص من الحطب (٣)، وفي ذلك دلالة على تنوع العذاب وأهله، وأشد المعذنين في النار هم حصب جهنم، وهم أصول الشرك والنفاق والنصب؛ لأنهم عبدوا الشيطان وشهواتهم في قبال عبادة الله، والآية تلفت الأنظار إلى حقيقتين:

أركان العبادة

الحقيقة الأولى: أن العبادة تقوم على أربعة أركان:

الأول: معرفة العابد للمعبود، وفي عبادة الله تتم أولاً بمعرفة وجوده وكمالاته وآثار فعله وقدرته، ثم معرفة أوليائه وأنبيائه، والفرق بين المعارف الثلاث أن الأولى تقوم على الفطرة، وهي معرفة مجملة تقتصر على أصل

(١) سورة يس: الآيتان ٦٠ و ٦١.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

(٣) مجمع البحرين: ج ٢، ص ٤٣ - ٤٤، (حصب)، (حطب).

الوجود وكمالاته دون تفاصيله، والثانية عقلية ناشئة من النظر في الآثار للتوصل إلى معرفة الجبَّار؛ لأنَّ الأثر يدل على المؤثر، والثالثة قلبية ناشئة من الحب والولاية لهم ثم التعلم والافتداء بهم، فإنَّ من دون حب لا تتحقق المعرفة القلبية بخلاف المعرفة العقلية فإنَّها تقوم على المقدمات والنتائج.

خصوصية المعرفة الفطرية

أما المعرفة الفطرية فتقوم على صفاء الفطرة في تكوينها. هذه هي القاعدة، ودلت عليها النصوص الشريفة.

فعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: ﴿الله هو الذي يتألَّه إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق، وعند انقطاع الرجاء من كل من دونه، وتقطع الأسباب من جميع من سواه. تقول: بسم الله أي استعين على أموري كلها بالله الذي لا تحق العبادة إلَّا له، المغيث إذا استغيث، والمجيب إذا دعي، وهو ما قال رجل للصادق عليه السلام: يا بن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُلَّنِي على الله ما هو؟ فقد أكثر عليَّ المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبد الله! هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم. قال: فهل كُسرت بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال نعم - ويبدو أنَّ الإمام حاكاه بما وقع فيه - قال: فهل تعلَّق قلبك هنالك أنَّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلِّصك من ورطتك؟ قال: نعم. قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي،

وعلى الإغاثة حيث لا مغيث^(١).

وتتوقف معرفة الفطرة عند هذا الحد، أمّا بعدها فتبدأ معرفة العقل لإدراك حقائق الكمال والجلال، ثم معرفة القلب للحب والإذعان والطاعة. وقوله: ﴿يَتَّالِهَ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ﴾ أي يفرع إليه ويلجأ لقضاء حوائج الأبدان بالأرزاق والأرواح بالأمن والطمأنينة.

سبب وجود الدنيا

الثاني: الإرادة والاختيار، فإنَّ العبادة لا تكون بالجبر والإكراه وبهذا تتضح فلسفة وجود الدنيا، وعدم تدخل إرادة الله في أفعال العبد؛ لأنَّ الباري عزَّ وجلَّ جعل الدنيا ساحة لاختبار عبودية العباد وطاعتهم، وتعاهد معهم على هذه الحقيقة، وجعل لهم العقول، وأرسل لهم الأنبياء، وأنزل الكتب لكي ترشدهم إلى الحق، ويختبر طاعتهم، فلم يجبر أحداً على الطاعة حتى إبليس لما تمردَّ وعصى تركه وشأنه، وأمهلته إلى يوم الوقت المعلوم^(٢).

العبادة بالتسليم

الثالث: الإذعان والتسليم الروحي للمعبود والخضوع لعظمته وجلاله وجماله، فالعبادة من دون تسليم القلب حركات وسكنات وليست عبادة، كما أنَّ الخضوع لغير الله عبودية لذلك الغير، ولذا قد يعبد الإنسان نفسه، وقد يعبد شيطانه، وهناك من اتخذ إلهه هواه، وهناك من عبد غروره ونفسه،

(١) معاني الأخبار: ص ٤ - ٥، ح ٢؛ البحار: ج ٣، ص ٤١، ح ١٦.

(٢) انظر سورة ص: الآيات ٧٩ - ٨١.

واستجاب لهما وجعلهما المعيار في فكره وتصرفاته.

الانقطاع لآل محمد ﷺ

الرابع: الدوام عليها، فلو حصل تخلف في ذلك انقطعت وخرج العبد من رسوم العبودية، وهذا يتحقق بالطاعات وبالتمسك بمحمد وآل محمد ﷺ وعدم الانقطاع عنهم لا بالفكر ولا بالقلب ولا بالاعتداء.

ففي رواية معتب مولى أبي عبد الله عليه السلام عنه عن أبيه عليه السلام قال: ﴿جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ! هل للجنة من ثمن؟ قال: نعم. قال ما ثمنها؟ قال: لا إله إلا الله يقولها العبد مخلصاً بها. قال: وما إخلاصها؟ قال: العمل بما بعثت به في حقه وحب أهل بيتي. قال: فذاك أبي وأمي وإن حب أهل البيت لمن حقها؟ قال: إن حبهم لأعظم حقها﴾^(١).

وجوب المعرفة التفصيلية

ومعنى ذلك أن سلامة العقيدة قبل الأحكام وأهميتها أعظم، ومعلوم أن الحب لا يكون إلا بمعرفة، والمعرفة والحب يلزمان الطاعة والانقياد، وكلما ازدادت المعرفة والحب ازدادت الطاعة، ولذا قال النبي المصطفى ﷺ: ﴿أفضلكم إيماناً أفضلكم معرفة﴾^(٢) وقريب منه ورد عن الإمام الباقر عليه السلام^(٣).

(١) الأمالي (للطوسي): ص ٥٨٣، ح ١٢٠٧؛ البحار: ج ٣، ص ١٣، ح ٣٠.

(٢) صفات الشيعة: ص ١٥؛ البحار: ج ٣، ص ١٤، ح ٣٧.

(٣) تحف العقول: ص ٢١٥.

ولا يكفي في حب أهل بيته المعرفة الإجمالية بأن يعرفهم بالأشخاص وصفاتهم الشخصية كما يعرف الصديق صديقه، ولا يعرفهم بتمييزهم المعنوي كما يعرف العالم والعابد بأنه متميز عن سائر الناس بذلك، بل لا بد من معرفتهم التفصيلية بأشخاصهم وبمقاماتهم الإلهية العالية على قدر الاستعداد والقابلية، فمعرفة بعضهم دون بعض جهل لا معرفة، وحب بعضهم دون بعض بغض لا حب، ولذا تبطل دعاوى الفرق التي لا تؤمن بتمام أهل البيت بنحو العموم المجموعي.

حديث السلسلة الذهبية

وهذا ما يعززه حديث السلسلة الذهبية الوارد بطرق عديدة وليس في طريقه إلا المعصومون عن الله تعالى، ولذا وصف بالسلسلة الذهبية.

منها: ما رواه الشيخ الصدوق في التوحيد. قال: لما وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام بنيسابور وأراد أن يخرج منها إلى المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له: يا بن رسول الله! ترحل عنا ولا تحدثنا بحديث فنستفيده منك؟ وكان قد قعد في العمارة فأطلع رأسه وقال: ﴿سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي يقول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي بن أبي طالب يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعت جبرائيل يقول: سمعت الله جل جلاله يقول: لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي. قال

فلما مرت الراحلة نادانا: بشروطها وأنا من شروطها^(١).

ومرجع الضمير في قوله: ﴿من شروطها﴾ هذه الحقيقة التي تقوم على أركان ثلاثة هي الإقرار القلبي والإظهار اللساني والعمل بلوازمها أي الخلوص في التوحيد والعبادة، فمن شروطها الإقرار لله بالوحدانية والعبادة له، والإقرار للرضا عليه السلام بالإمامة والمحبة والانقياد والطاعة كما هو المتبادر والمجمع عليه عندنا^(٢)، ويقضي به العقل فضلاً عن الأدلة الكثيرة الأخرى.

لماذا قال: ﴿وأنا من شروطها﴾؟

ولعله عليه السلام خص نفسه بالذكر فقال: ﴿وأنا من شروطها﴾ دون باقي الأئمة ناظر إلى قضايا عديدة:

الأولى: ما تعارف بين المسلمين من وحدة الحكم والخصائص بين أهل البيت عليهم السلام، فعلي نفس النبي وفاطمة روحهما، والحسن والحسين واحد، وما يثبت لأولهم يثبت لآخرهم، فإن ذكر أحدهم هو ذكر لهم جميعاً، وقرينة سلسلة السند المعنعن من الرضا عن آبائه عن جبرائيل عن الباري يشير إلى هذه الحقيقة، ويغني عن ذكرهم جميعاً ما ورد في الزيارة الشريفة ﴿أن أرواحكم ونوركم وطيتكم واحدة طابت وطهرت بعضها من بعض﴾^(٣).

(١) التوحيد: ص ٢٥، ح ٢٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١، ص ١٤٥، ح ٤؛ البحار: ج ٤٩، ص ١٣٣، ح ٥.
 (٢) انظر التوحيد: ص ٢٥، ح ٢٣.
 (٣) الفقيه: ج ٢، ص ٦١٣، ح ٣٢١٣؛ التهذيب: ج ٦، ص ٩٨، ح ١٧٧؛ البحار: ج ٩٩، ص ١٣٠، ح ٤.

والثانية: لأنّ الإمام عليه السلام كان هو إمام زمان السائلين من أهل نيسابور وغيرهم، والواجب عليهم بالوجوب العيني أن يعرفوه بالإمامة ويلتزموا بحبه وطاعته، فكان الواجب بيان هذه الحقيقة لهم، والواجب عليهم الاستماع والاتباع لتمامية الحجة.

الثالثة: إلفات أهل نيسابور في ذاك الزمان ومنهم سائر المسلمين في كل زمان ومكان إلى حقيقة الإيـمان والتوحيد، وأنّه يدور على ولاية آل محمد عليه السلام، وأنّ الاكتفاء بالشهادتين لا يكفي للدخول في التوحيد الإلهي، ولا ينجي من العذاب؛ لأنّهم كانوا من المخالفين ^(١).

الرابعة: إلفات بعض الشيعة لاسيما الواقفة الذين وقفوا في الإمامة على الكاظم عليه السلام بأن إيمانهم ونجاتهم من العذاب لا يضمن إلا بالعقيدة بجميع الأئمة عليهم السلام، فإنّ الإيـمان حقيقة بسيطة يقوم على اجتماع جميع أركانه وشروطه، فلا يمكن أن يكون العبد موحدًا لله وهو لا يؤمن بالنبي، ولا يمكن أن يؤمن بالنبي ولا يؤمن بالإمام من بعده، ولا يمكن أن يؤمن بالإمام دون الإيـمان بباقي الأئمة، فإنّ ذلك كله قطع في الإيـمان والعبادة، وهذا ما تعززه رواية بريد العجلي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ﴿بنا عبد الله، وبنا عرف الله، وبنا وحد الله تبارك وتعالى، ومحمد حجاب الله تبارك وتعالى﴾ ^(٢).

(١) ينابيع الحكمة: ج ٥، ص ٢١٢.

(٢) الكافي: ج ١، ص ١٤٥، ح ١٠؛ بصائر الدرجات: ص ٨٤، ح ١٦؛ ينابيع الحكمة: ج ١، ص ١٢٦.

والباء في قوله: ﴿بنا﴾ سببية وتفيد التوسيط، فلا يمكن للعبد أن يكون عابداً لله وهو جاحد بهم ومتبع لغيرهم في دينه وعبادته، ولا يمكن أن يكون عارفاً بالله وموحداً له وهو على هذا الحال.

ما معنى محمد ﷺ حجاب الله؟

والحجاب في قوله: ﴿محمد حجاب الله تبارك وتعالى﴾ الساتر بين الرائي والمرئي ويحتمل معاني:

الأول: أنه الوساطة بين الله عز وجل وبين عباده، كالحاجب الذي يقف على باب الملك فلا يدخل عليه أحد إلا بواسطته، ولا يصدر أمر ونهي من الملك إلا بواسطته، وهذا من تشبيهه غير المحسوس بالمحسوس، وهذا هو مقام النبي ﷺ، فلا يمكن للعبد أن يصل إلى الله بدون مصطفىاه، ولا يصلهم خير ورحمة وعطاء من الله إلا بواسطته.

الثاني: أنه النور الإلهي المتجلي في البشر، وهو أول نور خلقه الباري عز وجل كما ورد في متصافر الأخبار ﴿أول ما خلق الله نوري﴾^(١) وحيث إن العقول لا تدرك النور الإلهي جعل الله سبحانه نبيه نوره المشرق بين عباده. إليه تتوجه العقول والقلوب، فيكون مثله مثل نور الشمس الذي يحجب عن رؤيتها وهو منها وإليها.

الثالث: أن نور النبي وجماله الإلهي في الكمال والجلال يجعل القلوب والعقول منسدة إليه ومتعلقة به، فلا ترى ما بعده؛ لأن نور الله سبحانه لا

(١) البحار: ج ١٥، ص ٢٤، ح ٤٣؛ انظر مرآة العقول: ج ٢، ص ١٢١.

يُدرك ولا يُحسّ، وجماله وجلاله لا تبصره العيون، وحيث إنّ البشر معتاد على الحسيّات ومتأثر بها أكثر فهي تحجبه عن رؤية ما ورائها إلّا ببصائر القلوب بعد الإدراك الحسي، فإنّ من يدرك جمال النبي وجلاله يدرك جمال الله وجلاله، وبهذا الاعتبار يكون حجاباً لله سبحانه؛ لأنّ مَنْ يراه يكتفي ويتوثّق بأنّه بلغ الغاية.

خلوص العبادة

الحقيقة الثانية: أنّ أهمّ ما في العبادة هو الخلوص فيها، فإنّ دواعي العبادة عديدة، وتختلف بحسب مقامات العابدين ومعارفهم، والعبادة الخالصة ما كانت عن حب وتسليم وخضوع، ومنزهة من الدواعي الشخصية والمصالح الأنانية، ولذا تضافر في الأخبار تقسيم العبادة إلى ثلاثة أقسام بحسب مراتب العابدين، فعن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد﴾ ومعناه لولا الخوف ما عبدوا، وهذا دليل عدم الإخلاص فيها ﴿وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء﴾ ومعناه أنّه لولا الأجر لما عبدوا، فيكون مثلهم مثل الأجير الذي يعمل لأجل تحصيل الأجرة، ومثل هذه العبادة تكون للمصلحة وليست لله سبحانه، ولا عن معرفة له ﴿وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حباً له، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة﴾^(١) أي أحرار من قيود شهوات الأبدان والمصالح، وإثما هي عبادة المعرفة والكمال

(١) الكافي: ج ٢، ص ٨٤، ح ٥.

الروحي، وإدراك استحقاق الباري لها.
وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿وَأَنْ قَوْمًا عَبْدُوا اللَّهَ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ﴾^(١) فعبادة الحب والشكر هي التي توصل العبد إلى مقام العبودية الخالصة، وكل عبد بوجدانه يدرك داعيه في العبادة.

حقيقة الإخلاص

فإذا قال العبد في صلاته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مجرداً من الخوف والطمع وإنّما بداعي الأهلية والاستحقاق وشكر النعمة يكون قد نال أفضل العبادة وأفضل العباد، ويجب أن يكون هذا الداعي بنحو الاستقلال لا الانضمام، فلو انضم مع داعي الشكر والأهلية تحصيل الثواب أو الهروب من العقاب انتفى الإخلاص؛ لأنّ الإخلاص لا يكون إلّا إذا كان مع الانقطاع الكامل، والنتيجة تتبع أحسن المقدمات.

قبول العبادة بآل محمد عليه السلام

وهنا يتضح بعض السر في لزوم التمسك بالنبي والعترة عليهم السلام؛ لأنّ ما من أحد من العباد يمكن أن يدّعي أنّ عبادته خالية من الخوف والطمع، وبهذا المعيار لا تكون عبادته إلّا صورة للعبادة مهما بالغ العبد في العبادات، فإنّه لا يخرج عن هذا المقام، ولذا لا يصل بالعبادة وحدها إلى المطلوب وإنّما لا بدّ من التمسك بمحمد وآل محمد عليهم السلام حتى تقبل عبادته بشفاعتهم

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٥٣، قصار الحكم ٢٣٧؛ غرر الحكم: ص ٢٣٩، ح ٢٢٨.
٢٢٨.

ووجهتهم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) وقد رسم بها الباري طريق العبودية والفلاح بثلاثة أوامر، هي اتقوا الله، وابتغوا الوسيلة، وجاهدوا في سبيله، ونتيجة ذلك هو الفلاح. وهذا هو نهج النبي والعترة الطاهرة عليهم السلام، والعمدة هو الوسط؛ لأنّ المبدأ تقوى الله، والختم الجهاد في سبيله، وذلك كله لا يصحّ بلا وسيلة توصل إلى التقوى الحقيقية، والجهاد الحقيقي، وإلّا لم يكن للمصلي والصائم إلّا الجوع والتعب، وليس للمجاهد إلّا الجهد والتعب.

معرفة الإمام عليه السلام

والوسيلة هي معرفة الإمام عليه السلام واتباعه كما تضافر في الأخبار، ففي العيون عن الإمام الرضا عليه السلام قال: ﴿قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الأئمة من ولد الحسين عليه السلام من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله عزّ وجلّ، هم العروة الوثقى، وهم الوسيلة إلى الله تعالى﴾^(٢).

ومن هنا فسّر الإمام العسكري عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بـ: ﴿قولوا يا أيّها الخلق المنعم عليهم: إِيَّاكَ نعبد أيّها المنعم علينا، ونطيعك مخلصين مع التذلل والخضوع بلا رياء ولا سمعة﴾^(٣).

(١) سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٦٣، ح ٢١٧؛ البحار: ج ٣٦، ص ٢٤٤، ح ٥٤.

(٣) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٣٩، ح ١٥؛ التفسير الصافي: ج ١، ص ٧١؛

نفحات الرحمن: ج ١، ص ١٨٨.

والفرق بين الرياء والسمعة أنَّ النية في الرياء تكون طلب المدح والثناء من الغير مقترنة بالعمل، وأمَّا السمعة فطلب المدح بعد العمل، ولذا ينفيان العبودية.

وفسّر الآية جبرئيل للنبي ﷺ فقال: قل يا محمد: إِيَّاكَ نَعْبُدُ أَيَّ إِيَّاكَ نَأْمَلُ ونرجو لا غيرك^(١)، وإطلاقه يشمل جميع الأعمال لا خصوص العبادات. وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الآية قال: ﴿يعني لا نريد منك غيرك، ولا نعبدك بالعوض والبدل كما يعبدك الجاهلون بك المغييون عنك﴾^(٢).

الطريق إلى الله واحد

وبذلك يتضح أمران:

الأول: أنَّ عبادة العبيد والتجار هي عبادة الجاهلين بالله والغافلين عنه، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تنزيه منهما؛ لأنها عبادة الحضور والانقطاع.

الثاني: أنَّه قدّم ذكر العبادة على الطلب في الآية التي تليها: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنّ تقديم الوسيلة والثناء وأداء الواجب يجب أن يتقدّم طلب الحاجة والاستحقاق؛ لأنّ الاستفاضة قبل الإفاضة، والعطاء الإلهي على حسب القابليات. وبذلك يظهر أنَّ قول البعض بأنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق مخالف للنصوص والبرهان العقلي؛ إذ لا يوجد

(١) تفسير روح البيان: ج ١، ص ١٧.

(٢) التفسير الصافي: ج ١، ص ٢٧٤.

طريق إلى الله إلا طريق محمد وآل محمد ﷺ^(١)، وقول البعض إن جميع الأديان والمذاهب مقبولة، وإنَّ التَّعَبُّدَ بها مقبول وصحيح باطل.

والسؤال: لماذا وردت العبادة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مع أنَّ القاعدة تقتضي أن يقول: (إِيَّاكَ أَعْبُدْ وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ) والسر في صيغة الجمع يعود لعدة لحاظات:

عبادة الجوارح والجوانح

الأول: اللحاظ الذاتي بأن يلحظ نفسه بكل أعضائه وجوارحه وجوانحه عابداً لله وليس فقط بدنه، وهذا شعور رفيع يدركه الكُمَّلون من البشر. وهذه حقيقة تكوينية واقعة سواء علم بها الإنسان أو لم يعلم، وأدركها أو لم يدركها، فإنَّ جميع قواه الظاهرة والباطنة تعبد الله، وخاضعة له تكويناً وتشريعاً بحسب نسبتها من الإدراك والشعور، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(٢) فإنَّ الشيء يشمل جميع الخلايا والأعضاء والأجزاء، فهي توحد الله وتعبد وتخضع له، وكل خلية من خلايا الإنسان في بدنه ونفسه وروحه عابدة خاضعة ذليلة لله.

فالعبد حينما يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ليس باعتبار شخصه وحده، بل باعتبار كل أعضائه وخلاياه.

(١) انظر مواهب الرحمن: ج ١١، ص ٢٤١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

العصيان سبب الأمراض

فإنَّ الله أمر خلايا الإنسان التي هي بالمليارات أن تعمل في نظام متناسق متكامل إحداها تكمل الأخرى، فلا تعصي خلية من الخلايا أمر الله، ولو عصت فسدت وانتهت وأصيب الإنسان بأمراض خطيرة، وهذا أحد أسباب الأمراض التي لا يعرف لها سبب طبي واضح، بل حتى ما يعرف لها سبب، فإنَّ للسبب سبباً أوجب ظهور المرض، فما هو السبب؟ هو العصيان والتمرد على أمر الله تعالى.

ويستفاد من بعض الأخبار أنَّ بعض الأمراض التي يصاب بها الإنسان ناشئة من العصيان، فالإنسان بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ليس وحده بل معه مليارات الخلايا تعبد ربها وتطيع، وستشهد على الإنسان في الآخرة وتقرّ أمام الله بِمَ استعملها الإنسان، وكيف استفاد منها في الحرام أم في الحلال. يده ورجله وعينه وقلبه وكل ما لديه تدرك ما يفعله الإنسان بها وستشهد عليه. وبهذا اللحاظ يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنَّ جميع أعضائه وقواه وخلاياه مدرك يعبد الله.

الثاني: اللحاظ الأدبي، فإنَّ العبد يجب أن يتأدّب بأدب الله، فإنَّ الله سبحانه يحبُّ العبد الذي يحبُّ أهله وإخوانه ومن يشاركونه في الإنسانية، ويجب أن يتعامل معهم بالرحمة واللطف والإحسان، ويبغض التفرد والأنانية، فإذا تقرب العبد إليه بلسان الجمع فإنه أضمن للقبول والقرب والإجابة؛ لأنَّ من سنن الله أدبين:

أحدهما: أن يكافئ الإحسان بالإحسان.

وثانيهما: أن يكافئ الحسنة بأضعاف كثيرة، وإدراج العبد الآخرين في ذكره وعبوديته ودعائه حسنة يحبها الله، وإحسان يكافئ عليه.

ولا يخفى ما في ضمير الجمع من الإشارة إلى الإشعار بالوحدة والتضامن مع المجتمع الإنساني لا سيما أهل الإيمان، فإنّ وحدة المعبود والعبادة تستدعي وحدة العابدين وتضامنهم وتماسكهم، وقد تضافر في النقل استحباب التعميم في الدعاء، وأنه من دواعي الإجابة وحسن المعرفة بالله^(١).

الثالث: اللحاظ التوسيطي؛ لأنّ العبد لا يضمن قبول عمله ولا إجابة طلبه، فإذا خلطه بأعمال الآخرين وفيهم من هو أفضل منه وأكمل وأكثر إخلاصاً وعبودية ضمن القبول والإجابة.

إن قلت: كيف يعلم أن الآخرين أفضل منه؟

والجواب:

أولاً: لعلمه أنّ في العباد النبي والإمام عليهما السلام، والملائكة الحفظة والكاتبون وسائر الملائكة والجن الصالحون فضلاً عن العلماء الربانيين والعباد المتقين.

وثانياً: لوجوب التواضع ونفي العجب، ومن مقتضيات ذلك أن يرى أن عمل الغير أفضل، وهذه صفة يحبها الله، ومن تواضع لله رفعه الله^(٢)، فإذا نظر إلى عمله وجده لا يليق بالتقرب به إلى الله سبحانه، كما يظهر من

(١) انظر الكافي: ج ٢، ص ٣٥٤، ح ١؛ البحار: ج ٩٠، ص ٣١٣، ح ١٧؛ مستدرک الوسائل: ج ٥، ص ٢٤١، ح ٥٧٧٩.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ١٢٢، ح ٣؛ كامل الزيارات: ص ٤٥٥، ح ٦٩٠.

دأب أهل الأدب والكمال فإنهم يشعرون بالتقصير في أعمالهم لا سيما عند الله سبحانه؛ لما يرونه من تعظيم للدنيا وأهلها.

وهنا نلفت الأنظار إلى حقيقة وهي أن العبد حينما يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خاصة وأنه يقولها في صلاته التي هي معراج عمله وعمود دينه وصلته بربه، وبها يخاطبه ويحدثه ويظهر له شكره وثنائه، ويقرّر له بالإيمان والعبودية، ويردها في اليوم عشر مرّات على أقل التقادير، يجب أن يلتفت إلى أن ما يقوله هل هو صادق فيه أم كاذب؟

العبودية الصادقة والكاذبة

لعل هذه الحقيقة ثقيلة على بعض الأسماع وربما لا تُتحمل لكن واجبنا البيان والتنبيه، وعلى السامع أن يعرف نفسه ويجاهدها ليكون عبداً لله، وحينما يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنّه سبحانه مطلع على السرائر، ويعرف الصادق من الكاذب، ولكن القائل قد يشبه عليه الأمر ولا يدري أنّه صادق أم كاذب، لذلك لا بد من الالتفات إلى نفسه، وعليه أن يكون صادقاً لا كاذباً، فإنّ الكذب مفضوح عند الله تبارك وتعالى، ولو أراد أن يعرف نفسه صادقاً أم كاذباً عليه أن يلتفت إلى أعماله وأفكاره ومواقفه.

من هو عبد الله؟

الجواب: هو الذي يذل نفسه لربه، وخضع لأوامره ونواهيه، فإذا خالفه كان عبداً لنفسه، فالذي يقف في صلاته ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وفي جيبه أموال للناس لا يعطيها لهم أو يُسوّف في إعطائها والله عزّ وجلّ يأمره

بإعطاء حقوق الناس، ويحرّم عليه التصرّف بها من دون إذن منهم، فهل هذا عبد لله؟ أم عبد لنفسه؟

والذي يصلي وينادي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وفكره مشغول في بيع داره أو شراء سيارته أو يفكر كيف سيبنى بيته أو يصرف بضاعته هذا صادق أم كاذب؟
والذي يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والله يقول لا تسمع الغناء فإنّه عبادة للشيطان، وهو يورث النفاق، ويدخل البيوت الفجيعة، وهو يسمع الغناء ولا يبالي.

والمرأة التي يأمرها الله بالحجاب والستر وعدم الخروج أمام الرجال متزينة ومظهرة لزينتها وهي لا تبالي وتخدع نفسها بحجاب غير ساتر وتنادي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهل لا يعلم الله بها؟ وهل ينخدع الله؟
فإذا لاحظ الإنسان أعماله ومواقفه سيعرف أن عبوديته لله صادقة أم كاذبة.

فماذا يعمل الإنسان وكيف ينجو؟

أولاً: يجب عليه أن يربي نفسه ويتجرّد من الخداع والكذب في العبادة، ويلتزم بأوامر الله ونواهيه، ولا تخدعه المظاهر وإغراءات الشيطان. وهذا واجب عيني على الجميع.

اخلط عملك بعمل أولياء الله

ثانياً: أن يخلط عبادته وصلاته ودعائه بأعمال أولياء الله وعباده الصالحين، فإن عبادتهم صادقة ومقبولة، والله سبحانه أولياء في كل زمان يُصلّون لله سبحانه، ويدعون في أوقات الصلاة، والله عزّ وجلّ بعبادتهم وعبوديتهم أسكن الأرض، وأثبت قرارها، وأفاض نعمه على الخلق،

وأعلاهم رتبة مولانا حجة الزمان وحواريوه الخضر وإلياس وإدريس وعيسى عليه السلام؛ إذ رفعهما الله مكاناً عليّاً، بناءً على أنّ الرفع في المنزلة لا في المكان^(١)، ثم من يتلوهم في الرتبة من العلماء الأبرار والمؤمنين الأخيار والأبدال والأوتاد وغيرهم كلهم يصلّون لربهم في أوقات الصلاة، ويعبدون الله بالعبادة الصادقة الكاملة، ويقولون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فهم يعبدونه سبحانه بأداء الوظائف والعهود الربانية بينهم وبين ربهم، والمؤمن إذا قصد في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أن يخلط نفسه بهم، ويجعل صلاته وعبادته مع عبادتهم فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي مع الأولياء والصالحين نعبدك يكون قد حظي بقبول العمل، والستر على كذبه.

سر الصلاة في وقتها

فلذا يعلمنا الباري عزّ وجلّ أسلوب العبادة المقبولة، وطريق الحديث معه بأن نجعله جماعياً لا فردياً، وهذا أحد أسرار عظمة الصلاة في وقتها وآثارها على الإنسان؛ لأنّ أبواب السماء تفتح لعبادة الصالحين من عباد الله، وأدعيتهم تسمع، فإذا وضع المصلي صلاته ودعائه معهم نال الخير العميم. وقد ورد في رواية محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿ذا دخل وقت صلاة فتحت أبواب السماء لصعود الأعمال، فما أحبُّ أن يصعد عمل أول من عملي، ولا يكتب في الصحيفة أحد أول مني﴾^(٢) فإذا

(١) انظر سورة مريم: الآية ٥٦؛ تفسير الأمل: ج ٩، ص ٤٧٤ - ٤٧٤ تفسير الآية المزبورة.
(٢) التهذيب: ج ٢، ص ٤١، ح ١٣١؛ الوسائل: ج ٤، الباب ٣ من أبواب المواقيت، ←

آخر المؤمن صلاته فإن لم يكن له عذر وجيه كان مستخفاً بها فلا تقبل منه .
ففي رواية العيص بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿والله إنه ليأتي على الرجل خمسون سنة وما قبل الله منه صلاة واحدة، فأني شيء أشد من هذا؟ والله إنكم لتعرفون من جيرانكم وأصحابكم من لو كان يصلي لبعضكم ما قبلها منه لاستخفافه بها. إن الله لا يقبل إلا الحسن فكيف يقبل ما يستخف به؟﴾^(١) .

ويعلمنا الإمام الصادق عليه السلام كيف نقدّم لله أفضل العبادة. قال: ﴿إذا استقبلت القبلة فأيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، وفرّغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاین بسرّك عظمة الله عزّ وجلّ، واذكر وقوفك بين يديه... فإن الله تعالى إذا اطّلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره - الله أكبر يعني أطعه وأعطى حقوق الناس، أطعه ولا تفعل الحرام - فقال: يا كذاب أتخدعني، وعزّي وجلالي لأحرمّك حلاوة ذكري، ولأحجّبك عن قربي والمسرّة بمناجاتي﴾^(٢) .
فلا مخلص للعبد من ذلك إلا إذا خلط عمله وصلاته بصلاة أولياء الله

→

ص ١١٩، ح ٤٦٧٣ .

(١) الكافي: ج ٣، ص ٢٦٩، ح ٤٨٢٥؛ الوسائل: ج ٧٤، الباب ٦ من أبواب اعداد الفرائض، ص ٢٤، ح ٤٤١٤؛ ينابيع الحكمة: ج ٣، ص ٤٩٤، ح ٦٢٥١ .

(٢) مصباح الشريعة: ص ٨٧ - ٨٨؛ البحار: ج ٨١، ص ٢٣٠، ح ٣؛ ينابيع الحكمة: ج ٣، ص ٥٠٥، ح ٦٢٩٠ .

وعباد الصالحين في وقتها وفي نسبتها، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بصيغة الجمع لضمان آثارها وقبولها.

مراتب العابدين

الرابع: اللحاظ الجمعي ومراتب العابدين، فإن الخطاب بضمير الجمع يختلف بحسب حالات المتكلم ومرتبته، فأول مراتب العابدين الذي يقصد نفسه ويعبر عن نفسه بضمير الجمع من باب الأدب والاحترام، والأعلى منه رتبة الذي يعبر عن نفسه وعن الآخرين بالعبادة، والأعلى منه الذي يرى كل أعضائه وأحشائه وتكوينات جسده عابدة لله سبحانه خاضعة خاشعة شاكرة، والأعلى منه الذي يرى كل أعضاء الوجود وجميع المخلوقات عابداً طائعاً منقاداً إلى ربه، شاكراً لأنعمه، خاضعاً لربوبيته، وحينئذ يندرج في مصاف العابدين الصديقين الذين لا يرون في الوجود إلا الله، ولا يعبدون إلا إياه، ولا يخضعون إلا له.

ما قاله الحسين عليه السلام في العبودية

أظهر هذه الحقيقة الإمام الحسين عليه السلام في دعائه العظيم الذي يكمل اللسان عن وصفه، وهو دعاء عرفة، وقد كشف فيه عن أسرار وحقائق معرفية تحير العقول، وتنير القلوب والأفكار. ورد فيه: ﴿الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع. فطر أجناس البدائع، وأتقن بحكمته الصنائع، لا تخفى عليه الطلائع، ولا تضيع عنده الودائع... وهو للدعوات سامع، وللكربات دافع، وللدرجات رافع، وللجبابرة قانع... فلا إله غيره، ولا شيء يعدله، وليس كمثله شيء، وهو

السميع البصير اللطيف الخبير، وهو على كل شيء قدير^(١).

جمع بهذه الجمل الشريفة حقائق التكوين والتشريع وفلسفة الدين والشرعية والمعاد والعقاب والثواب، ولخص حركة المخلوقات كلها في مبدئها وعودها ومصيرها، وأرجعها جميعاً إلى رب واحد خالق صانع حكيم لا تخفى عليه الأشياء، ولا تغيب عن حضوره الأعمال والأفكار، وكلها عائدة خاضعة له، ثم يستعرض عبودية أعضائه ومكونات بدنه الإلهي وشكرها لربها فيقول: ﴿وأنا أشهد يا إلهي بحقيقة إيماني.. ومكنون ضميري، وعلائق مجاري نور بصري.. ومسارب صماخ سمعي، وما ضمت وأطبقت عليه شفتاي، وحركات لفظ لساني، ومغرز حنك فمي وفكي ومنابت أضراسي ومساغ مطعمي ومشربي، وحمالة أم رأسي،... ونياط حجاب قلبي، وأفلاذ حواشي كبدي وما حوته شراسيف أضلاعي وحِقائق مفاصلي... وأطراف أنامي ولحمي ودمي وشعري وبشري وعصبي وقصبي وعظامي ونخي وعروقي وجميع جوارحي... وما أقلت الأرض مني، ونومي ويقظتي وسكوني وحركات ركوعي وسجودي أن لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار والأحقاب لو عُمّرتها أن أؤدي شكر واحدة من أنعمك ما استطعت ذلك إلا بمنك الموجب عليّ به شكرك أبداً جديداً... ولو حرصت أنا والعاذون من أنامك أن نحصي مدى انعامك سالفه وآنفه ما حصرناه

(١) إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٧٤؛ البلد الأمين: ص ٢٥١.

عددا، ولا أحصيناه أمدًا. هيهات أنى ذلك وأنت المخبر في كتابك الناطق، والنبأ الصادق ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١) ﴿٢﴾.

وبمثل هذا يتميز أولياء الله عن غيرهم في معرفتهم وإدراكهم وشعورهم وانقطاعهم وذكرهم وعبوديتهم وعبادتهم. جعلنا الله من أتباعهم والمقتدين بهم بحقهم، وهو سر الجمع في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إذ يقولها رسول الله ﷺ أولاً والأئمة عليهم السلام ثم من اتبعهم في القول والعمل.

الاستعانة

المفردة الثالثة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وقد ذكرت لها أكثر من قراءة^(٣)، ولا صحة لها لما قرناه غير مرة من أن القرآن ليس له إلا قراءة واحدة، وما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من قولهم: ﴿ما هكذا نزلت بل هكذا﴾ يراد به المعنى لا القراءة على ما حققناه في معارف سورة القدر^(٤).

وصيغة المضارع تفيد الحدوث والاستمرار، وتدل على أن الحدوث والبقاء يقعان بالاستعانة، وهي تحاكي (باء) بسم الله الرحمن الرحيم في بدأ السورة؛ لأنها تفيد الاستعانة ولكنها تتميز بثلاث مزايا عنها.

(١) سورة ابراهيم: الآية ٣٤؛ سورة النحل: الآية ١٨.

(٢) إقبال الأعمال: ج ٢، ص ٧٦؛ البلد الأمين: ص ٢٥٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج ١، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٤) انظر ما يقوله القرآن في سورة القدر: ص ٢٠٩.

مفهوم الاستعانة وخصائصها

لأنَّ الاستعانة في البسمة فردية يقولها العبد وابتدئ بها عمله وقوله، وهي ابتدائية ولا تفيد الحصر، أما قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهي جماعية، وتدل على الابتداء والاستمرار وظهور الآثار وتفيد الحصر، والاستعانة صيغة استفعال تدل على الطلب، ومعناها طلب العون^(١)، وهي عرفاً تتم بتسهيل فعل شيء يشق ويعسر على المستعين وحده، وتحصل بإعارة آلة، أو مشاركة بعمل البدن، أو بقول كالإرشاد والتعليم، أو برأي ونصيحة، أو بهال كدفع الغرامة بحيث يحصل الأمر من جهود المعين والمستعين^(٢).

وأما شرعاً فهي الاستعانة بالله فتتم بطلب المعونة على الفعل وإنجاز المهام لقصور الإنسان عن الوصول إلى ذلك بمفرده دون إمداده سبحانه، فالاستعانة العرفية مساعدة على الفعل، والإلهية دعاء وخضوع لتذليل الصعوبات وتسهيل العسير، ولذا ورد في رواية محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: «أفضل ما طلب به العباد حوائجهم»^(٣) وتقديم إِيَّاكَ عليه يفيد الحصر بأقسامه الثلاثة: أي الحصر اللفظي والمعنوي والحالي، ولا يصح إلا في الغني المطلق من كل جهة، ومفاد الجملة الإثبات والنفي، فتثبت الاستعانة بالله سبحانه وتنفيها عن غيره، فلو قال: (أستعين بك) أو (استعينك) لما نفى ما عداه، وبه يظهر أنَّ

(١) مفردات الراغب: ص ٥٩٨، (عون)؛ مجمع البحرين: ج ٦، ص ٢٨٥، (عون).

(٢) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٨١.

(٣) تفسير العياشي: ج ١، ص ٢٢، ح ١٧؛ البحار: ج ٨٢، ص ٢١، ح ١٠.

الاستعانة تكمل التوحيد المعرفي والتوحيد العبادي، فكل استعانة بغيره إن رجعت إليه من باب الطولية أو المظهرية، كالأستعانة بالطبيب لأجل الشفاء، وبالعالم لأجل التعلم، وبالأسباب الطبيعية لتحصيل الآثار باعتبار القانون الذي أودعه الخالق في الوجود كان من العبودية والتوحيد، وإلا كان شركاً إن أخذت بنحو الاشتراك، وكفراً إن كانت بنحو الاستقلال، نظير استعانة سليمان عليه السلام بالذي عنده علم من الكتاب الذي جاء بعرش بلقيس في رمشة عين، فإنها استعانة طولية باعتبار أن وصي سليمان استعان بالله في ذلك، أو مظهرية باعتبار أن الله سبحانه جعل آصف مظهراً لقدرته بما علمه من الكتاب، فالاستعانة إذا لا ترجع إلى الله فهي إما كفر أو شرك.

ونلفت الأنظار إلى أمور:

أقسام الاستعانة

الأمر الأول: أن الاستعانة أقسام:

الأول: الاستعانة التكوينية، وهي قهرية ناشئة من لسان الحال وواقع

الأشياء، فإن كل مخلوق محتاج في حدوثه وبقائه إلى الخالق، ومستعين به في أموره كلها، وهي من لوازم الإمكان والفقر على التحقيق لا الحدوث كما قاله بعض أهل المعقول، كما هو الحال في كل معلول، فإنه يدور مدار علته وجوداً وعدمًا، وفقره ونقصه شاهد على عجزه واستعانه، فكل ما سوى الله تكويناً محتاج له فقير إليه ومستعين به، ولولاه لكان عدماً محضاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

يَخْلُقْ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ^(١) .

وهم الملاحدة

فالملاحدون والطبيعيون يعيشون الأوهام بإنكار هذه الحقيقة، فإنهم وإن أنكروا ذلك بألستهم إلا أنّ واقع فقرهم ونقصهم وعجزهم يشهد بأنهم بالله موجودون، وبحوله وقوته قائمون، فيتكلمون ويعملون، والجبايرة والطغاة يعيشون الأوهام وسكرات الغفلة؛ إذ يتصورون أنّهم قادرون ويفعلون ما يريدون، والعصاة والفسقة كذلك يعيشون وهم التمرد والعصيان، فإنّ كلهم بإرادة الله وقدرته موجودون ويفعلون، وهو الذي منحهم ذلك لأجل أن يختبرهم.

الثاني: الاستعانة الفعلية، وهي اختيارية يدركها أهل الإيمان بعقولهم وقلوبهم، ويلجؤون إليه سبحانه في كل حول وقوة وفعل، ولكن في الغالب يغفلون عنها في تفاصيل الأمور، وربما استعانوا بغيره من الأسباب الطبيعية والبشرية ويغفلون عنه.

الثالث: الاستعانة اللطفية، وهي استعانة الخواص من المؤمنين، فإنّ علاقتهم برّبهم وحبّهم وانقطاعهم إليه يشعّرونهم بحضوره لديهم وقربه منهم، فيسألونه حتى ملح طعامهم وقوت بطونهم وكل صغيرة وكبيرة يلجؤون إليه ويستعينون به؛ لأنّ بصائرهم تدلّهم على حقيقة فقرهم وعجزهم، وحقيقة غناه ولطفه وكرمه. وهذه هي أعظم المراتب، وهي

(١) سورة فاطر: الآيات ١٥ - ١٧.

استعانة الأنبياء والأولياء، والمناجاة والأدعية كلها ناظرة إلى هذه الحقيقة، وتربي النفوس عليها. وقد ورد في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء حين كثر عليه الأعداء: ﴿اللهم أنت متعالى المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد... قريب إذا دعيت، محيط بما خلقت... أدعوك محتاجاً، وأرغب إليك فقيراً، وأفزع إليك خائفاً، وأبكي إليك مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً. أحكم بيننا وبين قومنا﴾^(١).

أركان الاستعانة النظرية

الأمر الثاني: أن للاستعانة بعدين: أحدهما نظري والآخر عملي بهما تتفاوت درجات العباد ومقاماتهم، والاستعانة النظرية تقوم بخمسة أركان:

الأول: علم العبد بفقره وعجزه وحاجته.

الثاني: معرفة ربه وأنه الضار النافع والغني المطلق.

الثالث: أنه عالم بأحوال عبادته والقادر على إعانتهم.

الرابع: أنه جواد كريم لا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً.

الخامس: أنه يحب عبده ويرحمه ولا يرد له دعوة أو يجرمه من نعمة يطلبها.

وبهذه الخمسة - بشرط الانضمام - تتحقق الاستعانة النظرية، وهي من شؤون العقل، فلو غفل العبد عن فقره وعجزه لا يستعين، ومن التفت إلى

(١) مصباح المتعبد: ص ٨٢٧، ح ٨٨٧؛ إقبال الأعمال: ج ٣، ص ٣٠٤؛ البحار: ج ٩٨، ص ٣٤٨، ح ١.

ذلك ولكنه يرى أن لغيره النفع والضرر يستعين بغيره، أو يرى أنه ضار ونافع ولكنه لا يعلم بحاله ولو علم بحاله فإنه لا يقدر على إعانتة أو يقدر لكنه يبخل فإنه لا يستعين، ولو علم بتوفر الأركان الثلاثة الأولى وتوهم بأنه لا يحب عبده ولا يرحمه فإنه لا يستعين، وبذلك يتضح ما ذكرناه سابقاً من أن الآية المباركة تكمل عقيدة العبد بالتوحيد الربوبي الخالص، وتميّز الإيمان الصحيح من الخاطئ.

الاستعانة العملية

ولو تحققت أركان الاستعانة النظرية لازمتها الاستعانة العملية؛ لأن من يعلم كمالات الخالق عزّ وجلّ وعلو مقامه انبعث في قلبه حبّه واللجوء إليه والانقطاع له وإظهار حاجته وفقره له بلسانه وعمله، وهي حقيقة الاستعانة، وتتجلّى في القلب بهذا الحس واليقين، وعلى اللسان بالدعاء والمسألة، وعلى الجوارح بالانقطاع عن كل ما سوى الله، واللجوء إليه في كل صغيرة وكبيرة، وفي الحديث القدسي: ﴿يا موسى! سلني كل ما تحتاج إليه حتى علف شاتك وملح عجيتك﴾^(١).

وإذا ناله ضرر أو أذى التفت إلى نفسه، وأنه ربما أخلّ بعقيدته أو انقطع منه الارتباط بربه أو فعل ما يوجب طرده من عنايته ولطفه، وأنه لا يقدر على حركة أو رمشة أو طرفة إلّا به، وإذا بلغ العبد هذا المقام بلغ مقام العبودية ونال خير الربوبية وفيوضاتها.

(١) البحار: ج ٩٠، ص ٣٠٣، ح ٣٩؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٤ من أبواب الدعاء، ص ٣٢، ح ٨٦٣٤.

العبودية والاستعانة

ومعلوم أنَّ العبودية والاستعانة متلازمتان، فعبادته استعانة به، واستعانته عبودية له، وكلما ارتفعت مرتبة العبودية ازدادت الاستعانة، وكلما ازدادت الاستعانة ارتفعت رتبة العبودية، فهما نظير صفات الذات الملازمة لها، سوى أنَّ العبودية تبدأ من العبد إلى الرب فهي مبدأ قوس الصعود، والاستعانة استمداد من الرب تبارك وتعالى لاستئصال فيوض الربوبية فتبدأ من قوس النزول كما يعبرون.

من هم المستعينون؟

الأمر الثالث: في صيغة الجمع ﴿نستعين﴾ ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يراد به البشر، وربما يشمل الجن؛ لأنه عاقل مكلف.

والثاني: المراد جميع المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، والاستعانة من العاقلة ظاهرة. أمّا من غير العاقلة فهي الاستعانة التكوينية، وإنّا جعل الضمير للعاقل؛ لأنّ الضمير إذا اشترك فيه العاقل وغيره ورد للعاقل؛ لأنّه أشرف وأعظم.

والثالث: أن المراد كل المخلوقات ولا يوجد فيها غير عاقل، بل كلها لها نسبة من العقل والإدراك والإرادة والاختيار على ما يستفاد من الأدلة، وتكرر الاستدلال عليه لدى البحث في معنى قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾^(١) وهذا هو الحق.

(١) سورة يس: الآية ٣٨؛ وانظر ما يقوله القرآن في سورة يس: ج ٣، ص ٣٣٣.

أنواع العلة

فالاستعانة من حيث وقوع الأفعال واجبة عقلاً، فلولاها لا يصدر فعل ولا قول، ولم يحدث حدث ولا واقعة، فهي بحكم العلة المحدثه للأفعال والعلة المبقية والعلة المحققة للأغراض أي المؤثرة.

أما الأولى: فلأنها تشمل كل أدوات الفعل من القدرة على الفعل، واليد والرجل واللسان وكل عضو وجارحة وجانحة لولاها لم يفعل الإنسان شيئاً، وتتمظهر في الأكل بأدوات الأكل من اليد والفم والأسنان واللسان والبلعوم، وفي الكلام بالفم واللسان والحنجرة والحبال الصوتية، وفي الفكر العقل والحافظة والذاكرة وهكذا، ولذا يعبر عنها بالاستعانة الضرورية للفعل^(١)؛ لأنَّ بها يفعل الإنسان ما يريد.

كلُّ يعمل بمعونته

وانظر إلى عظمة الله وحلمه وصبره ورحمته، فإنَّ المؤمن يطيعه بمعونته، والكافر يكفر بمعونته، والعاصي يعصي بمعونته، ولا يجرم أحداً مما يريد، ولا يمنع أحداً من أن يفعل، فما أقبح بالعبد الذي يحجده ويعصيه وهو يفعل بمعونته.

العلة المبقية

والثانية: تلازم الأولى؛ لأنَّ صدور الفعل يقوم على ركنين: أحدهما: وجود المقتضي وهو الإرادة والوسائل.

(١) تفسير كنز الدقائق: ج ١، ص ٩١.

وثانيهما: ارتفاع الموانع بأن تعطيه الطاقة على الفعل والعزم، ورفع الموانع كنقص الهمة كمانع نفسي، أو وجود المرض أو أي قوة أخرى كمانع خارجي.

العلة المحققة

والثالثة: توصل الأفعال إلى غاياتها بحيث ينتفع بها الإنسان فلا يبطل أثرها ونفعها، فالاستعانة تلازم كل أفعال الإنسان من قبل حدوثها إلى نهاياتها وغاياتها، فلا يوجد شيء يفعلها الإنسان من دون الله سبحانه مهما أُوتِي من قدرة وعظمة، فكل عظمة منه، وكل قدرة منه، وكل فعل وسكون منه. والأمثلة المحسوسة على هذه الحقيقة لا تعدّ ولا تحصى أكتفي بمثالين أحدهما تكويني والآخر تشريعي.

العناصر التكوينية للإعانة

المثال الأول: في تكوين الإنسان وخلقه، فإنّ الأبوين لهما الدور الكبير في تكوينه ولكن وجوده يتوقف على عوامل عديدة.

منها: وجود الحياة الغريزية والشهوية في الرجل والمرأة، فلولاها قد لا يحصل الزواج.

ومنها: وجود الحياة الروحية والرغبة لتكوين الأسرة وإنجاب الأولاد، فلولاها لم تقم أسرة.

ومنها: وجود أدوات التزاوج التكوينية في الرجل والمرأة، وهذه هي العلة المحدث للزواج.

فهل للرجل والمرأة من تأثير في هذا أم كله بإعانة واستعانة من الله

سبحانه؟ ثم إذا تمّ التزاوج فإنّ حصول التلاقح وتكوينه ونموه وإزالة
الموانع منه وحفظه من الموت والسقوط كله بإعانة منه، وهي العلة المبقية،
ثم اكتمال الجنين في جوارحه وجوانحه بحيث ينتفع من بصره وسمعه
ولسانه وعقله وقلبه وكل ما لديه من قوى وطاقات، ثم يفيض عليه روحه
بعونه وإعانتة، وهي العلة المحققة للغرض، ثم يحنّ عليه أمه وأباه حتى
يغذوه بأرواحهم ويبدلوا لأجله كل ما لديهم حتى يكبر ويكتمل ويتفوق
في الحياة، فمن حنّ قلوب الآباء والأمهات فهل للإنسان نفسه دور في
ذلك أم كله بمعونة من الله سبحانه؟

الإعانة في الصلاة

المثال الثاني: في عبادة الإنسان، فإنّه إذا أراد الصلاة مثلاً لا بد وأن
يملك أدوات الصلاة من عقل وعلم بهما يدرك التكليف، وقلب يؤمن
وبدن يطيع وماء ومكان ونحو ذلك من أدوات بها يمكن فعل الصلاة،
وبعد ذلك يحتاج إلى رغبة وعزم وهمة ودوام على فعلها، فلو انتقصت لا
يأتي بالصلاة، وهذه علة بقائها، كما يحتاج إلى توجه وتذكر وحب ودفع
لمغريات الشيطان ووساوس النفس حتى تصل الصلاة إلى غايتها، وهي
العلة المحققة للغرض، فبأي منها للإنسان الدور والاختيار المستقل دون
الاستعانة من الله سبحانه؟

وقد فصلنا ذلك؛ لأنّ الإنسان قد يفعل الفعل ويغفل عن أسبابه وعالله
وكيفية حصوله، فيتصور أنّه منه مع أنّه كله بحول من الله وقوته وإعانتة،
فعلى المؤمن حينما يتلو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أن يدرك هذه الحقيقة

ويلتفت إليها ليكون موحدًا.

وَهُمُ الْعَاصِينَ وَالْمُلْحِدِينَ

ويتوهم كل من يتصور أنه يفعل مستقلاً عن الله أو يفكر أو يولد العلم من ذاته، فإنّ هذا جهل بحقائق الأشياء وخروج عن نهج العلم، وعلى المنكرين والجاحدين والعاصين أن يلتفتوا إلى حلم الله وصبره، ويدركوا عظمته ورحمته، وأنه الذي يمكنهم على الكفر به وعصيانه؛ لأنه سبحانه يختبرهم بما يعطيهم ولا يجبرهم على أمر لا يريدونه.

وقد ورد في رواية أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمَ مُلْكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ التَفَتَ فَرَأَى رَجُلًا يَزْنِي فَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ، ثُمَّ رَأَى آخَرَ فَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ، ثُمَّ رَأَى ثَلَاثَةَ فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَمَاتُوا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ ذِكْرَهُ إِلَيْهِ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّ دَعْوَتَكَ مَجَابَةٌ، فَلَا تَدْعُ عَلَى عِبَادِي، فَإِنِّي لَوْ شِئْتُ لَمْ أَخْلُقْهُمْ. إِنِّي خَلَقْتُ خَلْقِي عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صَنَفٌ يَعْبُدُنِي وَلَا يَشْرِكُ بِي شَيْئًا فَأُثْبِتُهُ، وَصَنَفٌ يَعْبُدُ غَيْرِي فَلَنْ يَفُوتَنِي، وَصَنَفٌ يَعْبُدُ غَيْرِي فَأُخْرِجُ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يَعْبُدُنِي﴾^(١).

ورؤية الملوك تمت بالاستعانة من الله سبحانه؛ إذ قوى بصره، فلما نظر إلى الأرض صار يرى من عليها ظاهرين ومستترين^(٢)، ويميّز المؤمنين من

(١) انظر تفسير القمي: ج ١، ص ٢٠٦؛ الكافي: ج ٨، ص ٣٠٥، ح ٤٧٣؛ علل الشرائع: ج ٢، ص ٥٨٥، ح ٣١؛ مواهب الرحمن: ج ١٤، ص ٩١.

(٢) تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٦٤، ح ٣٥-٣٦؛ التفسير الصافي: ج ٢، ص ١٣٢، ح ٧٦.

غيرهم، ويستفاد من الرواية الشريفة أنّ العابدين لغير الله إنّما يوجد لهم
الباري ويعينهم حدوثاً وبقاءً وغرضاً لغايتين:

لماذا يخلق الله المشركين؟

الأولى: لأنّه رحيم حلیم يوجد لهم ولا يحرمهم نعمة الوجود، ثم
يختبرهم، ثم لن يفوتوه فيؤاخذهم بما جحدوه وأنكروه، فلو فكر الإنسان
وسأل نفسه: ما هو الحق الذي له على الله حتى يوجد له ويسويه بشراً؟ فمن
حيث الاستحقاق لا يوجد أي حق، أو لا يستحق المخلوق في ذاته إلاّ
العدم، ولكن من حيث الفضل يستحق الوجود؛ لذلك يوجد الله الجميع
حتى الكافر والعاصي.

الثانية: لأنّ بعضهم يقعون في طريق وجود المؤمنين الصالحين
فيوجد لهم، ويديم عليهم نعمة الوجود كرامة للصالحين المؤمنين في
أصلاهم، ولا يأخذ الأبناء بجريرة الآباء، وهذه فلسفة عظيمة تدعو كل
إنسان إلى التأمل والصحوة من الغفلة والنهوض لأداء الشكر، فجفاء كل
هذه النعم خروج عن الإنسانية والميزان العقلي؛ لذا يعد التمرد على
الاستعانة وإنكارها كفراً عظيماً.

حب الله لعباده؟

وتدل على أنّ الله سبحانه كم يحب عباده وخلقهم حتى العصاة منهم، وإذا
غضب عليهم وعاقبهم فلاجل إصلاحهم، وهي فائدة لهم، وهو نوع تكريم
للمؤمنين، فيجب أن يعرف المؤمن قيمته العظيمة عند الله، وهذه قضية عامة،

فإن كل إنسان يحب ما ينتجه، فالشاعر يحب الأبيات التي ينشئها، والصانع الذي يصنع جهازاً يحبه ويحسّ عليه ويعرف قدره وقيّمته، والآباء والأمّهات هكذا، والعلماء بالنسبة للعلوم التي عندهم، فكل ما ينتجه الإنسان عزيز عليه، والله عزّ وجلّ يحب خلقه، وأكثر حبه للإنسان، وحبه للإنسان المؤمن أكثر، وكرامته عنده عظيمة، وحرمة أعظم من بيته وكعبته، فالله سبحانه هو الذي لا يمنع عباده من عصيانه والجحود به؛ لأنه حليم ذو أناة.

ففي دعاء الجوشن الصغير الوارد عن الإمام الكاظم عليه السلام، وهو دعاء رفيع الشأن عظيم المنزلة يقول: ﴿فلك الحمد يا رب من مقتدر لا يغلب، وذو أناة لا يعجل، صلّ على محمد وآل محمد، واجعلني لنعمائك من الشاكرين، ولا لآلائك من الذاكرين﴾^(١).

وقيمة المؤمن عظيمة عند الله فلا ينبغي أن يهدرها الإنسان بأوهامه، ففي رواية إسحاق عن جعفر عن أخيه الإمام الكاظم عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: ﴿يعير الله عزّ وجلّ عبداً من عباده يوم القيامة فيقول: عبدي ما منعك إذ مرضتُ أن تعودني؟ فيقول: سبحانه سبحانك أنت رب العباد لا تألم ولا تمرض، فيقول: مرض أخوك المؤمن فلم تعده، وعزتي وجلالي لو عدّته لوجدتني عنده، ثم لتكفّلت بحوائجك فقضيتها لك، وذلك من كرامة عبدي المؤمن وأنا الرحمن الرحيم﴾^(٢).

(١) البحار: ج ٩١، ص ٣٢١ - ٣٢٣، ح ١.

(٢) الأمل (للطوسي): ص ٦٢٩، ح ١٢٩٥؛ البحار: ج ٧٨، ص ٢١٩ - ٢٢٠، ح ١٨.

نور مجالس المؤمنين

وأعجب منها ما ورد عن أبي محمد العسكري عن آبائه عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: ﴿كان قوم من خواص الصادق عليه السلام جلوساً بحضرته في ليلة مُقَمَّرَةٍ مُصْحِيَةٍ فقالوا: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله! ما أحسن أديم هذه السماء! وأنور هذه النجوم والكواكب! فقال الصادق عليه السلام: إنكم لتقولون هذا وإن المدبرات الأربعة: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليه السلام ينظرون إلى الأرض فيرونكم وإخوانكم في أقطار الأرض، ونوركم إلى السماوات وإليهم أحسن من أنوار هذه الكواكب، وإنهم ليقولون كما تقولون: ما أحسن أنوار هؤلاء المؤمنين!﴾^(١).

هذه آثار الإيمان وقيمة المؤمن، ولكن أين هو المؤمن؟ فإن المؤمن الواحد لو مشى على الأرض كان له الأثر البالغ.

انظر ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿لا يعذب الله أهل قرية وفيها مائة من المؤمنين. لا يعذب الله أهل قرية وفيها خمسون من المؤمنين. لا يعذب الله أهل قرية وفيها عشرة من المؤمنين. لا يعذب الله أهل قرية وفيها خمسة من المؤمنين. لا يعذب الله أهل قرية وفيها واحد من المؤمنين﴾^(٢).

وكيف يكون المؤمن؟ الجواب: هناك طريق العبادة، وهناك طريق آخر تعتبره الروايات ذا أثر هو التوبة، فلو تاب أهل المعاصي ورفعوا أيديهم

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٥ - ٦؛ البحار: ج ٦٥، ص ١٨، ح ٢٥.

(٢) مشكاة الأنوار: ص ٧٨.

بالدعاء وعاهدوا الله عزَّ وجلَّ على ترك الذنوب يرفع الله عنهم البلاء والوباء وكل ما يوجب خوفهم.

الجمع بين السببية والاستعانة

الأمر الرابع: إنَّ الحصر في الاستعانة المستفاد من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدل على أنَّ الاستعانة بغير الله خطأ تكوينياً وشركاً تشريعياً.

فإن قلت: لكنَّ القرآن يشهد بوجود قانون السببية، وأنَّ الباري عزَّ وجلَّ جعل النظام العام يقوم على الأسباب والمسببات، وقد قال سبحانه: ﴿فَاتَّبَعَ سَبَباً﴾^(١).

فلا يوجد شيء في الوجود دون الاستعانة بنظام السببية في التكوين، ونظام السببية في التشريع، ولذا أرسل الأنبياء والأولياء، وأنزل الكتب لهداية الخلق، وقال سبحانه: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٢).

فما هو وجه الجمع بين قانون الاستعانة وقانون السببية؟
والجواب: أنَّ الاستعانة بالوسائل والأسباب تكون على ثلاثة أنحاء:
أحدها باطل، واثنان صحيحان:

الاستعانة بغير الله تعالى

النحو الأول: الاستعانة بغير الله سبحانه اعتقاداً أو ظناً بأنَّ التأثير للسبب، كالفلاح الذي يحرق الأرض ويذرّها ويسقيها باعتقاد أنَّه السبب

(١) سورة الكهف: الآية ٨٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٥.

في حياة الأرض والبذر، أو أن التأثير للتراب والماء والبذر، كقوم إبراهيم عليه السلام الذين كانوا يعبدون الكواكب من دون الله ظناً منهم بأنها هي التي تدبّر أمور الخلق^(١)، وقد ذكروا أن قوم إبراهيم جعلوا للكواكب التأثير في الوقائع، فجعلوا المريخ إله الحرب، والمشتري إله العدل والعلم، وعطارد إله الوزراء، والشمس ملك الآلهة جميعاً^(٢)، ولذا استدل على إبطالها إبراهيم عليه السلام، وقد رأى أن قومه يعبدون الأصنام والكواكب ولكن بداعيين: فكانوا يعبدون الكواكب لأنهم يعتقدون أن لها التأثير في الكون بنحو الاستقلال، فعقيدتهم بها عقيدة الربوبية، وكانوا أيضاً يعتقدون بالأصنام أنها وسيلة للقرب والاستعانة يستمدون بواسطتها من الكواكب. وقد صنعوا لكل كوكب صنماً يمثله في اللون والمظهر يتقربون به إلى الكوكب، فالصنم الذي يمثل الشمس صنعوه من الذهب، ورصعوه بالأحجار الكريمة كالياقوت والألماس، وصنعوا صنم القمر من الفضة وهكذا^(٣)، فلذا حاورهم إبراهيم عليه السلام من الجهتين: أي الربوبية والألوهية، ولكن أبطل في الأصنام صفة الألوهية، وفي الكواكب صفة الربوبية^(٤)، ووصفهم بالشرك؛ لأن واقعهم يعود إلى الاستعانة الشريكية.

(١) انظر تفسير نفحات الرحمن: ج ٢، ص ٥٠٥.

(٢) تفسير أبي الفتوح: ج ٤، ص ٤٦٧، الهامش؛ تفسير الأمثل: ج ٤، ص ٢٤٤.

(٣) تفسير نفحات الرحمن: ج ٢، ص ٥٠٥؛ تفسير الرازي: ج ١٣، ص ٣٩.

(٤) مواهب الرحمن: ج ١٤، ص ٧٩.

أنحاء الشرك

ومنه يتضح أنّ الشرك يقع على ثلاثة أنحاء:

أحدها: شرك العقل.

ثانيها: شرك القلب.

ثالثها: شرك العمل.

والأول يقع بالاعتقاد بوجود مؤثر في الوجود غير الله أو معه، والثاني يقع بالتعلق بغير الله سبحانه أو مشاركته معه كالرياء في العبادة الذي يجمع بين حب النفس وحب الله، والثالث يقع بالاستعانة بغير الله سبحانه في بلوغ الغايات والأغراض، وكلها تنتهي إلى الشرك.

الاستعانة بالوسائط

النحو الثاني: الاستعانة التوسيطية، بمعنى أنّ العبد يستعين بالطبيب للشفاء وبالعالم للتعليم وبالتاجر للرزق، لا باعتبار أنّ الطبيب والعالم والتاجر هم سبب التأثير مستقلين عن الله سبحانه، ولا باعتبار أنّ لهم جزء التأثير، بل باعتبار أنّ الله سبحانه أقدرهم وأعطاهم هذه القدرة، وجعلهم الواسطة في التأثير طوليّاً، وهذا المعنى يتوافق مع قانون السببية؛ لأنّ السبب في أي مجال كان هو طريق الاستعانة.

الاستعانة بقدرة الله تعالى

النحو الثالث: الاستعانة المظهرية، وهذا أعمق من السابق، ويراد به أنّ الباري عزّ وجلّ جعل الأسباب مظاهر لقدرته وإرادته، وبها تتجلّى صفاته،

فالشمس هي مصدر الطاقة في الوجود، وبها تتجلى قدرة الله وربوبيته للخلائق، والمطر مصدر الحياة؛ لأنه مجلى الحياة في الوجود، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن طعم الماء فقال: ﴿طعم الحياة﴾^(١)

لأن كل شيء يحيا وينتعث به. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾^(٢) وهذا المعنى لا يتنافى مع قانون الاستعانة بل موافق له.

استعانة التوسيط والتفويض

والفرق بين الاستعانتين أنّ في الاستعانة التوسيطية يكون المؤثر هو الله سبحانه، والوسيلة واسطة تأثيره، كالعالم الذي يكتب بالقلم، والصانع الذي يصنع الشيء بالآلات، فإنّ المؤثر هو العالم والصانع عبر الواسطة، وهذا أحد وجوه ظهور الآثار على الأنبياء والأولياء بواسطة الدعاء.

أمّا المظهرية فهي تقوم على تفويض القدرة والتأثير إلى الواسطة، فالتى تفعل هي الواسطة بتفويض الله لها القدرة، كما في تفويض العطاء لسليمان عليه السلام؛ إذ قال سبحانه: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣) وبهذا يتضح الوجه في تصرفات النبي والأئمة عليهم السلام من تيسير الأمور وتديرها بأيديهم لما فوضهم الله سبحانه في ذلك، فيكون فعلهم فعل الله، وإرادتهم إرادته، وفي رواية الكافي بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿إِنَّ

(١) الكافي: ج ٦، ص ٣٨١، ح ٧؛ مجمع البيان: ج ٤، ص ٤٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٣) سورة ص: الآية ٣٩.

الله عز وجل خلقنا فأحسن خلقنا، وصورنا فأحسن صورنا، وجعلنا عينه في عباده، ولسانه الناطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرفقة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يدل عليه، وخزّانه في سمائه وأرضه. بنا أثمرت الأشجار، وأينعت الثمار، وجرت الأنهار، وبنا انزل غيث السماء، ونبت عشب الأرض، وبعبادتنا عبد الله، ولولا نحن ما عبد الله^(١).

معنى كمال عبوديتهم

وفضلاً عن دلالة التفويض والمظهرية فإن قوله: ﴿وبعبادتنا عبد الله﴾ يدل على أمرين:

أحدهما: أنهم علّموا العباد العبادة، وهذا متضافر في الأدلة.

ثانيهما: أن عبادة الله الكاملة الحقّة لم تقع إلاّ منهم، فلولا هم ما عبد الله حقّ عبادته.

ومهما عبد العباد فإنّها تبقى ناقصة إمّا لنقصان المعرفة، أو لنقصان التوجه والانقطاع، أو لنقصان الإخلاص، أو لنقصان الأداء.

وقد نصت الآية على هذه الحقيقة بلسان الحصر فقال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن كل شيء في هذا العالم لا يحدث إلاّ بإعانتة سبحانه حدوثاً وبقاءً وأثراً، وبهذه جميعاً تكتمل عقيدة الموحدين، فلو اختلت العقيدة بواحدة منها وقع العبد في الشرك الاعتقادي أو القلبي أو العملي.

(١) الكافي: ج ١، ص ١٤٤، ح ٥؛ التوحيد: ص ١٥١، ح ٨.

الله المستعان

الأمر الخامس: أن الاستعانة قسماً: تكوينية وتشريعية، وبينهما غاية التأثير والتأثر، وكلاهما يتقومان بمستعان كامل الإعانة من حيث القدرة والإجابة والعطاء وهو الله سبحانه، وقد وصف نفسه بالمستعان في مثل قوله تعالى: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^(٢) فبقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقر بأن لا يوجد من يستعان به إلا هو سبحانه في الشؤون كلها هذا في التكوين، وإليه يشير قول موسى عليه السلام لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾^(٣) وهو تبارك وتعالى وضع في الشرائع طريقين للاستعانة به هما الصبر والصلاة؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٤) وقال سبحانه: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٥).

وقد فسرت الروايات الصبر بالصيام، وقد ورد أن أمير المؤمنين عليه السلام إذا هاله شيء فزع إلى الصلاة، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٦).

(١) سورة يوسف: الآية ١٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١١٢.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٢٨.

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٥٣.

(٦) الكافي: ج ٣، ص ٤٨٠، ح ١؛ الوسائل: ج ٨، ص ١٣٨، الباب من أبواب استحباب الصلاة، ح ١٠٢٤٩.

وعن الإمام الصادق عليه السلام لمسمع: ﴿يا مسمع! ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غم من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل مسجده فيركع ركعتين فيدعو الله فيهما؟ أما سمعت الله سبحانه يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(١). وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الآية قال: ﴿الصبر الصيام﴾ وقال: ﴿إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم، فإن الله عز وجل يقول: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ يعني الصيام^(٢).

وبذات المنطوق وردت عن الإمام الكاظم عليه السلام^(٣).

المعنى الباطن للصلاة والصيام

وفي رواية ابن عباس فسر الصبر والصلاة بالرسول المصطفى وأمير المؤمنين عليهما وآلهما السلام^(٤)، وهو تفسير بالمصداق الأجل أو الأهم الذي به تظهر خواص الأشياء، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله هو أصبر الأنبياء على ما لاقاه من الأذى، وأمير المؤمنين عليه السلام هو الطريق الوحيد للقرب والاتصال بالله وقبول الأعمال.

وبالجمع بين الآيات الشريفة يتضح سر جواب قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بصيغة الجمع، والأمر في قول الباري: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٦٢، ح ٣٩.

(٢) الكافي: ج ٣، ص ٤٨٠، ح ١؛ الفقيه: ج ٢، ص ٧٦، ح ١٧٧٦ - ١٧٧٧.

(٣) تفسير العياشي: ج ١، ص ٤٣، ح ٤١؛ البحار: ج ٩٣، ص ٢٥٤، ح ٣٠.

(٤) المناقب: ج ١، ص ٣٠٢؛ البرهان: ج ١، ص ٢١١، ح ٧.

وَالصَّلَاةُ ﴿بصيغة الجمع الظاهر في الوجوب، فإن معنى ذلك أن التوفيقات الإلهية وقبول الأعمال واستجابة الأدعية تتوقف على الصلاة والصيام في العبادة واتباع النبي وأمير المؤمنين عليهما﴾.

الاستعانة بمحمد وآل محمد عليهما

ويستفاد هذا المعنى مما ورد عن الإمام العسكري عليه السلام قال: ﴿قال الله عز وجل لسائر اليهود والكافرين والمشركين: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي بالصبر عن الحرام وعلى تأدية الأمانات، وبالصبر عن الرئاسات الباطلة، وعلى الاعتراف لمحمد بنبوته ولعلي بوصيته، ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ على خدمتهما وخدمة من يأمرانكم بخدمته على استحقاق الرضوان والغفران ودائم نعيم الجنان في جوار الرحمن، ومرافقة خيار المؤمنين والتمتع بالنظر إلى عترة محمد سيد الأولين والآخرين، وعلي سيد الوصيين والسادة الأخيار المنتجبين، فإن ذلك أقرّ لعيونكم، وأتم لسروركم، وأكمل لهدايتكم من سائر نعيم الجنان، واستعينوا أيضاً بالصلوات الخمس وبالصلاة على محمد وآله الطيبين سادة الأخيار على قرب الوصول إلى جنّات النعيم (وإيّها) أي هذه الفعلة من الصلوات الخمس، ومن الصلاة على محمد وآله الطيبين مع الانقياد لأوامرهم والإيمان بسرهم وعلايتهم، وترك معارضتهم بلم وكيف؟ (لكبيرة) عظيمة (إلا على الخاشعين) الخائفين من عقاب الله في مخالفته في أعظم فرائضه﴾^(١).

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٢٣٧ - ٢٣٨، ح ١١٥؛ البحار: ج ٢٤، ص ٣٩٥، ح ١١٥؛ البرهان: ج ١، ص ٢٠٧ - ٢٠٨، ح ١.

وبذلك يكون ﷺ قد وضع المصاديق الأكمل للصبر وللصلاة، ووضع البرنامج العملي الذي لو التزم به المؤمن كان مستعيناً بالله، وفائزاً بمقام العبودية، وموفقاً في أيامه وآماله.

لماذا وصف النبي بالصبر وعلي بالصلاة؟

ووجه التشابه بين الصبر والصلاة والنبي وأمير المؤمنين عليهما أن النبي هو أصبر عباد الله عزَّ وجلَّ على الأذى، وقد قال: ﴿مَا أُؤْذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُؤْذِيَ﴾^(١) لأنَّ أذاه مستمر في كل الأزمنة، وولاية أمير المؤمنين عليه السلام هي صلة العبد بربه كالصلاة، وقبول الأعمال متوقف على قبولهما، بل لولا الولاية لا يتصل العبد بربه حتى في صلاته.

وبذلك يتضح أنَّ الاستعانة بالله لها مفتاح ولها واسطة، ومظهر مفتاحها الصلاة والصيام، وواسطتها ومظهرها الولاية لآل محمد ﷺ والتمسك بهم والصلاة عليهم.

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٤٢؛ كشف الغمة: ج ٣، ص ٣٤٦؛ مستدرک سفينة البحار: ج ١، ص ١٠٢.

المبحث الثاني: في لطائف الآية المباركة



وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: بصائر القلوب

أنَّ صيغة المضارع في العبادة والاستعانة (نعبد ونستعين) تدل على الحضور القلبي والعملي الدائم، وضمير الخطاب في «إِيَّاكَ» يفيد الرؤية والمشاهدة الحضورية؛ لاستحالة المشاهدة الحسية، وهي من أعلى مراتب الحضور والعبودية.

مراتب الرؤية

وبيان ذلك: أنَّ الرؤية يمكن أن تقع على أنحاء، ولكل نحو مراتب، فهناك رؤية العين ورؤية الفكر ورؤية القلب ورؤية البصيرة ورؤية الروح ورؤية الغير كأفراد ورؤية المجتمع، وهو ما يعبر عنه بالرأي العام وهكذا، ولكل واحدة منها خصائص وآثار، ويمكن أن نجمع جميع الرؤى والمشاهدات تحت قسمين هما: رؤية العين ورؤية القلب، ورؤية العين تحصل بالوسائل المادية من وجود المبصر وأداة الإبصار والشيء المبصر وهي الغالبة الحاضرة عند الناس، فلا تبصر ما هو فوق المادة ومحصورة في مكانها وزمانها، بل لا تبصر ما يغيب عن الحس الظاهر من المادة كالهواء والجاذبية في الأجسام والطاقة ونحوها، فإنَّ العين لا تبصرها إلا إذا

تجسدت في عين معينة، كالطاقة الكهربائية إذا ظهرت في مصباح أو جهاز، أو ظهر أثرها كالجاذبية، وكثيراً ما تقع الباصرة بأخطاء في الرؤية بالرغم من مشاهدتها للمحسوس، ولذا لا يعتمد عليها الدين في صناعة الأفكار وبناء الاعتقادات وفهم الحقائق إلا بنحو المقدمة والعامل المساعد؛ لأنها محدودة وكثيرة الخطأ.

رؤية القلب

وأما رؤية القلب فهي أعمق وأبلغ؛ لأنها ترى ما لا تراه العين، وتدرك ما هو غائب عن الحس وما هو فوق المادة والماديات، وتُصير ما هو غائب حاضراً، وما هو بعيد قريباً عن قطع ويقين وانقطاع إليه، وهي عامة يستعين بها البصير والأعمى.

فالحقائق الغيبية لا تدركها الأبصار وإنما القلوب، والضلالات ناشئة من عمى القلوب وإن كانت العيون تبصر وترى.

ومن هنا صار معيار الإيمان هو الإيمان بالغيب، وهي رؤية قلبية تفيد اليقين، ولو بلغها العبد وصل إلى أعلى الدرجات، وفي قضية إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١) وملكوت السماوات ما فيها من حقائق فوق الحس وفوق المادة في مقابل الملك الذي هو المحسوس، وإبراهيم عليه السلام رأى الأول لا بعين البصر؛ لأن قدرة البصر محدودة لا تطيق النظر إلى ما وراء المادة، وإنما

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٥.

رآها بعين القلب ليصل إلى مقام أهل اليقين فيكون من الموقنين.
وفي الأخبار الشريفة جعلت أعلى ما يصل العبد فيه إلى ربه أن يؤمن به
كأنه يراه، فالرؤية القلبية هي مدار الإيمان والكفر والضلال والهداية، وبها
يصبح الإنسان كائناً إلهياً، وتتميز بخصائص عديدة:

خصائص رؤية القلب

الأولى: أنها تتم بالقلب ولا تعتمد على الحس ولا المحسوس إلا بنحو
المقدمة، بل ترى غير المحسوس وتصيِّره محسوساً.

الثانية: أنها تفوق الزمان والمكان، ولذلك يقول تعالى لرسوله
المصطفى ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(١) وبعض
المستشرقين وقاصري النظر اتخذ ذلك ذريعة للطعن في القرآن بدعوى أن
قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يخاطب النبي ولم يكن موجوداً، أو لم يكن يدرك حينما هجم
أبرهة بالفيل على الكعبة؛ لأن النبي ﷺ ولد في عام الفيل، ولو قال: (ألم
تعلم) لكان أصح؛ لأن العلم يمكن أن يحصل بواسطة الإخبار ممن شاهد
الحادثة.

والجواب: أن المستشكل فهم من الرؤية المشاهدة بالبصر؛ لأنه لم يدرك
غيرها، وغفل عن أن القرآن أراد الرؤية الثانية وهي رؤية القلب، وهي
فوق الزمان والمكان، لا سيما قلب الرسول المصطفى ﷺ فإنه بعلمه اللدني
يدرك جميع الحقائق منذ أول الخليقة إلى ختامها.

(١) سورة الفيل: الآية ١.

أدوات رؤية القلب

الثالثة: أنّ الرؤية القلبية تستند إلى ثلاث أدوات، هي الحس والعقل والنقل، فما تراه العين الباصرة بالشكل الحسي يرى القلب ما غاب عن الحس منه، وهو آثار الصنع وحكمته وبداعته ولطفه، وهو ما يعبر عنه القرآن بالتدبر والتفكر والاعتبار، فإنّ هذه الحقائق قلبية لا بصرية، وإنّما البصر طريق إليها.

والعقل يستنتج من الأشباه والنظائر والأضداد والآثار النتائج، ولذا اشتهر القول في ثلاث قواعد هي أنّ الأشياء تعرف بأمثالها وبأضدادها وآثارها. والنقل يتم بتصديق الثقات المأمونين من الأخطاء والاشتباهاات، كإخبارات القرآن والمعصومين عن أحوال الأمم السابقة أو أحوال البرزخ والقيامة، والقلب يصدق ويدعن بذلك عن يقين.

لماذا خاطب بلسان الحضور؟

إذا اتضح هذا يتضح السر في تحوّل الخطاب في الآية الشريفة من الغيبة إلى الحضور، فإنّ الآيات السابقة تحدّثت عن الغائب دون الحاضر؛ لأنّ هذا ما يقتضيه المقام وهو تنزيه الخالق عن المخلوق، فلذا حمده وأثنى عليه بالرحمة، وبالمالكية ليوم الدين، ولكن في العبادة والاستعانة تحدّث بلسان الحضور وهو ما يقتضيه مقام العبودية والاستعانة؛ بدهاء أنّ العبد لا يعبد الغائب ولا يستعين بغير الحاضر عنده، ولا يعبد ويستعين بما هو بعيد لا يسمعه ولا يعرف حاله، فبقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بلسان الحضور يكون كأنه يراه ويقابله ويُصَيِّر رؤية القلب عنده بمنزلة رؤية العين، ومن بلغ هذا

المقام يكون قد وصل وبلغ المقصود.

فالعبودية والاستعانة الكاملة تتحقق بالحضور لا بالغيبة وبالمشاهدة لا بالغفلة، وبالاتفات لا بالانصراف والانشغال بغيره.

سر عظمة أهل الغيبة

كما يتضح السر في عظمة أهل الغيبة لأنهم صيروا الغيب عندهم بمنزلة المشاهدة، وأن المؤمن إذا استغاث بولي زمانه فهو حاضر عنده فيسمعه ويحضر عنده وينجيّه. وهذه حالة الدعاء والمناجاة، فإنّه من دون حضور وقرب لا يحصل ارتباط ولا إجابة ليس من جهة الخالق، لأنّه حاضر وأقرب إلى العبد من جبل الوريد، إلّا أنّ الداعي إذا لا يستحضر ربه ويناديه بلسان الحضور لا يستحق الإجابة، وهكذا اللقاء بولي الزمان والوصول إليه، وهذا أحد أسباب الحرمان من إجابة الدعاء، والحرمان من الاتصال بحضرته.

حضور الخضر وولي الزمان

في كمال الدين عن الإمام الرضا عليه السلام: ﴿أنّ الخضر ليحضر حيث ذكر، فمن ذكره منكم فليسلم عليه، وأنّه ليحضر الموسم كل سنة فيقضي جميع المناسك - لأنّه مسلم مؤمن بولاية النبي والأئمة عليهم السلام - ويقف بعرفة فيؤمن دعاء المؤمنين، وسيؤنس الله به وحشة قائمنا عليه السلام في غيبته، ويصل به وحدته ^(١) .

(١) كمال الدين: ج ١، ص ٤١٨، ح ٤؛ البحار: ج ٥٢، ص ١٥٢، ح ٣.

دالتان لأهل القلوب

وفي ذلك دالتان لأهل القلوب:

الأولى: أنَّ الخضر إذا يحضر الموسم وهو يؤنس وحدة حجة الزمان فمعناه أنَّه مع الإمام في عرفة يؤمّن على دعاء المؤمنين؛ لذا يستحب الدعاء في عرفة والإقرار بالذنوب، وأن يذكر المؤمن ذنوبه واحداً بعد واحد ويقرّ بها ويتوب منها؛ لأنّ ذلك كله في مشهد الإمام يطّلع عليه، فإذا وجده صادقاً آمّن على دعائه، واستجيب له، وخرج كمن ولدته أمّه، وإن وجده كاذباً فقد حرم نفسه.

معنى الحج لقاء الإمام

وبهذا يُعرف بعض السر في الحديث «الحج لقاء الإمام»^(١) فلو أنّ الحاج تفانى وتنزّه عن الظلمات نال هذا الشرف، وإذا كان هذا الحال في الموسم فما هو الحال في أيام عاشوراء والأربعين وليالي القدر أين يكون الإمام عليه السلام؟ وأين يكون الخضر؟ وأين يكون التأمين على دعوات أهل الإيمان؟ فإنّه يكون عند الحسين عليه السلام، لأنّ زيارته أفضل، وزائره أعلى مقاماً ودرجة.

حضور الإمام لأوليائه

الثانية: أنَّ الخضر يحضر حيث ذكر وهو ليس الإمام على الخلق، فكيف بالإمام عليه السلام وهو ولي الخلق وسيدهم والمعني بأمرهم إذا نادوه واستعانوا

(١) الكافي: ج ٤، ص ٥٤٩، ح ٢؛ علل الشرائع: ج ٢، ص ٤٥٩، ح ٢؛ البحار: ج ٩٦، ص ٣٧٤، ح ٢.

به؟ ويعززه ما ورد في توقيعه الشريف للشيخ المفيد^١ الذي أورد في الاحتجاج، وقد ورد فيه: ﴿نحن وإن كنا ثاوين - أي قائمين ومستقرين - بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذي أَرَانَاهُ اللهُ تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك، ما دامت دولة الدنيا للفاسقين فإننا نحيط علماً بأنبائكم، ولا يعزب عنا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم.. إنا غير مهملين لمراعاتكم - لإعانتكم - ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء - الشدة والضيق وفي بعض النسخ البلواء - أو اصطلمكم - استأصلكم - الأعداء... فليعمل كل امرئ منكم بما يقرب به من محبتنا، ويتجنب ما يدينه من كراهتنا وسخطنا، فإن أمرنا بغتة فجأة حين لا تنفعه توبة، ولا ينجيه من عقابنا ندم على حوبة، والله يلهمكم الرشد، ويلطف لكم بالتوفيق برحمته^(١) .

وذلك كله لا ينحصر بالرؤية البصرية بل بالمشاهدة القلبية التي لا تحجبها الحجب، ولا يحدها الزمان والمكان، والسراً أنه حقق الرؤية القلبية، فربما حظي بالرؤية البصرية الحسية وانتقل من الغيبة إلى الحضور، وفي التوقيع الشريف دلائل مهمة وإرشادات لا تخفى على أهل البصيرة.

وبهذه الرؤية القلبية والبصيرة النافذة يجب أن ينظر المؤمن إلى معارفه ومعتقداته، ويسلم لمواقف المعصوم^{عليه السلام} حتى تحترق رؤيته الزمان والمكان،

(١) المزار (للمفيد) : ص ٨؛ الاحتجاج : ج ٢، ص ٣٢٢ - ٣٢٤؛ البحار: ج ٥٣، ص ١٧٥ - ١٧٦، ح ٧؛ القطرة: ج ٢، ص ٥٣٢.

ويدرك الوقائع وما وراءها، ويملك الفلسفة والفهم لما جرى ويجري، ويكون راسخ القدم، فلا تؤثر فيه التيارات والاتجاهات الباطلة.

ثبات القدم في زمن الغيبة

ويستفاد هذا من طائفة من الروايات أذكر واحدة منها، وهي صحيحة السند. رواها الكليني في الكافي بسنده عن الكناسي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول - وعنده أناس من أصحابه ويبدو أن بعضهم ممن تتلاعب بهم الاتجاهات -: ﴿عجبت من قوم يتولّونا ويجعلونا أئمة ويصفون أن طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله ثم يكسرون حجتهم، ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم - أي بسبب ضعف إيمانهم، أو ضعف نفوسهم وشعورهم بالضعف والهزيمة مقابل الآخرين، فيكسرون حجتهم - فينقصونا حقنا - مجاملة أو ضعف إيمان - ويعيبون على من أعطاه الله برهان حق معرفتنا والتسليم لأمرنا - فيتهمون أصحاب العقيدة السليمة بالغلو أو ما شابه - أترون أن الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثم يخفي عنهم أخبار السماوات والأرض، ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم؟﴾ فقال له حمران: جعلت فداك رأيت ما كان من أمر قيام علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام وخروجهم وقيامهم بدين الله عزّ ذكره وما أصيبوا من قتل الطواغيت إيّاهم والظفر بهم حتى قتلوا وغلبوا؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: ﴿يا حمران! إن الله تبارك وتعالى قد كان قدّر ذلك عليهم وقضاه وأمضاه وحتمه على سبيل الاختيار، ثم أجراه، فبتقدم علم إليهم من رسول الله صلّى الله عليه وآله قام علي والحسن والحسين عليهم السلام، وبعلم

صمت مَنْ صمت منّا، ولو أنّهم يا حمران حيث نزل بهم من أمر الله عزّ وجلّ وإظهار الطواغيت عليهم سألوا الله عزّ وجلّ أن يدفع عنهم ذلك وألحوا عليه في طلب إزالة ملك الطواغيت وذهاب ملكهم إذاً لأجابه، ودفع ذلك عنهم، ثم كان انقضاء مدة الطواغيت وذهاب ملكهم أسرع من سلك منظوم انقطع فتبدد، وما كان ذلك الذي أصابه يا حمران لذنوب اقترفه، ولا لعقوبة معصية خالفوا الله فيها، ولكن لمنازل وكرامة من الله أراد أن يبلغوها، فلا تذهبن بك المذاهب فيهم^(١).

هذه هي رؤية القلب التي يفتح بها الإمام الباقر عليه السلام بصائر الموالي ليفهموا كيف يرتبطون بإمامهم، وما جرى وما يجري وما هو الموقف الصحيح منها، فيثبتون على ما هم عليه من الاعتقاد، واعتبار المعاناة التي يمرون بها جهاداً وصبراً حتى يرتقوا في الدرجات.

اللطيفة الثانية: لماذا قدم ضمير المخاطب؟

قدّم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعلين (نعبد) و (نستعين) فلم يقل: (نعبدك ونستعين بك) لأسباب عديدة: بعضها تقتضيها الحقيقة التكوينية، وهي تقدّم الخالق على المخلوق في كل شيء رتبة وأثراً؛ لأنه السبب، وبعضها تقتضيها العقيدة السليمة، فإنّ العقيدة الحقّة تقوم على حضور الخالق في قلب المخلوق، وبعضها تقتضيها العبادة، فإنّها تتقوم بالعبود أولاً والتقرّب إليه وإطاعته في أمره ونهيه، وبعضها يقتضيها الأدب والخلق الرفيع وهو

(١) الكافي: ج ١، ص ٢٦١ - ٢٦٢، ح ٤؛ الأمالي (للصدوق): ص ٧٢٥، ح ٩٩١.

التواضع أمام الرب، وتقديم ذكره على ذكر العبد، وبعضها يقتضيها أدب العبودية، فإنَّ العبد محاط بوساوس الشيطان وتزييناته، ومحاط بدواخله النفسية وشروده الذهني والصوارف التي تحجبه عن ربه، فإذا قدّم ذكره خصص عبادته لله سبحانه دون غيره مما يحجبه، ليكون مستغرقاً في مشاهدة نعمه وفضله ونوره. وبذلك يدخل العبد نور العبودية، ويستفيض من فيض الربوبية.

لماذا كرر الضمير (إِيَّاكَ)؟

وما يقال في العبودية يقال في الاستعانة، والملفت أنَّه كرّر قوله ﴿إِيَّاكَ﴾ ولم يعطف الجملتين بقوله: (إِيَّاكَ نعبد ونستعين) وذلك للإشارة إلى خلوص العبودية نظرياً وعملياً؛ لأنَّ العبودية والاستعانة قسمان حقة وباطلة، والأولى هي العبودية لله والاستعانة به سبحانه، والثانية العبودية لغيره والاستعانة بغيره. وبالجمع بينهما تتشكل أربع صور؛ لأنَّ العبد تارة يعبد الله ويستعين بغيره، وتارة يعبد غير الله ويستعين به، وتارة لا يعبد ولا يستعين به، وتارة يعبد ويستعين به، والصور الثلاث الأولى باطلة وكاذبة ولا تطابق الواقع، ولأجل طردها من ذهنه وبيان خلوصه في عبوديته واستعانتة وجب أن يكرّر الحصر فيهما، فعبادة الله سبحانه دون غيره واستعانتة به لا بغيره.

قدّموا لله وخذوا منه ما تريدون

وتقديم العبادة على الاستعانة يعود لوجوه تقتضيها الحكمة، وفيها نكات وحقائق علمية وعملية مهمة:

الأول: أنَّ العبادة حق والاستعانة فضل والحق مقدّم. أما الحق فلأنه من حقوق الخالق على المخلوق، وأمّا الفضل فلأنّه طلب وإجابته فضل ورحمة، ولعل الحكمة تقتضي عدم الإجابة لمصلحة العبد، ولأنّ العبادة سبب الاستعانة؛ لتوقف الإجابة على القرب، والسبب مقدّم على المسبّب. ولأنّ سنة الله سبحانه في خلقه أن يقدّموا ما عليهم فيفيض عليهم من خيره ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١) والاشتراء يقتضي أن يقدّم المؤمن نفسه وماله لله حتى ينال الجنة، كالمشتري هو الذي يُقبل أولاً على الشراء، فالذي لا يعطي لا ينال، والذي لا يعمل لا يحصل على الأجر.

أركان المعاملة مع الله

وفي الآية جانب تعليمي مهم لما ذكرناه، فإنّ كل معاملة تقوم على أركان هي المشتري والبائع والضمن والمضمن وأسلوب البيع. والله عزّ وجلّ جعل نفسه المشتري والمؤمنين بائعين، وأمواهم وأنفسهم متاعاً وبضاعة للبيع، والجنة الضمن، وأسلوب البيع القتال في سبيله. في مثل هذا البيع باركه وقال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ﴾^(٢) ووصفه بأنّه الفوز العظيم، أي وهذا البيع الرابع، وبه وردت بعض الأخبار.

فقد ورد من طرق العامة أن سعد بن زرارة أخذ بيد النبي ﷺ ليلة

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

العقبة فقال: يا أيها الناس! هل تدرون علام تباعون محمداً ﷺ؟ ... فقال: يا رسول الله ﷺ اشترط عليّ، فقال: «تباعون على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا تنازعوا الأمر أهله، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهلكم» فقالوا: نعم. هذا لك يا رسول الله ﷺ فما لنا؟ قال: «الجنة والنصر»^(١) والمراد بلا تنازعوا الأمر أهله هم آل محمد صلوات الله عليهم.

ونلاحظ أن البيعة تمت بتقديم المبايعين أولاً ثم كسب النتيجة والربح، وهذه هي طريقة الباري عز وجل في التعامل مع العباد، فأولاً: يجب أن يبادروا إليه حتى يمسك بيدهم.

والملفت أنه ﷺ قال: «وأن لا تنازعوا الأمر أهله» فما هو الأمر ومن هم أهله؟

البيعة الثانية لأمر المؤمنين ﷺ

فإن المتبادر من ذلك بل الذي تتضافر عليه الأدلة أن المراد بالأمر هو الخلافة، وأهله هو أمير المؤمنين ﷺ، ويستفاد من ذلك أن في بيعة العقبة قد أخذ النبي البيعة لأمر المؤمنين ﷺ أيضاً، وتشهد له قرنتان:

الأولى: أن القوم لم يسألوا عن مراده بالأمر وعن أهله الذي طلب النبي البيعة عليه، وهذا يدل على أنهم كانوا يعرفونه ولم ينكروه وباعوا عليه.

الثانية: قوله ﷺ كثر من اللوفاء بهذا العهد هو «الجنة والنصر» والجنة

(١) تفسير المراغي: ج ١١، ص ٣١.

كجزاء لذلك أمر معروف، ولكن النصر ماذا يعني؟ إنه

النجاح والفلاح والتفوق في الدنيا، وهو النصر الذي دعا به رسول الله ﷺ في يوم الغدير لكل من وفى بعهدته مع أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: ﴿اللهم انصر من نصره﴾^(١) و: ﴿منصور من نصره ومخدول من خذله﴾^(٢).

وهذه حقيقة تاريخية نتائجها مرّة لَمَّا نقضت الأمة ذلك وقعت في الخذلان، وصارت الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمسلمين من سيء إلى أسوأ؛ لأنّه نتيجة طبيعية لخذلان عهدهم بأمر المؤمنين، ودعاء النبي ﷺ.

النعم الأولية والكمالية

فمنهج تعامل الخالق مع البشر يقوم على ركنين:

الأول: النِّعم الأولية التي تقوم به كنعمة الإيجاد والحياة والرزق الضروري، وهذه النعم تفضلية يبتدئها الباري بالإحسان، ويفيضاها على البشر قبل استحقاقها.

الثاني: النِّعم الكمالية والرفاهية، وهذه لا تقوم على الإبتداء من الرب عزّ وجلّ، بل تبدأ من العبد أولاً، فعليه أن يبادر الإنسان أولاً إليها ويسعى لتحصيلها حتى يفیضها الباري عليه.

(١) شرح إحقاق الحق: ج ١٧، ص ١٢٥؛ أسد الغابة: ج ٤، ص ١١٤.

(٢) الأمالي (للطوسي): ص ٤٨٣، ح ١٠٥٥؛ المستدرك (للحاكم النيسابوري): ج ٣، ص ١٢٩؛ الصواعق المحرقة: ص ١٢٥.

وفي الحديث القدسي: ﴿من قدم إليّ شبراً قدمت إليه ميلاً﴾^(١) فأولاً يجب أن يأتي العبد إلى ربه حتى يقبله، وهذه هي أخلاق آلِه عليه السلام. قالوا: ﴿من لزمنا لزمناه﴾^(٢) فيجب على المؤمن أن يمسك بهم حتى يمسكوه. أما الذي يذهب يميناً وشمالاً يتركوه، ولكن بلطفهم وكرمهم ورحمتهم يكتفون بخطوة واحدة من الإنسان باتجاههم حتى يُقدموا خطوات كثيرة نحوه.

وهذا هو أسلوب الاستعانة، وإجابة الدعاء أن يتوب العبد من ذنبه أولاً فيطلب العفو ثم يدعو فيستجاب، أما الذي يدعو دون أن يقدم شيئاً فلا يقبل منه.

تعالوا إلى الله سبحانه حتى يقبل عليكم

الثاني: أنّ الواجب الأدبي والأخلاقي يقتضي من العبد تقديم واجب العبودية وهو ما عليه، ثم طلب الإمداد والاستعانة وهو ماله، فتقديم ما ينتفع به العبد قبل القيام بما يجب عليه مناف للأدب.

وبعبارة أخرى أنّ العبادة مطلوبة للباري من عباده، والاستعانة مطلوبة للعباد منه سبحانه، وتقديم العبد ما يريده مولاه أولاً هو مقتضى أدب العبودية، وتعظيم مقام الربوبية بخلاف العكس، وهذا أدب الخالق مع مخلوقه حتى في العبادة؛ إذ قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(٣) فلم يأمرهم بالعبادة إلا بعد أن

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج ١٥، ص ٣٦٨، ح ١١٧٤.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٢٧٢، ح ٦٣؛ البحار: ج ٢٦، ص ٢٣٩، ح ١.

(٣) سورة قريش: الآيتان ٣ و ٤.

كفل حقوقهم الأولية في الطعام والأمان.

الرزق مكفول في الزواج

وحتى في النكاح الذي هو حاجة ضرورية ثابتة بها تتقوم حياة البشر. قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) وقد صحح بها مفهوماً خاطئاً عند الشباب والآباء والأمهات وهو الاعتقاد بأن المال هو الذي يأتي بالزواج وتكوين الأسرة، فالكثير من الشباب لا يتزوجون لأنهم فقراء، والكثير من العوائل لا يُزوّجون بناتهم للفقراء، والقرآن الكريم ينص على أن المعادلة معكوسة؛ لأنّ الزواج هو الذي يأتي بالمال وسعة الرزق وليس العكس، فلو اكتفت العوائل بالقليل وتوكلت على الله وزوجوا وتزوجوا بهذا المفهوم استغنوا.

ما هي غاية الخلق؟

الثالث: أنّ العبادة غاية خلق العبد وتكوينه وعلة الوجود، بخلاف الاستعانة فإنّها علة الحدوث، وعلة الوجود مقدمة حضوراً في الواقع وفي العقل والقلب على علة الحدوث، ولذا قال أهل المعقول: إنّ الغاية مقدمة على الحدوث لأنّها سببه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)

(١) سورة النور: الآية ٣٢.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

وحصر الغاية في إيجادهما بالعبادة يستدعي تقديمها، وأمّا الاستعانة فبها يدوم الوجود، وهي متأخرة رتبة عن الأولى.

العبادة ثم الاستعانة

الرابع: لسدّ منافذ الوسوسة، وإيهام الشيطان وإيقاعه في الغرور والعجب، فإنّ بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بنسبة الفعل إلى الذات ربما يشعر العبد بأن له حولاً وقوة وقدرة على الفعل مستقلاً عن ربه، فألحقه بقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لإلفاته إلى أنّ كل ما لديه ليس منه، بل من ربه، ولولا إعانه وتوفيقه لعبده فإنّه لا يقدر على شيء حتى العبودية، فخلوص العبودية يستدعي تعقيب الاستعانة بالعبادة، وهذا ما يستفاد من الأخبار أيضاً.

ففي الفقيه عن الإمام الرضا عليه السلام في معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال: «رغبة وتقرب إلى الله تعالى ذكره، وإخلاص له بالعمل دون غيره ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استزادة من توفيقه وعبادته، واستدامة لما أنعم الله عليه ونصره»^(١).

وفي مجمع البيان قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تبارك وتعالى منّ عليّ بفاتحة الكتاب إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخلاص للعبادة و: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أفضل ما طلب به العباد حوائجهم»^(٢).

(١) الفقيه: ج ١، ص ٣١٠، ح ٩٢٦؛ علل الشرائع: ج ١، ص ٢٦٠؛ البحار: ج ٨٢، ص ٥٤، ح ٤٦.

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ٣١؛ كنز الدقائق: ج ١، ص ٩٤.

الإمام الصادق عليه السلام والقدري

وفي تفسير العياشي بسنده قال: بعث عبد الملك بن مروان إلى عامل المدينة أن وجهه إلي محمد بن علي بن الحسين ولا تهيج به ولا تروّعه ^(١) واقض له حوائجه ^(٢) وقد كان ورد على عبد الملك رجل من القدرية، فحضر جميع من كان بالشام فأعياهم جميعاً. - ومعلوم أن هذا ليس بهم عبد الملك لكنه كان يسلب منه شرعية الحكم لذا اهتم به، وليس حرصاً منه على الدين، خاصة وأن الملوك وبني أمية كانوا يدعون أن ما يفعلونه بأمر الله، والقدرية المنسوبون إلى القدر، وهم قوم يزعمون أن كل عبد خالق لفعله، وفي الحديث: ﴿لا يدخل الجنة قدرى﴾ ^(٣) وبعضهم قال القدرى الذي يقول: لا يكون ما شاء الله ويكون ما شاء إبليس ^(٤)، ومرجعها واحد وهو نفي أن تكون الأحداث والوقائع بقدرة الله وتقديره، لكن القرينة الداخلية كما في آخر القصة دالة على المعنى الأول ^(٥) - فقال: ما لهذا إلا محمد بن علي، فكتب إلى صاحب المدينة أن يحمل محمد بن علي إليه، فأتاه صاحب المدينة بكتابه، فقال له أبو جعفر عليه السلام: ﴿إني شيخ كبير لا أقوى على الخروج، وهذا جعفر ابني يقوم مقامى فوجهه إليه - وكان هذا أسلوب من الإمام ليعين له

(١) لأن سياستهم كانت قائمة على تخويف آل البيت عليهم السلام؛ لذا وصّاه بالعدم.

(٢) لأنه هنا بحاجة إليه.

(٣) الخصال: ص ٤٣٦، ح ٢٣؛ البحار: ج ٢، ص ١٨٧، ح ١٦.

(٤) انظر مجمع البحرين: ج ٣، ص ٤٥١، (قدر)؛ المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٧١٨، (قدر).

(٥) طرائف المقال: ج ٢، ص ٢٤٤، الرقم ٩٤.

علم الإمام الصادق عليه السلام، وأنه الإمام من بعده، وفي عين الحال لم يكن قد استجاب لأمره أمّا الصادق عليه السلام استجاب لأمر الباقر عليه السلام - فلما قدم على الأموي - عبد الملك - ازدراه لصغره - أي استصغره وقلل شأنه - ^(١)

وكره أن يجمع بينه وبين القدري مخافة أن يغلبه، وتسامع الناس بالشام بقدم جعفر عليه السلام لمخاصمة القدري، فلما كان من الغد اجتمع الناس لخصومتها، فقال الأموي - أي عبد الملك - لأبي عبد الله عليه السلام: إنه قد أعيانا أمر هذا القدري، وإنّا كتبت إليك لأجمع بينك وبينه، فإنه لم يدع عندنا أحداً إلا خصمه. فقال: إن الله يكفيناه - وهذا أدب الأنبياء والأئمة عليهم السلام لا ينسبون شيئاً لأنفسهم، وبهذا يتميزون عن أهل الباطل - قال: فلما اجتمعوا قال القدري لأبي عبد الله عليه السلام: سل عما شئت! فقال له: اقرأ سورة الحمد، قال: فقرأها، وقال الأموي: وما في سورة الحمد علينا إنّنا لله وإنّا إليه راجعون!! - في مقام الاستفهام الاستنكاري جهلاً منه بالغاية والحكمة، سيما وأنه قد ازدراه من قبل - فجعل القدري يقرأ سورة الحمد حتى بلغ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فقال له جعفر عليه السلام: قف!! بمن تستعين؟ وما حاجتك إلى المعونة؟ إنّ الأمر إليك - لأنه يعتقد بأن الله لا يفعل، وأنّ الإنسان خالق لفعله - ﴿قَبْهَتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٢) ^(٣).

(١) مجمع البحرين: ج ١، ص ٢٠٣، (زرأ).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٣) تفسير العياشي: ج ١، ص ٢٣ - ٢٤، ح ٢٤؛ البحار: ج ٥، ص ٥٦، ح ٩٨؛ ←

إبطال المذاهب والأقوال بجملة

وفي الاحتجاج للطبرسي حديث عن النبي ﷺ يقول لأصحابه: ﴿قولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبد واحداً، ولا نقول كما قالت الدهرية: إنّ الأشياء لا بدو لها، وهي دائمة - وهو قول بالصدفة والطفرة كما يقوله الملاحدة اليوم - ولا كما قالت الثنوية إنّ النور والظلمة هما المدبران، ولا كما قال مشركو العرب: إنّ أوثاننا آلهة فلا نشرك بك شيئاً ولا ندعو من دونك إلهاً كما يقول هؤلاء الكفار، ولا نقول كما قالت اليهود والنصارى: إنّ لك ولداً تعاليت عن ذلك علواً كبيراً^(١).

وبذلك أظهر بطلان جميع النظريات الحاكمة في العالم البشري، وكشف بعض السر عن إيجاب سورة الحمد في الصلوات الخمس وغيرها.

وفي تفسير الإمام العسكري عليه السلام قال الإمام عليه السلام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى: قولوا أيها الخلق المنعم عليهم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أيها المنعم علينا، ونطيعك مخلصين مع التذلل والخضوع بلا رياء ولا سمعة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منك نسأل المعونة على طاعتك لنؤديها كما أمرت، ونتقي من ديانا ما نهيت عنه ونعتصم من الشيطان الرجيم ومن سائر مرده الجن

→

وانظر نور الثقلين: ج ١، ص ٢٠، ح ٨٣.

(١) انظر تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٥٤٣؛ الاحتجاج: ج ١، ص ٢٥؛ تفسير

نور الثقلين: ج ١، ص ٢٠، ح ٨٤.

والإنس من المضلين، ومن المؤذنين الظالمين بعصمتك^(١) .

وبعد خلوص العبودية وصفاء فكرته في الوحداية ينال العبد الخير،
ويبلغ مطلوبه بعناية ربه سبحانه. وهذا ما يعززه قول الإمام الرضاء عليه السلام:

﴿إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قَالَ اللَّهُ: صَدَقَ عَبْدِي، إِيَّايَ يَعْبُدُ.

أشهدكم لأثيبه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي، فإذا
قال: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ اللَّهُ: بِي اسْتَعَانَ وَإِلَيَّ التَّجَاءُ. أشهدكم لأعينه في
شدائده، ولأخذن بيده يوم نوائبه^(٢) .

وقوله: ﴿لأخذن بيده يوم نوائبه﴾ يتضمن معنيين:

الأول: أنه يعينه في جميع أموره لاسيما في يوم نوائبه.

الثاني: أنه يدخر إجابته وإعانتة في أشد الأوقات حاجة إليها وهي
النوائب. وكلا المعنيين يفيدان ضمان الإجابة وخلاص العبد من الشدائد
التي تنكبه أو تؤذيه.

اللطيفة الثالثة: العبودية ومراتب العبادة

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يستفاد منه دوام العبادة له، ودوام العبادة
يوصل العبد إلى مقام العبودية وهي أعلى رتبة من العبادة، وقد اختلفت
المدارس في معناها، والتحقيق أنّ العبادة تتحقق بفعل ما يرضي الرب،

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٣٩، ح ١٥؛ تأويل الآيات: ج ١، ص ٢٧.

(٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ص ٥٩؛ عيون أخبار الرضاء عليه السلام: ج ٢، ص ٢٧٠، ح ٥٩.

وهي العبادات التي شرّعها الباري للناس، ولها أوقات وأمكنة وكيفيات خاصة.

والعبودية الرضا بما يفعل الرب، والإذعان لقضائه وقدره، وهي تلازم العبد في جميع الحالات والأزمنة والأمكنة، وفي مثلها تكون المباحات وترك المكروهات من العبادة، وفعل العاديات كالطعام والشراب والنوم والكلام كلها عبادة.

مقومات العبادة ومراتبها

وتتقوّم العبودية بأربع صفات، هي الوفاء بالعهود وحفظ الحدود والقناعة بالموجود والصبر على المفقود، وبها تختلف درجات العباد، فإنّ العبادة على ثلاث مراتب:

الأولى: أن يعبد الله طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه، وهي أدنى المراتب، ويشترك فيها جميع العباد، وهي تقوم على طلب النفع، فلولا الثواب والعقاب لم يعبد، فهو مطيع بدنّاً غير مطيع قلباً.

الثانية: أن يعبد الله للوجاهة والحب عنده وعند الناس، وهي أعلى من الأولى رتبة لكنها تقوم على طلب النفع المعنوي، فالمقصود في جوهرها غير الله سبحانه.

الثالثة: أن يعبد الله سبحانه لأنّه ربّ منعم وخالق يستحقّ العبادة، والعبد مخلوق فقير إليه، وهي أعلى المراتب، ودافعها ليس الخوف والطمع ولا الوجاهة، بل أداء الواجب وإعطاء الحقّ لذي الحقّ،

وبذلك صرح أهل المعرفة^(١).

فعن ابن سينا في الإشارات: العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره، ولا يؤثر شيئاً على عرفانه وتعبده له فقط، ولأنه مستحق للعبادة، ولأنها نسبة شريفة إليه لا لرغبة أو رهبة^(٢)، وهو مأخوذ من الأخبار الشريفة التي قسّمت العباد على ثلاثة أقسام هم تجار وعبيد وأحرار، ونصّت على أنّ أشرف مراتب العبادة هي عبادة الأحرار، وبعضهم وصف الدرجة الأولى منها بأنها درجة ساقطة، وبعضهم وصفها بأوصاف أخرى لا تليق بكونها عبادة^(٣)، وضعفه ظاهر من وجوه:

الوجه الأول: أنّه مخالف للقرآن والسنة، فإنّ العبادة التي أشار إليها القرآن ما تقوم على الخوف والطمع، ونصّ على وجود الثواب والعقاب على كل عمل. قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^(٤) ومدح المؤمنين الصالحين بأنهم ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٥).

فإنّ العبادة تتحقق بإتيان العبد العمل الذي قرره الله له وارتضاه، وهو صادق في العبادة بسبب الخوف والطمع. نعم يجب أن يكون الداعي للعبادة هو الخوف والطمع، أمّا النية والغاية فهما القرب منه سبحانه، فإذا

(١) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٧٨.

(٢) الإشارات والتنبيهات: ج ٣، ص ٣٧٥؛ وانظر التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٧٨.

(٣) التحرير والتنوير: ج ١، ص ١٧٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٥٧.

صَلَّى العبد بقصد التقرب إلى الله وداعيه في ذلك تحصيل الثواب والفراغ من العبادة كانت عبادة.

الوجه الثاني: استلزامه التكليف بغير المقدور، فإنه لو أمر الباري بالعبادة في رتبها الثالثة تعذرت على أكثر العباد، واستحالت العبادة وفاتت على العباد فوائدها العظيمة، فلذا حدّد لهم العبادة في رتبها الأولى؛ لأنها مقدورة للجميع.

الوجه الثالث: لولا التخويف والتطميع غلبت وساوس الإنسان ونفثات الشيطان فيه، وقادته إلى ترك العبادة، فإن دفع الألم وجذب اللذة من الأمور الفطرية في نفس بني آدم، ولا يتحرك ولا يفعل شيئاً إلا بدافعهما، ويستحيل أن ينفك الذاتي عن الذات.

وإلى هذه الحقيقة تعود عبادة أكثر الأمم، فإنّ المشركين لما عبدوا الأصنام كان بدافع الحب واللذة أو دفع الألم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾^(١).

وبعض الأمم عبدتها لاتقاء الشر، كما عبدت بعض الأمم الشياطين، والشنوية عبدوا إله الخير وإله الشر، فالحب والخوف فطريان في البشر، وعليهما تقوم العبادة الشرعية أيضاً.

والأنداد كل معاند يجعل نظيراً لغيره، وهو أعم من التأليه أو الاتباع في الأفعال والأعمال.

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

وذكر الناس لأنّها من قبيل القضية الطبيعية؛ لأنّ طبيعة الناس هكذا يتخذون من دون الله أنداداً في كل زمان ومكان، وقال الحب مع أنّه من المفاهيم التي يتعذّر تعريفها لشدة وضوحها وسعة حدودها، وخصه بالذكر لأنّه أصل المقامات، والأصول في المعنويات كلها تبدأ منه وتنتهي إليه.

مقامات الحب

ومن هنا قسموا المقامات إلى قسمين:

الأول: مبادئ الحب ووسائل حصوله، فالحب ثمرة لها، مثل المعرفة والاقتداء والنظر في الكمالات، ولذا جعلت المودة واجبة لأنها تؤدي إلى الحب.

الثاني: ثمرة الحب، فيكون من نتائجه مثل التوحيد والرجاء والخوف والتوكل، وأبرز الذين يتخذون من دون الله أنداداً هم أتباع الظالمين والفاستدين.

ففي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام في معنى الآية قال عليه السلام: ﴿والله يا جابر هم أئمة الظلم وأشياءهم﴾ ^(١) بخلافه المؤمن؛ لذا قالت الآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ^(٢) وقالت أشدّ لأنّ اتباع الظالمين للمصالح، فإذا تضررت بغضوهم، وربما خرجوا عليهم.

أمّا المؤمنون فحبهم أشدّ لله سبحانه؛ لأنّهم يتبعون أوامره ونواهيه حتى في الصعوبات والمجاهدات، ويتحملون الأضرار لأجله، فحبهم خال من

(١) الكافي: ج ١، ص ٣٧٤، ح ١١؛ البحار: ج ٣١، ص ٦١٦، ح ٨٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

المصلحة، بل ناشئ من العبودية.

فالعبادة في مرتبتها العالية لا ينالها إلا الأنبياء والأولياء، فلو طلبت من سائر أهل الإيمان لزِمَ نقض الغرض من الأمر بالعبادة.

فلسفة آيات الحمد

ولعل هذا ما يستفاد من بعض الروايات، ففي الفقيه بسنده عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: ﴿أمر الناس بالقراءة في الصلاة لئلا يكون القرآن مهجوراً مضيعاً وليكن محفوظاً مدروساً فلا يضمحل ولا يجهل، وإنَّما بدأ بالحمد دون سائر السور لأنَّه ليس شيء من القرآن والكلام جمع فيه من جوامع الخير والحكمة ما جُمع في سورة الحمد، وذلك أن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إنَّما هو أداء لما أوجب الله عزَّ وجلَّ على خلقه من الشكر، وشكر لما وفق عبده من الخير ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ توحيد له وتحميد، وإقرار بأنَّه هو الخالق المالك لا غيره ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ استعطاف وذكر لآلائه ونعمائه على جميع خلقه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إقرار له بالبعث والحساب والمجازاة، وإيجاب ملك الآخرة له كإيجاب ملك الدنيا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ رغبة وتقرب إلى الله تعالى ذكره، وإخلاص بالعمل دون غيره ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استزادة من توفيقه وعبادته، واستدامة لما أنعم عليه ونصره^(١) إلى آخر الرواية.

(١) الفقيه: ج ١، ص ٣١٠، ح ٩٢٦؛ البحار: ج ٨٢، ص ٥٤، ح ٤٦.

اللطيفة الرابعة: العبودية بالاتباع لا بالانتفاء

بقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حصر العبادة بالرب الذي خلق برحمته الخلق، وملك أمرهم في الدنيا والآخرة، وهذه خلاصة التوحيد، وبصيغة الجمع أدرج العبد نفسه في زمرة الموحدين الذين تمحّضوا في العبودية له وهم الأنبياء والأولياء والصدّيقون والصالحون ليكون معهم إن لم يكن منهم. وهذا فن دقيق ولطيف في نيل الفضائل، فإنّ عباد الله فئتان:

الأولى: الكُملون الذين ارتقوا في عقولهم وقلوبهم مقام العبودية فتجردوا من كل النواقص والقبائح، وعصموا بحب الله وطاعته، وهم الأنبياء والأولياء.

الثانية: التابعون وهم الذين يتبعون الكُملين ولا يحيدون عنهم في قول أو عمل، وهذه الحقيقة قررها القرآن في الكثير من الآيات؛ إذ نصّ على أن محورية الهدى لا تقوم على الادعاءات والانتفاءات والتسميات، وإنّما على الاتباع والعمل، وقد ورد أنّ اليهود والنصارى تنازعوا في إبراهيم عليه السلام لعظمته وعلوّ شأنه في جميع الديانات، فأخذت كل طائفة تنسبه لنفسها افتخاراً، فاليهود قالوا إنّهم، والنصارى قالوا إنّهم، وقد أجابهم الباري عزّ وجلّ وأبطل هذه الفكرة التي ينطلق منها كل فريق، وهو جذب العظماء إليهم لأجل الافتخار والاعتزاز لا لأجل الاقتداء والعمل. قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(١) فأشار إلى أنَّ المعيار ليس الانتماء بل سلامة القلب والاعتدال في الفكر والمعتقد، والاستعانة في العمل والتجرد من الشرك بأصنافه أي شرك العقيدة وشرك العمل وشرك الحب.

و (الحنيف) هو المائل عن الضلالة إلى الاستقامة. ومنه قوله تعالى: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾^(٢) في مقابل الجنف وهو الميل عن الاستقامة إلى الضلال^(٣).

و (المسلم) المتعري من الآفات الظاهرة والباطنة، وهو مأخوذ من السلام، وهو من أسماء الله سبحانه أي المنزه من العيوب في ذاته وصفائه وأفعاله، والخلق منه في سلام لا يصيبهم منه إلا الخير والرحمة، ولا يعتدي على أهل مملكته، ولا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب.

ما معنى الإسلام؟

والإسلام سمي بذلك لثلاثة أسباب:

أحدها: أنه دين خال من النواقص والعيوب الظاهرة والباطنة في مبادئه وأحكامه.

ثانيها: أنه يوجب سلامة القلب والمحبة والانقياد والطاعة^(٤).

وثالثها: أن الذي يؤمن به يكون مسالماً، فإنَّ المسلم من سلم الناس

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٠.

(٣) مفردات الراغب: ص ٢٠٧، (جنف).

(٤) انظر مفردات الراغب: ص ٤٢١، (سلم).

من يده ولسانه^(١) .

والسلامة من يده أي من أفعاله كالسرقة والضرب، فإنّ المسلم لا يضرب أهله وأولاده أو يتضارب مع جاره وأرحامه، ولا يقيم جداراً يحجب الهواء والضوء عن جاره، ولا يركن سيارته في مكان يؤذي الناس، فسلام اليد كل فعل يكون الناس منه في راحة.

وكذلك لسانه، فإنّ اللسان الجارح والفاحش ليس من الإسلام؛ لأنّ الله سبحانه ييغضه. قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿إِنَّ أَبْغَضَ خَلْقِ اللَّهِ عَبْدًا اتَّقَى النَّاسَ لِسَانَهُ﴾^(٢) .

وفي الكافي: ﴿من فحش على أخيه المسلم نزع الله منه بركة رزقه، ووكله إلى نفسه، وأفسد عليه معيشته﴾^(٣) .

سبب قلة الرزق والبركة

وبعضهم يقول لماذا رزقي ممنوع أو لا بركة فيه؟ ولماذا عيشي في ضنك؟ وفي رواية أنّ رجلاً سيّ رجلاً في مجلس رسول الله ﷺ وهو ساكت لم يرد عليه، ثم شرع برده وجوابه، فقام رسول الله ﷺ وقال: ﴿كَانَ مَلَكٌ يُحِبُّهُ

(١) الكافي: ج ٢، ص ٢٣٤، ح ١٢؛ البحار: ج ٦٤، ص ٣٥٨، ح ٦٢.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٣٢٣، ح ٤؛ الوسائل: ج ١٦، ص ٣١، الباب ٧٠ من أبواب جهاد النفس، ح ١٠٨٨٨.

(٣) الوسائل: ج ١٦، الباب ٧١ من أبواب جهاد النفس، ص ٣٣، ح ٢٠٨٩٧؛ الكافي: ج ٢، ص ٣٢٦، ح ١٣؛ البحار: ج ٧٣، ص ٣٦٥، ح ٣٠.

من قبلك، ولما أخذت أنت في جوابه ذهب وجاء الشيطان، ولم أكن أجلس مجلساً فيه الشيطان^(١).

فالإسلام إنما سمي إسلاماً لخلوه من العيوب الظاهرة والباطنة، والمسلم يكون مسلماً إذا خلا من العيوب الظاهرة والباطنة، ونجا من أمراض القلوب والشر والجريمة وجراحات اليد واللسان.

والباري عز وجل رسخ هذه الحقيقة في مخاطبة اليهود والنصارى الذين أرادوا الانتفاء لإبراهيم عليه السلام بلا عمل، فقال ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

فقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عرّض بأن ما يفكرون به من الشرك، لأنهم خلطوا في العقيدة، فقال اليهود بأن عزيزاً ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله، وخلطوا في الحب، فأحبوا إبراهيم أن يكون منهم لأجل الافتخار به لا لأجل الاقتداء به، وهو نوع من عبادة الهوى، فأبطل الباري عز وجل بهذا التوصيف هذه الفكرة الخاطئة في أذهانهم، والتي تقوم على أساس الانتفاء والاكتساب الافتخاري دون الاقتدائي، وبين أن العبرة في الافتخار ليس الانتفاء بل سلامة القلوب من العيوب الظاهرة والباطنة، والميل إلى الاستقامة، ثم وضع الضابطة لذلك وهو الاتباع، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَى

(١) لآلئ الأخبار: ج ٢، ص ١٤٩ - ١٥٠؛ ينابيع الحكمة: ج ٤، ص ٣١٥ - ٣١٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ^(١)
فالذين اتبعوه هم أولى من ينتسب إليه سواء كانوا من اليهود أو من النصارى؛
لأن العبرة بالاتباع لا بالانتماء، ولو اتبع اليهود والنصارى إبراهيم عليه السلام لما بقوا
على اليهودية والنصرانية، ولذا قال: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا من حيث
الكبرى، ثم عيّن الصغرى وبيّن المصداق الحقيقي لذلك، وهو رسول الله صلّى الله عليه وآله
والذين آمنوا به، فلا ينبغي أن يخدع اليهود والنصارى أنفسهم ويتمسكوا بما
هم فيه بعد إبطال الباري عزّ وجلّ مزاعمهم وإرشادهم إلى أن اتباع إبراهيم
يتم بالإيمان برسول الله صلّى الله عليه وآله واتباعه.

الصحابة والافتخار

وبهذه الضابطة يتعامل مع الذين ينتمون لرسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنّ بعض
الصحابة كانوا قد اتخذوا صحبة النبي صلّى الله عليه وآله تفاخراً، ولذا ما تعلموا من النبي
وظلّوا على أفكارهم ومواقفهم فكشف القرآن أن القضية ليست راجعة
للانتماءات والعصبيات، بل للاتباع والانقياد له، ولذا لا يمكن أن يكون
المسلم ماضياً على إسلام رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو يتبع غيره، ويخالف ما جاء به
النبي صلّى الله عليه وآله، والذين ينتمون لآل رسول الله صلّى الله عليه وآله فإنّهم يخضعون لذات المعادلة،
وهو أن الذي ينتمي إليهم ويقبلونه هو من يتبعهم لا مجرد ينتمي إليهم،
فالتابعون لهم هم أولى الناس بهم، وهم الذين يأتون بعدهم في المرتبة.

وأما الذين يخالفونهم في الكل أو في بعض المنهج فإنّهم يشركون بأعمالهم

ومعتقداتهم وأخلاقهم غيرهم معهم، فلا يمكن أن يكونوا مقبولين لديهم، والنتيجة تتبع أحسن المقدمات.

المهدي عليه السلام الأولي بإبراهيم عليه السلام

وقد تضافر في الأخبار أنَّ الأئمة عليهم السلام وأتباعهم هم أولى الناس بإبراهيم ^(١)، وفي رواية أبي خالد الكابلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿والله لكأني أنظر إلى القائم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى الحجر، ثم ينشد الله حقه، ثم يقول: يا أيها الناس! من يحاجني في الله فأنا أولى بالله. أيها الناس! من يحاجني بآدم فأنا أولى الناس بآدم. أيها الناس! من يحاجني في إبراهيم فأنا أولى بإبراهيم ^(٢) وبه تتم الحجة على جميع البشرية في أنَّه أقرب الخلق إلى الله وإلى سائر الأنبياء، فكل من يتبع الأنبياء - في أي شريعة كانت - ويحمل القلب السليم يتبعه، ولا يخالفه إلا المعاندون المحاربون، ولم يذكر موسى وعيسى عليهما السلام؛ لأنَّ أولويته بإبراهيم تكفي، وألويته عليه السلام أولوية المقام والرتبة، وهي أولوية الكُمَّلين، أما الذين يتبعونه فهم الاتباع، وألويتهم أولوية الاقتداء والاهتداء، وهو ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إن أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاؤوا به، ثم تلا هذه الآية، وقال: إن ولي محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته ^(٣)﴾.

(١) الكافي: ج ١، ص ٤١٦، ح ٢٠؛ انظر تفسير العياشي: ج ١، ص ١٧٧، ح ٦٤.

(٢) تفسير القمي: ج ٢، ص ٢٠٤.

(٣) انظر مجمع البيان: ج ٢، ص ٧٧٠، تفسير الآية ٦٨ من سورة آل عمران؛ البحار:

وفي أبي لهب مصداق جلي لهذه الحقيقة، ومنه يعرف أن العصيان نوع عداوة في العمل فلا ينبغي أن يغفل عنه.

الانتساب لآل محمد ﷺ

ولو اقتدى الاتباع اقتداء كاملاً بهم صاروا معهم في المكانة الروحية، واندرجوا فيهم وإن كانوا من أنساب متفرقة.

ففي تفسير القمي بسنده عن عمر بن يزيد قال: قال أبو عبد الله ﷺ: ﴿أنتم والله من آل محمد فقلت: من أنفسهم جعلت فداك؟ قال: نعم والله من أنفسهم ثلاثاً، ثم نظر إليّ ونظرت إليه - وكأته كان متحيراً مذهولاً - فقال: يا عمر! إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) أي حب الله ورضاه ينالان بالاتباع والاقتراء لا بمجرد الانتماء وهي العبادة الحقة.

وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادق ﷺ قال: ﴿من تولى آل محمد وقدمهم على جميع الناس بما قدمهم من قرابة رسول الله ﷺ فهو من آل محمد لتوليه آل محمد، لا أنه من القوم بأعيانهم، وإنما هو منهم بتوليه إليهم واتباعه إليهم، وكذلك حكم الله في كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾^(٣).

→

ج ٦٤، ص ٢٥.

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٨.

(٢) تفسير القمي: ج ١، ص ١٠٥، تفسير الآية المزبورة من سورة آل عمران.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥١.

وقول إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) ^(٢).

اللطيفة الخامسة: لماذا أفرد الضمير؟

أن الآية أفردت الضمير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهذا على خلاف الكثير من الآيات الشريفة التي تحدثت عن الخالق بلسان الجمع، كما في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٣) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾^(٤) إلى غير ذلك من الآيات، وقد يقال إن إفرد الضمير مخالف لأداب المحادثة؛ لأن الأدب يقتضي تعظيم العظيم، وذلك يتحقق بالجمع بخلاف الأفراد.

والجواب: أن ذلك صحيح في الجملة، ففي بعض الموارد يكون مقتضى التعظيم هو الإفرد لا الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾^(٥) وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٦) وقد أفرد الضمير هنا لوجود حكمتين بالغتتين:

الأولى: لكي يدفع شبهة الشرك في العبادة والاستعانة، وبيان أن لا يوجد

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢، ص ٢٣١، ح ٣٤؛ البحار: ج ٦٥، ص ٣٥، ح ٧٣.

(٣) سورة القدر: الآية ١.

(٤) سورة ق: الآية ١٦.

(٥) سورة طه: الآية ١٤.

(٦) سورة يس: الآية ٦١.

من يستحق ذلك إلا الواحد الأحد الذي يتصف بالربوبية والرحمة والمالكية.
 الثانية: أن المقام مقام بيان عبودية العبد ومعتقدة وفعله، ومقام العبودية يستدعي أفراد المعبود والانقطاع له، كما تشهد له الآيتان المتقدمتان في موسى عليه السلام وذرية آدم، بخلاف الموارد التي ورد فيها الضمير الجمعي، فإنه يقتضي ذلك؛ لأن الآيات تتحدث عن فعل الله سبحانه وربوبيته لخلقه، وهي تقتضي الجمع لا الأفراد لأسباب:

أحدها: تعظيم الباري عز وجل، وتنزيهه عن نواقص المخلوق.

ثانيها: بيان أن فعله منزّه من النواقص، لصدوره من جمعيّة الصفات الجمالية والجلالية.

ثالثها: الإشارة إلى وجود العلل التوسيطية في فعله تبارك وتعالى، ففعل العبد يقتضي الأفراد في العبادة والاستعانة، وفعل الرب سبحانه يقتضي الجمع. وهذه الحقيقة مما يُقرّها العقل أيضاً من جهة عدم وجود المقتضي للجمع، فإنّ العقل البشري يوجب على الإنسان الخلوّص في العبودية لمن أنعم عليه غاية الإنعام، ومنحه الوجود بعد العدم، والحياة بعد الموت، والكمال بعد النقص ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾^(١) وبعد ذلك خلق كل شيء لأجله ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢) وهو في مقام استفهام استنكاري؛ لأنّ الكفر مخالف للبديهة.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٩.

معنى الموت والحياة

الموت والحياة لهما معانٍ عديدة أذكر اثنين منها:

أحدها: العدم والوجود.

ثانيها: الموت الحكمي لا الحقيقي؛ لأنَّ الإنسان من حين الولادة لا إسم له ولا شهرة له عند الناس ثم يصير معروفاً مشهوراً له ملكات وقدرات يعرف بها، وينجز أعماله، ويحقق أهدافه، وكل ذلك لم يحدث من نفسه، بل من ربوبية الله الواحد الأحد، وأحوال العبد في الماضي والحاضر والمستقبل كلها تقوم بربوبيته. ففي الماضي نقله من العدم والموت والعجز والجهل الى الوجود والحياة والقدرة والعلم، وفي الحاضر دبّر أمره ورزقه وقضى حوائجه، وفي المستقبل يجازيه على أعماله ولا يدعها تفوت عليه دون جزاء، وهذا كله يقتضي الخلوص له، والخلوص يقتضي الوجدانية لا التعدد، فإنَّ الغير الذي يفترض أن يكون شريكاً لا يخلو إمّا أن يكون غنياً بذاته فيستحق العبودية كذلك، وأدلة التوحيد تبطله، أو فقيراً بذاته فبطل أن يكون شريكاً؛ لأنَّ الشراكة تقتضي المساواة في الصفات والأفعال، والفقير يباين الغني في كل شيء، فلا خلوص إلّا مع الوحدة والانفراد، فالعقل يقضي بعدم وجود كامل مطلق وغني من كل الجهات إلّا الله سبحانه، فيحكم بوجوب الخلوص له في العبادة.

دواعي العبودية والعبادة

فإنَّ دواعي العبادة والعبودية تعود إلى أحد ثلاثة:

الأول: الإقرار بوجود المنعم والنعمة، فالعقل يقضي بوجوب شكرها

٤٣٠ مايقوله القرآن في سورة الحمد

عبر إظهار الخضوع والتذلل له؛ لأنّ الشكر حسن، وجحود النعمة وكفرانها قبيح.

الثاني: حكمه بوجوب الحفاظ على النعمة ودوام حصولها، وقبح فعل ما يوجب انقطاعها وزوالها، فإنّ في ذلك ضرراً عظيماً يجب دفعه.

الثالث: حب الكمال والاكتمال الذي يوجب على العبد أداء حق ذي الحق، وقبح الجفاء بحقه وبخسه، فإذا أراد العبد أن يعبد من جهة شكر النعمة فلا منعم إلّا هو، وإذا أراد أن يعبد من جهة تحصيل دوام النعمة فهو الرحيم المطلق الذي وسعت رحمته كل شيء، وإذا أراد أن يعبد من جهة أداء الحق فلا حق أعظم من حقه على العبد، فدواعي الخلوص والتقرب بالعبودية مجتمعة فيه، فلا وجه لضمير الجمع.

اللطيفة السادسة: العبودية والإنسانية

بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يقرر لنا الباري عزّ وجلّ بعداً عظيماً في الحياة على أساسه يقوم كمال الإنسان ونقصه وسعاده وشقاؤه وإنجازاته وإحباطاته، وهو أن الإنسان يكون إنساناً بالعبودية لربه، ويكون حراً إذا التزم بهذا المبدأ وتعامل على أساسه، فإن العبودية حقيقة ملازمة للبشر لا ينفكون عنها، وهي قسمان متضادان لا يخلو الوجود منهما، العبودية لله سبحانه والعبودية لغيره، والإنسان إما يكون مع الأول فيتحرر من الثاني، أو ليس معه فيقع في الثاني.

مزاي العبودية لله سبحانه

والفرق كبير بين القسمين، فإن العبودية لله سبحانه تتسم بثلاث مزايا:

الأولى: أنها تقوم على الحق والاستحقاق.

الثانية: أنها تقوم على العدل.

الثالثة: أنها تقوم على الحرية.

بخلاف العبودية لغيره فإنها تقوم على الباطل والظلم والاستعباد.

فإن العبودية لله سبحانه ناشئة من ربوبيته وإنعامه وخيره الذي يغمر الإنسان في أصل وجوده وفي ديمومته، فكل ما للإنسان من الله سبحانه وليس من نفسه، وهذا مقتضى العدل، فإن إعطاء الحق لصاحبه هو العدل، وإنكار ذلك وجحوده ظلم، فالعبودية لله الوحيدة التي تعز الإنسان وتكرمه، وبها يتحرر الإنسان من العبوديات التي تذله وتكسيه بكل الألوان القبيحة.

والعبودية لله سبحانه تجعل الإنسان معطاءً، والعبودية لغيره تجعله محتكراً أنانياً، والعبودية لله سبحانه تجعله محباً لغيره، مؤثراً على نفسه، متواضعاً في نفسه ومع الناس، والعبودية لغيره تجعله متكبراً مغروراً جباراً يحطم غيره ويفنيه لأجل أن يبقى هو، والحرية مع الله عز وجل تجعله كريماً مهذباً منضبطاً بالقيم، مسؤولاً في أقواله وأفعاله ومواقفه، والحرية مع غيره تجعله طائشاً فوضوياً منحللاً عن القيم.

ولو نظرنا إلى العالم اليوم نجد الفرق الكبير بين الاتجاهين، الفوضي

والدمار والاستعمار والاستغلال والحروب والفساد والانحلال الذي يحكم العالم بسبب انفكاكه عن الله تعالى ورسوخ العبودية لغيره.

تناقضات الفلسفة الوجودية

فقد كانت في الأزمنة السابقة فلسفة خاطئة تسمى الوجودية، وزعيمها شخص اسمه جان بول سارتر. كانت تقوم على مبدأ أن كل فرد من أفراد الإنسان هو في عزلة واستقلال عن غيره، وأنه لا شيء بالنسبة إليه إلا وجوده وحده، ولا يتحقق له وجود إلا إذا انطلق مع حريته دون قيد أو شرط.

كما يزعم أن الدين والمبادئ والمعايير والقيم كلام فارغ، فلا خير إلا خير الفرد نفسه، ولا شر إلا شره بالذات، ويستدل على ذلك بأن الإنسان أتى من عالم مجهول، ويذهب إلى عالم مجهول، وأنه وجد قبل القوانين العقلية والدينية، ومن استسلم لدين من الأديان أو لمبدأ من المبادئ فقد قيد نفسه، وتنازل عن حريته، وبالتالي عن وجوده^(١).

والكثير من زعماء العالم اليوم ومن يملك القرار النهائي فيه يعمل بهذه الفلسفة من حيث السياسات والمواقف وإن لم يصرحوا بذلك، والواقع الذي تعيشه البشرية في مختلف المجالات شاهد على الأنانية والجشع والاحتكار وعبودية المادة والتحرر من القيم الدينية والأخلاقية والضوابط العقلية.

وحينما نحلل هذه الفلسفة نجد أنها تقوم على تناقضات كثيرة.

أولاً: الإنسان لم يأت من مجهول بل من معلوم، ولم يذهب إلى مجهول بل

(١) انظر تفسير الكاشف: ج ١، ص ٣٤، الهامش (١).

إلى معلوم، وما بنيت عليه هذه الفلسفة لم تؤخذ من الأديان السماوية، بل من أوهام وظنون البشر، فالإنسان من الله تعالى وإلى الله تعالى، وفي مسيرته يقوم على ربوبية الله تعالى وقوانينه وأحكامه.

ثانياً: أن المزاعم بأن الدين والمبادئ تعبد الإنسان خطأ فاحش؛ لأن الإنسان بالدين لم يفقد حريته، بل ينظمها ويصيرها حرية مسؤولة في المعقول، والتحرر من ذلك يصيرها حرية في اللامعقول، ويوقعها في الأنانية والعبودية المذلة.

ثالثاً: أن الإنسان ليس في عزلة ولا استقلال، وخطأ يزعم بأنه لا شيء إلا وجوده، ولذلك نلاحظ أن الإنسان يضحي بوجوده لأجل دينه ومعتقد، أو لأجل عرضه وأرضه، أو لأجل أهله وأولاده.

ف فوق الإنسان قيمة أعظم هي الروح والقيم المعنوية، وفوقها قيمة أعظم هي قيمة الدين، وفوقها قيمة أعظم هو الله سبحانه، والتضحية لأجله هي العبودية الحقيقية والحرية الحقيقية، أما حب الأنا والعزلة فليست إلا عبودية للضياع والانحدار بالإنسان، فالفلسفة المزعومة باطلة في مبدئها وفي دليلها وأثرها.

ولا مخلص للإنسان من مثل هذه الفلسفات التي جنت على البشرية، وحطمت السعادة فيه، وسلبت من أبنائها الفرحة إلا بالعبودية لله سبحانه، فإن لم يتعبد العالم لله سبحانه يقع في العبودية للباطل والضلال، وهل بعد الحق إلا الضلال؟

اللطيفة السابعة: أصول النعم الإلهية

إن العبادة بمعناها الحقيقي لا يعقل أن تكون لغير الله سبحانه؛ لأنها ضرب من الشكر والخضوع بأعلى المراتب، والله سبحانه يستحق الشكر والخضوع بأعلى مراتبه بأصول النعم، وهي أربعة: الوجود والحياة والقدرة والشهوة، وإنما وصفناها بالأصول لأن كل النعم الأخرى تعود إليها، وهذه جميعاً لا يقدر عليها غير الله سبحانه، فلذا اختصت العبادة به، ولا ينفك عن ذلك أحد حتى من يحجده ويلحد به فإنه خاضع له مقر في ذات وجوده بأنه مملوك خاضع لربوبيته.

وليس كل شكر وخضوع وطاعة تبلغ مقام العبودية، فإن العباد يشكر بعضهم بعضاً، ويخضع بعضهم لبعض، ويطيع بعضهم بعضاً، ولكن كل ذلك ليس من العبودية، ولذا نصت الآيات على أن كل السماوات والأرض وما فيها وما بينهما عابد ساجد له.

أركان العبادة

وبهذا المفهوم تختلف مراتب العابدين، فإن العبادة تقوم على ثلاثة أركان هي: العابد والمعبود وعمل العبادة، والركن الأساس فيها هو المعبود، وأما الركنان الآخران فيعودان له، فإن العابد يطلب القرب من المعبود وأداء حقه وشكره، والعمل العبادي وسيلة التقرب والاتصال بالمعبود، فالغني المطلق في العبادة والمقصود أولاً هو المعبود، فإن تمحض له العبد وانقطع إليه كان عابداً، وإذا رأى نفسه في مقابل ربه أو رأى منفعة وطمعاً في عبادته وقع في بعض مراتب الشرك؛ لأنه أشرك مع الله تعالى غيره، ولا تكون

العبادة خالصة لله تعالى إلا إذا أفنى العبد كل الأطماع والرغبات ومحضها بالحب والشكر، وهو ما قاله آل محمد عليهم السلام لما أطعموا الفقير والمسكين والأسير، وتحملوا عناء الجوع ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾^(١).

ومن هنا قدمت الآية (إِيَّاكَ) على (نعبد) و (نستعين) للإشارة إلى حقيقة العبودية التي لا تكون إلا بالنظر إلى المعبود دون العابد، وكررها للإشارة إلى أن العبودية الحقيقية تتقوم بتمحض العبودية والاستعانة به، فلو خضع العبد له وطلب الاستعانة من غيره أو استعان بغيره لم يكن خاضعاً له، خاضعاً لغيره، فلا تتمحض العبودية إلا بتمحض الاستعانة به.

كما قدم العبادة على الاستعانة؛ لأن القاعدة عقلاً أن الحقوق تقوم على العطاء والأخذ، فلا بد أن يقدم العبد ما لديه لينال ما يريد.

اللطيفة الثامنة: أقسام العناية الإلهية

إن إعانة الله سبحانه لعباده شاملة ولا تختص بجانب دون جانب، ويمكن تقسيمها بأقسام:

أحدها: إعانة التسخير، بأن يسخر له الأسباب لتحقيق أغراضه، كالرزق الذي بوصله لكل إنسان في يومياته، فإن التاجر والكاسب والبائع المتجول وصاحب الفندق وسائق التوكسي وكل من يخرج صباحاً إلى رزقه من الذي يوصل إليه رزقه؟ ففي السوق المحلات كثيرة جداً، فمن الذي

(١) سورة الإنسان: الآية ٩.

يأتي بالمشتري إلى هذا المحل دون ذاك؟ وفي بعض الأسواق الناس يزدهون عليه وغيره يبيع نفس البضاعة وبنفس السعر لكن الذين يأتونه قليلون لماذا بعض المحلات يرزق يومياً ما يعادل عشرة أضعاف أو أكثر ومحل آخر لا يحصل إلا على اليسير؟ من الذي فعل هذا؟

لا شك أن الأسباب الطبيعية مؤثرة، ولكن إذا لوحظ أن الأسباب واحدة بينهما وأحدهما مرزوق والآخر أقل قد يكون السبب هو الاستعانة عند المرزوق أقوى، وليس بالضرورة أن تكون الاستعانة بالقول، بل بالشعور والالتفات القلبي يتحقق واقع الاستعانة.

وثانيها: إعانة الإلهام والتلقين، فيلقن العباد ما ينفعهم ويهديهم إلى مصالحهم، انظر مثلاً إلى الإنسان وهو جنين، ثم وهو وليد، ثم وهو إنسان كامل، فمن يلهم الجنين كيف يتغذى ويتقلب في رحم أمه، ويدرك صوتها وصوت أبيه؟ وإذا ولد من يلهمه كيف يرتضع ويعرف مصدر رضاعه، ويحس بقلب أمه ودفعها وصدرها، وإذا تغير عليه ربما لا يقبله، وربما يستوحش فيبكي، فإن حضرت أمه عنده استقر وسكن؟ من علمه وألهمه؟ وإذا كبر وشب علمه النطق والتفكير والاعتبار فألهمه الخير والشر والحسن والقبح. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(١).

طرق المعرفة

وقد خصص هذه المذكورات بالذكر لأن طرق المعرفة البشرية ثلاثية: هي الحس والنقل والعقل، والأول يتم بإدراك المحسوسات، وأولها العين وما يبصره الإنسان ويراه يتعلم منه، وبه يعرف الأشكال والألوان والأحجام.

والثاني النقل يتم بالنطق والبيان، والنطق يلازم السمع؛ لذا لم يذكر السمع والسماعة؛ لأن امتلاك اللسان والشفيتين كاشف عن وجود من يسمع ويفهم.

والثالث هو العقل والتفكير، وقد عبر عنه بـ ﴿هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، والنجدان هما سبيل الخير وسبيل الشر، والهداية هنا ليست إرائية لاستلزامها تحصيل الحاصل؛ لأن رؤية العين والسمع هداية إرائية، وإنما هي هداية إيصالية، أي توصل الإنسان إلى الحقائق والنتائج وتكون بالعقل.

مقدمات الفكر

وتتم بثلاث مقدمات هي: المحسوسات والمنقولات وفهم الترابط بين الأشياء بالملازمات والأمثال والأضداد، ولذا يقال: إن الأشياء تعرف بأمثالها وأضدادها وبملازماتها، والحياة البشرية تقوم على فهم هذه الحقائق، ولذا تقوم قوانين الشرع والقوانين العقلائية على فهم الملazمات والأشباه والنظائر، ولا يحتاج المشرع أن يفصل في البيان، فمثلاً:

الأحكام العقلية بالطاعات

إن الباري عزَّ وجلَّ حيث أرسل الأنبياء للبشر لهدايتهم إلى الصراط المستقيم لا يحتاج إلى أن يأمرهم بإطاعتهم؛ لأن إرسالهم من الله سبحانه هو دليل على وجوب الاستماع والاتباع لهم، وهذا ما تدركه العقول بلا حاجة إلى بيان.

وإذا أرسل الملك مبعوثاً من قبله ليبلغ شعبه بقرار أو تعليم فإنه لا يحتاج إلى أن يصدر لهم أمراً آخر يأمرهم بإطاعة المبعوث؛ لأن كل عاقل يدرك أن مبعوث السلطان كالسلطان واجب الطاعة؛ لأنه يبلغ أمر السلطان.

ولما أمر الباري عزَّ وجلَّ الناس بالحج فإنه لا يحتاج إلى أن يأمرهم بالدخول في حملة وتهيئة مقدمات السفر؛ لأن الأمر بالحج هو أمر بكل ما يتحقق به الحج، وهذه مفاهيم تدركها العقول.

والسؤال من الذي صيّر العقول هكذا ترى وتبصر وتحكم وتأمر وتنهى وتلزم أهلها بالطاعة والعمل؟ ومن الذي ألهم الإنسان كيف ينطق ويتكلم بلسانه وشفتيه، ويطبق شفتيه بالنحو الذي يناسب الكلام؟ لأن اللسان وحده ليس هو آلة النطق، بل آله اللسان والشفتان معاً، فالذي لا يملك شفيتين يعجز عن الكلام، والذي يملك الشفتين ولا يستطيع التحكم بلسانه لا ينطق كالأخرس، فكل ما لدى الإنسان من أدوات للمعرفة وذات المعرفة تتم بإعانة واستعانة من الله سبحانه، ولولاه لعجز وكان جاهلاً كالخشب والحديد لا يدرك ولا يفهم ولا يعلم.

إن قلت: إن هذا يتنافى وقول العدلية بالمستقلات العقلية، وأن العقل

بنفسه يرى ويحكم.

فالجواب: كلا؛ لأنهم يريدون به أن العقل يحكم في المستقلات ويكون حجة على الإنسان، فلا يحتاج بعده إلى أمر ونهي شرعي مولوي، بل العقل وحده كافٍ لبعث العبد نحو العمل، ولا يريدون أن العقل يملك قوة الإدراك من دون الله سبحانه، فإن العقل وقواه المدركة وعينه التي يرى بها وسلطته التي يأمر بها ويحكم كلها من الله سبحانه، وهذا ما يجب أن يعرفه العبد، وهو أن كل ما لديه ليس من نفسه بل بإعانة من ربه.

وثالثها: إعانة الإثثار والإنجاز، فإن الإنسان قد يتعلم الفنون والمهارات، ويسعى لتحقيق الإنجازات، ولكن ليس هذا وحده سبب حصول النتائج، بل لا بد من إزالة الموانع، وهذه نفسها تتوقف على إعانة بدليل تفاوت الناس في ذلك، فبعضهم قد يتبعون ذات الأسباب ولا تحصل النتائج وغيرهم يحصلون.

اللطيفة التاسعة: مراتب العابدين

إن صيغة الجمع في العبادة تفيد الانحلال على مراتب العبادة ومراتب العابدين، وعمدتها خمس:

الحاجة والفقر

الأولى: مقام المربوبين، بأن يعرف العبد نفسه، وأن أعظم صفاته هو أن يعلم أنه مربوب فقير ومحتاج في كل ذرة من ذرات وجوده، ولا يليق به سوى الخضوع والاستكانة لربه وخالقه، وأن كل ما لديه من صفات

وأفعال هي من ربه وليست من نفسه، فليس له سوى أنه مربوب فقير محتاج إلى ربه، وأن الخضوع والاستكانة لا يليقان إلا لربه الذي يستحق الحمد والإقرار به الكيته لكل شيء، وهذا المقام هو الذي ينتج التوحيد في الدعاء والاستعانة، ويجعل العبد في جميع الأحوال متواضعاً، ويقطع أمله وتوقعه من الناس، فلا يطلب إلا من الله سبحانه، ولا يستعين إلا به، فكيف يسأل الفقير فقيراً والمحتاج محتاجاً؟ وبهذا يبلغ أهل القلوب والمقامات، وينالون درجة الاصطفاء الخاص، وبه يعلم الباري أنبياءه.

لماذا صار موسى كلياً؟

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: أن يا موسى أتدري لم اصطفتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب ولم ذاك؟ قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا موسى إني قلبت عبادي ظهراً لبطن، فلم أجد فيهم أحداً أذل لي نفساً منك. يا موسى! إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب﴾^(١) أي بتواضع القلب والنفس.

وفي حديث آخر: ﴿لم أر في خلقي أشد تواضعاً منك﴾^(٢).

وأوحى الله عز وجل لداود: ﴿إن أقرب الناس من الله المتواضعون، وأبعد الناس منه المتكبرون﴾^(٣).

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٢٣، ح ٧؛ البحار: ج ٧٢، ص ١٣٠، ح ٢٩.

(٢) البحار: ج ١٣، ص ٣٥٧، ح ٦١.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ١٢٣، ح ١١.

علامات التواضع

وللتواضع علامات عيَّنها الإمام الرضا عليه السلام لما سأله الحسن بن الجهم: ما حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فقال: ﴿التواضع درجات. منها: أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم، لا يجب أن يأتي إلى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه. إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ، عافٍ عن الناس، والله يحب المحسنين﴾^(١).

أي يعمل بالإحسان الدائم إلى الخلق بأصنافهم كافة من الحيوان والنبات والجماد، لا سيما خدمة العباد، فقد ورد أن عيسى بن مريم عليه السلام قال للحواريين - يريد تعليمهم - لي إليكم حاجة اقضوها لي، فقالوا: قضيت حاجتك يا روح الله، فقام فغسل أقدامهم، فقالوا: كنّا أحق بهذا منك، فقال: إن أحق الناس بالخدمة العالم، إنما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم، ثم قال عيسى عليه السلام: ﴿بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر، وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل﴾^(٢) لأن الجبل شامخ عالٍ صلب، والسهل متواضع يسير، فأول الاصطفاء في المقامات المعنوية التواضع الشامل الذي يعيشه العبد في نفسه أمام ربه ثم إلى الناس.

(١) الكافي: ج ٢، ص ١٢٤، ح ١٣.

(٢) الوسائل: ج ١٥، الباب ٣٠ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ص ٢٧٦، ح ٢٠٥٠٤.

الخشوع والخضوع

الثانية: مقام الخاشعين، ومحله القلب، وتظهر آثاره على الجوارح، فأثره في العين بغض البصر عن الحرام والقبيح وما لا يعنيه، وفي الرأس بإطراقه، وفي الصوت بغضه وطول السكوت، وفي الصدر بحسن الظن ومحبة خلق الله سبحانه وبغض أعدائه، وفي اليد بالمساعدة على الخير، وفي الرجل بالسعي إلى قضاء حوائج الناس لأجل الله سبحانه، ففي حديث المعراج: ﴿يا أحمد! ما عرفني عبد وخشع لي إلّا وخشعت له﴾^(١) وخشوع العبد لربه خضوعه له، وفرق الخشوع عن الخضوع أن الخشوع في البدن والبصر والصوت والخضوع البدن^(٢)، ولا يمكن أن يخشع البدن إلّا بخشوع القلب، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ليخشع الله سبحانه قلبك، فمن خشع قلبه خشعت جميع جوارحه﴾^(٣).

أما خشوع الباري عزّ وجلّ للعبد فهو الإقبال عليه والاستجابة لدعائه حسب قاعدة خذ الغايات واترك المبادئ.

وإذا حصل الخشوع في القلب ظهرت عليه الحكمة وتجلت المعارف؛ لأن الخصب والإثمار ملازمة للخشوع. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا

(١) البحار: ج ٧٤، ص ٢٧، ح ٦.

(٢) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٣٢١ (خشع)؛ معجم الفروق اللغوية: ص ٢١٦، (٨٥٤).

(٣) الغرر: ص ٥٤٨، ح ٥٢؛ تصنيف غرر الحكم: ص ٦٧، ح ٩٠٧.

لَمُنِّهِ الْمَوْتِ^(١) وفي آية أخرى: ﴿وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ^(٢)﴾ سواء كانوا موتى الأجساد أو موتى القلوب أو العقول أو الضمائر، فإن قابلية إحيائها تنشأ من الخشوع، وأما الغرور والتكبر فلا يلزمه إلا الجهل والحرمان والانحطاط.

وجمع من المفسرين فسروا ﴿خَاشِعَةً﴾ بالجرءاء اليابسة التي لا زرع فيها؛ لأن الأرض خلقت للزرع، فإذا خلت منه صارت حزينة ساكنة؛ لأنها لم تصل إلى الغاية وهو النبت.

ولعل الأصح أن تفسر ﴿خَاشِعَةً﴾ بالمستعدة للنبت في مقابل الأرض الصلدة والجبلية التي لا تصلح للإنبات، وهذه حالة القلوب، فإن بعض القلوب كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يسقط من خشية الله تعالى، ومنها ما يتفجر منها الأنهار، وهكذا هي قلوب أهل العناد لا تكون أرضاً طيبة لإنبات المعارف والكمالات، فلا تلين القلوب للنور الإلهي إلا إذا خشعت وكانت مستجيبة لربها.

امتحان القلوب

الثالثة: مقام المنقادين، أي المنقادون لأوامر الله سبحانه ونواهيه الواصلة إليهم عبر أوليائه الطاهرين عليه السلام، وهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ

(١) سورة فصلت: الآية ٣٩.

(٢) سورة الحج: الآية ٥.

اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَى ﴿١﴾ .

مراتب غض الصوت

وغض الصوت يصدق على ثلاثة معان:

أحدها: أن لا يرفعوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ في حديث من أحاديث الدنيا أو خصومة ونزاع بينهم.

ثانيها: أن لا يجعلوا لأنفسهم رأياً في مقابل النبي ﷺ، لا في العقيدة ولا في الأحكام ولا الأخلاق ولا سائر الأشياء، ولا يجتهدوا مقابله كما كان بعض الصحابة يفعلون، فإن الصوت يطلق عرفاً على الرأي أيضاً، ولذا في الانتخاب يعبرون عن الآراء بالأصوات.

ثالثها: أن لا يرفعوا أصواتهم في أي وقت ومكان فضلاً عن آرائهم؛ لأنهم في محضر رسول الله ﷺ، وأعمالهم تعرض عليه، وهذا أعلى المراتب، ولذا وصفهم بالذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي تقواهم ليست ظاهرة، وتراعي الموازين في الظاهر، ولم تنهذب نفوسهم ليكونوا كذلك في الخلاء والوحدة.

الانقطاع إلى الله تعالى

الرابعة: مقام العابدين، أي الذين ينقطعون إلى ربهم فلا يرون غيره، ولا يقصدون سواه، ولا يجدون لأنفسهم شيئاً إلا هو، وهو ما أشار إليه حديث الإمام الصادق عليه السلام إلى عنوان البصري. قال: ﴿وحقيقة العبودية ثلاثة

أشياء: أن لا يرى العبد فيما خوّله الله سبحانه ملكاً؛ لأن العبيد لا يكون لهم ملك، بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوّض العبد تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرّغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله تعالى العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا وإبليس والخلق، ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب عند الناس عزاً أو علواً، ولا يدع أيامه باطلة، فهذا أول درجة المتقين^(١).

اللجوء والتوكل

الخامسة: مقام المستعينين، وهم الذين لا يلجؤون إلا إليه في عظام الأمور وصغائرهما، وهم على دوام الاستفاضة والاستعطاء منه، وهو مقام المتوكلين، ففي رواية علي بن سويد عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٢) فقال: «التوكل على الله درجات. منها: أن تتوكل على الله تعالى في أمورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أن الحكم في ذلك

(١) البحار: ج ١، ص ٢٢٤، ١٧؛ الكشكول (للشيخ البهائي): ج ٢، ص ١٨٤؛

مجمع البحرين: ج ٣، ص ٩٦، (عبد).

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه. وثق به فيها وفي غيرها^(١) وقوله: (لا يألوك) يرد بمعنى لا يمنعك، وبمعنى لا يقصّر في حقك، وعلى الأول يفيد أن كل خير وفضل يطلبه العبد يعطيه إياه، وعلى الثاني أن يعطيك كل ما ينفعك بفضل وخير منه.

درجات التوكل

وقوله: ﴿التوكل على الله درجات﴾ يفيد أنها عديدة، وقد ذكر علماء الأخلاق ثلاث درجات له:

الأولى: أن يكون حاله في حق الله سبحانه والثقة بعنايته وكفالاته كحاله بالثقة بالوكيل، وهي أضعف الدرجات، والكثير من الناس يملكونها.

الثانية: أن يكون حاله مع الله سبحانه كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفرع إلا إليها، ولا يعتمد إلا عليها، فإن رآها تعلق بأذيالها، وإن ورد عليه أمر في غيبتها كان أول ما سبق في لسانه يا أمّاه، ويملكها الخواص.

والثالثة: أن يكون بين يدي الله سبحانه في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل، بأن يرى نفسه ميتاً وتحركه القدرة الأزلية كما يحرك الغاسل الميت، وهذه أعلى الدرجات، ولا يصلها إلا خواص الخواص، وتختلف عن سابقتها أن السابقة قد يستعين المتوكل بالدعاء والتوسل،

(١) الكافي: ج ٢، ص ٦٥، ح ٥؛ الوسائل: ج ١٥، الباب ١١ من أبواب الجهاد وما يناسبه، ص ٢١٣، ح ٢٠٣٠٧.

ويبحث عن سبل الاتصال بربه كما يفعل الصبي بأمه، وفي هذه الرتبة الثالثة يعيش كل أوقاته ولحظاته في كنف ربه، واثقاً بكرمه وعنايته، ومسلماً لما يرد عليه من نوازل، ولعل هذه هي التي عاشها إبراهيم الخليل عليه السلام لما وضع في المنجنيق ليرمي به في النار، وسأله الملائكة أن تنجيه إن طلب ذلك منها. قال: ﴿حسبي من سؤالي علمه بحالي﴾^(١) وهذه هي مرتبة الصديقين، وربما تلازم العبد في بعض الأمور، وإذا صارت في جميع الأمور بلغ العبد مرتبة التفويض، وصار من المفوضين، وهي مرتبة فوق التوكل كما يستفاد من الأخبار^(٢).

اللطيفة العاشرة: مراتب الاستعانة والعبادة

إن الاستعانة تلازم العبادة، بل هما وجهان لحقيقة واحدة، سوى أن الاستعانة فيض نازل والعبادة عمل صاعد، فكما أن العباد والعبادة درج درجات كذلك الاستعانة وأهلها، وتتلخص في ثلاث مراتب:

الأولى: استعانة النصر، وهي أن ينجز الإنسان أعماله وما يريد، ويطلب العون من الله سبحانه على ذلك، وهذه أولى المراتب، وأكثر الناس يعملون بها، كالأصيل الذي يتخذ وكيلاً لإنجاز مهامه، والولد البالغ حينما يتحمل مسؤولياته ويستعين بوالده كناصر ومعين، وفيها يرى الإنسان لنفسه قدرة واستطاعة لكنها ناقصة فيتنصر بغيره.

(١) انظر جامع السعادات: ج ٣، ص ١٨٠، (بتصرف).

(٢) انظر البحار: ج ٦٧، ص ١٣٥، ح ١٣؛ الكافي: ج ٢، ص ٥٢، ح ٥.

الثانية: استعانة الولاية، بأن لا يرى العبد لنفسه قدرة أو حولاً أو قوة، وإنما كله تحت ولاية وليه يفعل به كما يشاء، ويكون نظير الولد الصغير الذي يتولاه والده بكل شؤونه، ويعبر عنها باستعانة المتوكلين.

الثالثة: استعانة التفويض، وهو الذي يسلم أمره الله سبحانه، ويرضى بكل ما يقسمه له، ولا يرى نفسه شيئاً حتى يجد وكلاً أو ولياً، بل لا يرى إلا ربه يقلبه كيف يشاء. قال تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

فالذي يعترف بأن الله سبحانه يرى ويحيط علماً بعبد لا يحتاج إلى أن يصرخ وينادي أعني؛ لأن المستعين إذا وجد لنفسه وجوداً يطلب الإعانة، أما الذي لا يجد ذلك في نفسه إلا من ربه فليس له إلا الحضور الدائم في محضر الرب تبارك وتعالى.

(١) سورة غافر الآية: ٤٤.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة



وهي عديدة:

التعليم الأول: اجعل حياتك محراب عبادة

العبادة أوجب حق الله عزَّ وجلَّ على خلقه، وهي مفتاح كل مقام ورتبة يبلغها المقربون والأنبياء والأولياء وصالحو المؤمنين، وهي العلاقة الكاملة الدالة على أدب الإنسان وكماله وسمو فكره وخلقته، وأول كلمة إذا نطقها الإنسان دخل في عقيدة التوحيد، وأول حكمة إذا نطقها دخل في الإسلام، وهي أول كلمة إذا نطقها دخل في الإيمان، وهي (أشهد) فيقول: (أشهد أن لا إله إلا الله) و: (أشهد أن محمداً رسول الله) و: (أشهد أن علياً ولي الله) وأشهد تعني إظهار الشهادة والإقرار بهذه الحقيقة والتصديق بها والإذعان لها، مأخوذة من الشهود أي الحضور إما بالبصر أو بالبصيرة، والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر، وعالم الشهادة يقابل عالم الغيب لأنه يدرك بالبصر^(١)، والشهيد يقال له ذلك لأنه في البرزخ يحضر الأشياء ويراها ويعيشها.

(١) مفردات الراغب: ص ٢٦٧، (شهد) ؛ معجم الفروق اللغوية: ص ٢٩١، (١١٦٤) ؛ مجمع البحرين: ج ٣، ص ٨١، (شهد) ؛ المعجم الوسيط: ج ١، ص ٤٩٧، (شهد).

فمبدأ العبادة الإقرار لله سبحانه بالوحدانية، وللنبي ﷺ بالنبوة والرسالة، ولأمر المؤمنين ﷺ بالولاية، ويجب إظهارها بالقول المطابق للاعتقاد لتكون صادقة، وإلا كانت كذباً ونفاقاً، وبذلك يتميز المؤمن من المنافق، وعلى حسب مراتب التصديق تختلف مراتب أهل الإيمان، ولذا يقسمون إلى مسلمين ومؤمنين ومتقين وصادقين، والصادقون هم الذين يجعلون العبادة لباسهم في كل جوانب حياتهم.

العبادة الخاصة والعامة

والعبادة قسمان: العبادة الخاصة وهي التي أوجبها الله سبحانه على العباد، ويؤاخذهم على تركها كالصلاة والصيام، والعبادة العامة وهي كل عمل يؤديه الإنسان فينويه لله سبحانه، أو يؤديه لأن الله يحبه، وهذه الثانية أعظم من الأولى، وأكثر أثراً؛ لأنها تشتمل على العبادة الخاصة وزيادة، وبها تتحول شخصية الإنسان إلى عابد، وحياته إلى محراب للعبادة، وأعماله إلى مراسم عبادية، يشهد لهذه الحقيقة آيتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) فنصت على أن العبادة غاية خلق الإنسان، والغاية هي ضابطة النجاح والفشل في كل شيء، فإذا تحققت الغاية كان النجاح، وإذا تخلفت كان الفشل، ومعنى ذلك أن الإنسان الكامل هو الذي يحقق هذه الغاية ولا يخرج عنها، فإذا خرج عنها كان فاسقاً بالمعنى اللغوي، أي خارجاً عن النهج، انظر إلى

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

الطالب الذي يطلب العلم لأجل أن يكون عالماً، فإذا بلغ المطلوب كان ناجحاً وإلا كان فاشلاً.

هل ينتفع الله بالعبادة؟

إن قال قائل: وهل الباري عزَّ وجلَّ محتاج إلى عبادة الإنسان حتى يجعلها غاية خلقه؟

فالجواب: كلا. إن فائدة هذه الغاية لا تعود لله سبحانه؛ لأنه غني عن الخلائق، وإنما تعود إلى الإنسان نفسه؛ لأن الإنسان لا يصل إلى كماله وسعادته إلا بذلك، ونقربه بمثال الأب الذي يودع ولده الصغير في المدرسة، ويفرض عليه التعلم، فمن المستفيد من هذه الغاية؟ إنه الولد، لكنه قاصر عن درك هذه الفائدة العظيمة، فإن الأب يجدها غاية له ويدخله المدرسة وينفق عليه لأجل أن يتعلم ويرتقي، فليس من شروط الغاية أن تعود فائدتها إلى صاحب الغاية، بل قد تكون إلى المغيا نفسه، والله سبحانه خلق الإنسان لأجل العبادة، ولا يريد من ذلك إلا مصلحة الإنسان نفسه، فإن استجاب لربه نجا ونال الدرجات، وإن تخلف خسر؛ لذا يصرح الباري عزَّ وجلَّ بأن أهل الأرض جميعاً إذا كفروا فإنه غني عنهم، لكنه أمرهم بالعبادة لمصلحتهم، وهو لطف ورحمة إلهية عظيمة، فيقول تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١) ووصف نفسه بالحميد لأن البشر قد يتصور أن بعبادته يحمد الله، وأن الله سبحانه

(١) سورة إبراهيم: الآية ٨.

محتاج إلى حمده وثنائها. كلا إنه حميد في ذاته حمده الإنسان أم لا، كما أنه غني في ذاته عبده الإنسان أم لا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١) والمراد باليقين العلم الذي لا شك معه^(٢)، وقيل هو العلم بالحق مع العلم بأنه لا يكون غيره^(٣)، وإنما وصف الموت باليقين لأنه معلوم بالإدراك الحسي والوجدان، ولا يشك أحد فيه.

اليقين غاية العبادة

والأمر بعبادة الرب حتى يأتي اليقين يدل على ثلاث حقائق هامة:

الأولى: أن العبادة طريق الوصول إلى اليقين ونفي الشك.

الثانية: أن الربوبية علة العبودية، فلا يستحق العبادة إلا الرب، وأما غير الرب من أصحاب النعمة كالأب والمعلم فيستحقون الطاعة لا العبادة، وكذلك النبي والإمام عليهما السلام، لهما حق الطاعة، أما العبادة فمختصة بالله تعالى.

الثالثة: أن اليقين هو الذي يأتي للعابد وليس العابد من يصل إليه؛ لأنه يأتي بالإفاضة الإلهية، فما يقوله الصوفية والعرفاء وأمثالهم من السعي للوصول إلى المقاصد إن أرادوا أنهم يصلون بأنفسهم وبأعمالهم فهذا غير صحيح، وإن أرادوا تهية الاستعداد النفسي لكي يفيض عليهم الباري عزَّ

(١) سورة الحجر: الآية ٩٩.

(٢) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ١٠٦٦، (يقن)؛ مفردات الراغب: ص ٥٥٢، (يقن).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص ٣٧٤، (١٥٠٩).

وجلّ نعمة اليقين فهو وجهه، ويتوقف على شروط ثلاثة:

الأول: أن يكون ما يعمل به عبادة، ولا يكون العمل عبادياً إلا إذا ارتضاه الرب تبارك وتعالى.

الثاني: أن يأتي بالعمل بداعي العبودية لا بداعي الوصول إلى اليقين؛ لأن العبادة لا تكون كذلك إلا إذا كانت خالصة لله سبحانه وحجاً به وأداءً لحقه، فإذا تضمنت غاية أخرى يطلبها الإنسان فهي ليست عبادة بالمعنى المعرفي وإن كانت عبادة بالمعنى الفقهي، والأولى أن تسمى طاعة لا عبادة.

الثالث: أن يستمر في عبادته ولا ينقطع عنها لمكان (حتى)، فإن العبادة لا تتحقق إلا بالدوام، فلو انقطعت خرج العبد عن العبودية، ويصبح عابداً للشيطان شاء أم أبى، وبه تبطل نظرية بعض الصوفية بأن الواصل تسقط عنه العبادة، ويعززه تفسير اليقين بالموت، مع أنه من المصادق، فإن ميزة الصديقين عن غيرهم من أهل الإيمان والعبادة ملازمة العبادة في كل لحظة، وأن طريقهم هو اتباع النبي ﷺ والإمام عليهما السلام دون غيرهما، ولذا لا تقبل عبادة العبد الذي يخترع عباداته من نفسه، أو يأخذ عباداته من غير طريقها ﷺ.

وبذلك يتضح أن اليقين هو غاية العبادة، وهو الذي يصير الإنسان عابداً وصديقاً، وعلامته أن يرى العبد ربه في كل مكان وزمان وجهة، ولا يغفل عنه لحظة، فحينما يتكلم أو يسمع أو يعمل أو يأكل أو يشرب أو يبيع أو يشتري، وكل ما يفعله يرى الله سبحانه عن شهود ومعاينة ببصيرته، ولو بلغ العبد هذا المقام عصمه الله سبحانه من الذنوب والضياع، فإن الذنوب والمعاصي تأتي من الغفلة وفقدان اليقين الملازم للناس. يقول تعالى:

﴿أَهْلَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(١).

فإن التكاثر يعمي بصائر الناس عن مشاهدة الحق، فتكاثر المال، والأولاد والشهرة والمناصب والجمع والعلوم غير الإلهية كلها من أسباب الغفلة وفقدان اليقين بالله سبحانه والآخرة والنار، ولذا يكثر معها الجحود والعصيان العقيدي والعملي، ولو كانوا يرون ما في الجحود والعصيان من نيران رؤية شهود ويقين لما عصوا ولا جحدوا، فالآية بـ (لام) التوكيد تفيد الملازمة بين اليقين وبين رؤية الجحيم، والصديقون هم الذين يرون النار دائماً كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون﴾^(٢) ولو التفت العبد إلى هذه الحقيقة ورسخها في قلبه حينما يتلو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بلغ مقام الصديقين، ونال الدرجات المعنوية العالية وآثارها، وهي كثيرة نستعرض بعضها:

الآثار المعنوية لليقين

أولها: مقام التوكل وأثره، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿ليس شيء إلا وله حداً قال: قلت: جعلت فداك فما حد التوكل؟ قال: اليقين، قلت: فما حد اليقين؟ قال: أن لا تخاف مع الله شيئاً﴾^(٣).

(١) سورة التكاثر: الآيات ١ - ٦.

(٢) الأماشي (للصدوق): ص ٦٦٦؛ البحار: ج ٧٥، ص ٢٩، ح ٩٦.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٥٧، ح ١.

ومعنى ذلك أنه يوصلك إلى الإيمان والسكينة النفسية، وهو سر السعادات والنجاحات والخلاص من الأمراض الروحية والبدنية.

ثانيها: النزاهة والغنى، ففي رواية أبي ولاد وعبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله﴾^(١).

ثالثها: أفضلية الأعمال، ففي رواية هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين﴾^(٢).

وعلاوة اليقين الوثوق والرزانة في الأفكار والأعمال، ففي رواية صفوان الجمال قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا﴾^(٣).

فقال: ﴿أما إنه ما كان ذهباً ولا فضة، وإنما كان أربع كلمات: لا إله إلا أنا من أيقن بالموت لم يضحك سنّه، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومن أيقن بالقدر لم يخش إلا الله﴾^(٤).

رابعها: علو المراتب، ففي رواية يونس قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الإيمان والإسلام فقال: ﴿قال أبو جعفر: إنما هو الإسلام والإيمان فوقيه بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم

(١) الكافي: ج ٢، ص ٥٧، ح ٢.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٥٧، ح ٣.

(٣) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٤) الكافي: ج ٢، ص ٥٨، ح ٦.

يقسم بين الناس شيء أقلّ اليقين قال: قلت: فأَيُّ شيء اليقين؟ قال: التوكل على الله، والتسليم لله، والرضا من بقضاء الله، والتفويض إلى الله^(١).

مرتبة الولاية على الأشياء

خامسها: ولاية التصرف بالأشياء، فعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿اليقين يوصل العبد إلى حال سنِّي ومقام عجيب، كذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله عن عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى عليه السلام كان يمشي على الماء، فقال صلى الله عليه وآله: لو زاد يقينه لمشى على الهواء، فدل بهذا على أن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله سبحانه كان تفاضلهم على حقيقة اليقين لا غير، ولا نهاية بزيادة اليقين على الأبد، والمؤمنون أيضاً متفاوتون في قوة اليقين وضعفه، فمن قوي منهم يقينه فعلامته التبرِّي من الحول والقوة إلا بالله، والاستقامة على أمر الله سبحانه وعبادته ظاهراً وباطناً قد استوت عنده حالتا العدم والوجود، والزيادة والنقصان، والمدح والذم، والعز والذل؛ لأنه يراها من عين واحدة.

ومن ضعف يقينه تعلّق بالأسباب، ورخص لنفسه بذلك، واتبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة، وسعى في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها مقراً باللسان أنه لا مانع ولا معطي إلا الله سبحانه، وأن العبد لا يصيب إلا ما رُزق وقسم له، والجهد لا يزيد في الرزق، وينكر ذلك بفعله وقلبه^(٢).

(١) الكافي: ج ٢، ص ٥٢، ح ٥.

(٢) مصباح الشريعة: ص ١٧٧ - ١٧٨، (بتصرف)؛ البحار: ج ٦٧، ص ١٧٩، ح ٤٥.

التعليم الثاني: بين العبد والعابد

إن الآية المباركة تضمنت الإقرار بوحدانية العبادة، وبصيغة المضارع التي تدل على الاستمرار على ذلك في كل الأوقات.

ولا بد أن نعرف أن العبادة لها معنيان: حقيقي ومجازي، والمعنى الحقيقي هو ما نشأ من القلوب والجوانح، وتجلّى على الجوارح، أما المجازي فهو ما يتوقف على الجوارح ولا يخترق الجوانح، والمقامات المعنوية تنال بالأول، أي أن تتبدل العبادة إلى عبودية، ومعنى ذلك أن يكون الإنسان عبداً لا عابداً، والفرق بينهما أن العابد اسم فاعل والعبادة قد تعرض عليه وقد تفارقه، أما العبد فالمراد به المربوب لله تعالى^(١) وصفة العبادة تقوم بالذات ولا يفارقها، فالعابد قد يعصي أما العبد فلا.

فإن إبليس انشغل بالعبادة ما يقارب (٦٠٠٠) سنة، وكان عابداً شديداً حتى حشر مع الملائكة، ولكنه كان عابداً وليس عبداً، فحين أمره الباري عزّ وجلّ بما يخالف رغبته عصي، والله عزّ وجلّ لا يريد من العبد العبادة وإنما العبودية، والعبودية أن يكون العابد عبداً لله سبحانه في جوانحه وجوارحه، أي يعمل بما يريده الله سبحانه منه، لا بما يريده هو. أما العابد فربما يأتي بالعبادة ولكن بحسب ما تريده نفسه منه كإبليس، فإنه لو كان عبداً لأطاع الله تعالى فيما أمره.

واليوم نلاحظ الكثير من الناس يعبدون ولم يبلغوا مقام العبودية،

(١) المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٥٧٩، (عبد).

يصلّون ويكذبون، ويصومون ويعصون، ويحجّون ويأكلون حقوق الناس، وبذلك تتضح جملة حقائق:

حقيقة العبودية

الأولى: أن العبودية لا تعني أن تأتي بالعبادة الواجبة كالصلاة والصيام فقط، وإنما أن تصلي بقلبك وروحك وبدنك، مثل هذه الصلاة لها علامة وهي أن تنهاك عن الفحشاء والمنكر، فإذا صليت ولم تنته عن الفحشاء والمنكر فإنك عابد ولست بعبد، والأثر لا يظهر إلا على العبد، وإذا صمت تقيد جوارحك وجوارحك، فلا تغتاب ولا تكذب ولا تأكل مال الحرام، ولا تسيء الظن بغيرك، ولا تؤذي أهلك وجيرانك، فإذا صمت ولم تكف الأذى عن الغير فإنك عابد ولست عبداً، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^(١).

والنهي عن الفحشاء والمنكر هنا تكويني لا تشريعي؛ لأن التشريع لا يختص بالصلاة، بل بكل العبادات، والغاية منه الكشف عن أن الصلاة توجد الاستعداد لترك المعاصي والذنوب، ولو التفت المصلي إلى مضامينها لصارت النزاهة له ملكة، فالذي يقف للصلاة يتوضأ فيزيل عن نفسه الأدران البدنية والروحية؛ لأن الوضوء نور^(٢)، وإذا كبر - أي قال: (الله

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٢) الفقيه: ج ١، ص ٤١، ح ٨٢؛ الوسائل: ج ١، الباب ٨ من أبواب الوضوء، ص ٣٧٧، ح ٩٩٧.

أكبر) - يقر بأن الله أكبر من كل شيء، وأسمى وأعلى، وبالقراءة في الحمد يثني على ربه ويشكره وينعته بصفات الرحمة، ويذكر يوم الجزاء، ويقر على نفسه بالعبودية، ويطلب منه العون والهداية على الصراط المستقيم، ويتبرأ من أهل الظلم المغضوب عليهم.

وبسجوده وركوعه وقيامه وتشهده يتلبس بكل هذه المعاني في اليوم خمس مرات في أقل تقدير تصبح ملكة، يلتفت إلى كل ذلك لا بد وأن تنهائه صلاته عن الفحشاء والمنكر، والفحشاء الذنوب الخفية التي يفعلها في الاستتار، والمنكر الذي يفعله في الظاهر، وأيضاً الفحشاء الذنوب الناشئة من القوة الشهوية، والمنكر الناشئة من القوة الغضبية، وحاصل ذنوب الإنسان ناشئ من هذين الدافعين: اللذة والألم، فإذا التفت المصلي إلى هذه الحقيقة صار عبداً، وإلا كان عابداً، وإذا كثرت مفارقة العبادة له ولم تزده صلاته إلا بعداً. نعم ربما ستؤثر عليه بالمستقبل وتجره إلى العدالة كما ورد في الأخبار، فالذي لا يصلي يجب أن يصلي، ولا يقول إذا لا تنهاني صلاتي عن الفحشاء والمنكر فما الفائدة؟

فالجواب:

أولاً: أن الصلاة بطبيعتها تنهى عن ذلك، ولكن الانتهاء بيد الإنسان، فإذا تمعن في معاني الصلاة سيوفق للانتهاء.

وثانياً: أن الصلاة ستحقق في نفسه الاستعداد لتوفيق الله سبحانه للهداية، وإذا أراد المصلي علامة لقبول صلاته فإن الانتهاء عن الفحشاء والمنكر هو العلامة.

٤٦٠ مايقوله القرآن في سورة الحمد

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعه صلاته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقدر ما منعه قبلت منه^(١) .

فلو منعه عن فحشاء واحدة أو منكر واحد يكون بهذا المقدار منها مقبولاً، وإذا نهته عن الأكثر كان القبول أكثر، فإذا انتهى عن كل فحشاء ومنكر كانت مقبولة بتمامها.

الثانية: أن الكثير من الصحابة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وبعدهم بعض المسلمين عدولاً وأنهم من أهل الجنة نظروا إلى عبادتهم ولم ينظروا إلى عبوديتهم، فكانوا يعبدون الله بجوارحهم دون جوانحهم، ولذا كانوا يجتهدون في مقابل النص.

بالعبودية ينال كل شيء

الثالثة: أن المقامات تنال بالعبودية، أي أن لا ينحصر عملك في أوقات خاصة للعبادة، ففي دخول وقت الصلاة تصلي، وإذا دخل شهر رمضان تصوم، وإذا دخلت رأس السنة الخمسية تحمس وتزكي وهكذا، فإن هذا شأن العابدين، أما شأن عباد الله سبحانه فكل أوقاتهم صلاة وصيام وخمس وحج وجهاد متواصل، وهم يؤدون وظائفهم، وفي مقام عملهم يعبدون الله سبحانه بالنصيحة للمسلمين وإتقان الأعمال واجتناب الحرام، فالبائع الذي لا يغش ولا يححف ولا يبخس الميزان هذا عبد، والذي يصلي

(١) البحار: ج ١٦، ص ٢٠٤؛ مقتنيات الدرر: ج ٨، ص ١٨٧.

ويصوم ويغش فهو عابد وليس بعبد.

وهكذا المدير والوزير والمعلم والمرشد وكل شخص في أي موقع ومكان كان، فإنه قد يكون من هذا وقد يكون من ذاك، وإلى هذا تشير النصوص الشريفة على أن الكثير من الصائمين ليس لهم من صيامهم إلاّ الجوع والعطش، وكم من قائم ليس له من قيامه إلاّ السهر والعناء، كما ورد عن النبي وأمير المؤمنين والصادق عليه السلام في روايات عديدة ^(١)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ليس الصوم الإمساك عن المأكّل والمشرب. الصوم الإمساك عن كل ما يكرهه الله سبحانه﴾ ^(٢).

ومن هنا نلاحظ أن القرآن الكريم أعطى وصف عباد الله للأولياء والأنبياء الصالحين. قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ^(٣) ولم يقل (يعبدون الرحمن) لأن النسبة بين العبادة والعبودية هي العموم المطلق، فكل عبودية هي عبادة، وليست كل عبادة عبودية، ولذا وصف البعض بأنهم يعبدون الشيطان. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ^(٤).

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٣٥، قصار الحكم ١٤٥؛ البحار: ج ٩٣، ص ٢٩٤، ح ٢٤؛ رسائل الشهيد الثاني: ص ١٥٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٢٩٩، الرقم ٤١٧؛ ينابيع الحكمة: ج ٣، ص ٥٦٤، الرقم ٦٥٧٤.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٤) سورة يس: الآيتان ٦٠ و ٦١.

بينما وصف الباري عزَّ وجلَّ عيسى وداود وسليمان وأيوب ونوح والخضر عليه السلام ورسول الله ﷺ وغيرهم من أنبيائه وأوليائه بالعباد في آيات كثيرة، ففي الإسراء قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾^(١) وهي صريحة في أن مدار الإسراء ورؤية الملكوت وفي الزمان والمكان لرسول الله ﷺ دار على محور واحد هو العبودية الخالصة لله سبحانه، كما تفيد الإضافة إليه.

وفي حديث المعراج عن الله سبحانه وردت وصايا لرسول الله ﷺ فيها ما يعلم ويهذب. قال: ﴿يا رب! ما أول العبادة؟ قال: أول العبادة الصمت والصوم. قال: يا رب! وما ميراث الصوم؟ قال: الصوم يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم يسر^(٢)، يا أحمد! إن العبد إذا أجاج بطنه وحفظ لسانه علّمته الحكمة، وإن كان كافراً تكون حكمته حجة عليه ووبالاً، وإن كان مؤمناً تكون حكمته له نوراً وبرهاناً وشفاءً ورحمةً، فيعلم ما لم يكن يعلم، ويبصر ما لم يكن يبصر، فأول ما أبصره عيوب نفسه حتى يشتغل عن عيوب غيره، وأبصره دقائق العلم حتى لا يدخل عليه الشيطان. يا أحمد! ليس شيء في العبادة أحب إليّ من الصمت والصوم، فمن صام ولم يحفظ لسانه كان كمن قام ولم يقرأ في

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) البحار: ج ٧٤، ص ٢٧، ح ٦.

صلاته، فأعطيه أجر القيام ولم أعطه أجر العابدين^(١).

وبهذا يبين لنا الباري عزَّ وجلَّ الفرق بين عبادة الجوارح وعبادة الجوانح، وأن ما يحبه ويريده من العبد هو الثاني، وهو ما يقضي به العقل، فإن عبادة الجوارح كل إنسان يمكنه أن يأتي بها حتى المنافق، وحتى الكافر والمشرِك كانوا يقدمون القرابين للأصنام بتوهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، لكن الله سبحانه لا يريد هكذا عبادة، وإنما يريد العبادة التي فيها خضوع القلب والنفس والضمير عن القبائح، عبادة الصمت والصوم عن الحرام، وليس فقط عن الطعام والشراب، وهذا ما ورد في حديث المعراج أيضاً. قال تعالى: ﴿يا أحمد! إن العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها طلب الحلال، فإذا طيبت مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي. يا أحمد! هل تدري متى يكون العبد عابداً؟ قال: لا يا رب. قال: إذا اجتمع فيه سبع خصال: ورع يحجزه عن المحارم، وصمت يكفُّه عَمَّا لا يعنيه، وخوف يزداد كل يوم من بكائه، وحياء يستحي منِّي في الخلاء، وأكل ما لا بد منه، ويبغض الدنيا لبغضي لها، ويجب الأخيار لحبي إياهم^(٢).

هذا هو النهج الذي يفرِّق بين العابد والعبد، وبه يظهر تفاوت الناس في قولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن هذا الإقرار والإذعان لا يصدق حقيقة إلا في العبد، أما العابدون الذين يقولون هذا فهم كثر، ولكنهم يأتون بحركات

(١) البحار: ج ٧٤، ص ٢٩، ح ٦.

(٢) البحار: ج ٧٤، ص ٣٠، ح ٦.

جوارحهم، وأما جوانحهم فإلى الهوى والشيطان، وأول الطريق الذي يصير الإنسان عبداً هو الاتباع لإمامه الذي جعله الله سبحانه وسيلة إليه، ففي رواية محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ﴿كل من دان الله عز وجل بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير، والله شانى لأعماله... وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمد! إن أئمة الجور وأتباعهم لمعزلون عن دين الله قد ضلُّوا وأضلُّوا، فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء. ذلك هو الضلال البعيد^(١) .

والحقيقة التي يجب أن يلتفت إليها كل عبد لله سبحانه أن الله سبحانه لا ينتفع بعبادة العباد، ولو كان كذلك لما خلقهم مختارين في أعمالهم، بل يجعلهم مقهورين على عبادته، لكنه شاء أن يعبدوه عن معرفة ومحبة واختيار، فتراهم يتململون ويرهقون، فلا حاجة لله سبحانه في خلقه، وإنما هم محتاجون إليه. قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٢) فحتى الإيَّان لم يجعله الله سبحانه قهرياً جبرياً، بل اختيارياً، والآيات التي ينزلها عليهم يعرفها لهم لكي يؤمنوا بها عن قناعة لا عن قهر. نعم جعل الباري عز وجل علامة على هذه الحقيقة في أنفسنا، فإن الإنسان مجبور في تكوينه

(١) الكافي: ج ١، ص ١٨٣، ح ٨؛ الوسائل: ج ١، الباب ٢٩ من أبواب مقدمة

العبادات، ص ١١٨ - ١١٩، ح ٢٩٧.

(٢) سورة الشعراء: الآيتان ٣ و ٤.

البدني، وليس له دخل في تكوينه، فهل للإنسان الاختيار في أن يولد من أبيه وأمه، أو يتحكم في شكله ومنظره؟ كلا؛ لأن الله سبحانه يريد للناس أن يطيعوه عن محبة واختيار لا عن قهر؛ لأنه لا يريد منهم العبادة بالجوارح وإنما العبودية، وبها يتميز العباد عن العبيد أيضاً، فإن العبيد سائر الناس، أما العباد فالذين يختارون الله في أعمالهم وأفعالهم.

ولذا حينما يتحدث عن البشر جميعاً يصفهم بالعبيد؛ لأن عبودية العبيد قد تلازم المذلة والقهر؛ لذا يوصف بها من يتبعون الهوى والشيطان. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(١) وسائر البشر والخلق أجمعين سواء أمام العدالة الإلهية، بينما في عباد الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(٢) وصفة عباد الله تخصص استعانتهم وتوكلهم بالله سبحانه، وبها يحرر الله سبحانه العبد من ذل الدنيا والشهوة.

فرق العباد والعبيد

وبذلك يتضح وجود فرق بين العابدين والعباد، وبين العباد والعبيد، وأولياء الله سبحانه الذين يصدق قولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هم الذين يعبدون الله سبحانه في جوارحهم وجوارحهم، ولا يستعينون إلا به، ولا يصدقون مغريات الدنيا وعناصر القوة فيها؛ لأنها كلها إلى زوال، فالعالم متغير وأهله كذلك، فالقوي يوماً قد يصبح ضعيفاً، وصاحب

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٢.

(٢) سورة الحجر: الآية ٤٢.

السلطة قد يصبح طريداً شريداً، فلا شيء ثابت ودائم ومستمر ومحيط إلا الله سبحانه وما يتعلق به، فلا تليق العبودية والاستعانة إلا به تبارك وتعالى.

التعليم الثالث: الاستعانة الدائمة

أن العبادة لله سبحانه حق وواجب شرعي وأخلاقي وإنساني، ولكن حتى العبادة تحتاج إلى عون تبارك وتعالى في عبادته، فعلى الإنسان أن يحسن العبودية لله سبحانه، ويدخلها من الباب الذي قرره الباري عز وجل، ثم يطلب حاجته منه واستعانته، وبها يتغلب على الموانع الداخلية النفسية والموانع الخارجية التي تعيق عمله وتقدمه وتفوقه، ويا حبذا لو يجعل الإنسان ورده في كل يوم حينما ينهض من نومه يستشعر عبوديته وفقره واحتياجه لربه في كل شيء، ويستمد منه القوة في كل أعماله وأقواله ومقاصده فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

ولو استحضر في ذهنه أولياء الله الصالحين وسلّم عليهم وجعلهم وسطاء في ذلك سيكون يومه يوم خير وسرور عليه، ومن هنا يستحب في كل يوم صباحاً أن يشهد العبد لله سبحانه بالوحدانية، وللنبي ﷺ بالنبوة، ولسائر الأئمة المعصومين ﷺ بالإمامة والانقياد لهم، ويذكرهم واحداً بعد واحد، ثم يسلم على جميع الأنبياء والمرسلين ﷺ، فإنه في ذلك اليوم لا يرى مكروهاً كما ورد عن أمير المؤمنين ﷺ، ولو ختم يومه بذلك أيضاً صارت كل أوقاته عبادة واستعانة، ودخل في العبودية الاختيارية، وصار مصداقاً

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.

لقله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وهذا نلفت إلى حقائق عديدة:

بطلان الجبر والتفويض

الأولى: أن الإنسان مختار في أفعاله مجبور في تكوينه، وهو معنى لا جبر ولا تفويض؛ لأنه باختياره يعبد الله سبحانه ويستعينه، ولا ملجأ له إلا الله سبحانه؛ إذ لا أحد قادر على معرفة حاجاته وسدها وإجابة طلباته إلا هو، فبقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يبطل الجبر، وبقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يبطل التفويض.

الثانية: دعوى أن الإنسان وليد الصدفة أو الطبيعة أو البيئة الاجتماعية، أو وليد الأقدار. كل هذه تبطلها الآية المباركة، وتعلم الإنسان أن كل شيء بيد الله سبحانه، وكل حادث وحادثة بيدها. إما تقع بإرادته مباشرة، أو بالوسائط والأسباب.

الثالثة: حقيقة أن الأسباب وحدها لا تكفي لبلوغ الإنسان إلى غاياته؛ لأن الأسباب مجرد وسائط، والفاعل الحقيقي هو الله سبحانه؛ لذا لا يمكن أن يستغني العبد عن سلوك الأسباب الظاهرية، كقانون حاكم في الوجود واللجوء إلى التوكل والدعاء والصدقة وغيرها من الأسباب الباطنة؛ لأنها هي التي تتحكم بالأسباب الظاهرية، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُودُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٢).

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٧.

الحرية والعبودية

الرابعة: دعوى أن الإنسان حر ومسلط على نفسه في كل ما يريد ويفعل كما تزعمها العلمانية؛ لأن الإنسان حر في إطار العبودية لله سبحانه، ولذا لا يجوز له أن يعصي ويظلم مدعياً أنه حر ومسلط على نفسه، فكل ما لدى الإنسان من حرية واختيار مقيد بأن يكون عبداً لله سبحانه، والعبادة لا تكون مع الظلم والفساد والتجاوز على الآخرين.

ركنا الكمال

الخامسة: أن لا شيء يضبط الإنسان ويجعله إنساناً كاملاً إلا إذا قام على ركنين:

أحدهما: الإذعان والعبودية لله سبحانه.

ثانيهما: شعوره بالنقص والفقر والحاجة والاستعانة بربه، فإن الظلم والفساد والطغيان الحاصل ما بين البشر ناشئ من التجرد من هاتين الحقيقتين، فالذي يدعن لنفسه أو لهواه يطغى، والذي يشعر بالغنى والاستقلال يطغى، وهذا هو الذي قامت عليه الحضارة البشرية اليوم؛ لذا ساد الظلم والفساد، وامتلأت الأرض بهما.

يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾^(١) وبالطغيان يصبح الإنسان في صورته إنساناً، وفي واقعه وحشاً قاسياً لا رحمة له ولا إنصاف ولا حكمة، فلذا أول مبادئ الرسالات والشرائع هي الدعوة إلى

(١) سورة العلق: الآيتان ٦ و ٧.

التوحيد لله سبحانه والعبودية له والاستعانة به في كل شيء.

التعليم الرابع: توقيفية العبادة

العبادة هي الطاعة لله سبحانه على النهج الذي أمر به والالتفات في الآية من الغيبة إلى الحضور إشارة إلى أن العبادة تبدأ بالنية، ولا تصح إلا مع الانتقال من الغيبة إلى الحضور، وأهم العبادات الصلاة، وكل ما فيها من أجزاء وشرائط لا يتم إلا بالحضور.

فالقراءة يجب أن تكون عن قلب حاضر وتوجه كامل وانقطاع عن صوارف الذات والدنيا، وبمثل هذه الصلاة تترتب الآثار، وتظهر الخيرات والبركات، وتزداد عظمة وحضوراً إذا صارت العبادة جماعية، كصلاة الجماعة والحج والصيام؛ لأن الغفلة التي يبتلى بها بعض الأفراد قد يتجاوزونها بالمشاركة مع غيرهم في العبادة، ويشهد له نون الجمع في ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ لأن عدم القابلية والاستحقاق في الفرد قد ينتفيان إذا شاركه في العمل من يستحق ذلك، والله عز وجل كريم لطيف ودود لا يقبل عملاً فيه المستحق وغير المستحق إلا وأجابها كرامة للمستحق، وإذا انفرد غير المستحق بالدعاء والعمل لكنه كرره وألح فيه فإنه يجاب؛ لأن التكرار كاشف عن الانقطاع، وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام): ﴿ما من رهط أربعين رجلاً اجتمعوا فدعوا الله عز وجل في أمر إلا عن استجاب الله لهم، فإن لم يكونوا أربعين فأربعة يدعون الله عز وجل عشر مرات إلا استجاب الله لهم، فإن لم يكونوا أربعة فواحد يدعو الله أربعين مرة فيستجيب

الله العزيز الجبار له^(١). وهي ظاهرة في وجود خصوصية للعدد أربعين.
إن قلت: كيف والملاحظ في الكثير من الموارد تجتمع الجماعة بالدعاء أو
يلح الداعي ولا يستجاب لهم؟

والجواب: ذلك ليس لعدم المقتضي، بل لوجود المانع، ومن أكبر الموانع
ظلم العباد، فإن لإجابة الدعاء شروطاً.

منها: أن لا يكون الداعي ظالماً لعباد الله سبحانه، أو في ذمته حق من
حقوقهم، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ﴿قال الله عز وجل: وعزّي
وجلالی، لا أجیب دعوة مظلوم دعاني في مظلمة ظلمها ولأحد عنده مثل
تلك المظلمة﴾^(٢).

فيجب على الداعي إعلان التوبة من الذنوب والاستغفار، والعزم على
رد مظالم العباد قبل الدعاء، ثم يسأل ربه ما يريد.

وعن النبي المصطفى ﷺ: ﴿يا أبا ذر! يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي
الطعام من الملح﴾ والبر يشمل كل الأعمال الصالحة ومن أهمها حقوق الناس.
﴿يا أبا ذر! مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر﴾ فكما
أن رمي السهم بلا وتر لا يصل إلى مكان كذلك الدعاء بغير عمل صالح
والكف عن الطالح.

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٨٧، ح ١؛ الوسائل: ج ٧، الباب ٣٨ من أبواب الدعاء، ص ١٠٣، ح ٨٨٥٤.

(٢) الوسائل: ج ٧، الباب ٦٨ من أبواب الدعاء، ص ١٤٦، ح ٨٩٦٨.

﴿يا أبا ذر! إن الله يصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته والدور حوله ما دام فيهم﴾^(١).

وفي ذلك إشارة إلى بركة الآباء والأجداد الصالحين، وأن لأعمال العباد الصالحة آثاراً على أولادهم وذرياتهم، وكذلك الأعمال الطالحة.

التعليم الخامس: الوسيلة في العبودية والاستعانة

إن نظام العبودية والاستعانة وجهان لحقيقة واحدة، فلا عبودية بلا استعانة، ولا استعانة بلا عبودية، كما أن نظامها واحد، ونظام العبودية يقوم على القرآن والسنة واتباع النبي والعترة عليهم السلام، وكل عبودية من غير هذا الطريق ليست بعبودية.

ونظام الاستعانة كذلك يقوم على حلقات متسلسلة عليها يقوم نظام الأسباب، وكل معصوم من المعصومين عليهم السلام هو حلقة في هذا النظام، فبأي منها تمسك العباد وصلوا، وقد نص القرآن على وجوب اتخاذ الوسيلة إلى الله سبحانه^(٢)، وأشار إلى بعض أساليب الاستعانة، ففي العلم والهداية نستعين برسول الله صلى الله عليه وآله، إذ قال سبحانه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾^(٣) وفي العمل كذلك؛ إذ قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٤)

(١) الوسائل: ج ٧، الباب ٣٢ من أبواب الدعاء، ص ٨٤ - ٨٥، ح ٨٧٩٤.

(٢) إشارة إلى سورة المائدة: الآية ٣٥.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

(٤) سورة النساء: الآية ٨٠.

وفي التوبة ومحو الذنوب قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^(١) وهي ظاهرة في أن علة التوبة تحقق الاستغفارين بنحو الانضمام: استغفارهم واستغفار الرسول ﷺ لهم، والقاعدة قاضية بأن الأثر يلزم حصول الجزء الأخير العلة، وهو استغفار رسول الله ﷺ.

وكذلك نستعين به في قضاء الحوائج وتحصيل الأرزاق وكشف الكربات، وكل ذلك هو استعانة بالله سبحانه باعتبار السلسلة الطولية في نظام السببية أو مظهرية الفعل الإلهي.

وقد شرع الباري عز وجل هذا النهج في التكوين والتشريع والعلاقات الاجتماعية، فمن الأول قال تعالى في ذي القرنين: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾^(٢) وفي الثاني قال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٣) وفي الثالث قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِيرِّ وَالْقُوى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٤) ويتحقق ذلك كله بلجوء العباد إلى بعضهم والاستعانة بهم فيما يحتاجون إليه، وكلما كان المستعان أعظم وأوسع قدرة ومكانة كانت الاستعانة به أوجب وأحق.

وبذلك تبطل دعوى الوهابية وقولهم بحرمة الاستعانة بغير الله سبحانه،

(١) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٢) سورة الكهف: الآية ٩٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ٢.

لا سيما الاستعانة بالمعصومين عليهم السلام، فقد خلطوا بين الاستعانة الباطلة والأخرى الصحيحة التي قررها الباري عزَّ وجلَّ لنظام التكوين والتشريع والعلاقات الاجتماعية.

أنحاء الاستعانة بالمعصوم عليه السلام

فإن الاستعانة تقع على أربعة أنحاء، اثنان منها باطلان واثنان صحيحان:
الأول: الاستعانة بغير الله سبحانه باعتقاد أنه يملك التأثير والفعل مستقلاً عنه سبحانه، وهذا باطل وشرك، ولا أحد من المؤمنين يستعين بالمعصوم عليه السلام بهذا القصد والاعتقاد.

الثاني: الاستعانة بغير الله سبحانه باعتقاد أنه يملك بعض التأثير مستقلاً عن الله سبحانه، وهو كالأول شرك وباطل، ولا أحد من المؤمنين يعتقد به.
الثالث: الاستعانة بغير الله سبحانه باعتبار أن الله عزَّ وجلَّ جعل المعصوم واسطة في التأثير ومنحه القدرة والإذن في الفعل كما جعل الأبوين واسطة الإنجاب، والمطر واسطة الزرع، والمعلم واسطة التعليم، وهذا صحيح ولا يتنافى مع عقيدة التوحيد، وقد نص القرآن على لزوم اتباعه، وأهل الإيمان حينما يلجؤون إلى المعصوم عليه السلام يتخذونه واسطة إلى الله سبحانه في قضاء حوائجهم، وهذا من ضرورات العقيدة الحقة.

الرابع: الاستعانة بغير الله سبحانه باعتبار أن المستعان يمثل إرادة الله وقدرته وفعله؛ لأنه حجته وخليفته في عبادته، وهذا صحيح، ويرسخ عقيدة التوحيد، وقد نص على ذلك القرآن في آيات عديدة؛ إذ قال أن منطق النبي

٤٧٤ مايقوله القرآن في سورة الحمد

وحي^(١) ، وأن يده يد الله تعالى، فالذي يبايعه يبايع الله تعالى^(٢) ، وأن طاعته طاعة الله تعالى^(٣) .

وهذه هي عقيدة أهل الإيمان، ولما قصر الوهابيون عن دركها عمداً أو جهلاً كفّروا المعتقدين بها، واتهموهم بالشرك، وخالفوا في ذلك القرآن والسنة القطعية الصحيحة.

وقد أراد الباري عزّ وجلّ أن تكون هذه العقيدة الصحيحة عامة يؤمن بها جميع المسلمين، فأوردها بصيغة الجمع، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن جميع المسلمين يشتركون بالعبادة والاستعانة بحسب التسلسل النظامي المتقدم.

وقد تواتر هذا المضمون في روايات المسلمين، وتضافر بطرق عديدة أن المسلمين كانوا يستعينون ببعضهم، وينالون مقاصدهم ضمن طرق العامة. عن عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ: ﴿لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فأوحى الله إليه: ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك لما خلقت رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم! أنه

(١) إشارة إلى سورة النجم: الآيتان ٣ و ٤.

(٢) إشارة إلى سورة الفتح: الآية ١٠.

(٣) أنظر بصائر الدرجات: ص ٤٠٥، ح ٧.

آخر النبيين من ذريتك، ولولا هو ما خلقتك^(١).

استسقاء عمر بالعباس

وفي قضية أخرى استسقى عمر بن الخطاب بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط، فسقاهم الله تعالى به، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه.. ولما سقي الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون هنيئاً لك ساقى الحرمين^(٢).

وسأل المنصور الدوانيقي عن مالك بن أنس في حرم رسول الله ﷺ فقال: يا أبا عبد الله! أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله؟ قال: ﴿لَمْ تَصْرَفْ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسِيلَتُكَ وَوَسِيلَةُ أَبِيكَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَلِ اسْتَقْبَلْهُ وَاسْتَشْفَعْ بِهِ فَيَشْفَعَكَ اللَّهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٣)﴾ إلى غير ذلك مما هو كثير^(٤).

(١) الدر المنثور: ج ١، ص ٥٩؛ المستدرک (للحاكم): ج ٢، ص ٦٧٢؛ روح المعاني: ج ١، ص ٢١٧-٢١٨.

(٢) أسد الغابة: ج ٣، ص ١١١؛ صحيح البخاري: ج ٢، ص ٢٧؛ وفاء الوفاء: ج ٤، ص ١٩٦.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٤) وفاء الوفاء: ج ٤، ص ١٩٧؛ الدرر السنية: ص ٢٣؛ ينابيع الحكمة: ج ٣، ص ٣١٩، ح ٥٤٧٤.

الاستعانة بالحي

ويستفاد من مجموعها دلائل عديدة:

الأولى: أن الاستشفاع والاستعانة بالحي والميت هي سيرة الصحابة، وبعضهم مما يعدهم الوهابية في الرعيل الأول منهم، وحيث إنهم يقولون بأن قول الصحابي وفعله حجة يكون قولهم مخالفاً للحجة عندهم.

الثانية: أن الاستشفاع والتوسل هو نهج الله سبحانه وأنبيائه عليهم السلام منذ آدم إلى الخاتم صلوات الله عليه، وعليه جرت سيرة المسلمين، وهي عقيدة ماضية حتى في الآخرة، فإن شفاعة النبي صلوات الله عليه في الآخرة أعظم.

الثالثة: أن القول المذكور مناقض للقرآن والصحابة وسيرة المسلمين ومكذب لهم، والتالي المترتب على ذلك جلي.

الفهرس

- ١ ما يقوله القرآن في سورة الحمد (الفاتحة)
- ٩ المبحث الرابع: في تعاليم الآية المباركة
- ٩ التعليم الأول: اشكروا الناس على فضلهم
- ١١ مراتب الشكر والمشكورين
- ١٣ أفضل الشكر بما يليق
- ١٥ وحدة الحامدين
- ١٥ التعليم الثاني: شكر القلب واللسان
- ١٦ مراحل الحمد
- ١٧ الشعارات الفارغة
- ١٧ خواء الزبد
- ١٨ خواء المجاملات الكاذبة
- ٢٠ المراقبة شرط التأثير
- ٢١ سلامة القلوب
- ٢٣ القصد وهوية العمل
- ٢٤ الحمد بالعقيدة والعمل
- ٢٤ حمد المعرفة والإقرار
- ٢٥ التعليم الثالث: أول عهد بين الله وخلقه
- ٢٦ ربوبية الاسم الأعظم
- ٢٧ ما هو أول اسم إلهي؟
- ٢٧ عهد الربوبية وعهد العبودية
- ٢٨ سر الاصطفاء لمحمد وآل محمد ﷺ

- ربوبية دائمة..... ٣١
- مراتب الربوبية..... ٣١
- ربوبية المحبة..... ٣٣
- ربوبية الرجاء..... ٣٤
- ثلاث نظريات باطلة..... ٣٧
- التعليم الرابع: الربوبيات الكاذبة..... ٣٨
- الربوبية الاقتصادية والسياسية..... ٣٩
- عبودية الشيطان..... ٤٠
- ربوبية القانون..... ٤٠
- عبودية الطرق والمذاهب..... ٤١
- فرق الصراط عن السبيل..... ٤٢
- آل محمد ﷺ صراط الله..... ٤٢
- عبودية المدارس..... ٤٣
- التعليم الخامس: مقومات الربوبية..... ٤٥
- كل شيء بضمن..... ٤٦
- العمل بمنطق الوظيفة لا الربح..... ٤٩
- يقدمون لوجه الله تعالى..... ٤٩
- ما هو جزاء المخترعين من غير المؤمنين؟..... ٥١
- مقياس الجزاء الإلهي..... ٥٣
- إلى أهل الفن والأدب..... ٥٤
- إلى الطبيعيين..... ٥٥

٥٦	إلى الملاحدة.....
٥٦	الطريق العقلي للمعرفة.....
٥٧	الطريق النقلي للمعرفة.....
٥٨	لا تفكر في ذات الله تعالى.....
٥٩	إلى المقننين وأصحاب القرار.....
٦٠	مجالس المجتهدين وأهل الخبرة.....
٦١	التعليم السادس: آثار الحمد في المنهاج اليومي.....
٦٣	التعليم السابع: قضايا فلسفية تبطلها الآية.....
٦٤	بطلان السنخية.....
٦٥	التعليم الثامن: فصل الانسان الحمد أم الناطقية؟.....
٦٧	فصل الذات وفصل الرتبة.....
٦٨	التعليم التاسع: فروع فقهية.....
٧٠	الحمد قيمة عظمية.....
٧٢	أول ما يجب تعليمه.....
٧٢	التعليم العاشر: المدارس الكلامية في الربوبية.....
٧٥	الآية الثالثة: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.....
٧٧	الرحمة الرحمانية والرحيمية.....
٧٨	الرحمة هي السنّة العامة.....
٧٨	الابتلاءات والعقوبات رحمة.....
٨٠	الرحمة الباطنة.....
٨١	الرحمة هي الروح السارية في الأشياء.....

المبحث الأول: في مفردات الآية المباركة	٨٥
المفردة الأولى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾	٨٥
فرق الرحمن عن الرحيم	٨٥
هل الرحمن اسم عبراني؟	٨٨
الرحيم صفة فعل	٩٠
المفردة الثانية: ﴿الرَّحِيمُ﴾	٩٠
معنى الرحمن والرحيم	٩١
المفردة الثالثة: (الصفتان معاً) أي ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾	٩١
البسملة شعار القرآن	٩٥
فوائد تكرار الرحمن الرحيم	٩٥
المبحث الثاني: في لطائف الآية المباركة	٩٩
اللطيفة الأولى: ربوبية الرحمة والمحبة	٩٩
حقائق الربوبية	٩٩
تكليف الكافر بالأصول والفروع	١٠٠
الرحمة واللفظ المقرَّب	١٠١
اللطيفة الثانية: ربوبية العدل وربوبية الظلم	١٠١
الربوبيات الزائفة	١٠٣
اختلاف ربوبية البشر	١٠٣
ربوبية يوسف وسليمان عليهما السلام	١٠٤
المعونة العامة على الظلم	١٠٦
التبري من الظلمة بأبسط الأعمال	١٠٧

- اللطيفة الثالثة: الرحمة التكوينية والتشريعية ١٠٩
- الرحمة اللطفية..... ١١٠
- أقسام الرحمة ١١١
- اللطيفة الرابعة: سر تكرار الرحمة ١١٢
- الجزء الربوبي..... ١١٣
- الحمد المللكوتي..... ١١٥
- المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة..... ١١٧
- التعليم الأول: ربوبية الرحمة في المناهج والأعمال..... ١١٧
- بالرحمة تثمر الأشياء لا بالعنف..... ١١٧
- رحمة القرآن..... ١١٨
- معنى البصيرة..... ١١٩
- التعليم الثاني: القيادة الرحيمة..... ١٢١
- فن المعاشرة الرحيمية..... ١٢٢
- ركائز لين القيادة..... ١٢٣
- الاستغفار للأتباع..... ١٢٣
- حقيقة الأدب..... ١٢٥
- الرحمة العملية..... ١٢٥
- معاداة اليهود للنبي ﷺ..... ١٢٦
- المعرفة بالوصي..... ١٢٨
- تحريف المعاني..... ١٢٨
- وجوب تنزيه الإسلام..... ١٢٨

- شورى النبي ﷺ ورحمته..... ١٢٨
- مشاورات النبي ﷺ..... ١٢٩
- أدلة وجوب الشورى..... ١٣١
- أفضل صفات القائد..... ١٣٢
- أصناف القادة..... ١٣٢
- التعليم الثالث: رحمة الإسلام.. والعلمانية..... ١٣٣
- من يمثل الإسلام؟..... ١٣٤
- دخول علماء الغرب الإسلام..... ١٣٥
- أوروبا والإسلام..... ١٣٥
- سياسة النبي الفاتح..... ١٣٦
- سياسته الداخلية..... ١٣٨
- حق المواطنة..... ١٣٩
- سياسة الغاصبين..... ١٤٠
- تعالوا إلى الإسلام..... ١٤١
- هل عقوبات الإسلام قاسية؟..... ١٤١
- قضية الرق في الإسلام..... ١٤٢
- بين السجن والرق..... ١٤٢
- أسباب العتق القهري..... ١٤٤
- الرق المعاصر..... ١٤٤
- استرقاق الخدم..... ١٤٦
- سلب حقوق الوالدين..... ١٤٦

- ١٤٧.....التعامل الشرعي مع الأسير.
- ١٤٨.....شواهد من أهلها.
- ١٤٨.....أخلاق علي عليه السلام مع الأقليات.
- ١٤٩.....عقوبات الإسلام وعقوبات العلمانية.
- ١٥٠.....مساوئ عقوبات القانون الوضعي.
- ١٥١.....محاسن العقوبات الإسلامية.
- ١٥٢.....المعالجات الجذرية للجريمة.
- ١٥٣.....من شواهد العلاج.
- ١٥٥.....للحاكم أن يعفو.
- ١٥٦.....السجون عقوبة جماعية.
- ١٥٧.....مساوئ الغرامات.
- ١٥٧.....مساوئ الإعدام.
- ١٥٨.....التعليم الرابع: آثار الرحمة.
- ١٦١.....الآية الرابعة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.
- ١٦٣.....القراءة الصحيحة.
- ١٦٣.....أصناف الحمد والحمدين.
- ١٦٥.....تهذيب الشاكرين.
- ١٦٧.....الأصل الأخير في الإيمان.
- ١٦٨.....آثار الاعتقاد بالمعاد.
- ١٦٩.....تحديد الظلم والظالمين.
- ١٧٠.....عشرة تموت بها القلوب.

- ١٧١..... مالكية الله ومالكية غيره
- ١٧٢..... الأسماء التي يقوم بها العالم
- ١٧٣..... العقيدة الصحيحة
- ١٧٣..... خلاصة نظام الربوبية
- ١٧٥..... المبحث الأول: في مفردات الآية المباركة
- ١٧٥..... المفردة الأولى: ﴿مالك﴾
- ١٧٦..... مزايا الملكية الحقيقية
- ١٧٧..... موانع الملكية الاعتبارية
- ١٧٨..... الملكية الشمولية
- ١٧٨..... مالكية الحساب
- ١٨٠..... لا مالكية للدولة
- ١٨٠..... مالكية المال المحدود
- ١٨٠..... هل الإنسان يملك نفسه؟
- ١٨٢..... معاني اليوم في القرآن
- ١٨٢..... المفردة الثانية: ﴿يوم﴾
- ١٨٣..... اليوم المعرفي ووضع الألفاظ
- ١٨٤..... التحقيق في معنى اليوم
- ١٨٥..... هل الزمان يملك؟
- ١٨٦..... اليوم في القرآن والسنة
- ١٨٩..... هم الأيام بجمع
- ١٩٠..... لا تعادوا الأيام

- ١٩١..... فاطمة عليها السلام وأيام الأسبوع.
- ١٩٢..... كن كما شئت كما تدين تدان.
- ١٩٢..... المفردة الثالثة: ﴿الدين﴾.
- ١٩٣..... معاني الدين.
- ١٩٦..... أوصاف يوم الدين.
- ١٩٨..... ما معنى يوم الدين؟
- ٢٠١..... يوم الدين اصطلاحاً.
- ٢٠٢..... دلالة المفردات الثلاث.
- ٢٠٣..... المبحث الثاني: في لطائف الآية المباركة.
- ٢٠٣..... اللطيفة الأولى: عقيدة الجاهليين بالمعاد.
- ٢٠٤..... اللطيفة الثانية: ما تملكه وما لا تملكه.
- ٢٠٥..... أصناف الملكية.
- ٢٠٥..... المفهوم الفلسفي للملك.
- ٢٠٧..... المفهوم الفقهي للملك.
- ٢٠٧..... أقسام الملكية الفقهية.
- ٢٠٨..... الملكية الفكرية.
- ٢٠٩..... خصائص الملكية الوهية والخلقية.
- ٢١٠..... حقيقة الملكية الاعتبارية.
- ٢١٢..... الأحكام اللازمة للملكية.
- ٢١٢..... حدود ملكية الإنسان.
- ٢١٣..... جزاء الإمتناع عن الخمس والزكاة.

- ٢١٥..... مشكلة الضرائب ومشروعيتها
- ٢١٧..... خلل الديمقراطية والمجالس النيابية
- ٢١٧..... ضرورة تطوير الديمقراطية
- ٢١٨..... التطوير عبر ثلاثة أصول
- ٢١٩..... الدولة الدينية والمدنية
- ٢١٩..... هل دولة الأنبياء دينية أم مدنية؟
- ٢٢٠..... خلل الدولة المدنية
- ٢٢١..... السعادة بتعاليم الدين
- ٢٢٢..... اللطيفة الثالثة: أصناف الأسماء الحسنى
- ٢٢٤..... منشأ ملوكية البشر
- ٢٢٥..... دلالات الأسماء البسيطة والمركبة
- ٢٢٦..... أسماء الأعلام والأوصاف
- ٢٢٦..... لماذا ورد لفظ مالك؟
- ٢٢٨..... بين المالك والملك والمليك
- ٢٢٩..... اللطيفة في مالك
- ٢٣٠..... ما قالته فاطمة لأبيها عليها السلام
- ٢٣١..... عظمة مجالس العالم
- ٢٣٢..... مجالس الذكر
- ٢٣٣..... اللطيفة الرابعة: المالكية صفة فعل أم ذات؟
- ٢٣٤..... مراتب المالكية
- ٢٣٤..... مفهوم المالكية عند المفسرين

- اللطيفة الخامسة: آل محمد ﷺ مظهر مالكية الله تعالى ٢٣٥
- منظومة الشهادة والشفاعة في الآخرة ٢٣٦
- حساب الناس عليهم ٢٣٨
- حال الشيعة في الحساب ٢٣٩
- شفاعة النبي ﷺ ٢٤٠
- اللطيفة السادسة: لماذا مالك اليوم لا الدين؟ ٢٤٢
- غايات ذكر يوم الدين ٢٤٣
- مهمات النبي ﷺ ٢٤٤
- إذا صار العلم بلا تهذيب ٢٤٥
- عظمة الأدب وأثره ٢٤٦
- العدالة الإلهية ٢٤٧
- قصور العدالة الدنيوية ٢٤٨
- عدالة المهدي ﷺ ٢٤٩
- فرق الإغراء عن الإلقاء ٢٥٠
- فساد اليهود ٢٥١
- أنحاء العداوة بين اليهود والنصارى ٢٥٢
- المسلمون واليهود والنصارى ٢٥٣
- الرجعة من يوم الدين ٢٥٤
- اللطيفة السابعة: أثر السياق في الآية ٢٥٥
- بين ربوبية الدنيا وربوبية الآخرة ٢٥٦
- اللطيفة الثامنة: قراءة (ملك) بدلاً عن (مالك) ٢٥٧

- أدلة قراءة ملك..... ٢٥٧
- مناقشة الأدلة المذكورة ٢٥٨
- أسماء الله معارف..... ٢٦٠
- مناقشة الآيات والروايات..... ٢٦٠
- أرجحية قراءة مالك..... ٢٦٢
- المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة..... ٢٦٥
- التعليم الأول: مراحل بناء العقيدة السليمة..... ٢٦٥
- الانقطاع العقلي..... ٢٦٦
- التوحيد القلبي والعقلي..... ٢٦٧
- التوحيد العملي..... ٢٦٨
- وساوس الملاحدة..... ٢٦٩
- صراع العصاة مع نفوسهم..... ٢٧٠
- الحجة البالغة..... ٢٧٠
- أول طريق المعرفة..... ٢٧١
- التعليم الثاني: ما هو مستند الإيثار بالمعاد؟..... ٢٧٢
- من ينكر المعاد؟..... ٢٧٤
- النظريات التي تبطلها الآية المباركة..... ٢٧٥
- النظريات العلمانية التي تبطلها الآية..... ٢٧٦
- موت الحضارة الغربية..... ٢٧٨
- أحوال أهل الزمان وصفاتهم..... ٢٧٩
- التعليم الثالث: انظروا إلى العواقب..... ٢٨٠

٢٨٢.....	الصبر على النتائج
٢٨٢.....	إلفات إلى طلبة العلم
٢٨٣.....	تأني القادة والإداريين
٢٨٣.....	مضار العجلة وآثارها
٢٨٤.....	أكثر الجنايات بالعجلة
٢٨٥.....	أثر النظر في العواقب
٢٨٦.....	التعليم الرابع: آثار الإيمان بالمعاد
٢٨٩.....	التعليم الخامس: يزول الملك ويبقى الأثر
٢٩١.....	كيف تبقي مالك وولدك؟
٢٩٢.....	الممدوح والمذموم في المال
٢٩٣.....	بركة المال وأثره
٢٩٤.....	بين أولياء الله وأعدائه
٢٩٥.....	عبودية المال والأوثان
٢٩٦.....	خديعة الديمقراطية والانتخابات
٢٩٧.....	دلائل العدل والظلم
٢٩٨.....	المتدينون ومحترفو الدين
٢٩٨.....	آل محمد ﷺ هم الدين
٢٩٩.....	مظاهر العدل في الدولة
٣٠١.....	سر سقوط الدول والحضارات
٣٠٢.....	فساد الناس وفساد الحاكم
٣٠٣.....	بالظلم لا يدوم الملك

- الملوك والقراء والأغنياء في الآخرة..... ٣٠٣
- التعليم السادس: فبصرك اليوم حديد ٣٠٤
- انكشاف الحجب..... ٣٠٦
- حضور الجنة والنار..... ٣٠٦
- ظهور الأسرار بنحوين..... ٣٠٨
- فضح الكذابين..... ٣٠٩
- انتزاع قوى الإنسان..... ٣٠٩
- الشكر يديم النعمة..... ٣١٠
- العافية أفضل مطلوب..... ٣١١
- أوهام أهل السلطة..... ٣١١
- الجاهلية المعاصرة..... ٣١٢
- تنبيه لأهل الأموال..... ٣١٤
- تنبيه للملوك وأصحاب القدرة..... ٣١٥
- تنبيه لأهل الإيمان..... ٣١٧
- التعليم السابع: أعظم أيام الدنيا..... ٣١٨
- صورتا الإسلام..... ٣١٩
- يوم الغدير..... ٣١٩
- ولاية علي عليه السلام واجبة على جميع الأنبياء..... ٣٢٠
- مالك يوم عاشوراء..... ٣٢١
- بالحسين عليه السلام تسعدون وتشقون ٣٢٣
- مالك يوم المهدي عجل الله تعالى فرجه ٣٢٤

- أيام المالكية الإلهية..... ٣٢٦
- أربعة أيام كبرى..... ٣٢٩
- نتائج البحث..... ٣٢٩
- أثر التكذيب بالولاية..... ٣٣٠
- ما يؤثر في النعيم والجحيم من الأعمال..... ٣٣١
- أثر العصيان في العقيدة..... ٣٣٢
- أربع فوائد فقهية..... ٣٣٣
- الآية الخامسة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾..... ٣٣٥
- علاقة الربوبية والعبودية..... ٣٣٧
- أركان الوجود الكامل..... ٣٣٨
- منشأ الإلحاد وتناقضه..... ٣٣٨
- سر التحول من الغيبة إلى الحضور..... ٣٣٩
- الدعاء بالصلاة على آل محمد ﷺ..... ٣٤١
- الدعاء بالقرآنيين..... ٣٤٣
- المبحث الأول: في مفردات الآية المباركة..... ٣٤٥
- خطاب الحضور..... ٣٤٥
- المفردة الأولى: ﴿إِيَّاكَ﴾..... ٣٤٥
- مفهوم العبادة والطاعة..... ٣٤٦
- المفردة الثانية: ﴿نَعْبُدُ﴾..... ٣٤٦
- أنواع العبادة..... ٣٤٨
- عبادة البرزخ واللجنة والنار..... ٣٤٨

- أول عهود العبودية..... ٣٤٩
- حصب جهنم..... ٣٥٠
- أركان العبادة..... ٣٥٠
- خصوصية المعرفة الفطرية..... ٣٥١
- سبب وجود الدنيا..... ٣٥٢
- العبادة بالتسليم..... ٣٥٢
- الانقطاع لآل محمد ﷺ..... ٣٥٣
- وجوب المعرفة التفصيلية..... ٣٥٣
- حديث السلسلة الذهبية..... ٣٥٤
- لماذا قال: ﴿وأنا من شروطها﴾؟..... ٣٥٥
- ما معنى محمد ﷺ حجاب الله؟..... ٣٥٧
- خلوص العبادة..... ٣٥٨
- حقيقة الإخلاص..... ٣٥٩
- قبول العبادة بآل محمد ﷺ..... ٣٥٩
- معرفة الإمام عليّ عليه السلام..... ٣٦٠
- الطريق إلى الله واحد..... ٣٦١
- عبادة الجوارح والجوانح..... ٣٦٢
- العصيان سبب الأمراض..... ٣٦٣
- العبودية الصادقة والكاذبة..... ٣٦٥
- من هو عبد الله؟..... ٣٦٥
- اخلط عملك بعمل أولياء الله..... ٣٦٦

٣٦٧.....	سر الصلاة في وقتها
٣٦٩.....	مراتب العابدين
٣٦٩.....	ما قاله الحسين عليه السلام في العبودية
٣٧١.....	الاستعانة
٣٧١.....	المفردة الثالثة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
٣٧٢.....	مفهوم الاستعانة وخصائصها
٣٧٣.....	أقسام الاستعانة
٣٧٤.....	وهم الملاحدة
٣٧٥.....	أركان الاستعانة النظرية
٣٧٦.....	الاستعانة العملية
٣٧٧.....	العبودية والاستعانة
٣٧٧.....	من هم المستعينون؟
٣٧٨.....	أنواع العلة
٣٧٨.....	كل يعمل بمعونته
٣٧٨.....	العلة المبقية
٣٧٩.....	العلة المحققة
٣٧٩.....	العناصر التكوينية للإعانة
٣٨٠.....	الإعانة في الصلاة
٣٨١.....	وهم العاصين والملحدين
٣٨٢.....	لماذا يخلق الله المشركين؟
٣٨٢.....	حب الله لعباده؟

- نور مجالس المؤمنين..... ٣٨٤
- الجمع بين السببية والاستعانة..... ٣٨٥
- الاستعانة بغير الله تعالى..... ٣٨٥
- أنحاء الشرك..... ٣٨٧
- الاستعانة بالوسائط..... ٣٨٧
- الاستعانة بقدرة الله تعالى..... ٣٨٧
- استعانة التوسيط والتفويض..... ٣٨٨
- معنى كمال عبوديتهم..... ٣٨٩
- الله المستعان..... ٣٩٠
- المعنى الباطن للصلاة والصيام..... ٣٩١
- الاستعانة بمحمد وآل محمد عليهم السلام..... ٣٩٢
- لماذا وصف النبي بالصبر وعلي بالصلاة؟..... ٣٩٣
- المبحث الثاني: في لطائف الآية المباركة..... ٣٩٥
- اللطيفة الأولى: بصائر القلوب..... ٣٩٥
- مراتب الرؤية..... ٣٩٥
- رؤية القلب..... ٣٩٦
- خصائص رؤية القلب..... ٣٩٧
- أدوات رؤية القلب..... ٣٩٨
- لماذا خاطب بلسان الحضور؟..... ٣٩٨
- سر عظمة أهل الغيبة..... ٣٩٩
- حضور الخضر وولي الزمان..... ٣٩٩

- ٤٠٠..... دلالتان لأهل القلوب.....
- ٤٠٠..... معنى الحج لقاء الإمام.....
- ٤٠٠..... حضور الإمام لأوليائه.....
- ٤٠٢..... ثبات القدم في زمن الغيبة.....
- ٤٠٣..... اللطيفة الثانية: لماذا قدم ضمير المخاطب؟.....
- ٤٠٤..... لماذا كرر الضمير (إيّاك)؟.....
- ٤٠٤..... قدّموا لله وخذوا منه ما تريدون.....
- ٤٠٥..... أركان المعاملة مع الله.....
- ٤٠٦..... البيعة الثانية لأمر المؤمنين عليه السلام.....
- ٤٠٧..... النعم الأولية والكمالية.....
- ٤٠٨..... تعالوا إلى الله سبحانه حتى يقبل عليكم.....
- ٤٠٩..... الرزق مكفول في الزواج.....
- ٤٠٩..... ما هي غاية الخلق؟.....
- ٤١٠..... العبادة ثم الاستعانة.....
- ٤١١..... الإمام الصادق عليه السلام والقدري.....
- ٤١٣..... إبطال المذاهب والأقوال بجملة.....
- ٤١٤..... اللطيفة الثالثة: العبودية ومراتب العبادة.....
- ٤١٥..... مقومات العبادة ومراتبها.....
- ٤١٨..... مقامات الحب.....
- ٤١٩..... فلسفة آيات الحمد.....
- ٤٢٠..... اللطيفة الرابعة: العبودية بالاتباع لا بالانتماء.....

- ٤٢١..... ما معنى الإسلام؟
- ٤٢٢..... سبب قلة الرزق والبركة.
- ٤٢٤..... الصحابة والافتخار.
- ٤٢٥..... المهدي عليه السلام الأولى بإبراهيم عليه السلام.
- ٤٢٦..... الانتساب لآل محمد عليه السلام.
- ٤٢٧..... اللطيفة الخامسة: لماذا أُفرد الضمير؟
- ٤٢٩..... معنى الموت والحياة.
- ٤٢٩..... دواعي العبودية والعبادة.
- ٤٣٠..... اللطيفة السادسة: العبودية والإنسانية.
- ٤٣١..... مزايا العبودية لله سبحانه.
- ٤٣٢..... تناقضات الفلسفة الوجودية.
- ٤٣٤..... اللطيفة السابعة: أصول النعم الإلهية.
- ٤٣٤..... أركان العبادة.
- ٤٣٥..... اللطيفة الثامنة: أقسام العناية الإلهية.
- ٤٣٧..... طرق المعرفة.
- ٤٣٧..... مقدمات الفكر.
- ٤٣٨..... الأحكام العقلية بالطاعات.
- ٤٣٩..... اللطيفة التاسعة: مراتب العابدين.
- ٤٣٩..... الحاجة والفقر.
- ٤٤٠..... لماذا صار موسى كليماً؟
- ٤٤١..... علامات التواضع.

- ٤٤٢..... الخشوع والخضوع
- ٤٤٣..... امتحان القلوب
- ٤٤٤..... مراتب غض الصوت
- ٤٤٤..... الانقطاع إلى الله تعالى
- ٤٤٥..... اللجوء والتوكل
- ٤٤٦..... درجات التوكل
- ٤٤٧..... اللطيفة العاشرة: مراتب الاستعانة والعبادة
- ٤٤٩..... المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة
- ٤٤٩..... التعليم الأول: اجعل حياتك محراب عبادة
- ٤٥٠..... العبادة الخاصة والعامة
- ٤٥١..... هل ينتفع الله بالعبادة؟
- ٤٥٢..... اليقين غاية العبادة
- ٤٥٤..... الآثار المعنوية لليقين
- ٤٥٦..... مرتبة الولاية على الأشياء
- ٤٥٧..... التعليم الثاني: بين العبد والعابد
- ٤٥٨..... حقيقة العبودية
- ٤٦٠..... بالعبودية ينال كل شيء
- ٤٦٥..... فرق العباد والعبيد
- ٤٦٦..... التعليم الثالث: الاستعانة الدائمة
- ٤٦٧..... بطلان الجبر والتفويض
- ٤٦٨..... الحرية والعبودية

٤٩٨ مايقوله القرآن في سورة الحمد

٤٦٨ ركننا الكمال

٤٦٩ التعليم الرابع: توقيفية العبادة

٤٧١ التعليم الخامس: الوسيلة في العبودية والاستعانة

٤٧٣ أنحاء الاستعانة بالمعصوم عليه السلام

٤٧٥ استسقاء عمر بالعباس

٤٧٦ الاستعانة بالحي

٤٧٧ الفهرس